إكتشاف المسلمين لأوربا

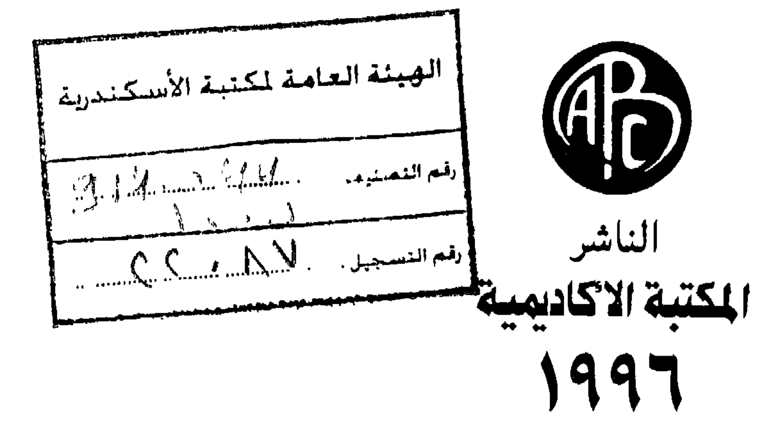
تأليف

برنارد لويس

ترجمة وتعليق وتقديم

دكتور

ماهر عبد القادر محمد



الناشر
المكتبة الأكاديمية
١٩٩٦

اكتشاف المسلمين لأوربا

حقوق النشر

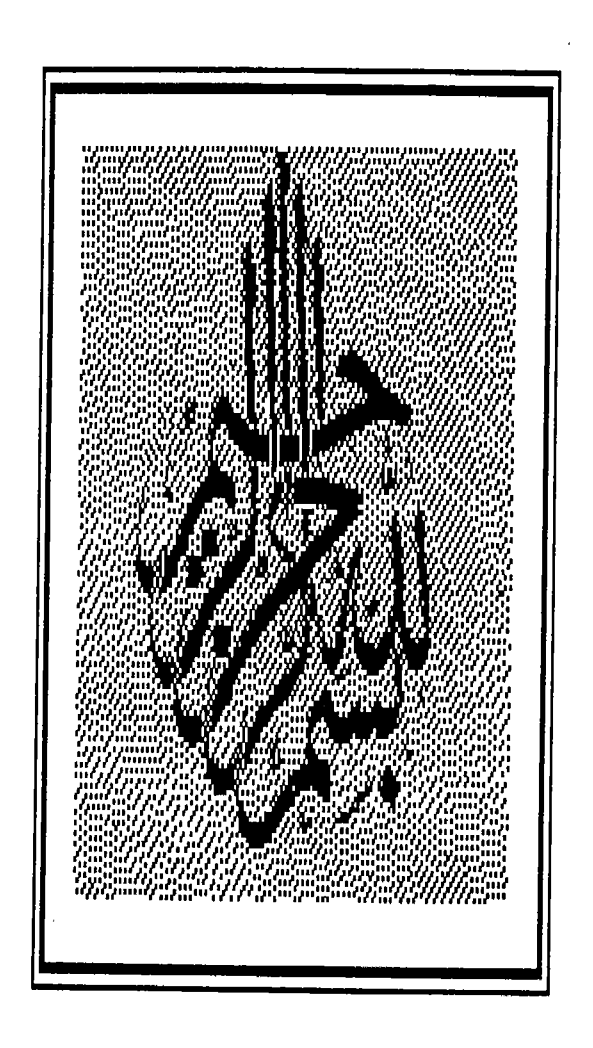
المكتبة الأكاديمية

١٢١ ش التحرير - الدقى - القاهره

تليفون: ٣٤٨٥٢٨٢ / ٣٤٩١٨٩٠

تلكس: ABCMN U N ٩٤١٢٤

فاكس: ٣٤٩١٨٩٠ - ٢٠٢


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست الموضوعات

مقدمة الترجمة العربية

يعد مؤلف هذا الكتاب من أكبر كتاب الاستشراق شهرة في العالم الغربي في وقتنا هذا ، وله خبرة واسعة بالحركات الإسلامية السياسية ، فضلاً عن رؤيته الخاصة كمستشرق يفسر معطيات التاريخ السياسي الإسلامي بصورة تفتقر إلي الحيدة في كثير من الأحيان . ومع أن ترجمتنا لعنوان الكتاب إلى اللغة العربية جاءت بعنوان « اكتشاف المسلمين لأوروبا » ؛ إلا أن الكاتب لا يحدثنا عن هذا ، وإنما يحدثنا عن أمرين متصلين هما : الأول ، كيف استطاع المسلمون أن ينفذوا إلى أوروبا وينتشروا في بقاع عديدة في وقت سريع ، والعوامل التي ساعدت على هذا . والأمر الثاني ، كيف استطاع الأوربيون أن ينظموا أنفسهم ويستغلوا نقاط الضعف عند المسلمين ليوجهوا لهم ضربة قوية تبعتها ضربات وهزائم ، مستمرة حتى اليوم ، وهذا يكشف بصورة واضحة - كما نرى - عن موقف الغرب العدائي من الإسلام ، ومن ثم ينبغي ضرب القوى الإسلامية في العمق .

جاء الفصل الأول الذي عقده المؤلف ليناقش فيه مسألة هذا الاتصال والتأثير المترتب عليه ، حيث يبين لنا كيف أصبح الجزء الأكبر من الامبراطورية الرومانية في سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا خاضعاً للحكم الإسلامي ، وكيف أمكن العبور من شمال أفريقيا إلي أسبانيا ، فأصبح الخطر يحدق بأوروبا من الشرق والغرب .

والمؤلف مع خبرته الواسعة بالحركات السياسية استطاع أن ينتقل من هذا المعطي الأخير « الخطر المحدق » إلى تفسير كيف استطاع العالم الأوربي المسيحي أن يضع أصابعه على مكامن الضعف ، بحيث أصبح بمقدور فلول الجيوش الأوروبية المنهوكة من الصراع الداخلي ، أن تتوحد لتحقيق انتصارات حاسمة على الجيوش الإسلامية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي في نقاط مهمة خاصة بالقرب من البحر الأسود

وجزيرتي صقلية وسردينيا وإسبانيا أيضاً ، بل وتقفز في الوقت نفسه إلى مناطق مثل سواحل سوريا وفلسطين .

ولكن المؤلف يعترف أن الدولة الإسلامية استعادت تقدمها مرة أخرى حين تقدمت الدولة العثمانية إلى اسطنبول والقسطنطينية في عام ١٤٥٣ م ، وامتد نفوذها لكثير من البلدان مثل ألبانيا واليونان والبلقان والمجر . وقد تمثل هدف الدولة العثمانية في النفاذ إلى قلب أوروبا ، إلى فيينا وروما وبودابست . وهنا شكل التقدم الإسلامي الجديد ، كما يرى المؤلف ، ولا ندري كيف ! ، تهديداً مباشراً وخطراً للعالم المسيحي ! .

إلا أن المؤلف يعود فيؤكد أن الخطر قد زال بعد عقد معاهدة ١٦٩٩ م التي - كما يرى المؤلف - فتحت صفحة جديدة من العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية وأوروبا المسيحية . والذي لاشك فيه أن المؤلف أهمل الإشارة إلي أن هذه المعاهدة كان لها أثرها السلبي على الكفاح الإسلامي في الغرب ، فأغفل كفاح الأندلسيين الذي انهار تحت ضربات فردينان وإيزابيلا في أواخر القرن الخامس عشر ، وأوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وكان ذلك بتأثير تدخل البابا في روما لدى الدولة العثمانية لتحييدها في مشكلة جلاء المسلمين جملة عن أسبانيا ، ولا سيما عن الأندلس ، ولهذا أغمضت الدولة العثمانية عيونها عن مصير هؤلاء التعساء من المسلمين . هذا بالإضافة إلى تمكن الدولة الأسبانية المسيحية في الأندلس من إغراء حكام مصر حينذاك وتشويه الحقائق لديهم عن أحوال المسلمين الذين كانوا يسمون وقتها بالمدجنين لأنهم أجبروا علي التنصر ، ومع ذلك انتزعت منهم توقيعاتهم بأن الحاكم المسيحي يوفر لهم كل الظروف المساعدة لأداء الصلوات ومن بينها صلاة الجماعة ، وقد تمثل هذا في الوثيقة التي حملها أحد اليهود ومعها رشوة كبيرة من الذهب إلى حاكم مصر ، وبذلك أحكم الحصار على مسلمي الأندلس الذين أجبروا على التنصر ، لم يبق لديهم سوى موقف قراصنة البحر الجزائريين في غرب البحر المتوسط ، الذين انتقموا لمصير مسلمي الأندلس انتقاماً شديداً ، وأسدل الستار علي هذه المأساة التي كانت نتيجة لمخطط البابا - كما ذكرنا - لحماية الدولة الكاثوليكية الناشئة في أسبانيا . وكان جديراً بهذا المستشرق أن يشير إلى

هــذه النكسة التي أصابت المسلمين في المغرب بسبب تحالف المسلمين مع الدولة العثمانية .

إذن - كما يرى المؤلف - انطلاقاً من معاهدة ١٦٩٩ م تغيرت نظرة تركيا لأوروبا ، مما أدى إلى لجوء الدولة العثمانية إلى تبني سياسة التفاوض مع الدول الأوروبية . ولكن مع هذا فطن أصحاب الرأي في الدولة العثمانية إلى ضرورة بعث القوة في جسد الامبراطورية العثمانية ككل عن طريق الاعتماد على فنون القتال الحديثة . وتمثل ذلك في افتتاح مدرسة الهندسة العسكرية ومدرسة البحرية ، وغيرها ، فاستقدم الضباط من الغرب لتدريب الجنود على فن القتال . لكن موازين القوى عادت مرة أخرى لتمارس تأثيرها على الصعيد الفكري والاجتماعي يوم أن جاء نابليون إلى مصر في عام ١٧٩٧ م فدخلت الامبراطورية العثمانية ككل في حلقة جديدة من حلقات التأثر بالفكر الغربي الحديث .

ومع التركيز الذي نلحظه من جانب المؤلف على بعض القضايا المهمة في الاتصال والتأثير ، لم يغب عنه أن يخصص الفصل الثاني للإشارة إلى نظرة المسلمين للعالم ، حيث عرض لفكرتهم الأساسية عن « دار الإسلام » و « دار الحرب » ، وفكرتهم عن الجهاد ، ثم حدث تحول في فكرة نظرهم من الجهاد إلى التسامح ، وتطور العلاقات بين المسلمين والعالم الغربي خاصة في مجال التجارة والسفارة .

ويناقش الفصل الثالث مسألة اللغة والترجمة ، وأهم الترجمات اليونانية في العالم الإسلامي ، وكيف نقلت العلوم المختلفة إلى العربية ، وكيف أن نقل العلوم قام على الاختيار الصحيح ، وإلى أي مدى استفاد العالم الإسلامي من المعارف التي وصلته عن هذا الطريق .

أما الفصل الرابع الذي جعله بعنوان « الوساطة والوسطاء » فقد أشار فيه المؤلف إلى قضايا متعددة ومتداخلة ، من بينها ما يشير إليه من اتساع المعارف الجغرافية عند المسلمين ، وهو ما يظهر بوضوح في كتابات المسعودي وابن الفقيه التي تثبت معرفتهم بالجزر البريطانية وأيرلندا والدول الإسكندنافية . وتأثير كتب الرحلات على نظرتهم

لعادات وتقاليد الأوربيين . وكيف أن الإدريسي تطرق لمعارف ومعلومات كثيرة جمعها من رحلاته ، وكيف رسم الخرائط ، وفي عهد الدولة العثمانية اتسعت المعارف على عهد السلطان سليم خاصة حين وضعت أول خريطة لأمريكا .

وربما لم يشر المؤلف إلى بعض الحقائق الهامة هنا لطمس معالم الحقيقة التاريخية ، فقد كان للعرب الفضل الأكبر في تنمية دراسات علوم البحار في مدرسة جنوا البحرية ، إذ أنه قد أصبح تقليداً أن يكون كبير المعلمين في هذه المدرسة من العرب ، لهذا فإنه أقرب إلى الاحتمال أن تكون الخرائط التي توصل عن طريقها كولومبوس إلى اكتشاف أمريكا من صنع الملاحين العرب ، فضلاً عن أن معظم الذين صاحبوا كولومبوس من البحارة كانوا من المضطهدين دينياً في أسبانيا ، أي أنهم من بين المدجنين الذين أجبروا على التنصر ، ففروا بدينهم خلاصاً من هذا المحيط الخانق المستبد إلى ميدان أوسع وأرحب ، وهو أمريكا .

ويناقش المؤلف العديد من الموضوعات التي تثير الاهتمام في هذا المجال فيبحث في الدراسات التي صدرت في العالم الإسلامي عن الغرب ، ثم يخصص جزءاً من الحديث عن الدين والمذاهب المختلفة عند المسيحيين ، وكيف أن بعض الكتاب في العالم الإسلامي مثل « رشيد الدين » الإيراني ، و « كاتب جلبي » التركي ، يذكران قائمة بأسماء البابوات وأوقات انتخابهم ، ومحاكم التفتيش وحركات الإصلاح الدينية في أوروبا . وكيف أن المسلمين استبعدوا فكرة أن أوروبا المسيحية تهددهم دينياً ، واستبقوا فقط فكرة التهديد السياسي والعسكري الذي عززته بشارة الحملة الفرنسية التي اتجهت إلى مصر وحملت معها أفكار فولتير وجان جاك روسو كمفكرين اجتماعيين .

وقد ناقش المؤلف النظام الاقتصادي في العالم الإسلامي ، وكيف اهتم الرحالة بالإشارة إلى ما وجد عند الغرب من سلع مختلفة ، وكيف أن بعض أنواع التجارة ازدهر مثل تجارة السلاح ، وكيف تحول العالم الإسلامي من القوة الاقتصادية إلى الضعف الاقتصادي ، بحيث أمكن للغرب أن يبسط سيطرته على الشرق الأوسط ككل بحلول نهاية القرن الثامن عشر .

وعلـى صعـيد آخر يناقش المؤلف « الحكومـة والعدالة » فيتتبع نظـم الحكم فـي أوروبا ، وفي العالم الإسلامي ، من حيث الترتيب والتنظيم . وكيف أن نظرة المسلمين لأوروبا تغيرت كثيـراً في عهد رفاعة الطهطاوي الذي ترجم الدسـتور الفرنسي ، وأشاد بمبدأ المساواة أمام القانون وضمان الحريات .

وجاءت فكرة المؤلـف عن العلوم والتكنولوجـيا شاملة بحيث وجدنـاه يتحدث عن بعض أبحاث علـماء المسلمين وقد وقع المؤلف فـي كثير من المغالطات حين نـسب الكثير من الاكتشافات العلمية لعلماء الغرب ، ولم يعترف إلا بفضل سطحي لعلماء المسلمين . وليس هذا بجديد على مـن ينكرون أصالة العقلية العربية الإسلامـية وإبداعها ، ويكفي أننا أوضحنا في كثير مما كتبناه في هذا المجال إلى مغالطة الغرب في هذا التصور ، خاصة ما كتبنـاه في تاريخ الطب العربي ، وغيـره من المواضيع الأخرى . لكننـا آثرنا أن نترك نص المؤلف كما هو دون تدخل منا حتى لا نفـرض على النص ما لم يذهب إليه المؤلف من أفكار .

وفي مجال إشارته لـلحياة الثقافية بيَّن جـوانب كثيرة من نواحي التأثـير والتأثر بين أوربا والعالم الإسلامي ، وكيف أن عناصر من هنا التقت مع أخرى من هناك ، وكيف مثلت التصـورات الفنية الجديدة التي ظهرت بـحلول نهاية القرن الثامـن عشر ، مرحلة جديدة في الأسلوب الفني بعد ظهور المدارس الفنية الحديثة .

إن مؤلف هذا الكتاب يطل علينا من الشـرق . . العالم الإسلامي بنظارة غربية لها رؤيتها الخاصة التى تشكلت كخلاصة غربـية عن المسلمين . ولكنني آثرت أن أترك نصه كما هو دون تعديل ، أو حذف ، أو إضافة ، ليتبين للقارئ إلى أي مدى يجب علينا أن نأخذ بأسباب الـنهضة العلمية التي لابد وأن تـعيد إلينا ماضينا الحضاري إذا مـا اعتصمنا بديننا الحنيف .

بعد هذه الإطلالة السريعة علي هذا الكتاب يطيب لي أن أنسب الفضل لأصحابه ، فقد تعثرت - في بداية رحلتي مع هذا الكتـاب التي بدأت منذ سنوات طويلة مضـت - فـي كثير مـن المواضـع التاريخيـة المـلغّزة فـي الفصل الأول ، فأعـانني الأستاذ الدكتور محمود سـعيد عمـران - أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية - على فهم ما صـعب علـيّ . ثم كان أن قـرأ الأستاذ الـدكتور أحمـد صبحـي - أستاذ الـفلسـفة

الإسلامية بجامعة الاسكندرية - النص المترجم كاملاً ، وأبدى رأيه في تصحيح بعض الترجمات فعملت بما أشار . وكذا قام الصديق الأستاذ الدكتور جبر سلومه - أستاذ اللغة العربية بجامعة الاسكندرية - بقراءة أكثر الفصول الأولى ، وأشار بآراء صائبة وضعت أكثرها في اعتباري . وفي نهاية الأمر قرأت هذه المقدمة على العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمد علي أبو ريان - أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الاسكندرية - الذي أشار ببعض التعديلات للآراء التي دفعت بها في هذه المقدمة . فلكل هؤلاء الأساتذة الأفاضل الشكر والامتنان على ما بذلوه من وقت ، وعلى الآراء القيمة التي استفدت منها خلال رحلة العمل في هذه الترجمة .

ومن الواجب عليَّ أن أرد الفضل لأصحابه ، إذ لولا ما بذله من جهد الأخ الصديق الكريم الأديب الصحفى الأستاذ سامى خشبه لطباعة هذا الكتاب ما تمكنت من هذا . وأخص بالشكر والعرفان أيضًا الصديق العالم الأستاذ الدكتور أحمد شوقى الذى حرص على متابعة هذا العمل فى كل مراحله ، ولولا مجهوداته لتعثرت كثيرًا . وكذلك أذكر بالفضل والشكر الأستاذ أحمد أمين صاحب ومدير المكتبة والأستاذ حمدى قنديل على ما بذلاه من جهد لإخراج هذا العمل إلى النور .

أمر أخير - لابد من الإشارة إليه - وهو أن النصوص العربية التي أشار إليها المؤلف ، سعيت إليها ونقلتها من مصادرها الأصلية المتاحة . أما النصوص التي ترجمها المؤلف أصلاً عن مصادر فارسية وتركية ، فلم يكن باستطاعتي أن ألتمسها من مصادرها .

إننا إذا كنا نريد اللحاق بركب العلم المعاصر علينا أن نقرأ ما يكتبه الغرب عنا ونعيه جيداً ، ونقف منه موقف المفكر الناقد ، لا الموافق على كل ما يفد إلينا من آراء . إنني اعتقد أن في نقل هذا الكتاب منفعة للقارئ المثقف ؛ إذ يمكن أن تنهض على أساسه أفكار نقدية متواصلة .

الإسكندرية في

أول أغسطس (آب) ١٩٩٥

ماهر عبد القادر محمد

تصـــدير

فى التقليد الغربى للتاريخ ، يستخدم اصطلاح « الاكتشاف » Discovery استخداما شائعا ليدل على تلك العملية التـى بدأت بها أوروبا ، خاصة أوروبا الغربية - من القرن الخامس عشر فـصاعدًا - اكتشاف سائر الـعالم . وبحث هذا الكتـاب ، أو موضوعه ، وهو اكتشاف آخر مواز ، متشابه فى بعض الـنواحى ومختلف فى البعض الآخر ، بادئا مبكرا ومـستمرا إلى مرحلـة متأخرة ، موضوع لـيس الأوروبى فيه هو المكـتشف الذى يكتشف الشعوب البربرية فى مناطق غربيـة ونائية بل المكتشف فيه هو بربرى (أجنبى) اكتشفه ولاحظه باحثون من بلاد إسلامية .

وفى الصفحات التالية نحاول تقصى مصادر المعرفة الإسلامية وطبيعتها حول الغرب ومراحل تطوره . وتبدأ الـقصة بالبعثات الإسلامية الأولى داخـل أوروبا . وتستمر مع الهجوم المضاد للمسيحية الغربية ضد الإسلام ، واندلاع الحرب الإسلامية المقدسة نتيجة لذلك . كذلك تسـتمر مع تجديد وامتداد العلاقـات التجارية والدبلوماسيـة بين المسلمين والمسيحيين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وتمتد القصة مع ظهور حكام المسلمين الجدد فى تـركيا وإيران والمـغرب واكتشـافاتهم فـى أوروبا (وذلك بعـد انتهاء الـعصور الوسطى) . وتنتهى القصة بالمراحل الأولى لـلصدام الأوروبى الكبير - من القرن الثامن عشر فـصاعدا - على أراضى المـسلمين فى الشـرق الأوسط ، وبدايات مرحلـة جديدة فرض فيها الاكتشاف الإسلامى .

والكتـاب يشمل ثـلاثة أجزاء . الجزء الأول مـنه يتعـرض للعلاقـات بين الإسلام وأوروبا الغربية ، متناولا الأحداث البارزة من زاوية جديدة .

ولقد حاولـت أن أفهم معارك تور وبـواتيه Tours and Poitiers ليس من خلال عيون شارل مارتيل ولكن من خلال عيون خصومه العرب ، ليبانتو Lepanto من منظور

الأتراك ، وحصار فيينا من معسكر المحاصرين . وهذه الرواية تتميز بالتأكيد الذى تعطيه لوجهة النظر الإسلامية عن العالم ومكانة الإسلام فى هذا العالم .

أما الجزء الثانى من الكتاب فإنه يتعلق باللغات التى استخدمت فى الاتصال بين المسلمين والأوروبيين ، بما فى ذلك مسائل الترجمة والتفسير والرحالة والتجار والبعثات والجواسيس وغير ذلك - من الذين رحلوا من الأراضى الإسلامية إلى أوروبا ، ولقد أعطينا بعض الاهتمام للدور الذى قام به اللاجئون والرعايا غير المسلمين من الولايات الإسلامية . وينتهى هذا الجزء من الكتاب بنظرة على صورة أوروبا الغربية كما تعكسها المؤلفات الإسلامية وبصفة خاصة الكتابات التاريخية والجغرافية .

وأما الجزء الثالث من الكتاب ، فقد خصص لموضوعات متنوعة ، لموضوعات اقتصادية ولموضوع الحكومة والعدالة ، والعلم والتكنولوجيا ، والأداب والفنون والشعوب والمجتمعات .لقد كتبت مؤلفات كثيرة فى السنوات الأخيرة حول اكتشاف الإسلام بفعل أوروبا . ومع ذلك ، ففى معظم هذه المناقشات يظهر المسلم كأنه الضحية الصامتة السلبية . ولكن العلاقة بين الإسلام وأوروبا ، سواء فى الحرب أم فى السلام ، كانت دائما حوارًا وليس مونولوجا ، وكانت عملية الاكتشاف متبادلة . وليست المفاهيم الإسلامية أقل جدارة بالدراسة من المفاهيم الغربية .

لقد استغرق هذا الكتاب وقتا طويلا . وقد أصبحت مهتما بالموضوع منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وقدمت أول بحث لى « للمؤتمر الدولى للعلوم التاريخية » فى روما سنة ١٩٥٥ ، وتبعته بمقالات أخرى تتعلق بجوانب الاكتشافات والقيت محاضرات فى الجامعات فى شمال أفريقيا ، والشرق الأوسط ، ومناطق أخرى تشمل جامعات أمريكية عديدة . ومادة هذا الكتاب قدمت لأول مرة بشكل مطول فى مجموعة نشرات فى البرنامج الثالث من الـ بى . بى . سى B.BC سنة ١٩٥٧ . وأنا مدين لكل جمهورى فى كل هذه المناطق بالفرص التى منحونى إياها لأقدم عرضى هذا وأحسنه بهذا الشكل .

ويبقى أن أشكر هؤلاء الذين ساهموا بطرق متنوعة فى اتمام ونشر هذا العمل . وتقديرى الخاص إلى السيدة / دورثى روثبارد Dorothy Rothbard فى جامعة برنسيتون

والسيدة / بـيجى كلارك Peggy Clarke من معهد الـدراسة المتقدمة وذلك لاهتـمامها بعملية الكتـابة والطباعة فى ظل ظروف شديدة الصعوبة ، وأوجـه الشكر إلى السيدة / كاثى كورنوفتش Cathy Kornovich . وكذلك أوجه شكرى إلى أربعة من الطلاب فى جامـعة برنسـتون وهم الـسيدة / شاءون مـاريون Shaun Marmon والسـيدة / آلان ماكـوفسكى Alan Makovsky لما قدمتـاه مـن عون كبـير خاصة فى الإعداد الـنهائى للـعمل ، كـذلك شكـرى إلى السـيد / ديفـيد ايزنـبرج David Eisenberg لمراجعته وتصحيـحه مجموعة من الأدلـة ، وأشكر السيد / جيـمس يارسون James Yarrison لاقتراحه النافـع والمفيد وأوجه شكرى إلى مسز نـورا تاتيلى Norah Titley من المكتبة البريطانية لندن ، وكذلك الأستاذ جلين ميريدث أونيس Glyn Meredith Owens من جامعة تورنتو لمعـونته ونصائحه فى اكتشاف المادة المناسبـة لهذا المؤلف ، وأوجه شكرى إلى صديقـى وزميلى الأستاذ شارلـز عيسوى Charles Issawi لقراءته النـص النهائى وتقديمه عددا من التعليقات المفيدة .

برنارد لويس

٢٠ ابريل ١٩٨١

الفصل الأول

الاتصال والتأثير

انطلاقة الإسلام :

عندما بدأ النبي محمد ﷺ نشر رسالته في شبه الجزيرة العربية في السنوات الأولى من القرن السابع الميلادي ، كانت منطقة البحر المتوسط جزءاً من الامبراطورية المسيحية ، وكان كل سكان السواحل الأوروبية والأسيوية والأفريقية تقريباً مسيحيين من طوائف مختلفة ، كما كانت هناك ديانتان من الديانات التي خلفها العالم اليوناني الروماني تعتنقها أقليات في تلك البقاع ، وهما المانوية واليهودية .

وفي شرق البحر المتوسط استمرت الامبراطورية الرومانية الشرقية في الازدهار ، وهي تلك التي عرفها العالم بالامبراطورية البيزنطية ، وكانت القسطنطينية عاصمتها ، وقد حكمت سوريا وفلسطين ومصر وجزءاً من شمال أفريقيا ، بالإضافة إلى آسيا الصغرى وجنوب أوربا ، وفي غرب البحر المتوسط سقطت الدولة الرومانية ، ولكن شعوب الممالك التي أقيمت على أنقاض روما تبنت الديانة المسيحية ، وحاولت بنجاح منقطع النظير المحافظة على شكل الدولة الرومانية والكنيسة المسيحية ، ومع هذا لم تتجاوز الدولة المسيحية حدود أراضي البحر المتوسط . وكانت المسيحية سائدة في بداية القرن السابع فيما وراء الحدود الشرقية لبيزنطه ، وبلاد ما وراء النهرين في أقصى شرق الامبراطورية الفارسية التي كانت عاصمتها جزءاً من المملكة المسيحية ، رغم أنها لم تكن من العالم الروماني . وفيما وراء حدود امبراطورية روما وامبراطورية فارس ، عاشت الأقليات المسيحية واليهودية بين الغالبية الوثنية في شبه الجزيرة العربية .

وبعد وفاة الرسول ﷺ سنة ٦٣٢ م بسنوات قلائل اندفع المسلمون خارج شبه

الجزيرة العربية ، وقاموا بفتح الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية ، وهما الامبراطوريتان الكبيرتان اللتان اقتسمتا الشرق الأوسط فيما بينهما ، وضموا مساحات شاسعة من الامبراطوريتين ، فكانت الهزيمة من نصيب الامبراطورية الفارسية التي ضمت بأسرها للإسلام، كما اقتطع العرب من العالم الروماني سوريا وفلسطين ومصر، وبقية شمال افريقيا ، التي أصبحت فيما بعد نقطة ارتكاز ووثوب لغزو أسبانيا وجزر البحر المتوسط ، ولا سيما جزيرة صقلية . ولقد أدمج العرب كل الأقطار التي فتحوها في امبراطورية إسلامية جديدة هددت الامبراطورية المسيحية عند أطرافها ، وذلك بعد أن منيت الجيوش البيزنطية والبربرية بالهزيمة . وفي الشرق ضغطت الجيوش العربية على بلاد الأناضول من جهة سوريا والعراق ، ثم ضغطت على بلاد اليونان والأراضي المسيحية ، وعلى قلب الامبراطورية البيزنطية ، في الوقت الذي اجتاحت فيه الجيوش العربية الأخرى ، مع البربر ، أسبانيا بعد فتحها عبر البرانس ، وهددت بالسيطرة على كل أوروبا الغربية . واستطاعت الجيوش الإسلامية السيطرة على جزيرة صقلية ، وبعض أجزاء من جنوب إيطاليا ، وبدأت هذه الجيوش تهدد روما ذاتها .

وتذكر المصادر التاريخية أن معركة تورويواتيه قد أنقذت أوروبا المسيحية وأوقفت فتح المسلمين لأوروبا الغربية ، ففي عام ٧٣٢ م وجه الفرنجة بقيادة شارل مارتل Charles Martel ضربة قوية وقاتلة لجيوش الإسلام . والحقيقة أن هذه هي المرة الأولى التي وضحت فيها فكرة الكيان الأوروبي الذي يمكن أن يتعرض للتهديد ، ويجسد هذه الفكرة النص الذي أورده « جيبون » في مؤلفه « تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية » ، والذي يتبين فيه الوعي الغربي أهمية تلك المعركة المشهورة والمصير الذي كان من الممكن أن تنتهي إليه أوروبا ، فيقول جيبون : « لقد امتدت الانتصارات لمسافة ألف ميل من صخرة جبل طارق إلى شواطئ اللوار ، ولقد أدى تكرار التقدم إلى الفرات في اجتيازه أو عبوره . ومن المحتم أن الأسطول العربي كان بوسعه أن يبحر إلى مصب التايمز بدون معركة بحرية ، وربما يدرس الآن تفسير القرآن في مدارس أكسفورد التي برهنت منابرها على طهارة الشعب وعلى قداسة وحق ثورة محمد »[1] .

ويستطرد « جيبون » قـائلاً : « لقد أنقذت المسيحية من كل هؤلاء بـواسطة عبقرية وحظ رجل واحد » .

أما التراث الإسلامـي فيعكس نظرة مختلـفة لقيادة « شارل مارتل » ونتـائج معركة تور وبواتييه Tours and Poiter فلقد كان لـلعرب أدب تاريخي يمتاز بولع فـي تفصيل المراحل المتلاحقة للجهاد والنضال المقدس لـلعقيدة ضد غير المؤمنين ، وأهم ما يميز هذا التفصيل التسجيل الأمين المفرط في وصف النكسات والانتصارات بدقة .

كان العرب يدركون تماماً أنهم وصلوا إلى أقصى حدود اتساعهم في فرنسا ، ولقد تحدث بعض المؤلفين عـن مدينة نابورنه Narbonne التي صمد فيهـا العرب حتى عام ٧٥٩ م ، ووصفوهـا بأنها « آخر الـفتوحات الإسلاميـة في أراضي الفرنجـة » . ولقد تحدث كاتب مـتأخر كان مهتماً بـالعجائب والطرائـف عن التمثال المقام فـي « نابورنه » والذي نقشت عـليه الكلمات « يا أبناء إسـماعيل عودوا من حيث أتيـتم ، لقد تجاوزتم الحدود ، فإن سألـتموني فسوف أجـيبكم ، وإن لم تعـودوا فسوف يضرب كل مـنكم الآخر بقوة حتى يوم البعث » [٢] .

إن المؤرخـين العـرب فـي العصـور الوسـطى لا يذكرون شيئاً عن « تور » أو « بواتيـيه » ، ولا يعرفون شـيئاً عن « شـارل مارتل » [*] وهم يذكرون الأسـماء التي

(*) نلاحظ أن لويس في هذا الرأي قد جانبه الصواب كثيراً إذ إن صاحب نفح الطيب (جـ١ ، ص٢٧٤) ، وهـو المؤرخ الـمغربي أحمد المقري يورد نـصاً يقول فيه : « ولما أوغـل المسلمون إلى أربونه ارتـاع منهم قاروله (يقصد شـارل مارتل ، والذي يعـرف بالمطرقة أيضاً) ملك الإفرنجه بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم في جمع عظيم ، فلما انتهى إلى حصن أوذون علمت العرب بكثرة جموعـه زالت عنه . . (ويتابع المقري قوله نـقلاً عن الحجاري في المسهب قائـلاً : ' فاجتمعت الإفرنج إلى مـلكها الأعظـم - قارله - وهـذه سـمة لملكـهم ، فقالت لـه : ما هذا الخزي البـاقي في الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطـلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيـم ما فـيها من العدة والعدد بجمعهم القليل ، وقلـة عدتهم وكونهم لا دروع لهم ، فقال لهـم ما معناه : الرأي عندي الا نعترضهم في خـرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه ، وهم في إقبـال أمرهم ولهم نيـات تغني عن كثـرة العدد ، وقلوب تغـني عن حصانة الـدروع ، ولكن أمهلوهم حـتى تمتلئ أيديهـم مـن الغنائم ، ويتخـذوا المساكن ويتنافسـوا في الرئاسة ويستعـين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر الأمور ' .
النص نقلاً عن : الـفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطـاليا وسويسرا في القرون الثامن والـتاسع والعاشر الميلادي تأليف جـوزيف رينو ، تعريب وتعليق : د. إسـماعيل العربي ، الطبعـة العربيـة ١٩٨٤ ، دار الحداثة ، بيروت ، ص ٦٠ - ٦١ . (المترجم) .

ذكروها . وأما المعركة التي ورد ذكرها باسم « بلاط الشهداء » 'Bālāt al Shuhadā في طريق الشهداء فإنها مصورة على أنها اشتباك صغير ، ولم يستدل على اسمها حتى القرن الحادي عشر ، ثم ذكرت بعد ذلك في كتابات المؤرخين العرب الأسبان ، وأما في تاريخ المشرق العربي فلم يكن لتلك الحادثة سوى ذكر عابر . ويذكر ابن عبد الحكم (*) (٨٠٣ - ٨٧١) ، وهو من أهم المعلقين العرب عن فتح شمال افريقيا وأسبانيا أن « عبيدة قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكي على الأندلس ، وكان رجلاً صالحاً فغزا عبد الرحمن افرنجه وهم أقاصي عدوة الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه. وكان قتله في سنة خمس عشرة ومائة » [٣] .

وهناك مؤرخون آخرون يتساوون في الإيجاز ، ولكن الجدير بالذكر أن « الطبري » (**) (المتوفى ٣١٠ هـ / ٢٩٢٣) وهو أهم من أرخ من العرب للمشرق العربي ، وكذلك « ابن القوطية » (***) (المتوفى عام ٩٧٧ م) وهو أول مؤرخ رئيس أرخ للأندلس لم يقدما لنا أي ذكر عن معركة تور وبواتييه على الإطلاق .

(*) ابن عبد الحكم : هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم . كان أبوه عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ / ٩٢٩ م قاضياً رئيساً للمالكية بمصر . ولأبي القاسم مصنف كبير في فتح مصر وبلاد المغرب . وتوفى بالفسطاط سنة ٢٥٧ هـ - ٨٧١ م ، وكتابه « فتوح مصر والمغرب » نشره توري سنة ١٩٢٢ م .

راجع : « تاريخ الأدب العربي » لكارل بروكلمان جـ٣ ، ص ٧٥ - ٧٦ (المترجم) .

(**) الطبري : هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ولد في أواخر سنة ٢٢٤ هـ ، أو أوائل ٢٢٥ هـ / خريف ٨٣٩ م . في أواخر السنة بطبرستان . رحل في طلب العلم إلى العراق والشام ومصر ، ثم نزل بغداد فكان يعلم فيها الحديث والفقه .

كان الطبري كاتباً خصب النشاط ومؤلفاً جم النتاج إلى حد غير مألوف . ولم يقتصر جهده وإنتاجه على علوم الحديث والتاريخ ، بل تجاوز ذلك إلى تفسير القرآن وعلوم الفقه . وتوفى الطبري ببغداد ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م عن ست وثمانين سنة . وأهم مصنفاته في التاريخ كتاب أخبار الرسل والملوك ، والمعروف باسم تاريخ الطبري ، وهو تأريخ للعالم منذ بدء الخلق إلى عصره ، ينهج فيه من تاريخ الهجرة النبوية منهج الحوليات (المترجم) .

(***) ابن القوطية : هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن القوطية ، ولد بقوطية ، وتلقى تعليمه فيها وفي أشبيلية . وقيل إن أبا علي القالي أحسن الثناء عليه عند الخليفة الحكم الثاني ، وقال إنه أعظم علماء الأندلس . وتوفى أبو بكر بقوطية سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م . ومن مصنفاته تاريخ افتتاح الأندلس ، من الفتح الإسلامي إلى سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م . نشره ريبيرا في مدريد ١٩٢٦ م مع زيادات من كتاب الإمامة والسياسة لإبن قتيبة (المترجم) .

وإذا كان التراث التاريخي الإسلامي يهمل معركة تور وبواتييه أو يذكرها فحسب على أنها حادثة عارضة لا تستحق الذكر . . فإنه في مقابل هذا كان يوجد ما يمكن قوله عن محاولات المعاصرين لفتح القسطنطينية . فلقد وجه المؤرخون اهتمامهم للحصار والمحاولات غير الناجحة من الناحية التاريخية والأسطورية ، كما ذكرت بعض الحوادث العرضية التي وقعت في المعركة خاصة من ناحية التفصيلات التي تتعلق بالآخرة ، والتي تنذر بقدوم عصر المسيح .

وهناك بعض الشك في أن إغفال « بواتييه » والتأكيد على القسطنطينية يرجع إلى أن المؤرخين المسلمين نظروا للحوادث وأهميتها بصورة أصدق من المؤرخين الغربيين المتأخرين فلقد لقيت انتصارات الفرنجة في بواتييه اهتماماً أكثر من كونه مجرد اهتمام بفرقة من المغيرين متحركة خلف حدودهم التي تبعد آلاف الأميال عن أراضيهم ، فالفرنجة تغلبوا فعلاً على القوة التي وصلت إلى حدودهم وأبادوها . وفي مقابل هذا فإن المدافعين البيزنطيين عن القسطنطينية التقوا بنخبة جيوش الخليفة ، التي انطلقت من قواعدها في هجوم رئيسي على عاصمة الأعداء ، لقد قابلهم البيزنطيون وأوقفوا المد الإسلامي في الوقت الذي كانت فيه جيوش الإسلام أكثر قوة وتحمساً من ذلك الوقت ، الذي انطلقوا فيه من صخرة جبل طارق إلى شواطئ اللوار . ويشير «جيبون» إلى أن المسافة التي قطعوها كانت أكثر من ألف ميل ، لكن صخرة جبل طارق تقع على بعد آلاف الأميال من بلاد العرب . أما بالنسبة للعرب فقد كان الطريق إلى الراين عبر أوروبا الغربية أقصر وأسهل وأقل إرهاقاً من ذلك الطريق الذي سلكوه إلى نهر جيجون وحدود بلاد الصين . ولقد كان فشل الجيش العربي في فتح القسطنطينية ، وليست الهزيمة التي منيت بها الجيوش العربية في تور وبواتييه ، هو ما مكن المملكة المسيحية الشرقية والغربية من البقاء . كان العرب يدركون تماماً الاختلاف بين المملكة المسيحية الشرقية والمملكة المسيحية الغربية للبيزنطيين ، فقد اعتادوا استخدام المصطلح روم Rum وهذا هو الرسم العربي، وفيما بعد استخدام المصطلح روما في الشكل الفارسي التركي.

أما بيزنطة . . فقد اطلقت على نفسها الإمبـراطورية الرومانية ، وأطلق البيزنطيون على أنفسهم اسم Romans .

وحتى يـومنا هذا فـإن الاصطلاح الشـائع للإغريـق في لغة الإسـلام هو الروم ، وتعرف أراضي الامبـراطورية البيزنطية الأولـى بأنها أراضي الروم ، ويطلق عـلى اللغة اليونانية اسم الرومية . وبهذه المناسبة فإنه حتى بين الإغريق أنفسهم كان الشكل المسيحي للغتهم ، بالـنسبة للبيزنطي والحديث ، يـعرف غالباً باسم Romaike . ولم يغب عن وعي الجغرافيين العرب أنه توجد مديـنة أخرى في إيطاليا تحمل اسم روما Rome ، إلا أن هـذا لـم يكن معروفاً بصـورة واسعة، وكان ينظر إلى هذا الأمر على أنه أقل أهمية .

استمرت الجـيوش الإسلامية في التقـدم صوب حدود الإمبراطورية الإسـلامية من الجهة الشرقية والجهة الغـربية ، برغم الهزيمة التي منيت بها في القسطـنطينية ، ولكنهم مع هذا وصلوا إلى حـدود توسعاتهم ، وفي الغرب كان فـتح صقلية فيما بين الأعوام ٨٢٧ ، ٩٠٢ م هو المكـسب الإقليمـي الوحيد ذا المغـزى . أما في الشرق فـقد وقف المسلمون عند حدود الهند والصين . وفي الوسط ظـلت الحدود البيزنطية هادئة نسبياً ، وتم تأجيل الاستيلاء على القسطنطينية إلى المستقبل البعيد .

لقد وصلت الحرب المقدسة (*) إذن في مرحـلتها الأولى والكـبيرة إلى نهايـتها ، ومضى زمن طويل حتى خمدت نيران الحـرب وحماسة الفاتحين الأوائل ، الذين أرضوا تعطشهم لإحياء كلمة الحق بالنصر أو الشـهادة . أما الخلافة العباسية التي خلفت حكم الأمويين في منتصف الـقرن الثامن ، فقد نقلت العاصمة تجـاه الشرق ، من سوريا إلى العراق ، وحتى يتم هذا حولوا الخلافة إلى امبراطورية آسيوية وليست امبراطورية للبحر المتوسط ، وكـان اهتمام الخلفاء الجدد بـالجهاد اهتماماً سـطحياً (**) وتضاءل اهتـمامهم بحدودهم الغربية .

(*) كان من الأفضل استـخدام كلمة « الجهاد » بـدلاً من « الحرب المقدسة » فالإسلام لايـشن الحرب ولكن يعلن الجهاد . ولكنني فضلت الإبقاء على المصطلح holy war الذى استخدمه المؤلف لأنه سيذكر فيما بعد مصطلح « الجهاد » ويستخدمه بصورة موسعة . (المترجم) .

(**) هذا غير صحيح لأن الدولة العباسية شهدت فتـوحات كثيرة ، ولكن كان الاهتمام بالجزء الأسيوى من العالم أكثر من الجزء الأوربى (المترجم) .

واستمرت الدويلات الإسلامية الجديدة المقامة في بلاد البحر المتوسط في صراع ضد المسيحيين الأوروبيين لفترة ، لكن بعد قليل من الوقت تحول اهتمام المسلمين من الحرب المقدسة ضد الوثنية إلى مشكلات خارجية ملحة ، فمنذ الأزمنة المبكرة كانت هناك خلافات طائفية داخل العالم الإسلامي بين السنة باعتبارها نموذج الإسلام ، ورئيسها الشرعي هو الخليفة العباسي في بغداد ، وبين الطوائف المختلفة الأخرى التي تندرج تحت الشيعة الذين اعترضوا على آراء السنة وعلى شرعية الخليفة السني ، وخلال القرن العاشر وجد منافسون هم الفاطميون الذين ظهروا أولاً في تونس ، ثم في مصر ، واعترضوا على زعامة العباسيين للعالم الإسلامي ، وكان هناك أيضاً حكام ذاتيون ومستقلون في الدويلات الإسلامية قبل الفاطميين ، وكانوا جميعاً يتظاهرون بالولاء والاحترام على الأقل أمام سلطة الخليفة العباسي السني . أما الفاطميون فعلى العكس من ذلك . . فقد أنكروا كل مظهر للولاء وادعوا أنهم الخلفاء الوحيدون الشرعيون للإسلام ، وأنهم جاءوا ليطردوا العباسيين المغتصبين . ومن ثم فإنه بدلاً من وجود خليفة واحد أصبح هناك خليفتان للإسلام ، وسرعان ما أصبحوا ثلاثة عندما نَصَّبَ الأمير الأموي لقرطبة نفسه خليفة في الأراضي التي يحكمها ، بعد أن هدده الفاطميون بالتوسع والنشاط الهدام . ولذا أصبح الانشقاق المذهبي والتصادم بين الخلفاء المتنافسين هو مناط الاهتمام الأول في العالم الإسلامي ، ونسي الجميع تماماً الصراع القديم على الحدود ، وسرى شعور مشترك بين السنة والشيعة أن عصر البطولة قد ولّى ، وأن الحدود بين الإسلام والمسيحية أصبحت ثابتة بقدر ما ، ولا يمكن بحال تجنب إقامة علاقات مع دول غير مسلمة .

ولكن إذا كان الجهاد بالنسبة للمسلمين قد توقف في فترة ما . . فإنه بالنسبة للمسيحيين كان قد بدأ ، فلم ينس المسيحيون أن الجزء الأكبر من الامبراطورية الإسلامية يتكون من الأراضي التي كانت تخص المسيحيين ، بما في ذلك الأراضي المقدسة ، حيث نشأت الديانة المسيحية . وما شجع الهجوم المضاد الذي قامت به المسيحية ضد الإسلام إنما هو الضعف الواضح والإهمال الذي تفشى في العالم الإسلامي . كذلك

كانت تلك الحالة حافزاً كبيراً للآخرين ؛ فأول الغارات الخطيرة على المناطق المسلمة جاءت من أناس ليسوا مسيحيين أو مسلمين ، لقد أغار الخزر الأتراك على العالم الإسلامي من ناحية الشرق ، وأغار الفايكنج عليه من ناحية الغرب ، إلا أن هذه الإغارات لم تكن سوى حوادث عرضية سرعان ما انتهت ، أما الشئ المهم فهو إحياء القوة المسيحية ، وتزايد التصميم على استرداد الأراضي المسيحية المفقودة .

لقد بدأت عملية إعادة الفتح المسيحي عند أطراف العالم الإسلامي ؛ ففي أسبانيا نجد أن الإمارات الصغيرة التي نجحت في البقاء ، وحظيت بوجود غير مستقر في أقصى شمال شبه جزيرة أيبريا ، بدأت في دعم وتوسيع مناطقها وساعدها في ذلك هجمات الفرنج ، والنورمان على الأراضي المسلمة فيما بعد ، وفي الشرق بدأت شعوب مسيحية أخرى ، وهي « الجورجيان » و « الأرمن » القادمة من القوقاز في التمرد على سادتهم المسلمين . وفي النصف الثاني من القرن العاشر كان البيزنطيون قادرين على شن غارات عسكرية قوية ضد المسلمين في بلاد ما بين النهرين وسوريا والجزر اليونانية ، واستعادوا الكثير من المقاطعات التي فقدوها .

وفي خلال القرن الحادي عشر . . حققت القوى المسيحية انتصارات مهمة ضد الإسلام ، فقاومت مملكة جورجيا المسيحية في الشرق المحاولات الإسلامية التي استهدفت إخضاعها ، ودخلت في مرحلة توسع كبيرة سيطرت خلالها على ممرات القوقاز بين البحر الأسود وبحر قزوين . وفي البحر المتوسط استقر الغزاة المسيحيون في سردينيا وصقلية التي استردوها من الحكام المسلمين ، وفي شبه جزيرة أيبيريا تقدم الغزاة بثبات تجاه الجنوب ؛ حيث أعادوا مدينة طليطلة الأسبانية ومدينة كوامبرا البرتغالية إلى السيطرة المسيحية .

وأخيراً قامت مجموعات من المسيحيين القادمين من أوروبا الغربية في عام ١٠٩٨ بالاستيلاء والسيطرة لفترة من الوقت على المناطق الساحلية لسوريا وفلسطين ، وذلك أثناء سلسلة الحملات التي عرفت في التاريخ المسيحي بالحملات الصليبية .

ولم يكن الصليبيون معروفين بين المسلمين ، فكلمة « صليب » Crusade وكلمة « صليبي » Crusader لم تكونا من الكلمات المعروفة في كِتابات المسلمين المعاصرين لهذا التاريخ . وفي واقع الأمر . . يبدو أنه لم يكن ثمة مرادف في اللغة العربية أو اللغات الإسلامية الأخرى لهاتين الكلمتين ، إلى أن وضعت مصطلحات لهما في الكتابات المسيحية في تاريخ ما ، فيما بعد . أما بالنسبة للمراقبين المسلمين المعاصرين للحملات الصليبية فقد كان الصليبيون هم الفرنج أو الوثنيون ، وهؤلاء ليسوا سوى مجموعة من البرابرة غير المؤمنين من بين مجموعات كثيرة هاجمت العالم الإسلامي ، وما يميزهم عن المجموعات الأخرى حبهم الشديد للحرب ، والنجاح الذي حالفهم . وفي هذا لم يختلف المسلمون بصورة كبيرة عن المسيحيين الأوروبيين الذين رفضوا لزمن طويل الاعتراف بالإسلام ديناً ، وأشاروا للمسلمين على أنهم كفرة أو بأدب أكثر استخدموا أسماء عرقية مثل شرقي أو بربر أو ترك أو تتار .

ويرجع النجاح الصليبي ، في جزء غير قليل منه ، إلى ضعف المسلمين . فالحضارة الإسلامية أظهرت فعلاً علامات للفساد ظهرت في منتصف القرن الحادي عشر. ونتيجة لازدياد المشكلات الداخلية والكيانات السياسية المجزأة كانت المقاطعات الإسلامية هدفاً لسلسلة من الهجمات الناجحة التي شنها من عرفوا عن المسلمين بأنهم البرابرة الداخليون والخارجيون ، الذين استمرت هجماتهم قرابة ثلاثة قرون من الزمان . ففي أفريقيا ولدت حركة دينية جديدة وحدت قبائل البربر في جنوب مراكش ومنطقة السنغال - النيجر ، ودفعت بهم إلى حركة توسع انتهت بامبراطورية جديدة للبربر ، تتكون في جزئها الأكبر من شمال غرب أفريقيا وأسبانيا المسلمة . ومن جهة الشرق غزت الأراضي الإسلامية شعوب قادمة من سهل وسط آسيا وما وراءها - وقد عُرفت هذه الشعوب أولاً باسم الأتراك ثم المغول ، وقد كان لهجرة هذه الشعوب وفتوحاتهم آثار بعيدة بحيث غيرت كل النماذج العرقية والاجتماعية والثقافية لمجتمع الشرق الأوسط . والأبعد من هذا أن انهيار الإدارة المدنية داخل الامبراطورية الإسلامية

سمح للبدو والرحالة الآخرين بالتجول بحرية كاملة داخل الأراضي التي سبق استصلاحها وزراعتها .

لكن لم تنزل واحدة من كل تلك القوى خسارة فادحة بعالم الإسلام ، فرغم كل هذا كان البربر والبدو مسلمين ، وسرعان ما أصبح الأتراك أكثر الأبطال جسارة في الإسلام . وأما أول تهديد حيوي موجه ضد الإسلام . . فقد جاء من البرابرة الوثنيين في الشمال ؛ أي من جهة أوروبا .

ويسجل المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي (*) وصول الصليبيين في عام ٤٩٠ هجرية ، الذي يوافق عام ١٠٩٦ - ١٠٩٧ م . بقوله هذه السنة كان مبدأ تاصل الأخبار بظهور عساكر الإفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها ، وانزعجوا لاستشهارها » (٤) .

وبعد ذلك بقرن من الزمان ، وفي الموصل ، أخذ المؤرخ الكبير ابن الأثير (**) في النظر مرة أخرى في تلك الحوادث برؤية أكثر شمولاً ؛ فيذكر أن أول ظهور إمبراطورية الفرنج ، وازدياد قوتهم ، قد تمثل في إغارتهم على الأراضي الإسلامية واحتلالهم لبعضها ، وذلك في عام ٤٧٨ هجرية (١٠٨٥ - ١٠٨٦) عندما استولوا على مدينة طليطلة ومدن أخرى من أراضي الأندلس . وبعد أن تم لهم هذا استولوا على كل

(*) هو حمزة بن أسد بن علي بن محمد أبو يعلى التميمي الدمشقي العميد ، المعروف بابن القلانسي ، ولّي رياسة ديوان دمشق مرتين توفى سنة (٥٥٥ هجرية / ١١٦٠ م) . له ذيل تاريخ دمشق ، ذيل به على تاريخ هلال الصابي ، ويشمل السنوات ٣٦٣ - ٥٥٥ هجرية (٩٧٣ - ١١٦٠ م) وقد نشره أمدروز في ليون سنة ١٩٠٨ . ونشر جب مقتطفات منه تتعلق بالحرب الصليبية مع ترجمة إنجليزية (المترجم) .

(**) هو أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن سعيد بن محمد عماد الدين الأثير ، ولد بالقاهرة سنة ٦٥٢ هجرية / ١٢٥٤ م ، وخلف أباه في وظيفته بالدولة بعد موته سنة ٦٩١ هجرية / ١٢٩٢ م . وكان عليه أن يصحب الملك الأشرف إلى دمشق في جمادي الأول ٦٩٢ هجرية / إبريل ١٢٩٢ م ، ولكنه رفض أن ينفذ حكماً بالإعدام في كرك ، فعاد أدراجه إلى القاهرة ، وانضم إلى بيدرا الوالي الذي كان قد بقي فيها . وعندما قتل بيدرا السلطان في محرم ٩٦٣ هجرية / ديسمبر ١٢٩٣ ، ولم يستطع مع هذا أن يستحوذ على السلطة ، وبهذا فإن ابن الأثير قد فقد مكانته . وقد اشترك سنة ٦٩٩ هجرية / ١٢٩٩ م في الحملة العسكرية التي أرسلت لقتال قازان التتري (المترجم) .

جزيرة صقلية من عام ٤٨٤ هجرية (١٠٩١ - ١٠٩٢ م) ، ثم اتخذوا طريقهم بعد ذلك إلى ساحل أفريقيا ، حيث احتلوا أماكن قليلة أمكن استعادتها منهم ، وبعد ذلك فتحوا مناطق أخرى كما سنرى الآن . وفي عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ - ١٠٩٧) أغاروا على أرض سوريا [٥] .

وهناك . . كان الصليبيون قد اكتسحوا كل العوائق التي أمامهم ، واستطاعوا إقامة خط من الدويلات الإفرنجية والمسيحية يمتد على طول السواحل السورية والفلسطينية ابتداء من جبال طوروس حتى مداخل سيناء . وانقضى أكثر من قرنين من الزمان ، قبل أن يكتسح الجهاد الإسلامي آخر آثار الإمارات المسيحية على الأراضي المسلمة .

في بداية الأمر استقبل أمراء الإسلام هؤلاء القادمين الجدد بغير مبالاة ، وقبل ذلك بوقت طويل أسست الدويلات اللاتينية مكاناً لها في خطوط متشابكة داخل الكيان السوري - الفلسطيني السياسي ، وكان الجهاد الأصلي قد ولّى منذ وقت طويل ، وحتى روح الجهاد كانت قد تلاشت ونسيت ، وكان هذا العصر متميزاً بالعنف والتغيير ؛ خاصة عندما هوجمت الأراضي الإسلامية من كل جانب ، من وسط آسيا ، وبربر أفريقيا ، وفضلاً عن ذلك من المملكة المسيحية ، حتى أن فقدان الساحل الفلسطيني والسوري أثار في أول الأمر قليلاً من الاهتمام في حلب ودمشق والقاهرة ، ومرّ دون ملاحظة في أماكن أخرى . ويصف ابن الأثير الذي كتب في بداية القرن الثالث عشر ، كيف وصل الفارون الأوائل من الاحتلال الصليبي لفلسطين إلى بغداد وتحدثوا عن متاعبهم وطلبوا المساعدة ، ولم يستجب أحد لطلبهم . كما أن افتقار المعلومات الصحيحة في هذا العصر يمكن تبينه عند شاعر عراقي يصف سقوط القدس وفشل المسلمين في التجمع للدفاع عنها ، ويتحدث عن الفاتحين على أنهم روم ، وهذا يدعو للقول أنهم كانوا بيزنطيين [٦] ، وفي الغرب والشرق كان الحكام المسلمون يرغبون في التعامل مع جيرانهم الجدد وبالمناسبة ؛ فقد رغبوا في التحالف معهم ضد المسلمين المنشقين .

وظل المسلمون والفرنج لقرنين من الزمان علي اتصال وثيق ومستمر في سوريا

وفلسطين ، وكان هذا الاتصال لا يتم غالباً في أثناء المعركة ، بل غالباً كان يتم من خلال التجارة والدبلوماسية والأحلاف . ولقرون بعد انتهاء الحروب الصليبية ، أخذ التجار الفرنج وغيرهم في الرحيل لمصر والمشرق ، بينما وقع حكام المسلمين معاهدات اقتصادية مع المراكز التجارية الغربية ، الواحدة بعد الأخرى .

وفي أقصى الغرب حققت إعادة الفتح المسيحي انتصارات كاملة ونهائية . ولقد طرد الحكام والرعايا المسلمين من إسبانيا والبرتغال وقبل انتصار الإسبان والبرتغاليين بزمن طويل كانوا قد طردوا حكامهم الأوائل إلى أفريقيا . أما في الشرق فقد استطاع الصليبيون أن يحافظوا على بقاء احتلالهم لفترة من الوقت ، وكان ذلك نتيجة للإمدادات المتكررة التي كانوا يتلقونها من أوروبا ؛ إلا أن الهجمات الإسلامية المتلاحقة استطاعت إضعافهم حتى سقطت آخر قلعة لاتينية في فلسطين ، وهي ميناء عكا في يد السلطان المملوكي عام ١٢٩١ م ، ومع هذا . . فقد بقيت جذوة ضعيفة من الروح الصليبية في أوروبا لفترة ، وساعدت على تشجيع بعض الحملات ضد المماليك من مصر وقوة العثمانيين الأتراك الناشئة ، ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل . وفي نهاية العصور الوسطى فقدت المسيحية الأوروبية الاهتمام وشغلت بأمور أخرى . وفي الوقت الذي نسي فيه المسيحيون الروح الصليبية ، تذكر المسلمون روح الجهاد ، وقاموا مرة أخرى بشن حرب مقدسة للخلاص ، ولاستعادة ما سلبه الغزاة المسيحيون والدفاع عنه ، وما أن بدأ النصر يتحقق حتى واصل الإسلام رسالته ، وبدأ يرسل قادته إلى بلاد جديدة وشعوب جديدة لم يعرفها من قبل .

لقد كان التأثير الصليبي على الأقطار التي حكمها الصليبيون لمدة قرنين من الزمان ضعيفاً بصورة ملحوظة ، ففي تلك الأقطار وجدت قلة مسيطرة من كاثوليك أوروبا الغربية من البارونات ورجال الكهنوت والتجار مع خدمهم وأتباعهم المختلفين ، وكان السواد الأعظم من الشعب يتكون من المسلمين والمسيحيين من الكنائس الشرقية المختلفة، وكذلك من بعض اليهود . ولكن برحيل الصليبيين كان من السهل تبين أن هذه الأقطار أصبحت تؤلف مجتمعاً إسلامياً ، إلا أن الصليبيين تركوا علامة بارزة في هذه الأقطار

من حيث أمرين . . الأول تمثل في سوء وضع الرعايا غير المسلمين في الدولة المسلمة ، وما نتج عن هذا من صراع طويل بين الإسلام والمسيحية ، واحتياجات الأمن في المناطق التي يختلط فيها السكان المسلمون بالمسيحيين في الوقت الذي كان فيه الولاء الديني أمراً مهماً . ويمكن لنا أيضاً أن نضيف مثالا لما مارسه الكهنة والملوك المسيحيون ، فقد شكل هذا في نهاية الأمر موقفاً عنيفاً لبعض المسلمين . وفي هذه الفترة وما بعدها أصبحت العلاقات بين المسلمين ورعاياهم المسيحيين واليهود أشد تعقيداً ، وأكثر صعوبة(٧) .

أما التغيير الثاني البارز فقد تمثل في العلاقات بين الشرق الأوسط وأوروبا ، فمن المعروف أن هذه العلاقات كانت محدودة جداً فيما قبل القرن الحادي عشر ، ولكن الدويلات الصليبية ابتكرت أسساً جديدة للعلاقات التي وجدها كل حلفائهم المسلمين وسيلة للبقاء ؛ ففي أثناء فترة الحكم الصليبي ثبت التجار الأوروبيين ، ومعظمهم من الإيطاليين ، أقدامهم في موانئ الشرق الأدنى الإسلامي حيث شكلوا جاليات منظمة تنتمي لرؤسائهم وتحكم بقوانينهم . ولم يقض إعادة الفتح الإسلامي لتلك الموانئ على نشاط التجار الأوروبيين ، وإنما على العكس من ذلك لم يهتم الحكام المسلمون بإزعاج هؤلاء التجار وفضلوا تشجيع تلك التجارة التي كانت مصدراً مالياً مميزاً لهم ، ولمن يشتركون معهم فيها . واستمر التجار الأوروبيون في العمل الذي ازدهر في المعاقل المسيحية السابقة ، حتى إنهم ظهروا ، في تلك الفترة ، في مصر وفي أماكن أخرى لم يفتحها الصليبيون .

تلك القنوات الجديدة مع أوروبا أثرت في الجاليات المسيحية التي تعيش في الشرق الأوسط تحت الحكم الإسلامي . ومنذ هذا الوقت وما تلاه ، كانت هذه الجاليات على اتصال دائم مع الغرب ، إما من خلال التعامل مع التجار الأوروبيين ، أو من خلال الاتصالات الدينية بين المجموعات المسيحية المختلفة التي تتحدث اللغة العربية ، وهؤلاء هم الذين أفلتوا من الكنائس الشرقية وشكلوا جاليات لها علاقة بكنيسة روما . وساعدت الاتصالات الاقتصادية والكهنوتية على خلق نواة صغيرة لشعب يتحدث اللغة العربية ، ولديه بعض المعرفة باللغات الأوروبية ، وكذلك بعض الاتصال مع الأوروبيين

. وكان لهذه النظرة تجاه الغرب من جانب مسيحيي الشرق الأوسط دور ذو أهمية كبرى في الأيام المتأخرة . ومع هذا تحدد دور هؤلاء بدقة لوقت طويل ، وكذلك دور التجار الغربيين الذين أقاموا في مدن الشرق الأوسط . ومنذ العصور الصليبية فرق الانفصال الاجتماعي غير المسلمين المحليين عن غالبية السكان ، وأخضعت الاتصالات بينهم ، وبين السكان المسلمين للحد الأدنى للاتصالات الاقتصادية والسياسية أو لمحض الصدفة .

لقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد عام ١١٧٤ م مبرراً سياسته الرامية إلى تشجيع التجار المسيحيين في الأقاليم التي أعاد فتحها واستردادها من الصليبيين . وذكر في خطابه أنه قام بعمل ترتيبات معهم ، وبذلك جعل أحوال التجارة لصالح المسلمين . ويقول صلاح الدين في خطابه : ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة ، والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة صدهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون إلى الإسلام في الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة ، وما منهم إلا من هو الآتي يجلب إلى بلدنا آلة قتاله جهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف المحالة وتلاده ، وكلهم قررت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون " (٨) .

ويفسر صلاح الدين هذه النتيجة بأنها قد جاءت تقريباً عن طريق إنشاء الاتصالات ، وتنظيم الشروط معهم قائلاً " وهذا هو ما نرغبه وما يستنكرونه ، وهذا هو ما نفضله ؛ ولا يفضلونه " .

لقد كان للكنيسة المسيحية الرأي نفسه ، ولكن تهديدها وأوامرها بالحرمان من رحمة الكنيسة لم تكن ذات قوة ؛ بحيث تمنع مواصلة وازدياد التجارة بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي . ومن عجيب الأقدار أن جزءاً من القلاع القليلة كان يستأنف التجارة مع الغرب ، وربما كان هذا الجزء هو التأثير البارز الوحيد لأي أهمية تركها الصليبيون في الشرق .

ومع أن التجارة الغربية تطورت وازدهرت ، إلا أن الجيوش الغربية سأمت من سلسلة الهزائم الساحقة ، فطرد الصليبيون من كل الأراضي التي استولوا عليها ، ومرة أخرى فقدت مناطق كبرى من الرقعة المسيحية أمام المجاهدين المسلمين . ومثلما كان الحال أيام الإسلام الأولى شن المسلمون حرباً مقدسة ضد المسيحيين ، وفي هذه المرة وصلت جيوشهم إلى قلب أوروبا .

ولكن لم تبرز الحرب المقدسة التي هزمت وأزاحت الصليبيين نهائياً من الأقطار التي احتلوها ، أو من الشعوب التي انتصروا عليها أو انتهكوا حدودها . ولكن جاءت قوة الدفع الجديدة من أقصى الشرق ، ومن قوة إسلامية جديدة ، وهي الأتراك ، وهؤلاء شعوب يرجع أصلهم لشرق آسيا . لقد دخل الأتراك أراضي الخليفة فيما بين القرنين التاسع والحادي عشر وأصبحوا قادة الإسلام العسكريين والسياسيين ، وقد كان مجيء الصليبيين سابقاً لقدوم الأتراك وأثارهم فتحهم لسوريا إلى حد ما .

ومن خلال عصر العظمة التركية ، استعاد العالم الإسلامي عسكرية جديدة وشرع المسلمون في جهاد جديد ، أدى إلى مكاسب إقليمية هامة بعضها بارز جداً . وكان أول فتح تركي رئيسي على حساب المسيحية هو فتح شرق ووسط الأناضول ، ذلك الحصن المنيع للامبراطورية البيزنطية الذي شكل لفترة طويلة من الوقت عقبة رئيسية أمام تقدم المسلمين . وفي أواخر القرن الحادي عشر حول الأتراك السلاجقة الأناضول ، عن طريق الفتح والاستقرار ، إلى أرض تركية ومسلمة ، تلك الأراضي التي أصبحت فيما بعد الطريق لانطلاق ثاني فتح (*) إسلامي مهم لأوروبا .

ولكن في الوقت نفسه كان المسلمون أنفسهم قد غزاهم ، وهزمهم عدو جديد قادم من الشرق ؛ ففي السنوات الأولى من القرن الثالث عشر نجح زعيم المغول الذي عرف فيما بعد باسم جنكيز خان - بعد صراع مرير - في توحيد قبائل منغوليا الرحالة المحاربين ، ودفعهم في حملة واسعة وبمجيء عام ١٢٢٠ م كان كل وسط آسيا تحت

(*) لاحظ أن الترجمة الحرفية لعبارة المؤلف « غزوة إسلامية خطيرة لأوروبا » . وقد رأيت أن تكون كما وضعناها في النص المترجم حتى تتسق مع المفهوم الإسلامي . (المترجم) .

سيطرته ، وفي العام التالي عبر المغول نهر جيحون ، وشرعوا في فتح إيران ، إلا أن موت جنكيز خان في عام ١٢٢٧ م أدى إلى فترة هدوء قصيرة ، وسرعان ما أصبح خليفته - الخان الجديد - مستعداً لاستئناف الغزو . وما أن حل عام ١٢٤٠ م حتى فتح المغول غرب إيران وتقدموا صوب جورجيا وأرمينيا وشمال بلاد ما وراء النهرين ، وفي عام ١٢٤٣ م التقوا بقوات سلطان الأناضول السلجوقي التركي وتغلبوا عليها .

وفي منتصف القرن الثالث عشر قام المغول بتخطيط وتنفيذ تحرك جديد تجاه الغرب ، فقام الأمير هولاكو حفيد جنكيز خان بعبور نهر جيحون بأوامر من الخان الأكبر ، وذلك لفتح كل أراضي الإسلام حتى مصر . وفي غضون أشهر قليلة أغار الخيالة المغول ذوو الشعر الطويل على بلاد فارس وتغلبوا على كل مقاومة قابلتهم . وفي يناير عام ١٢٥٨ م اقتربوا من مدينة بغداد ، وعصفوا وسلبوا وأحرقوا عاصمة الخلافة القديمة ، وفي العشرين من فبراير عام ١٢٥٨ م قدم آخر خليفة مسلم ومعظم أفراد عائلته الموجودة في بغداد للموت . ولأول مرة منذ أيام الرسول ﷺ يقوم شعب غير مسلم بغزو قلب الأراضي الإسلامية محطماً هيبة الخلافة التاريخية الكبرى ومقيماً حكماً وثنياً على المؤمنين ، وفي مصر فقط تماسك السلاطين المماليك بثبات وحالوا دون دخول المغول إلى قارة أفريقيا ، ولكن استمر تحرك المغول تجاه الشمال ، فتحركوا صوب غرب وسط آسيا ، واتجه جنودهم شمالاً ، وتركوا أيضاً جنوب بحر قزوين والبحر الأسود وفتحوا الجزء الأكبر من روسيا ، ووصلوا إلى حدود بولندا والمجر وحتى سيليزيا . وفي الأجزاء الواقعة شمال البحر الأسود وضع المغول لأول مرة كياناً سياسياً لشعوب الإستبس ، ومعظم هؤلاء كانوا من الأتراك الذين استوطنوا المنطقة . وبعد وقت قليل نسبياً اعتمد حكام المغول بصورة قوية على الكثرة العددية لرعاياهم الأتراك ، الذين سبقوهم في الهجرة صوب الغرب . وفي الوقت الذي أهمل فيه المغول لغتهم بدأوا يتحدثون باللغة التركية ، واندمجوا مع الأتراك .

ولقد كان هذا الأمر هاماً بصفة أساسية بالنسبة لشعوب الإستبس في شرق أوروبا ؛ حيث شكلت القبائل التركية جزءًا هاماً من السكان . وعرف الشعب الذي نتج من

السكان الأتراك المغول باسم التتار ، وهو الاصطلاح الذي يشير فحسب إلى مجموعات معينة من بين الأتراك المغول ، ولكنه غالباً ما يستخدم بصورة كبيرة لتمييزهم ، وتعرف فترة سيطرتهم في تاريخ روسيا بحكم التتار (سيطرة التتار) . وبعد أن تحطمت إمبراطورية الخانات الكبار ، قسمت أقاليم تلك الإمبراطورية إلى عدد من الدويلات الصغرى حكم كلاً منها مجموعة من الخانات ينحدرون من سلالة جنكيز خان . ولقد عرفت دولة المغول في شرق أوروبا وفي روسيا ، وكذلك في الاستخدام الأوروبي باسم « خانات » القبيلة الذهبية The golden Horde وبحلول أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر اعتنقت القبيلة الذهبية الإسلام ، وسيطرت دولة مسلمة تركية على كل شرق أوربا من البلطيق إلى البحر الأسود ، ومارست سلطتها على أمراء موسكو والحكام السلافيين الآخرين . وفى القرن الخامس عشر دب الضعف فى خانات القبيلة الذهبية ، وسقطت نهائياً في عام ١٥٠٢ م مفسحة الطريق أمام خانات أصغر ، أسست على جزر قازان وأسطراخان والقرم . وقد حدد هذا نهاية العظمة الإسلامية في شرق أوروبا وفتح الطريق للنهضة . وفي نهاية الأمر سيطر أمراء موسكو .

واستطاع المغول في أقصى الجنوب توطيد نفوذهم في إيران والعراق وتمكنوا من السيطرة على دولة السلاجقة في الأناضول ، ومع ذلك لم يمكنهم التغلب على الامبراطورية الإسلامية التي أقيمت في مصر ، والتي كان يمثلها سلاطين المماليك . ولإنهاء صراع الحياة والموت مع مصر ، بدأ حكام إيران والمغول في النظر صوب الغرب للتحالف ضد العدو المشترك . ففي أوروبا لبى أمراء المسيحية بحذر وحماس ، فكرة الصليبية الجديدة ، ولكنهم في هذه المرة تحالفوا مع قوة كبيرة غير مسلمة خلف الامبراطورية الإسلامية التي أصبحت تحارب على جبهتين ، ولفترة من الوقت كان هناك نشاط دبلوماسي بين بلاط الخانات المغول والأمراء في أوروبا المسيحية ، وحضر رسل المغول ، ومعظمهم من المسيحيين الشرقيين ، إلى روما وفرنسا ووصلوا حتى انجلترا ؛ حيث أبدى الملك الإنجليزي إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧م) بعض الاهتمام بمشروع التحالف المغولي . وفي الوقت نفسه زار الرحالة والتجار والدبلوماسيون والمبشرون

المسيحيون الأوروبيون أقاليم الخان الأكبر الفارسية ، وبعض آخر منهم مثل ماركوبولو المشهور استفاد من السلام المنغولي ورحل عن طريق البر عبر آسيا إلى منغوليا والصين .

ومع تحطيم سلطنة الأناضول السلجوقية المعروفة بسلطنة الروم السلاجقة ، توقف جهاد الأتراك السلاجقة في الغرب ، واستأنف العثمانيون وهم ورثتهم ، الجهاد . بدأت الدولة العثمانية إمارة على الحدود ، وهي واحدة من الدويلات العديدة اللاحقة لسلطنة السلاجقة في الأناضول ، وتنسب إلى عثمان أول حاكم عثماني ، وقد حكم طبقاً للروايات من عام ١٢٩٩ م حتى ١٣٢٦ م .

ولقد ظهرت أول دولة عثمانية على الحدود بين الدولة الإسلامية المسيحية في الأناضول ، وكان حاكمها يلقب برئيس الحدود ، وفي بعض الأحيان كان يلقب بـ « قائد الغزاة » وهو المدافع عن الحدود في الحروب المقدسة ، وهناك شاعر تركي من القرن الرابع عشر كتب قصة عن الدولة العثمانية تعد من أوائل المصادر التاريخية العثمانية ، وفيها يحدد « الغازي بأنه أداة ديانة الله . . ومكنسة الله التي تنظف الأرض من قذارة الشرك وسيف الله اليقين » [٩] ومع مرور الوقت وبتقدم الجيوش العثمانية ، ونتيجة للازدياد الكبير للقوة العثمانية تطورت الإمارة إلى دولة ، والدولة إلى امبراطورية ، ولكن ظلت الإمبراطورية العثمانية مجتمعاً منظماً تتغلغل فيه أصول الدعوة للجهاد مع إدراك لحقيقتها .

ولقد كانت أوروبا فريسة للعثمانيين في تلك الحرب المقدسة ، وحقيقة الأمر أن كثيرين من المسلمين الآخرين نظروا إلى نفس الطريق مثلما كان ينظر أهل أوروبا إلى الأمريكيين في الفترة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر . فخلف الحدود الشمالية والغربية تقع أراضي غنية سكانها همج ، ولقد كان هدف دعوتهم المقدسة فرض ديانة وحضارة ونظام وسلام في أثناء فترة جني الغنائم الأولى من الأشخاص على الحدود المعتادة ، ولقد أدى التوسع العثماني إلى حدوث تغيرات عميقة ، سواء في داخل الامبراطورية العثمانية أو في الإمارات العثمانية التي تقع خلف الحدود .

وفي مرحلة التوسع اعتبر السلاطين العثمانيون أنفسهم خلفاء شرعيين للأباطرة البيزنطيين ، وظهر هذا الادعاء حتى في اللقب الذي استخدموه بصورة شائعة وهو

سلطان الروم (أي سلطان روما) . وبالاستيلاء على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ م عرف السلطان محمد الثاني منذ ذلك الوقت بالفاتح ، وأضاف جوهرة في أعلى التاج السلطاني وقد جمع بين يديه وتحت سيطرته جزئي الإمبراطورية القديمة في آسيا وأوروبا وأصبحت عاصمة الامبراطورية القديمة مركز حكومته .

ومما لا يثير الدهشة أن المؤرخين الأتراك قدموا كثيراً من التعليقات عن فتح القسطنطينية. ومن أقدم القصص البسيطة والمباشرة ، التي يرويها أحد المؤرخين القصة التالية :

« كانت مدافع أدرنة الكبيرة مثل العثمانيين مجنحة ، وكانت ملقاة ، وجهزت البنادق وترك السلطان محمد أدرنه متجها إلى اسطنبول وأحضر معه تلك المدافع ، وعندما نصب المدافع بدأت في القصف من كل جانب ، حطمت أبراج وحوائط وتحصينات اسطنبول ، ولم يستطع المشركون في الداخل الحصول على النصر الذى حاربوا من أجله . وكان حاكم اسطنبول شجاعاً ولم يطلب أي رحمة - ويقال وفقاً لما كتبه الكهنة في الأناجيل أن المدينة لا يمكن الاستيلاء عليها ، فأقام مصدقاً كلماتهم المدافع والبنادق على كل جانب للدفاع عن الأبراج . على حين أن رجاله انطلقوا إلى قلب البرج ، وكانوا يقولون كل أنواع السخافات وبذا فهم كفروا بعقاب الله حيث لا يؤمنون بالرسول ، وتحدثوا بكلمات فارغة . وبسبب افتخارهم بأنفسهم أنزل الله القدير تلك المصيبة عليهم ، ولقد قال السلطان محمد بن السلطان مراد الذي حركته النخوة « إنه في سبيل الله » وقاد السلب ، ووجد الغزاة مقيدين بقوة على كل جانب من الطريق من خلال ثغرات في الحصن أحدثتها المدافع ، وقتلوا المشركين في الحصن بالسيف ، وكان الطريق مفتوحاً لبقية الجنود ، وانطلقوا عبر الخنادق وأقاموا سلالم وقاموا بوضع تلك السلالم إلى أعلى حوائط الأبراج وتسلقوها ، وبوصولهم إلى البرج قاموا بتحطيم المشركين الذين كانا في الداخل ودخلوا المدينة ، واستباحوها واستحوذوا (*) على ممتلكاتهم ، وجعلوا بناتهم إماء وأبنائهم عبيداً . لقد أصدر

(*) يلاحظ القارئ أن المؤلف يأتي بنصوص من التركية والفارسية وغيرها ويترجمها إلى الإنجليزية بصورة فيها بعض التجاوز ، وقد حاولنا في كثير من المواضع أن نرجع إلى النصوص الأصلية ، لكن افتقدنا أكثر النصوص التي نقلت عن التركية والفارسية (المترجم) .

السلطان محمد أوامر وأباح المنازل ، وبهذه الصورة استولوا على كل ما يمكن الاستيلاء عليه .

ولقد أخذ المسلمون كثيراً من الغنائم حتى الثروة التي تجمعت من اسطنبول منذ إنشائها ، قبل أن تصبح من نصيب الغزاة بـ ٢٤٠٠ سنة استبيحت لمدة ثلاثة أيام ، وقد تم الاستيلاء على اسطنبول في الثلاثاء الموافق ٢١ من شهر رجب عام ٨٥٧ هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣ [١٠] .

هذا النوع من القصص الذي كتب باللغة التركية للناس البسطاء ، أثر في نظرة الغزاة الخارجية للحدود ويقدم التاريخ العثماني الرصين في القرن السادس عشر صوراً مختلفة إلى حد ما ؛ فيقول أحد المؤرخين « لقد تحولت تلك المنطقة الواسعة القوية الرفيعة من وكر بوم يسير على غير هدى إلى عاصمة المجد والشرف ، من خلال الجهود النبيلة للسلطان محمد الذي استبدل الصوت المنكر لأجراس المشركين ، الذي يشوبه الخزي ، وأحل مكانه دعوة الإسلام للصلاة . ولخمس مرات تكررت الترنيمة الحلوة عن صدق العبادات المجيدة التي تملأ آذان الناس وقت اجهات بنفحة الدعوة للصلاة . لقد أخليت الكنائس التي كانت داخل المدينة من تماثيلها القبيحة ، وطهرت من شوائبها القذره المتعلقة بعبادة الأصنام وطمست صورهم ، وصارت روضة من رياض الجنة بتحولها إلى جوامع للتقوى ، واندفع شعاع الإسلام بعيداً إلى جحافل الظلام من المكان الذي كان لفترة طويلة مأوى للمشركين من الطبقة الدنيا . وبددت آثار إشعاع الحق ظلام الباطل . وفي كلمة واحدة أصبح السلطان المحظوظ رئيساً لحكومة تلك المنطقة الجديدة [١١] . وحيث أن القسطنطينية كانت عاصمة ، فقد كان من الطبيعي للوريث المسلم للوثنية ولروما المسيحية أن ينظر تجاه الغرب ليرقب الخطوات التالية . وكانت القوات العثمانية تتقدم صوب طرفي الأدرياتيك . ففي الطرف الشمالي ، كان الفرسان العثمانيون يغيرون على فينيسيا بقيادة « جديك أحمد باشا » القائد الأعلى للأسطول من فالونا Valona في ألبانيا ، واستولت تلك القوات على الميناء الإيطالي أوترانتو Otranto وفي الربيع التالي جمع الباشا قوة عسكرية جديدة بهدف تدعيم نقطة حكمه ، لتوسيع الفتوحات العثمانية في إيطاليا .

"في عام ٨٨٤ هـ (كما يذكر التاريخ) أبحر جديك أحمد باشا بأسطول كبير جداً إلى شبه جزيرة أبوليا ، وعند وصوله إلى هناك بعون الله ، علم باهتمام السلطان ، بحصن أبوليا الذي يشبه حصن القسطنطينية ، وقام بفتح أقاليم كثيرة . وأصبحت معابد الوثنيين جوامع إسلامية ؛ حيث كانت تسمع الصلوات الخمس التي تشهد لمحمد ﷺ بالرسالة " (١٢) .

لكن بموت السلطان محمد الفاتح حدث إحباط لمخطط الباشا وبكلمات مؤرخ تركي متأخر قليلاً :

" حتى الوقت الذي انتقل فيه السلطان إلى العالم الآخر ، قفل جديك أحمد باشا من أبوليا ، وبدأ في فتوحات بالغة العظمة ، وبعد موت السلطان محمد ذهب جديك أحمد للترحيب بالسلطان بايزيد . وكان أن استعاد الوثنيون أبوليا في نهاية الأمر ، أما عن المسلمين الذين ماتوا هناك فقد مات بعضهم ، وهرب بعض آخر بعد ألف شدة " (١٣) .

وفي غمار الصراع على الخلافة بين السلطان بايزيد الثاني الجديد وأخيه انسحبت القوات العثمانية من أوتارنتو ، وأجلت خطة فتح إيطاليا ثم أهملت في نهاية الأمر . وأما الاسترخاء الذي حدث بعد ذلك بسنوات قليلة في عام ١٤٩٤ - ١٤٩٥ م فقد مكن الفرنسيين من فتح الدويلات الإيطالية واحدة بعد الأخرى بدون أدنى مقاومة تقريباً ، وهذا ما يدفع على الاعتقاد بأن الأتراك كانوا مصرين على تنفيذ مخططهم بفتح كل إيطاليا أو معظمها دون صعوبة . أما الفتح التركي لإيطاليا في عام ١٤٨٠ م ، إبان عصر النهضة ، فقد حول تاريخ العالم تماماً . ولكن بالرغم من أن إيطاليا تركت بدون فتح ، فإن الشعور العثماني بالدعوة للإمبراطورية ظل قوياً ، وتقدمت الجيوش العثمانية بعيداً إلى أوروبا .

وكان هدف تلك الجيوش التقدم إلى أبعد ما يمكن ، ومنذ القرن السادس عشر وفيما بعد ذلك ، ظهرت إشارات متكررة ، في المصادر التركية إلى المدينة المنعزلة أو الأسطورة المسماة Kisil-elma أو التفاحة الحمراء Red Apple . وبالتأكيد فإن هذا

الإسم مستمد من وجود قبة ذهبية على كنيسة كبيرة توجد في تلك المدينة . وكانت مدينة التفاحة الذهبية الهدف النهائي للفتح التركي المسلم . وكان الاستيلاء عليها يمثل نهاية الجهاد ، الانتصار النهائي للإسلام . ولقد كانت تلك المدينة تتطابق في العوالم المسيحية المختلفة التي كانت هدفاً للجيوش التركية ، فأولاً كانت القسطنطينية ثم بودابست ، وبعد ذلك – وفي أوقات مختلفة – فيينا وروما . وحقيقة الأمر أن الأتراك جعلوا القسطنطينية مدينتهم ، وسيطروا على بودابست لمدة قرن ونصف ، وقد قاموا بحصار فيينا مرتين ، ويبدو أنهم هددوا روما ذاتها .

وبمجيء عهد السلطان سليمان العظيم (١٥٢٠ – ١٥٦٦) عاشت الإمبراطورية العثمانية أوج قوتها . ففي أوربا كانت الجيوش العثمانية ، التي كانت تحكم اليونان والبلقان تتقدم عبر المجر لحصار فيينا في عام ١٥٢٩ م . وفي الشرق اعترضت السفن الحربية العثمانية البرتغاليين في المحيط الهندي ، وفي الغرب استسلم الحكام المسلمون في شمال أفريقيا – ما عدا مراكش – للسيادة العثمانية . هكذا جاءت القوة البحرية المسلمة إلى البحار الغربية حتى الأطلنطي ، وأغار القراصنة من شمال أفريقيا على الجزر البريطانية .

ومرة أخرى ، وكما حدث في الفترات المبكرة ، بدا واضحاً أن تقدم الإسلام يمثل تهديداً مميتاً بالنسبة للمسيحية . لقد انتهت الحرب الصليبية واحتل الجهاد مكانته (ولقد عبر ريتشارد كنولس Richard Knolles وهو أحد المؤرخين الذين ينتمون للعصر الإليزابيثي بقوله إنها « الرعب الحالي للعالم » [١٤] حتى أنه في أيسلندا وهي البلد البعيد كان الكتاب اللوثرى للعبادة العامة المستخدم في الكنائس يتوسل لإنقاذ المسيحيين من « مكر البابا ورعب الأتراك » وهذا الرعب الأخير لم يكن خوفاً يمكن رؤيته بظهور القراصنة المتوحشين في عام ١٦٢٧م في أيسلندا ؛ حيث حملوا من هناك عدة مئات من الأسرى لبيعها في أسواق العبيد في الجزائر .

لقد كانت انتصارات سليمان العظيم علامة على المد التركي ، وبداية للجزر في نفس الوقت ، فانسحبت الجيوش العثمانية من فيينا ، كما انسحب الأسطول العثماني من المحيط الهندي .

ولفترة من الوقت كانت واجهة القوة العسكرية العثمانية ، التي لا تزال قوية ، تخفي وراءها انهيار الدولة والمجتمع العثماني ككل . ففي المجر واصل الأتراك والمسيحيون الحرب في معارك لم تحسم ، وفي أواخر عام ١٦٨٣ م استطاع الأتراك القيام بمحاولة ثانية للاستيلاء على فيينا ، إلا أن هذا تأخر كثيراً ، في هذه المرة كانت هزيمتهم حاسمة . وفي بعض المناطق الأخرى من العالم ، خاصة إفريقيا الاستوائية وجنوب شرقي آسيا ، واصل الإسلام تقدمه على الرغم من أنه في أوروبا قاسى المسلمون من انتكاسة حاسمة أخفتها الانتصارات العثمانية وأجلتها لفترة ، ولكن هذا لم يمنع من حدوث الانتكاسة ، وكان الرد المسيحي الأوروبي على الجهاد الأكبر الأول هو إعادة الفتح والصليبية مرة أخرى . ولقد عرف الرد على موجة التقدم الإسلامي الثاني بتلك الحملات الأوروبية ، التي عرفت بالإمبريالية وبلغت ذورتها آنذاك . بدأت تلك الحملات في طرفي أوروبا في الأقطار التي حكمها الإسلام سابقاً في شبه جزيرة أيبيريا روسيا ، وهذا لا يثير الدهشة ، ثم انتشرت بعد ذلك حتى ابتلعت العالم الإسلامي تقريباً .

وفي عام ١٤٩٢ م استولت جيوش فرديناند وإيزابيلا على آخر معقل إسلامي في إسبانيا ، وبعد ذلك كانت الضربة الأوروبية مستمرة بصورة قوية . واكتمل إعادة الاستيلاء على البرتغال في عام ١٢٦٧ م تقريباً قبل قرنين ونصف من إعادة الاستيلاء على إسبانيا . وفي عام ١٤٠٥ م استولى البرتغاليون على الساحل الشمالي لمراكش ، وهكذا انتقلت الحرب إلى معسكر الأعداء . وخلال القرن السادس عشر قام البرتغاليون بمجهود هام ، حين دعّموا نفوذهم في مراكش واحتلوا في فترة وجيزة طنجة والدار البيضاء ولكن انتهت مهمة البرتغاليين على أرض شمال أفريقيا بهزيمتهم على أيدي المراكشيين في معركة القصر الكبير The battle of al-qasr- al Kabir عام ١٥٧٨م.

أما الأسبان فقد اتبعوا حكامهم السابقين الأوائل في إعادة الفتح من أوروبا إلى إفريقيا ، وفيما بين الأعوام ١٤٩٧ م و ١٥١٠ م . . استولى الإسبان على عدد من المناطق التي على ساحل إفريقيا الشمالي من مليلة في مراكش شرقاً وحتى طرابلس ؛

إلا أن هذه المهمة لم تسفر عن شيء تماماً مثل مهمة البرتغاليين . على أية حال كان هدف هؤلاء محدداً ، وتمثل في منع كل محاولات الاستعادة الإسلامية ، والعودة للإسلام ولحماية شواطئهم وسفنهم من القراصنة المسلحين . وحيث أن القوة العثمانية البحرية بدأت في الإشراف على البحر المتوسط . . فإن الإسبان أهملوا محالات الإغارة على شمال أفريقيا ، وكما فعل البرتغاليون ، فقد اهتموا بالتحكم في نقاط قليلة قوية ، أصبحت بالنسبة لهم حاميات صغيرة .

أما الضربة الغربية المضادة فقد جاءت ضد الشرق من جهة أخرى ، فعندما وصل « فاسكودى جاما إلى كاليكاتا قال إنه جاء للبحث عن المسيحيين والتوابل » وكان هذا ملخصاً واضحاً للحركات التي أرسلها البرتغاليون .

ربما ألقى الظل على التسويات الملائمة للجهاد الذي يرجع إليه - إلى حد ما - التأخير الطويل لاستجابة الرحلات البرتغالية كما كان التعاطف بين الصراع المسيحي والبرتغاليين الذين أبحروا إلى الشرق قوياً ، وكان ينظر إلى الرحلات الاستكشافية على أنها حرب دينية ، واستمرار للحملات الصليبية وإعادة للفتح ، وعلى أنها أيضاً موجهة ضد نفس العدو . أما في المياه الشرقية فقد أنهى الحكام المسلمون في مصر وتركيا وإيران والهند ، الذين كانوا آنذاك ، كل الخصومات الرئيسية مع البرتغاليين وجاءت شعوب بحرية أخرى أحكمت السيطرة الأوروبية في إفريقيا وجنوب آسيا ، تلك السيطرة التي دامت حتى القرن العشرين .

استطاع الأوروبيون قتال بعضهم على ميادين المعارك الشرقية من خلال الأمان ، ويرجع هذا إلى الامتياز المناسب للقوى المحلية ، وأصبح واحداً من تلك الحوادث شهيراً . ففي عام ١٦٢٢ م قام الجيش الفارسي ، بمساعدة الإنكليز ، بطرد البرتغاليين الذين سيطروا على مضيق هرمز في الخليج العربى (*) ، وتجد صدى هذا الانتصار منظوماً في شعر غنائي فارسي ، كما برر مؤرخ فارسي معاصر هذا التحالف بقوله : " لقد

(*) يلاحظ القارئ هنا أن المؤلف اندفاعا وراء تعصبه ومقته للعرب والمسلمين يستخدم عبارة « الخليج الفارسى » وقد رأينا وضع العبارة وضعا صحيحا بما يتفق والواقع . إن قراءة أعمال لويس المتعددة تطلعنا على مثل هذه الزلات التى يقصد من ورائها اذكاء روح التعصب الشعوبية (المترجم) .

تغير الوضع الآن بسبب مـا أقدمت عليه مجموعة من الإنكليز حين قـدموا أنفسهم فـي الفترة الأخـيرة للبلاط ، وذكروا أنه عـنـدما يرغـب الشـاه فـي إعـادة الاستيـلاء علـى هرمز ، فـهم على اسـتعداد لمساعـدته بفرق عـسكرية . وأوضحـوا للشاه أنـهم أعداء للبـرتغاليـين ، وأن العداء المشـترك بينـهم أساسه الاخـتلافات الطـائفية ، وبـعد إعادة الاستيلاء على هرمـز ذكروا أن السفن الموجودة في الموانيء الأخرى التـي تحت السيطرة الإنكليزيـة سوف تضمن عدم عودة البـرتغاليين . ولقد قرر الـشاه عباس قبول عرض المساعدة الذي قدمه الإنجليز " ويستمر في القـول : " بالرغم من أن مياه البئر المسيحية غير نقية فهى لا تغسل إلا اليهودي الميت ، فما الخوف من هذا ؟ (١٥)

وفي مؤلف صـدر عام ١٥٨٠م حذر جغرافي عثمـاني السلطان من الأخـطار التي تواجهها الأراضي الإسلامية ، ومن اضطراب التجارة الإسلامية نتيجة لإقامة الأوروبيين على شواطئ أمريكا والهند والخليج العربى ، وتقول كلمات النصيحة للسلطان :

" دع القناة تحفر من البحر المتوسط إلى السويس (*) ودع الأسطول يكون مستعداً في ميناء السويس بعد ذلك ليستولي على مـوانيء الهند والسند ، وسوف يصبح من السهل طرد المشركين بعيداً ، وجلب منتجات تلك البلدان القيمة لعاصمتنا " (١٦) .

ولسوء حظ العثمانيين . . فإن نصيحة الـرجل التي تمت مبكراً فعلاً عن طريق أهل البندقية لم تتبع ، وبدلاً من أن يصل كل من السـلطان العثماني وخصمه المسيحي ملك إسبانيا إلى هدفه حـارب كل من الملكين أعداءه ، فإن السلطان التركـي كان ضد الشيعة الإيرانيين ، كما كان الملـك الإسباني ضد البروتستانت شمالي أوروبـا ، ولم تفتح قناة السويـس إلا بعد قرون لاحقة ، وخـدمت بعد ذلك أغـراض واحتياجات إمبـراطورية مختلفة . كما فشـلت الحملات البحرية العثمانية إلى المحيـط الهندي في القرن السادس عشر أمام سفن أسلحة البرتغاليين .

ونفس مـا حدث من عودة الغزو والـهجوم المضاد يمكـن إيضاحه أيضاً فـي الدولة

(*) كما يلاحظ من النص فإن التفكير فى حفر قناة تـصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر يرجع إلى القرن السادس عشر ، ومن ثم لم يكن هذا التفكير وليد القرن التاسع عشر وفرديناند ديلسبس (المترجم) .

الأوروبية الأخرى التي تم غزوها ، وحكمها المسلمون في العصور الوسطى ، وهذه الدولة هي روسيا ، وبالمقارنة بالحكم الإسلامي في إسبانيا لم تدم سيطرة العصر الذهبي إلا فترة قصيرة ، وكان تأثيرها محدوداً ، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك التتار علامة بارزة في الذاكرة الروسية .

بدأ الغزو الروسي متأخراً نوعاً ما عن الغزو الأيبيري ، وفي عام ١٣٨٠ عندما هزم ديمتري دونسكوي التتار ، حين كان الأمير الأكبر لموسكو في موقعة « كوليكوفو Kulikovo » وبالرغم من مظاهر الاحتفاء بهذا النصر في التاريخ الروسي والرواية الروسية ، فإن هذا النصر لم يكن حاسماً ، فقد اتجه التتار بعد ذلك بعامين إلى الشمال مرة أخرى ، وخربوا الأراضي والبلاد الروسية ، واستولوا على موسكو وأعادوا فرض الضرائب . وحتى عام ١٤٨٠م سمحت التقسيمات بين المسلمين لقيصر موسكو العظيم إيفان أن يحرر نفسه من الضرائب والتبعية .

وتماماً كما هو الحال بالنسبة للإسبان والبرتغاليين ، ولكن بدون مقارنة إحراز النجاح . . انطلق الروس بعد أن نفضوا نير الاستعمار خلف حكامهم السابقين . وبعد موقعة وكفاح مرير وطويل ضد التتار في "الفولجا" انتهى الأمر باستيلاء الروس على "قازان" عام ١٥٥٢م ، وبعد هذا النصر الحاسم استطاعوا بدون مشقة أن يتقدموا عبر الطريق أسفل الفولجا ، واستولوا على ميناء مدينة "أسطراخان" في عام ١٥٥٦م ، وعندئذ سيطر الروس على الفولجا ووصلوا إلى بحر قزوين ، وبذلك تغلبوا على معظم مقاومة المسلمين في طريقهم إلى الجنوب ، وبدأوا بعد ذلك في التوجه مباشرة للهجوم على العثمانيين وكريميان على حدود التتار .

ولما تنبه العثمانيون للخطر ، حاولوا درءه وأعدت حملة كبيرة بهدف الاستيلاء على اسطرخان ، واستخدامها قاعدة دفاع للمسلمين . وكان جزءاً من الخطة حفر قناة تربط بين نهري "دون" و "فولجا" ؛ حيث يمكن من خلالها أن تتحرك الأساطيل العثمانية بين البحر الأسود وبحر قزوين مع حكام المسلمين في وسط آسيا ، ويمكنهم كذلك من تشييد حصن منيع ضد أي تقدم روسي جديد نحو الجنوب أو الشرق [١٧] ، ولكن فشل المشروع لم يؤد إلى شيء . وكان ملوك التتار في كريميان قادرين لوقت ما ، على صد

الهجمات الروسية والإبقاء على علاقاتهم مع السلاطين العثمانيين الذين قبلوهم باعتبارهم حلفاء .

ظل البحر الأسود في ذلك الوقت ، تحت سيطرة المسلمين الأتراك ، وكانت هناك بين "كريميان" و "اسطنبول" تجارة مهمة خاصة في السلع الغذائية والعبيد ، ذوي الأصل الأوروبي الشرقي ، ولكن الطريق أصبح مفتوحاً الآن بصورة أكبر لتقدم روسيا داخل آسيا .

وبينما أبحر التجار بالتجارة من أوروبا الغربية حول أفريقيا ، وأخفقوا في المدن الساحلية من آسيا الجنوبية وجنوب شرق آسيا ، كان الجنود الروس يتبعهم التجار الفلاحين قد تقدموا إلى البحر الأسود وبحر قزوين وجبال "بامير" Pamir وإلى المحيط الهادي أيضاً . وساعد الأوروبيين الشرقيين والغربيين في تغلغلهم داخل آسيا وإفريقيا تفوقهم العسكري والفني . ولم يواجه الروس مقاومة كبيرة في تقدمهم نحو الشرق ، وكانت السلطات الأوروبية الغربية مزودة بالسفن المجهزة والتسليح البحري ،الذي لا تستطيع دولة آسيوية أن تنازله .

وفي مكان واحد فقط في قارة أوروبا ، كانت الدولة الإسلامية ، وهي الإمبراطورية العثمانية - التي كانت لا تزال في تدهورها - وهي أقوى دولة إسلامية ، تقاوم بعناد شديد تقدم أوروبا المسيحية صوب "البلقان" و "إيجه" و "القسطنطينية" ، ولكن حتى أثناء مقاومة أوروبا وجد العثمانيون أنفسهم ينسحبون أمام التأثير الأوروبي انسحابا ، وأجبروا على ذلك لكي يدافعوا عن أنفسهم ويتبينوا عدداً من الوسائل والممارسات الأوروبية .

هذه التغيرات في حد ذاتها أجبرت المسلمين على إجراء تعديل مؤلم ، فبعد أن تعودوا النظر إلى بقية العالم من وجهة نظر دينية حقيقية ، وجدوا أنفسهم الآن في موقف يكتسب فيه الكفار المحترقون قوة وثباتاً . ومن وجهة نظر المسلمين للتاريخ كان المسلمون هم حاملي نداء الله ، وعليهم واجب مقدس يتمثل في هداية البشرية .

وبيت الإسلام الذين كانوا هم أنفسهم جزءاً منه ، اعتبر داخلاً ضمن غرض الله

على الأرض . وكان حكام المسلمين هم خلفاء النبي ﷺ وحماة الرسالة التي تلقاها من الله ، وكانت دولة الإسلام هي القوة الوحيدة الشرعية والحقيقية على الأرض ، كما كان المجتمع الإسلامي وحده هو مصدر تلك الحقيقة ، ومنبع التنوير والثقافة التي أحيطت من كل ناحية بظلام الهمجية والكفر الخارجي .

وكان فضل الله على مجتمعه هذا أن سخر له القوة ، ومنحه الانتصارات في ذلك العالم ، هكذا كان الأمر ، وكان كذلك دائماً منذ أيام الرسول ﷺ .

هذه المعتقدات الموروثة منذ أيام المسلمين الأولى دعمها عن اقتناع الخلفاء العثمانيين العظماء في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وأحيتها الانتصارات العابرة (*) والهامة التي حققها المسلمون في القرن الثامن عشر .

وكان من الصعب على المسلمين أن يكيفوا أنفسهم في عالم لم تكن مجريات الأحداث فيه تسير بقوة الإسلام ، بل كانت تسير عن طريق خصمهم المسيحي ، عالم كان فيه إحياء الدولة الإسلامية يعتمد أحياناً على المساعدة ، أو على الإرادة القوية لبعض الحكام المسيحيين .

وبينما كان فرسان روسيا وسفن البرتغاليين الشراعية تهدد الأراضي الإسلامية من ناحيتي الشمال والجنوب . . كانت أراضي وسط آسيا عبر الشرق الأوسط حتى شمال افريقيا لا تزال محافظة على استقلالها . وفي فترة التوسع الأوروبي الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر بزغت خمسة مراكز سياسية في العالم الإسلامي ؛ ففي الهند ووسط آسيا وإيران والامبراطورية العثمانية وشمال افريقيا كانت للمسلمين - رغم أنهم يشكلون نسبة قليلة من السكان - سيادة سياسية . وفي القرن السادس عشر أسس أحد الدخلاء من وسط آسيا في الهند فصلها النهائي ، ولقد انتهت تلك السيادة في نزال مصيري حاسم مع الأوروبيين الغربيين .

وفي أقصى الشمال من وسط آسيا ، كان سقوط منغوليا الداخلة في الإسلام ،

(*) يستخدم المؤلف في هذا السياق تعبير الانتصارات العابرة ليقلل من شأن الفتوحات الإسلامية لكثير من دول أوروبا وآسيا ، حيث يرى أنها استيلاء وليست فتحًا (المترجم) .

والتي كانت تحكم هذه الأراضي بعد سقوط مجموعة دويلات إسلامية في المنطقة الواسعة بين بحر قزوين والصين . وهذه الدويلات واجهت التقدم الأوروبي ، ولكن في هذه المرة كان التقدم بالأسلوب الروسي ، وقد هزمت بهذا الأسلوب وانضوت تحت لواء الإمبراطورية الروسية .

وفي الطرف المقابل من العالم الإسلامي في شمال افريقيا ، ظلت مراكش لقرون عديدة تتمتع بحكم مستقل في حين خضعت الجزائر وتونس وليبيا للعثمانيين ، ولكن كان يحكمها حكام محليون . ثم خضعت كل هذه الدول في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للإمبراطوريات الفرنسية والإسبانية والإيطالية . دولتان وحيدتان نجحتا في إحياء الإسلام العالمي ، هما : تركيا وإيران ، وبرغم أن استقلالهما كان مهدداً أحياناً غالباً ما كان ينال منه فإنهما لم تفقداه تماماً .

وبعد هجمات البرتغاليين الأولى ، كانت أنشطة الأوروبيين الغربيين في آسيا تجارية أساساً ، وتتعلق بالملاحة ، وأدت تلك الأنشطة تدريجياً إلى إقامة سلطة سياسية . وحتى ذلك الوقت : كان هذا مقصوراً بشكل أساسي على جنوب وجنوب شرقي آسيا وشرق إفريقيا ، وأثر ذلك في الشرق الأوسط ، ولكن بطريق غير مباشر . أما في الأراضي والدول الوسطى فكانت الاهتمامات السياسية والاستراتيجية لقوى الغرب ، ذات أثر أقل من تلك الاهتمامات الخاصة بقوى أوروبا الشرقية والوسطى .

ومع ذلك فإن اتحاد البرتغاليين ، ومن بعدهم الإنكليز ، مع القوى الهولندية في آسيا وإفريقيا ، كان يعني أن الشرق الأوسط - أي إيران والإمبراطورية العثمانية - قد أحاط به الروس عبر الحدود الشمالية والأوروبيون القريبون من كل جانب . وقد كان ذلك إحاطة فعلية لا كما شاع الاعتقاد ذات مرة،أنها ملاحة دورية للبرتغاليين في إفريقيا ، وقد أدى ذلك إلى تخفيض وتحويل تجارة التوابل ، هذه التجارة التي كانت تمر عبر البحر الأحمر والخليج العربى إلى البحر المتوسط وأوروبا ، وكانت تثرى الشرق الأوسط في طريقها ، ولقد تحولت تلك التجارة الآن إلى طريق المحيطات التي يتحكم فيها الغربيون في كل جانب منها.

كانت هذه التغييرات بطيئة ولم يتضح تأثيرها على وجه السرعة . ولكن نلاحظ أن

السفير الرسمي في اسطنبول ، « أوجير Ogier Ghieselin de Busbecg » ، في خطاب حدده عام ١٥٥٥م ، يشكو من أن الأوروبيين كانوا يبددون جهودهم في البحث عن الغنائم والذهب في مناطق شاسعة من المحيطات ، في حين كان الأتراك يهددون وجود المسيحية الأوروبية (١٨) .

وحتى في القرن السابع عشر المتأخر لم يتلاش التهديد ، ففي عام ١٦٨٣م قام الأتراك بمحاولتهم الثانية والأخيرة للاستيلاء على فيينا . وبعد عدة أسابيع اضطرت الجيوش العثمانية إلى ترك الحصار ، ولم يمض وقت طويل حتى انسحبت فوراً ، ويطلعنا مؤرخ عثماني معاصر على هذه القصة بإيجاز وصدق قائلاً : أسر أحدهم وتم استجوابه ، فقال إن الإمبراطور النمساوي بعث خطابات إلى كل مكان ينشد العون من كل ملوك المسيحية ، وإن ملك بولندا وحده ، الملك الخائن الملعون المدعو سبيسكي هو الذي جاء لمساعدته شخصياً بقوات وجنود من ليتوانيا ، وكان تعداد قواته ٣٥ ألفاً من الفرسان والمشاة البولنديين الكفار . وبعث الإمبراطور النمساوي رجاله مع هذه الإمدادات من استطاع أن يحصل عليهم من بقية المسيحيين من فرسان ومشاة وكونوا جميعهم ٨٥ ألفاً من الألمان ، و ٤٠ ألفاً من الفرسان ، و ٨٠ ألفاً من المشاة ، وتجمع هؤلاء في هذا المكان ، ويقال إنهم كانوا يشنون الهجوم على الجنود المسلمين الذين كانوا في خنادق حول فيينا » (١٩) .

ولم يحاول الحاكم العثماني أن يخفي المصيبة أو الكارثة التالية : " . . . كل شيء كان في معسكر القيادة العثمانية من مال وعتاد وأشياء ثمينة تركوه خلفهم ، ووقع في أيدي شعب الجحيم. وقد جاء الكفار الملاعين في صفين . وكان أحد الجيوش يتقدم عبر ضفة نهر الدانوب ودخل هذا الجيش الحصن وحطم الخنادق . أما الجيش الآخر فقد استولى على المعسكر القيادي للجيش . وقد قتلوا بعضاً وأسروا بعضاً آخر من هؤلاء الرجال الذين استسلموا وعثروا عليهم في الخنادق . أما الرجال الذين ظلوا في خنادقهم وهم حوالي عشرة آلاف ، فلم يكونوا قادرين على القتال وجرحوا بالبنادق والمدافع وبأحجار الخنادق وبأسلحة أخرى ، لقد فقد بعضهم ذراعه أو ساقه . واستطاع هؤلاء عندما وجدوا بضعة آلاف من الأسرى من زملائهم أن يحرروهم من قيودهم ويطلقوا

سراحهم . ونجحوا في الاستيلاء على مثل هذه الكميات من المال والمؤن بشكل لا يمكن وصفه . ولـذلك لم يفكروا حـتى في تعقـب جنود المسلـمين ، ولو كانوا فعـلوا ذلك لقابلوا أمراً عسيراً . ليحفظنا الله ، كـانت هذه هي صيحة النصر لهذه القوة ، التي لـم يظهر مثلها منذ بداية ظهور الدولة العثمانية " [٢] .

ورغم أن محاولة الأتراك الأولـى لغزو فيينا في عام ١٥٢٥م كانـت غير ناجحة ، فإنها انتهـت بحال أرق بالنسبة للعثمـانيين باعتبارهم القوة المهـددة لقلب أوروبا . وأما الحصار والانسحاب الثاني في عام ١٦٨٣م . . فكان أمراً مختلفاً تمام الاختلاف ، وكان الفشل في هذه المرة واضـحاً ولا لبس فيه . فالانسحاب تتبعـه هزائم وفقدان للأراضي والمدن . والإحساس العثمانـي بهذه التغيرات عبرت عنه أغنية شـعبية في هذا الوقت ، وهي مرثية لفقدان "بودا" Buda التي عاود المسيحيون الاسـتيلاء عليها في عام ١٦٨٦م تقول الكلمات : "في المـساجد لم تعد هناك صلوات وفي المنابع لـم يعد هناك اغتسال لقد صارت الأماكـن الشعبية مهجـورة ، لقد استولى النمســاويون على مدينتنـا الجميلة بودا" [٢١] .

ولقد لاحظ ضابط عثماني، كان قد زار بلغراد أثناء احتلالها على يد النمساويين ، أن الحكام الجدد قـد أحدثوا بعض التـغييرات في المديـنة ، وحولوا بعض المـساجد إلى ثكنات عسكرية، وبعضها الآخر إلى مستودعات ذخيرة . وكانت المآذن ما زالت قائمة ، ولكن في أحد المساجد أزيلت القبة وحولـت المئذنة إلى برج ساعة . وكذلك الحمامات ظلت قائمة غيـر أنها قلبت إلى مساكن . وحمام منزل واحـد فقط هو الذي ظل يؤدي وظيفته ، وأما المنازل والحوانيت التي كانت مـقامة على ضفاف نهر الدانوب فقد تحولت كلها إلى حانات خمر .

شكلت معاهدة السلام المعروفة بمعاهدة كارلوفيتز Carlowits والتي وقعت في ٢٦ يناير ١٦٩٩م ، نقطـة محورية هامة ، ليس فقط فيـما يتعلق بالعلاقات بين الـعثمانيين وبين حكام هـابسبرج Hapsburg ، ولكـن الأكثر من ذلـك أنها نقـطة محوريـة في العلاقات بين المسيحية والإسلام ، ولعدة قرون مضت كـانت السلطة العثمانية هي القوة القائدة للإسلام .

وبينما كانت القوة الحقيقية للإسلام بالنسبة لأوروبا قد انهارت من جوانب متعددة، فإن التغيير كان خفياً لمدة معينة عن المسيحيين والمسلمين على حد سواء . ولكن بعد الانسحاب من فيينا ، وبعد الهزائم العسكرية والسياسية التي تلت هذا الانسحاب ، أصبحت العلاقات الجديدة واضحة لكلا الجانبين . وكانت أوربا لا تزال تعاني من مشكلة الأتراك ، ولكنها أصبحت الآن مشكلة الشكوك التي نشأت نتيجة لضعف الأتراك ، وليس من تهديد قوة الأتراك ، ولزمن طويل ظلت الكنائس تعتبر الإسلام الدين الخصم الخطير ، ولكنه لم يعد الآن يمثل تهديداً عسكرياً . وعلى الجانب التركي نجد علامات يقظة جديدة فالأراضي خلف الحدود لم تعد متسعة للبرابرة الجهلة لكي يستولوا عليها ويصبحوا عدواً خطراً وتهديداً لكل مستقبل الإمبراطورية .

وكان تهديد القوة الغربية واضحاً بالفعل مع مشارف القرن السادس عشر . يقول لطفي باشا – وقد كان موظفاً كبيراً عند سليمان العظيم : ذات يوم أخبر السلطان سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠) ، القائد المنتصر في الشام ومصر ، رئيس مستشاريه قائلاً : " إن هدفي هو غزو بلاد الفرنجة " وردّ عليه المستشار قائلاً "مولاي إنك تعيش في مدينة أحسن معالمها البحر ، وعندما يكون البحر غير آمن لن تأتي السفن ، وعندما لا تأتي السفن يذهب رخاء اسطنبول" . وأثار لطفي باشا الموضوع مرة ثانية مع سليمان وأخبره "أن كثيراً من السلاطين السابقين كانوا يحكمون الأرض ، ولكن قليل منهم الذين كانوا يحكمون البحر ؛ ففي نطاق الحرب في البحر الكفار يتفرجون علينا . وينبغي أن نتغلب عليهم" (٢٣) .

ولكن لم يتغلب الأتراك عليهم ، وعاد الدرس كرته حيث الهزيمة العثمانية الثقيلة في المعركة البحرية في لبانتو عام ١٥٧١ . وكانت الضربة قاسية ، ولم يحاول العثمانيون إخفاء تلك الضربة ، والوثيقة التركية التي تسجل تقريراً عن باي ليرباي Bey lerbey الجزائر تصف النتيجة بتعبير كلاسيكي أنيق كما يلي : واجه الأسطول الإمبراطوري أسطول الكفار البائس ، وسلكت إرادة الله مسلكاً آخر" (٢٤) . ولما كانت المعركة معروفة في التاريخ الأوروبي باسم الميناء البحري اليوناني ، الذي نشبت المعركة

بالقرب منه ؛ ففي التاريخ التركي تعرف هذه المعركة باسم معركة « سنجن » ، وهي كلمة تركية تعني هزيمة ساحقة ، أو هزيمة منكرة . لكن المعركة كانت أقل حسماً مما ظهرت عليه في بادئ الأمر ، واستطاع العثمانيون تغطية جانب كبير من قوتهم البحرية في البحر المتوسط ، وكان في مقدورهم الإبقاء على ممتلكاتهم ضد الهجوم . ويخبرنا مؤرخ تركي بأنه عندما سأل السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤) وزيره الكبير سوكوللو محمد باشا عن تكاليف بناء أسطول جديد ، يحل محل السفن التي دمرت في واقعة « لبناتو » رد عليه قائلاً إن قدرة الإمبراطورية هي على هذا النحو ، أي لو أن الرغبة في هذه القدرة هي من أجل صناعة الأسطول بأكمله براوس من ذهب وقلاع من حرير فإننا نستطيع أن نفعل ذلك" [٢٥] .

إن هزيمة الجيوش العثمانية في أوروبا كانت أبعد خطراً وكانت واضحة جداً لكل ذي لب ، ونتجت عن فقدان اللايات الرئيسية وظهور تهديد جديد للبقية ، وهم الأهم في تغيير أساس العلاقة بين الإمبراطورية وجيرانها وأعدائها .

وفي سبيل الحد من نتائج هذه الهزيمة عاد الأتراك للمرة الأولى إلى رذيلة جديدة ، وهي الدبلوماسية ، وتبنوا تكتيكاً جديداً وهو البحث عن مساعدة الدول الأوروبية الغربية مثل انجلترا وهولندا ، لتتوسط لهم وتحقق توازناً في القوة المعادية لأقرب جيرانهم . وكانت هناك محاولات أولية في مثل هذه المفاوضات مع القوى الغربية . ودخل سليمان في نوع الاتفاق مع فرانسيس الأول ملك فرنسا ضد قوى « هابسبرج » التي كان الفرنسيون والخصوم الأوروبيون الآخرون يرونها معاهدة . أما الأتراك فقد نظروا إليها بصورة مختلفة نوعاً ما وقد كتب مؤلف تركي في القرن السادس عشر ما يلي :

"كان باي فرنسا (لقب انحدر بهذا الحاكم إلى مستوى حاكم الولاية العثمانية) يعلق ملازمته وتحالفه دائماً على عتبة عش الهناء ويظهر طاعته وتكريسه للباب العالي الذي كان مصدر القوة ، ولما وجد نفسه محاصراً ، استشار كبار موظفيه ومستشاريه ، فوجدهم جميعاً موافقين على أن أحكم وأفضل السبل هو اللجوء إلى مخبأ ، والبحث عن اتفاق مع العالم الذي يحيط بعرش السلطان" .

ولذا فقد بعث باي فرنسا أحد سفرائه إلى اسطنبول ، ينشد العون ويسلم الرسالة التالية :

"هزمنا عدو لا يلين ، وسيطر علينا وطغى بسبب مساعدة وعون الملك الشرير ملك البحريين ذي الفأل السيء . فإذا تكرم سلطان العالم وضغط على هذا المساعد الملعون لأعدائنا ، عندئذ سوف نتمكن من مقابلته وقتاله ، وستكون لنا القوة في إنهاء أغراضه الشريرة ، عبيدك الشاكرون لسلطان سيادتك ، إننا ننحني بلهفة إليك ورؤوسنا رهن طاعتك" (٢٦) .

ويقول المؤرخ إن السلطان المجيد والعظيم حركه العطف من أجل الفرنسي البائس ؛ فقرر مساعدته وانطلقت الجيوش العثمانية وفقاً لذلك تقتص من الملك الملعون ومن المجرمين . وفي سنة ١٥٥٢م كان هناك تعاون في العمليات الفرنسية والتركية ضد الموانئ الأسبانية ، وهذه العمليات تلقى ذكراً عابراً من بعض المؤرخين العثمانيين ، وليس كلهم .

وعند نهاية القرن السادس عشر كان هناك اتفاق مع الملكة اليزابيث الأولى ملكة انجلترا حول تنوع الموضوعات ، بما فيها قيام جبهة متحدة ضد العدو الأسباني المشترك . ولكن هذه كانت مفاوضات مفككة ، مقدماتها جاءت أساساً من الجانب الغربي ؛ لأن الأتراك كانت تنقصهم السرعة ولم يقدموا نتائج ، وأدت الهزيمة الثانية في فيينا إلى اتخاذ سياسة جديدة . وفي خلال القرن الثامن عشر كان هناك شعور بين العثمانيين بأنهم لم يعودوا أصحاب امبراطورية الإسلام المواجهة للمسيحية ، ولكن دولة واحدة بين دول عديدة قد تكون حليفة . وقد يكون بين هذه الدول العديدة حلفاء ، وكذلك أعداء . والفكرة لم يكن سهلاً قبولها وحتى في نهاية القرن الثامن عشر كانت ما تزال تواجه مقاومة . وكانت تركيا في حرب مع كل من روسيا والنمسا . ونشأ اقتراح له قوة معينة وهو أن قد يكون من المجدي إنهاء المعاهدات مع السويد ، التي كانت أيضاً في حرب مع النمسا ، ومع روسيا التي استطاعت أن تجرد النمسا من المؤخرة . ووقعت المعاهدات وفقاً لذلك مع كلتا الدولتين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٠ ، تلك المعاهدات تعتبر

معاهدات عسكرية ، وكان أمام الأطراف وقت طويل منذ أن أصبحوا يتعودون على المشاركة في الوجود مع القوى الأوروبية ، وحتى على العلاقة التي يطلقون عليها بطريقة شائعة كلمات مثل الصداقة والمحبة . والأوروبيون ينظرون إلى مثل هذه العلاقات باعتبارها معاهدات بينما لم ينظر الأتراك إليها كذلك ؛ ففكرة المعاهدة مع القوى المسيحية حتى ضد قوى مسيحية أخرى كانت فكرة غريبة ، وإلى حد ما كانت فكرة رهيبة . وقاضي الجيش سانيزيد Sanizade أعلن أن مثل هذه المعاهدة تناقض شرع الله، فقد قال الله تعالى في القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [٢٧] وكان قاضي الجيش محكوماً من قبل المفتي حمدي زيد مصطفى أفندي ، الذي احتج بقول للنبي ﷺ ومعناه : « سيعز الله الإسلام برجال ليسوا مسلمين » بالإضافة إلى نصوص وأحكام أخرى [٢٨] . وهذا الرأي كان شائعاً على الرغم من أن الكثيرين نظروا إليه على أنه غير مقبول .

ومن منطقة واحدة استمر الأسلوب القديم في الجهاد - في منطقة غرب البحر المتوسط - وفي الدول البربرية ، المملكة المغربية والأقسام الرئيسية الثلاثة : الجزائر وتونس وموريتانيا التابعة للحكم العثماني وهي الدولة التي حاربت حرباً مقدسة ضد المسيحية ، وظلت كل هذه الدول على الأقل من الناحية النظرية ذات قوة استعانت الحرب المقدسة بالوسائل البحرية أكثر من الوسائل العسكرية ، وظلت تمثل مشكلة مستمرة للبلاد المسيحية بالنسبة للأوروبيين ، فإن البحر الذي تطل عليه بلدان شمال إفريقيا . . كان المتجولون فيه قراصنة ؛ كانوا في نظرهم مجاهدين ، أو يمكن وصفهم على أقل تقدير بأنهم عسكر ، وما كان يعد بالنسبة لبلاد شمال افريقيا جهاداً بحرياً ضد الكفار ، كان الأوروبيون يعدونه عملاً من أعمال القراصنة . وقد منحت مكافآت عظيمة في شكل جوائز مالية في مقابل السفن التي يتم أسرها وحمولتها ، ولم تكن هناك ميزة إضافية متاحة أمام العساكر الأوروبيين .

وفي ظل قانون « الشريعة » Sharia فإن الكفار الأسرى كان يتم بيعهم بطريقة قانونية على أنهم رقيق ، وإذا استطاعوا أن يفتدوا أنفسهم بالمال في أسواقهم ،

فإن هـذا كان يعـد مـن الأفضل لهم . فإذا لم يـحدث ذلك فإنهم يظلون عبيداً مملوكين لساداتهم .

إن بلاد شمـال إفريقيا التـي كانت تقاتل عـن طريق البحـر تحملت وأحيانـاً كانت تتشجع لخصومات القوى الأوروبية ، واستمرت في ذلك خلال القرن الثامن عشر . لقد أعطت حـروب نابليـون وثوراته أهمـية جديدة لـدول شمال إفريـقيا . ولقـد قوي من مركزهـم وموقفهم المـنافسة الحادة للمحاربين الأوروبيين مع إرادتهـم القوية ، واستخدام التسهيلات بشكل هائل . وبعد عام ١٨١٥ لم يكن لهذه التسهيلات ضرورة ، فاتخذت القوى الغربية بما فيـها عندئذ الولايات المتحدة موقفاً حاسماً لإنهـاء هذا التهديد لوسائل المواصلات والنقل الغربي .

هناك طريقة معاصرة لبعض العلاقات بين الحكومات الغربية والقراصنة من البربر ، يمكن أن نجمعها من تقرير السفيـر العثماني في مدريد بين ١٧٨٧ - ١٧٨٨ . وباعتباره ممثلاً للسلطان ، فإن مستشار الباي من الجزائر كان مهتماً بالاتفاقية التي وقعت حديثاً بين الباي وملك أسـبانيا ، ووجد فرصة لمناقشـة الأمر مع مبعوث الباي في مـدريد فأعطاه بعض التأكيدات أو التأمينات :

إن المعاهدة العسكرية أو المصالحة العسكرية التي عقدها الجزائريون مع أسبانيا كانت في صالحهم تماماً . ووفقاً لهذه المعاهدة يدفع الإسبانيون ألف (١٠٠٠) ريال مقابل كل أسير إسباني فـي الجزائر ، وكان عددهم ١٢٥٠ أسيراً . والجانب الـغريب من ذلك أنه بعد الاتفاقية وعندما ووصلت المبالغ إلى الجـزائريين ، أخذوها كلها ثمناً للأسرى الذين كانوا قد ماتـوا في الأسر ، ولم يستطع الإسبانـيون أن يفعلوا شيئاً حـيال ذلك . تقول الوثائق كذلك : إن ملك إسبانيا علاوة علـى ما أرسله من هدايا إلى حاكم الجزائر تقدر بخمسمائة درهم ومجوهرات وبضائع أخرى ، سوف يدفع أيضاً مبلغاً احتياطياً نقداً من أجل السلام ، وسوف يعطيهم الموارد التي يحتاجونها للأعمال البحرية والترسانة .

وكـان هنـاك أيضاً مـا يزيـد علـى مائة (١٠٠) أسـير جزائري في إسبـانيا ، كان المفروض فداؤهم . ولكن بدلاً من ذلك قالوا : "لسـنا بحاجة إلى هؤلاء الخونة الجبناء

- فلو لم يكونوا كذلك ما أسروا" . وتحير الإسبان إزاء ذلك ، وأخفوا هذا الأمر عن الدول الأخرى . ولوضع نهاية للموضع ، كتبوا خطاباً خاصاً إلى حاكم مراكش يقولون فيه : " إن كنت تريدهم فسوف نفك أسرهم من أجلك " . فوافق الحاكم الملهم بقوة الإسلام وتم إرسال الأسرى بعد تحريرهم إليه . وقد أعطى هو لكل أسير منهم مبلغاً من المال والملابس وأرسلهم إلى الجزائر ، وبحث الإسبان عن طريقة ينقذون بها ماء وجههم فنشروا تقريراً بأنهم تصرفوا من واقع طلب جاءهم من حاكم مراكش . وباختصار فإن الثبات الديني للجزائريين أثقل كاهل الكفار وأجبر الإسبان على الاستسلام . وذات يوم في مدريد في حوار مع شخصية جزائرية مهمة سألته : "لماذا تعقدون معهم سلاماً ما دمتم تستفيدون منهم الكثير جداً ؟ "ورد على ذلك : " إننا في الواقع نستفيد منهم بشكل هائل . وهذا السلام سوف يستمر على الأكثر ثلاث سنوات سوف نبقى من خلال هذه السنوات على المكاسب السابقة . أما الآن فإننا نجمع ما يكفي لسنتين أو ثلاثة ، ونحن لا نعاني من أي خسارة" . لقد قصد بذلك أن السلام لم يعد أكثر من حبر على ورق (٢٩) .

وعلى الرغم من بعض النجاح ، فإن القرن الثامن عشر كان بصفة عامة عصراً سيئاً بالنسبة للبلاد الإسلامية واليقظة بين المسلمين ومعرفتهم لمكانتهم التي تغيرت وأشرنا إليها في صور عديدة . إن عوامل كثيرة قد وقعت حتى حدث هذا من خلال تعاملهم مع أوروبا تأثرت القوى في الشرق الأوسط بتزايد تعقيد الأمر ، ونتج عن ذلك تكاليف باهظة للتسليح والحرب . وتأثرت تجارتهم واقتصادهم الداخلي تأثراً عكسياً بالتضخم الكبير في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهذه العمليات تقدمت بسرعة عن طريق العودة للتكنولوجيا ، أو أكثر من ذلك عن طريق نقص التقدم في الزراعة والصناعة والنقل في بلدان الشرق الأوسط ، ويبدو أن انحرافاً كبيراً في الأسعار قد بدأ في الجزء الأخير من القرن السادس عشر . لقد كان انعكاس الشرق الأوسط للعملية الكبرى التي نتجت عن الآثار الجسام لانسياب الذهب الأمريكي والفضة الأمريكية ، والقوة المتعاقبة لهذه المعادن الثمينة ، كان أعظم في الإمبراطورية العثمانية أكثر منها في

المغرب ، ولكن أقل مما كانت في إيران والهند . وكانت البضائع الفارسية خاصة الحرير الفارسي مطلوبة جداً في البلاد العثمانية في الغرب ، حيث لا حاجة إلى مقارنة لأي ثبات بالنسبة لأي إنتاج عثماني . كان القمح والنسيج أهم الصادرات العثمانية إلى أوروبا .

وكان النسيج يتكون من بضائع مصنوعة كثيرة ، ولكن هذه التجارة أخذت في الانخفاض تدريجاً ، وظلت لوقت ما الملابس القطنية فقط بين الصادرات من الشرق الأوسط إلى الغرب . واتخذ موضوع التجارة الجانب الآخر ، إرسال المنسوجات المصنوعة بما فيها الملابس الهندية إلى الشرق الأوسط ، واستيراد المادة الخام مثل القطن والموهير وخاصة الحرير ومعظمه من إيران .

ولا عجب ، فعلى الرغم من انسياب الذهب والفضة من الغرب ، فإن الأرقام العثمانية تكشف عن نقص في المعادن النفيسة ؛ بحيث لا تكفي هذه المعادن حتى لمواجهة احتياجات صك العملة .

في حين أدرت الزراعة بعض الربح من إنتاج محصولين جديدين هما التبغ والذرة من الغرب ، فإن الموقف العام كان واحداً من المراحل التكنولوجية والاقتصادية ، إن الثروات الزراعية والصناعية في أوروبا لم تجد منافساً أو تأثيراً إيجابياً على بلدان الشرق الأوسط . واستمرت صناعة الشرق الأوسط في صورة صناعات يدوية ازدهرت حتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تتحرك نحو التطور التكنولوجي .

هذه التغيرات أثرت كذلك في المقدرة العثمانية على الإبقاء على الإمدادات العسكرية للحصول على المواد الخام الضرورية لبناء السفن ، وصناعة البنادق أو حتى بارود البنادق . وكان هذا بالتأكيد أحد العوامل التي ساعدت على تدهور التأثير العسكري العثماني ، إنها في ذاتها جزء من عملية كبرى ضعفت فيها قوة السلطة العثمانية وانخفضت بالنسبة لقوة خصومها . إن اكتشاف العالم الجديد واستعماره حول مركز تجارة العالم إلى المحيط الأطلنطي وإلى البحار المفتوحة حول الجنوب الإفريقي وجنوب آسيا . فأقاليم البحر المتوسط والشرق الأوسط على الرغم من بقائها مميزة في

صور عديدة أوشكت أن تفقد قدراً كبيراً من أهميتها الاقتصادية وبصفة خاصة هذه المزايا التي يمنحها لها موقعها المتوسط بين القارات الثلاث أوربا آسيا وإفريقيا . وعن طريق فتح المحيط انخفضت أهمية البحر المتوسط والشرق الأوسط تبعاً لذلك .

لقد شاع التحكم الاقتصادي الأوروبي في الشرق الأوسط ، وظهر في عدة صور ؛ فبينما كانت صادرات منتجات الشرق الأوسط إلى الغرب مقيدة بتعريفة ، كانت التجارة الغربية إلى الشرق الأوسط تحميها نظم لا قيود فيها . وقد استخدم تعبير Capitulation (من الكلمة اللاتينية Capitula وتعني فصول وتفسر على أنها ثيقة) في العصور العثمانية ؛ للدلالة على المزايا التي كان يمنحها للحكام العثمانيون والحكام المسلمون الآخرون البلدان المسيحية ؛ فقد كانوا يسمحون لمواطني هذه البلاد بالاستيطان والتجارة في البلاد الإسلامية بغير أن يقعا تحت طائلة المصاعب المالية التي فرضها هؤلاء الحكام المسلمون على رعاياهم من غير المسلمين . وكانت هذه المزايا أساساً تمنح باعتبارها فضلاً وإنعاماً من الحاكم الأعظم إلى سائل متواضع (وضيع) وانعكست هذه العلاقة من لغة الوثائق التي استخدمت فيها كلمات مثل التماس وخضوع حتى كلمة خدمة لوصف الرد المناسب على الاستسلام (٣).

ومع التدهور المتلاحق في قوة البلاد الإسلامية ، والتغير في العلاقة المؤثرة بينها وبين جيرانها المسيحيين ، أصبحت تتزايد العطايا بحيث زادت المزايا عما كانت من قبل وتضمنت هذه المزايا الإعفاء من الأحكام والضرائب وصار مواطنو القوى صاحبة الامتيازات لا يمثلون إلا أمام محاكمهم القنصلية . مع أواخر القرن الثامن عشر اتخذت حماية القوة الأوروبية مزايا تجارية ومالية مهمة ، وتطورت الممارسة حيث ساهمت البعثات السياسية الأوروبية بوثائق وشهادات ومستندات الحماية في امتداد هائل لحقوق امتيازاتهم . وكانت هذه الشهادات والمستندات أساساً لحماية الضباط المجندين والعملاء الأوروبيين ، كان من الممكن الحصول عليها بطرق غير صحيحة ، وكانت تمنح أعداد متزايدة من التجار المحليين كانوا في حاجة إلى امتيازات وحماية .

في البداية . . رأى الأتراك مشكلة ضعفهم وتدهورهم في الألقاب العسكرية

الواضحة ، وعـرضوا علاجاً عسكريـاً ، وأثبتت الجيوش المسـيحية تفوقاً عـلى جيوش المسلمين في هذا المجال في الأسلحة والتكنيك وفي أساليب تدريب المقاتلين المنتصرين .

وهناك مذكـرات عديدة كتبها مـسئولون عثمانـيون وكتاب عثمانـيون ، حول هذه النقطة وأحدهم ويدعى إبراهيم متفرقه Ibrahim Muteferrika وهو من المجـر ، وقد أعلن دخـوله الإسلام كتب مذكـرات طبعت في اسـطنبول سنة ١٧٣١م ، وكـانت بين أوائل ما نشر في أول صحيفة تركية أنشأها إبراهيم نفسه .

ولما كان الكتاب مخصصاً من الناحية الصورية للمسائل الإدارية والتكنيكية . . فقد كان مقسماً إلى ثلاثة أجزاء : الجزء الأول يولي عناية بأهمية النظم الحكومية المرتبة جيداً ويصف النماذج المختلفة الموجودة في أوروبا ، ويناقش الجزء الثاني قيمة الجغرافيا العلمية التي هـي مفتاح الإنسـان بحدوده وحدود جيـرانه ، بوصفـها جزءاً ضرورياً مـن الفن العسـكري ومساعداً لـلإدارة ، وفي الجزء الثالـث يراجع المؤلف الـنماذج المختلـفة من القوات المسـلحة التي أبقتهـا البلاد الأوربية ، وأساليبـهم في التدريب ، وبناء الـسلطة عندهم ، وأسـاليبهم في الـقتال والقوانين العـسكرية . وعنى إبـراهيم بمناقشـة الكفار الإفرنج ومذاهبهـم ؛ لكي يعبر عن نفسه فـي لهجة اشمئزاز من مواقفـهم ، وفي نفس الوقت وضـح في كتابه أن جيـوش الإفرنج كانت أقوى وأفـضل ، وأن العثمانـيين كان عليهم أن يقلدوهم إذا أرادوا النجاة والحياة[٣١] .

وفهم الـدرس ، ففي سنـة ١٧٢٩م وصل أحد الشـرفاء الفرنـسيين وهو الـكونت بونيفال Bonneval إلى تركيا واعتـنق الإسلام واختار لنفسه اسم « أحـمد » ، والتحق بالخدمة العثمانية ، وفي عام ١٧٣١م وكلت إليه مهمة إعداد كتيبة مسلحة بالقنابل .

وفي عام ١٧٣٤ أنشئت مدرسة هندسة عسكرية ، وفي العام التالي لذلك . . عين بونيفال Bonneval رئيس كتيبة مسلحة بالقنابل ، ومنح لقب باشا وانتهت هذه التجربة، وبدأت تجربـة أخـرى فـي ١٧٧٣م مـع افتتاح مدرسـة هندسة بـحرية ، وقد اكتـسبت المؤسسات العسكريـة أهميتها من الغرب ، وبصفة غالبة مـن فرنسا ومن الدول الأوربية الأخرى التي كانت تقـوم بتدريب الضباط الأتراك على فنون القـتال الحديثة ، وتمخض

ذلك عن نتائج هامة . لقد تضمنت علاقة جديدة بين المعلمين الكفر والتلاميذ المسلمين كان عليهم عندئذ أن يحترموا مرشديهم الذين اعتادوا أن يحتقروهم من قبل . وكان عليهم أن يقبلوا تركيباً من اللغات ، لم يحسوا من قبل بالحاجة إلى تعلمه ، وكان عليهم أن يتعلموا كيف يفهمون معلميهم ، وكيف يقرأون كتب الفنون العسكرية والفنون اليدوية . . لقد تعلموا ذات مرة اللغة الفرنسية ، فوجدوا أمر القراءة ممتعاً وأكثر إثارة .

ولقد شهدت هذه الفترة نفسها ابتداعاً آخر جديراً بالمقارنة - صناعة الطباعة تلك التي قام إبراهيم متفرقه Ibrahim Motefrrika بدور هام . وقد جاءت الطباعة إلى تركيا من أوروبا عن طريق المهاجرين اليهود قبل نهاية القرن الخامس عشر ، وأنشئت المطابع اليهدية في اسطنبول وسالونيك ومدن أخرى . وتبع اليهود الأرمن اليونان الذين أنشئا أيضاً مطابع بلغاتهم في المدن العثمانية ، وقد صممت بطريقة لا تطبع معها أي كتب تركية أو عربية . وظل لهذا الحرمان أثره حتى أوائل القرن الثامن عشر عندما تغيرت الحال ، ويرجع الفضل كل الفضل إلى ما بدأه سيد شلبي Said Celebi ابن السفير الذي أرسل إلى باريس سنة ١٧٢١ . وظهر الكتاب الأول في فبراير سنة ١٧٢٩ . وعندما أغلقت المطابع بطريقة إجبارية في سنة ١٧٤٢م . . كان قد طبع سبعة عشر كتاباً ، أغلبها يتعلق بالتاريخ والجغرافيا . وأعيد فتح المطابع في سنة ١٧٨٤ منذ أن انتشرت الطباعة في كل أرجاء الشرق الأوسط ، وظل التأثير الغربي مع ذلك نسبياً لوقت طويل ، والسبب الرئيسي لذلك هو أن تغلغل الأفكار الأوروبية وصل إلى مجموعة صغيرة من السكان . وحتى هذا الصدام المحدود . . كان أحياناً يعكس حركات ردود فعل مثل تلك الحركة ، التي أدت إلى تحطيم أول مطبعة تركية في سنة ١٧٤٢ . وإذا كانت الهزيمة العسكرية هي الدافع المنهج الرئيسي لزيادة قبول الأفكار الغربية . . فإن تأثير هذه الهزيمة قد أخذ يضعف إلى حد ما في أوائل القرن الثامن عشر، عندما كان العثمانيون لوقت ما قادرين على إحراز بعض النجاح . ولكن الدافع تجدد عن طريق قوة غير لاهية عن تتابع الأحداث في نهاية القرون الثامن عشر ، وكانت الضربة الأولى هي معاندة كياناريا Kucuk Kianaria سنة ١٧٧٤ ، التي اعترفت

بالهزيمة العثمانية الساحقة على أيدي الروس ، ووضعت مزايا خاصة بالحدود ومزايا سياسية وتجارية . أما الضربة الثانية . . فقد كانت اتصال روسيا بكريميا سنة ١٧٨٣م ، وعلى الرغم من أن هذه لم تكن الخسارة الأولى المتعلقة بالحدود . . فقد ترك هذا تغييراً هاماً . وكانت الخسائر السابقة خاصة بالدول المهزومة التي يسكنها سكان مسيحيون مع مجموعات قليلة فقط من الحكام الأتراك والمستوطنين الأتراك ، أمام كريميا فقد كانت مختلفة فشعبها من المسلمين المتحدثين بالتركية الذين كان وجودهم في كريما يرجع تاريخه إلى الفتوحات المغولية من القرن الثالث عشر ، وربما قبل ذلك ، وكان هذا أول تراجع لحدود المسلمين القديمة التي تسكنها شعوب مسلمة ، وكانت هذه ضربة قاسية ضد كبرياء المسلمين .

وأما الصدمة الثالثة . . فقد جاءت من فرنسا التي بعثت سابقاً غزواً صليبياً ضد أراضي المسلمين في الشرق الأوسط . ففي عام ١٧٩٨م . قام بونابرت بحملة فرنسية على مصر ، وكانت عندئذ ولاية عثمانية . واحتلها بعد مقاومة ضعيفة . كانت مدة الاحتلال الفرنسي قصيرة وعادت مصر مرة ثانية إلى الحكم الإسلامي . وبذلك اتضحت أهمية الموقع الاستراتيجي والضعف العسكري للدول العربية .

وهناك نتيجة أكبر لهذا الحدث الثالث وهي التغلغل داخل الأراضي الإسلامية ، تغلغل أفكار الثورة الفرنسية الجديدة ، وكانت هذه هي الحركة الأولى للأفكار في أوروبا لتحطيم الحدود التي تفصل عالم الكفار عن عالم الإسلام ، ولممارسة التأثير على التفكير الإسلامي والعقل الإسلامي . وأحد أسباب هذا النجاح حيث فشلت كل الحركات السابقة ، هو بلا شك أن الثورة الفرنسية كانت عَلَمَانيَّة اجتماعية وعقلية في أوروبا ؛ لوجود تعبير أيديولوجي من مصطلحات غير دينية . مثل هذه الحركات الأوروبية الأولى مثل عصر النهضة والإصلاح والثورة العلمية والتنوير ، التي مرت بدون تأثير في العالم الإسلامي ، حتى دون أن يلاحظ .

وربما كان السبب الرئيسي في ذلك أنها حركات مسيحية الصورة ، ولذلك أغلقوا المدخل بوسائل دفاع عقلية إسلامية .

والعلمانية بطبيعة الحال ليست لها جاذبية خاصة للمسلمين ، بل العكس تماماً . لكنه في ظل هذه الأيديولوجية العلمانية أو المحايدة من الناحية الدينية ، فلعل المسلمين كانوا يأملون في اكتشاف تميمة تعطيهم أسرار المعرفة الغربية والتقدم الغربي ، دون الإضرار بتقاليدهم الخاصة وأسلوب حياتهم الذي يرفض المسيحية بمذاهبها المتعددة .

وفي البداية . . فإن صفوة الحكم التركي لم ينظروا إلى الأحداث في هذا الضوء ، ولما انتشرت الثورة من فرنسا إلى بلاد أوروبية أخرى ، كانوا ما يزالون يرونها أمراً يتعلق بالشئون الداخلية لفرنسا ، أو على الأكثر شأناً داخلياً مسيحياً . والامبراطورية العثمانية ؛ باعتبارها دولة مسلمة لم تكن تزعجها هذه الفوضى ، أو تشغلها الوقاية من عدوى هذا المرض المسيحي . وبعضهم كان يرى فيها مزايا ممكنة .

وفي يناير ١٧٩٢ . . لاحظ أحمد افندي السكرتير الخاص للسلطان في حياته اليومية أن الثورة بصرف النظر عن الاهتمام بالقوى الأوروبية ، قد جعلت الحياة أيسر بالنسبة للعثمانيين ، لقد انتهى في حديثه التقى قائلاً : "اللهم اجعل الثرة في فرنسا تنتشر مثل مرض الزهري لأعداء الآخرين للدولة (الامبراطورية) ، تقذف بهم في نزاع طويل كل مع الآخر ، وكذلك حقق للامبراطورية كل نتائج الخير . . آمين" [٣٢].

ولاشك في أن هذا الاعتقاد في أن المعافاة قد أدى بالأتراك إلى رفض العرض الروسي للعمل المشترك ضد فرنسا ، حتى الطلب الأكثر اعتدالاً رفضوه وهو الذي جاء به مبعووثن من النمسا ، ومن بروسيا ، وكذلك من روسيا ، وهو وقف الرجال الفرنسيين في تركيا عن ارتداء تلك الشارة ذات الألوان الثلاثة .

وها هو المؤرخ العثماني جودت باشا يسجل الحوار التالي :

أتى ذات يوم رئيس الترجمان النمساوي إلى رئيس سكرتارية رشيد أفندي، قال له: فليعاقب الله هؤلاء الرجال الفرنسيين بقدر ما يستحقون من عقاب : لقد سببوا لنا ندماً شديداً من أجل السماء . ليعاقبهم الله إذا ما استطعتم نزع هذه الشارات من فوق

رءوسهم ، وردّ رشيد أفندي على ذلك قائلاً : "لا يلفت أحدنا إلى هذه الشارات الخاصة بهم - إننا نعامل تجار الدول الصديقة معاملة الضيوف وما يلبسون من علامات على رءوسهم . . فإنه ليس من شأن الباب العالي أن يسأل عن السبب الذي جعلهم يفعلون ذلك . إنكم تزعجون أنفسكم بغير داع" (٣٣).

وفي أكتوبر ١٧٩٧م . . وفقاً لمعاهدة كامبوفورميو ، صفى الفرنسيون حساباتهم مع دولة فينيسيا والامبراطورية وشاركوا في امتلاكها مع النمسا .

لقد وصلوا هم أنفسهم إلى الجزر الأيونية وبعض الأماكن بالسواحل الخاصة بألبانيا واليونان ، وفرنسا وتركيا اللتين كانتا صديقتين عدة قرون أصبحتا الآن متجاورتين ، ودخلت الصداقة القديمة في حوار مع المواطنين اليونانيين في الجمهورية الفرنسية يأتي حالا الباب التالي إلى اليونان العثمانية ، لا يمكن أن يختفي التناقض ، ولا أن يبتعد الاتفاق . فقبل وقت طويل بدأ الحاكم العثماني في المورة Morea "موريا" في إرسال تقارير إلى اسطنبول .

إنه يقول أن الفرنسيين على الرغم من صداقتهم للباب العالي . . فإن لهم خططاً خطيرة ضده . وبصفتهم ورثة فينيسيا . . فإنهم كانوا يخططون أيضاً للعودة إلى أملاك فينيسيا السابقة الأخرى ، مثل جزيرة كريت والمورة Morea نفسها . حتى ذلك لم يكن هو كل شيء .

فقد كانت هناك تقارير إنذار حول المقابلات والاحتفالات خلف حدود الامبراطورية مباشرة بأحاديث وخطب حول الحرية والمساواة ، وحتى عن استرداد ألوان المجد القديم لليونان (٣٤) . هذه المرة عندما تحدث السفير الرسي الجديد عن هذه الأمور ، وعن تهديد أساليب الحكم القائمة الموضوع ، والمفروضة من خلال الأفعال في فرنسا ، وكان الباشاوات أكثر انتباه . . فقد كتب أحمد عاطف أفندي رئيس السكرتارية العثمانية ، مذكرات عن المحادثات الكبرى للدولة ، يناقش فيها الدعوة النمساوية والروسية للعثمانيين للاتحاد ضد فرنسا لسحقها ، ولمنع الثرة من الانتشار . . لذلك فالرواية تحتاج إلى بعض التفسير ، وقد رواها أحمد عاطف أفندي على النحو التالي :

* على ضوء الملاحظات الجارية . . فإن السؤال ينبغي أن يوضع مضع الاعتبار هو: هل الامبراطورية تخضع لنفس الخطر مثل الدول الأخرى ، أو أن الأمر ليس كذلك ؟ رغم أن الامبراطورية اختارت طريق الحياد منذ بداية هذا النزاع ، فلم تكف عن إظهار الصداقة ومنح المساعدة بأسلوب فاضل لجمهورية فرنسا . وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسا في مأزق صعب للغاية ، وأصيبت بمجاعة وقحط . . سمحت الامبراطورية ، باستيراد المواد والإمدادات الوفيرة من الأماكن التي يحرسها الله ، وسمحت بخروج وسائل النقل بها إلى موانئ فرنسا ، وهكذا . .

فقد أنقذتهم من شرور الجوع . ومن ناحية أخرى . . فإن الجمهورية الفرنسية وقادتها لم يكفوا عن محاولة إثارة رعايا الامبراطورية . وبصفة خاصة منذ زمن تقسيم فينسيا ، لقد استولوا على الجزر وأربع مدن في الأرض الرئيسية بالقرب من أرتا Arta وتدعى بوترنتو Butrinto وبارجا Parga وبيفزا Paeveza وفونتيزا ، إن محاولتهم استعادة صورة الحكومة اليونانية القديمة ، وإقامة نظام حكم في هذه المناطق يكشف عما وراءه دون أي حاجة إلى التعليق التفسير للنوايا الشريرة في عقولهم [٣٥] .

وهنا مرة ثانية . . فإن الرعايا اليونانيين والمسيحيين الآخرين للامبراطورية كانوا يعدون قابلين للإصابة الجرح ، وليس المسلمين أنفسهم . ولكن في أول يوليو ١٧٩٨ هبطت حملة بونابرت على مصر ، وبدأت فترة جديدة من التاريخ الإسلامي . إن عدم المعرفة والارتياب الإسلامي في ذلك الوقت . . قد انعكسا على ظن ، صرح به المؤرخ المصري الجبرتي في تاريخه الذي أرخ فيه يوماً بيوم لهذه الوقائع ، التي لم تحدث من قبل :

في العاشر من المحرم ١٢١٣ هـ (٢٤ يونيه ١٧٩٨م) . . وردت مكاتبات على يد الساة من ثغر الإسكندرية تفيد أنه "حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز ، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر ما يريدون ، وإذا بقارب صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار ، فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد - والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم - فكلموهم واستخبروهم عن

غرضهم ، فأخبروا أنهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس ؛ لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يـريدون جهة من الجهات ، ولا ندري أيـن قصدهم فربما دهموكـم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكـنون من منعهم . فلم يقبل السيد محـمد كريم منهم هذا القول ، وظن أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن . فقـالت رسل الإنكليز . "نحن نقف بمراكبنا في البـحر محافظـين على الثغـر لا نحتاج مـنكم إلا الإمداد بالمـاء والزاد بثمنـه" فلم يستجيبوا لذلك ، وقـالوا: "هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا لـغيرهم عليهم سبيل . . فاذهبوا عنـا" فعندها عادت رسل الإنكيز وأقلعوا في البحـر ليمتاروا من غير الإسكندرية . . وليقضي اله أمراً كان مفعولاً .

وفي يوم الأربعاء ، العشرين من نفس الشهر وصلت رسائل من الميناء السكندري ، وكذلك من رشيد Rosetta ومن دمنهور تقول أنه في يوم الإثنين ، الثامن والعشرين من المحرم ، وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن في يوم ثامن عشرة (١ يوليو ١٧٩٨م) وردت مراكب وعمـارات للفرنسيـس كثيرة ، . . . . . ، وطلعـوا إلى البر ، ومعهم آلات الحرب والـعساكر ، فلم يشعـر أهل الثغر وقت الصبـاح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد" [٣٦] .

تناقش الجبـرتي ومعاصروه في مصر طويلاً بـعد رحيل حملة بونابـرت على مصر حول الوصول والأفعال والنـشاطات ، فلم يعيروا أي انتباه أو اهتمام لـلتاريخ الداخلي لفرنسا . وصل الـفرنسيون ومكثوا فترة وقـاموا بأفعال وأمور مختلفـة ثم رحلوا ، ولم يهتم أحد بأن يسأل عن سـبب مجيئهم ثم رحيلهم . مجيء الكفـار كان ينظر إليه على أنه نوع من الكوارث الطبيعية ، فكلما قل الخـضوع للسيطرة قلت الحاجة إلى التفسير ، وواحد منهـم فقط مسيحي لـبناني يدعى نـيقولاتورك Necolaturk حاول وضع نـبذة مختصرة جداً عن الثورة الفرنسية كمقدمة لتاريخه المصري من ١٧٨٩ إلى ١٨٠٤ :

إننا نبدأ بتاريخ ظهور الجمهورية الفرنسية في العالم ، بعد أن قتلوا ملكهم ، وهذا في بداية عام ١٧٩٢ من التقويم المسيحي ، التي توافق عام ١٢٠٧ للهجرة الإسلامية في هذا العام هب شعب المملكة الفرنسية بكل طوائفه ضد الملك والأمراء والنبلاء ، مطالبين

بنظام جديد وبتقسيم جديد ضد النظام القائم ، الذي كان موجوداً في عهد الملك . لقد زعموا وأكدوا أن قوة الملك "قد سببت دماراً عظيماً في هذه المملكة ، وأن الأمراء النبلاء كانوا يتمتعون بكل شيء جميل في هذه المملكة ، في حين أن بقية الشعب كان يعاني البؤس والشقاء ، ولهذا السبب . . فقد هبوا جميعاً في صوت واحد وقالوا : "لن يتبقى لنا أمان سوى بتنازل الملك وإقامة الجمهورية" وكان هناك يوم عظيم في مدينة باريس وكان الملك وبقية رجال حكومته والأمراء والنبلاء خائفين ، وأتى الشعب إلى الملك وأبلغوه بهدفهم [٣٧] .

ويستمر نيقولا في تفكيره المعقول والدقيق في سرد الأحداث ، التي تبعث ذلك في فرنسا وفي بقية أوروبا أن تغلغل الفرنسيين إلى قلب الشرق الأوسط المسلم ، وظهور الإنجليز على أنهم قوة وحيدة تستطيع التصدي للفرنسيين ، أحدث صدمة قاسية لسعادة وراحة المسلمين ، ولم يكن ذلك فقط ، فبينما كان الإنجليز والفرنسيون يزحفون بعملياتهم العتيدة على شرق البحر المتوسط . . كان الروس مستمرين في تقدمهم نحو الجنوب ، وبدأت صورة جديدة في ١٧٨٣ بالاتصال مع كريميا . ومن هناك تقدم الروس بسرعة في كل اتجاه عبر الشواطئ الشمالية للبحر الأسود ؛ فيضمون الأراضي التي كان يحكمها الأتراك سابقاً ويقيمون فيها هم والتتار والشعوب الإسلامية الأخرى ، وأدى هذا إلى حرب جديدة مع تركيا في نهاية ١٧٩٢ العام الذي اضطر فيه العثمانيون إلى الاعتراف بالعلاقة الروسية بخانات التتار ، وقبول نهر كوبان Kuban في سيركاسيا حداً فاصلاً بين الامبراطوريتين الروسية والعثمانية ، لقد أنهى الروس قرون السيطرة الإسلامية الطويلة على البحر الأسود ، وكانوا يهددون كذلك إيران حيث قامت مملكة جديدة ، وحاول الـ « قاجار » Qajars استرداد الأراضي القوقازية التي سلبتها روسيا ففشلوا . وبمواجهة الغزو الفارسي لجورجيا لجأوا للحماية الروسية ، ووفي يناير ١٨٠١ أعلن انضمام جورجيا إلى الامبراطورية الروسية ، وتبع ذلك في سنة ١٨٠٢ إعادة تنظيم داغستان والأراضي التي بين جورجيا وبحر قزوين ؛ بوصفها حماية روسية ، وكان الطريق عندئذ واضحاً للهجوم على إيران ، ذلك الهجوم الذي بدأ ١٨٠٤ ، ونتج عن ذلك أن ضمت روسيا أرمينيا وشمال أذربيجان .

وفي ذلك الوقت .. ترك الفرنسيون مصر ، ولكن كان هناك خوف من أن يعودوا مرة ثانية ، ولقد أحدث الوجود البريطاني ارتياحاً "اطمئناناً قليلاً" ولقد عكس المؤرخ نيقولا بوضوح فزع المسلمين من هذا التهديد المزدوج من أوروبا الغربية والشرقية :

في هذا الشهر (فبراير ١٨٠٤) ..جاءت تقارير إلى البلد من أجزاء أخرى ، بعث إليها الفرنسيون قوة عظيمة من البحر المتوسط لسفن عديدة وقوات كثيرة ، وكان الناس في الشرق في خوف عظيم من ذلك ، وقد شاع أن الإنكليز أتوا كذلك بسفن ورجال إلى الإسكنرية ليحموا أرض مصر من الفرنسيين ، كثرت هذه الشائعات ولم تكن عقول المصريين بسيطة أو سهلة بخصوص هذه البلاد الأوروبية ، لأنهم شهدوا معاركهم البحرية وجسارتهم ، وقال الشعب إن واحداً أو آخر من الملوك الإفرنج كان ينوي الاستيلاء على أرض مصر ؛ لأنهم رأوا نقص شجاعة الرجال المسلمين في شئون الحرب وشن المعارك ونقص ثباتهم .

في ذلك الوقت .. كانت شائعات عن السلطان قنسطنطين Constantina شقيق السلطان الإسكندر سلطان روسيا المعرف باسم موسكوب Muskub تقول إنه أخذ مملكة جورجيا ، واستولى على أراضي الفرس ، وتوجه نحو بغداد .

وكانت الدولة العثمانية في فزع شديد من هذا السلطان الذي لقب بـ « الصخرة الصفراء Yellow Rock أو الهمجي الأصفر Yellow Barbarian ؛ وكانت لدولة موسكوفيت Muscovite حروب عديدة ومعارك كثيرة مع الدولة العثمانية ، منذ عهد السلطان أحمد الذي تولى قفي عام ١١١٥ (١٧٠٣) حتى زمن السلطان سليم الذي تولى ١٢٠٣ (١٧٨٩) ، وكانت هذه الامبراطورية تكبر وتنتشر وتتوسع بدون توقف ، تصطلم الشعوب وتستولي على الأراضي وتكسب المعارك حتى عام ١٢١٨ (١٨٠٤) لقد صارت قوية وأي قوة . وكان الوقت مناسباً لهم ، واستولت الدولة على أراضي التتار وأراضي جورجيا والأراضي الفارسية . وبدأت هذه الدولة تتوسع وتنمو وسوف يستمر هذا إلى ما شاء الله [٣٨] .

لم يرجع الفرنسيون في واقع الأمر . وبعد السلام الذي تم في ١٨٠٢ انسحبوا من كل مصر والجزر الأيونية ، ولم تعد فرنسا - جارة تركيا - قادرة على أن تصل إلى الأتراك بأفكارها . فخطابات السفير خالد أفندي Haltefandi وهو السفير التركي في باريس من ١٨٠٣ إلى ١٨٠٦ تكشف الآتي :

إنني أناشدكم الدعاء والصلاة من أجل عودتي سالماً من أرض الكفار هذه ، إنني أجيء من باريس ولكنني لم أجد تلك الأراضي الإفرنجية التي تتحدث عنها الشعوب وتمتدحها ، وأي بلد أوروبي هذا الذي يمكن أن توجد فيه أشياء رائعة وحكماء إفرنج ؟ لا أعرف بلداً منها على هذا النحو .

العظمة لله أي عقول ومعتقدات تلك التي يتميز بها هؤلاء الشعوب ؟! إنه لأمر غريب ، إن أرض الإفرنج هذه التي فاضت آذاننا بكلمات المديح عنها وقتاً طويلاً ليست كذلك ، بل هي على العكس مما قيل عنها . . .

وإذا سألكم أي فرد - بنية تخويفكم أو إجباركم على مديح مضلل- هذا السؤال:

"هل سافرت إلى أوروبا أو لا ؟ فعلاً سافرت وتمتعت فترة" ، فثق إنه عميل وجاسوس للإفرنج . وإذا قال "لا ، لم أسافر ، إنني أعرف أوروبا فقط من كتب التاريخ" عندئذ فإنه أحد أمرين : إما أنه حمار يقبل ما يكتبه الإفرنج ، أو أنه يمدح الإفرنج بعيداً عن التعصب الديني[٣٩] .

إن الافتراض في العبارة الأخيرة السابقة هو أن أي فرد يمتدح الإفرنج هو نفسه - مسيحي - ربما مسيحي عثماني - ويمتدح رجال الدين الأوروبيين الذين يشترك معهم في هذه الصفة .

كان خالد أفندي متحمساً كارهاً لما يتعلق بالغرب ، ولكن خطاباته تبين كيف كان التأثير الفرنسي القوي فصار على هذا النحو . إن انتشار الأفكار الفرنسية حتى في اسطنبول أكده المؤرخ الامبراطوري أحمد سليم أفندي ، الذي كتب تاريخاً عن الفترة بين ١٧٩١-١٨٠٨ ، وكان لديه ما يقوله عن النشاطات الفرنسية في تركيا .

لقد حيروا العقول ، ليس فقط عقول الدولة ، لكن أيضاً عقول عامة الناس . ولكي ينشروا أفكارهم الهدامة . . فقد بحثوا عن الاشتراك مع المسلمين ، يخدعونهم بشعارات الصداقة والإرادة الطيبة ، وهكذا من خلال منهج اجتماعي مألوف وجدوا ضحايا كثيرين .

يتعلم بعض أصحاب النزوات المجردين من ثوب الولاء ، من وقت لآخر ، السياسة منهم وبعضهم لرغبته في تعلم لغتهم اتخذوا معلمين فرنسيين ، ينشرون مصطلحاتهم ويفخرون بأنفسهم . . بحديثهم اللفظ . ولهذه الصورة . . كان في مقدور الفرنسيين أن يغزوا عقول بعض الناس ذوي العقول الضعيفة والإيمان المذبذب ، أما أصحاب العقول الذكية وسفراء الدول الأخرى جميعهم رأوا خطر الموقف ، المليء بالإنذار ، لقد لعنوا وأدانوا هذه الأمور سواء البسيطة أو المعقدة ، وأعطوا إنذاراً بالنتائج والعاقب الوخيمة التي تنشأ عن أفعالهم . أما المجموعة السيئة القصد والفرق الكريهة فمشبعة بالحيل والخداع ، يبذرون في البداية بذور سيئاتهم في قلوب العظماء في الدولة ، ثم بعد ذلك التحريض والإغراء في أساليب تفكيرهم ، وذلك للهدم والتقويض - يحفظنا الله - لكل مبادئ الشرع [٤٠] . . . لقد دخل التأثير الغربى فى الشرق الأوسط مرحلة جديدة وعنيفة .

الفصل الثاني

نظرة المسلمين إلى العالم

ابتدع العالم الغربـي على مر القرون عديداً من الوسائل لتقسـيم الجنس البشري ، فقـد قسـم اليونانيون العالم إلى يونانيين وبـرابرة ، كما قسم اليهـود إلى يهود وأمم أخـرى . وفي فترة متأخرة ابتـكر اليونانيون أيضاً تصنيفاً جغرافياً يـظهر فيه العالم على أنه مكون من قارات هي : قـارتهم أوروبا ، وآسيا التي تقع على الجـانب المواجه لبحر إيجه ، وخلف الشـاطئ الإيجي عند نهاية المنطـقة التي أطلق عليها اسـم آسيا الصغرى كانت تبدو آسيا الكبرى ، ولقد كان اسـم آسيا يعطي امتداداً أوسع . وبمرور الوقت تم تجزئة آسيا (اللا - أوروبية) إلى أقسام .

أما الجزء الذي يقع على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط . . فقد أطلق عليه أسماء يونانية لاتينية جديـدة . لقد أطلق عليه أولاً ليبيا ، وفيما بعد أطلـق عليه أفريقيا - أما بالنسبـة للأوروبيين فإن العالم خـلال فترة العصور الوسطـى كان مقسماً بين المسـيحيين والوثنيين ، ثم بعد ذلك بين الممالك المسيحية والملكية . ولقد تبنى العالم الحديث مفهوم دولة الشعب على إنه تصنيف أساسي محدد للهوية واللاء .

أما النظـرة الإسلامية للعالم وشـعوبه . . فكانت مخـتلفة اختلافاً تامـاً من حيث التركيب فلم يعرف كتاب التاريخ والجغرافيا المـسلمون حتى القرن التاسع عشر شيئاً عن الأسماء التي أطلقها الأوروبيون على القارات وكانت آسيا غير معروفة لهم ، كما كانت كلمة أوروبا بالنسبة لهم غـير محدودة ويطلقون عليها Urufa ، ولم تكن تذكر إلا في إشارة عابرة ، في حين أن مصطلح أفريـقيا كان قد عرب إلى إفريكيا Ifriqiya وظهرت فقط كإسم للمغرب العربي الذي يشتمل على تونس Tunisia والمناطق المجاورة .

وقد قسم الجغرافيون المسلمون العالم إلى أقاليم وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Clima ولكن يعتبر هذا التصنيف تصنيفاً جغرافياً بحتاً ، ليس له مغزى سياسي أو ثقافي ويدل على ذلك أسماء القارات في سياق الكلام العربي والحديث . ولم تشر الكتابات التاريخية الإسلامية مرجعياً للأقاليم Iqlims ، بل يبدو أنها لم تكن تشغل مكاناً في الوعي النفسي المشترك للشعوب الإسلامية .

وبالرغم من أهمية تقسيم العالم إلى أقطار وأمم بالنسبة للعالم الغربي من حيث إدراك الذات والممتلكات . . فإن هذا التقسيم لم يكن يحمل نفس الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامي . وتعتبر التقسيمات الإقليمية ذات أهمية قليلة جداً لدرجة أن كثيراً من البلدان تتساوى في افتقارها إلى اسم مجرد للبلد ، وقد نتج عن الدويلات الحديثة التي قسم إليها العالم الإسلامي نسبة كبيرة وملحوظة من الأسماء وهي تعتبر تكوينات جديدة . وبعض هذه الدويلات مثل سوريا وفلسطين وليبيا جاءت من العصور الكلاسيكية القديمة . وبعضها الآخر مثل العراق وتونس كانت أسماء مقاطعات في العصور الوسطى ، في حين أن بعضها الآخر مثل باكستان يعتبر بكل تأكيد أحد التكوينات الجديدة .

وعلى الرغم من قدم كلمة "عربية" Arabia وتركيا وقدم شعوبهما ؛ فإن هذه الكلمات تعتبر دخيلة دخلت حديثاً عن طريق العالم الغربي ولم يكن لدى العربي تسمية إقليمية لكلمة Arabia ولكنه أجبر على استخدام هذا التعبير للمنطقة ، أو لشبه جزيرة العرب .

كذلك فإنه مع أن الاسم "تركي" Turkey قد استخدمه الغربيون لقرون عديدة ، فإنه قد عدل إلى Turkish واستقر على هذا الاستخدام في القرن العشرين فقط ، وذلك نظراً لتسمية القطر الذي كان يطلق عليه من قبل أسماء الأسر الحاكمة أو أسماء إقليمية . وغالباً ما نجد أن نفس الاسم قد استعمل في الاستخدام الكلاسيكي ليدل على البلد أو المقاطعة وعلى المدينة الرئيسية للبلد . وغالباً ما كان اسم المدينة يطلق على المنطقة المحيطة بها . ولم تحدد أي سلطة التسميات الإقليمية قبل القرن التاسع عشر ، بل

على العكس كانت التسمية الإقليمية تستعمل للملكية التي كان ينظر إليها كدولة مستقلة . ويصدق هذا أيضاً بالنسبة لاستخدام أسماء السلالات البشرية بالرغم من أنها قليلة الوجود .

ولقد شكلت التكوينات الخاصة بالسلالات البشرية كالعرب والفرس والاتراك بصورة بارزة في الأدب والثقافة الإسلامية ، كما كانت اللغة والثقافة هي التي تحدد تكوين مجموعة أو أخرى ، وأحياناً كانت السلالة جزءاً مهماً من الوعي النفسي للفرد المسلم . ومن النادر وجود أي مغزى سياسي لها فلم يعتمد الحكام المسلمون في سيادتهم أو صياغة ألقابهم على أسماء الأمم ، وكذلك لم يكن ينظر إلى السلالات البشرية أو اللغة أو الإقليم ، على أن ذلك أساس لقيام نظام الدولة .

وينقسم الجنس البشري من خلال الرؤية الإسلامية للعالم إلى "دار الإسلام" Dar al- Islam ودار الحرب Dar al- Harb . ويتكون دار الإسلام من كل البلدان التي تنتشر فيها الشريعة الإسلامية ، وهي بصفة عامة الإمبراطورية الإسلامية . أما دار الحرب فتتكون من بقية العالم ، ذلك أنه مثلما يوجد إله واحد في السماء ، فيجب أن تكون هناك سلطة واحدة ، وقانون واحد في الأرض . ومن وجهة النظر المثالية ، فإن دار الإسلام كان يجب أن تتكون من رعية واحدة ، وتحكمها دولة واحدة وترأسها سلطة واحدة . ويجب على هذه الدولة أن تتحمل وتحمي الأميين الذين أصبحوا تحت حكمها نتيجة للفتوحات ، باعتبار أن هؤلاء ليسوا مشركين ، وإنما هم أتباع لديانات مسموح بها . ولكن منطق الشريعة الإسلامية لم يقر وجود أي دستور دائم غير الإسلام . وطبقاً للنظرة الإسلامية ، فإنه بمرور الوقت سوف يقر الجنس البشري كله الإسلام ، أو أنه على الأقل سوف يمتثل للشريعة الإسلامية . وفي أثناء ذلك الوقت ، فإن واجب المسلمين الديني هو النضال حتى تتحقق هذه الغاية .

والإسم الذي أطلقه الفقهاء المسلمون على هذا النضال ه كلمة "جهاد" Jihad وهي كلمة عربية تعني العناء والكفاح ، ويطلق على الإنسان الذي يقوم بأداء واجب الجهاد لقب "مجاهد" Mujahid .

ولقد ذكرت هذه الكلمة مرات عديدة في القرآن للحث على الحرب ضد غير المؤمنين ، وكان هذا هو معنى الكلمة العادي خلال القرون المبكرة للتوسع الإسلامي. وطبقاً للشريعة Shari'a فإنه كان يوجد قانون مقدس بين دار الإسلام ودار الحرب ، ولقد صاغ الفقهاء التقليديون هذا القانون الذي أجبرت دولة الحرب على الخضوع له من الناحية الدينية والقانونية ، ومن الممكن أن يؤدي هذا القانون في نهاية الأمر إلى إخضاع الجنس البشري كله . وهكذا فإنه من الناحية الفقهية من المستحيل أن تكون هناك معاهدة بين دولة مسلمة وأخرى غير مسلمة والحرب هي وحدها التي يمكن أن تؤدي إلى انتصار الإسلام العالمي ، ومن المستحيل أن تنتهي هذه الحرب ، ولكن من الممكن فقط أن تتم أثناءها هدنة لأسباب خاصة ، أو لاستغلال الظروف . ووفقاً لرأي الفقهاء . . فإن مثل هذه الهدنة من الممكن أن تكون مؤقتة فقط ، فهي لا يمكن أن تتجاوز عشر سنوات ، ويستطيع المسلمون أن يتبرءوا منها في أي وقت من جانب واحد ، كما أجبرتهم الشريعة الإسلامية على توجيه إنذار للجانب الآخر قبل استئناف الاعتداءات .

وحتى في خلال هذه الفترات التي اتسمت بالسلام كان الاتصال مع الوثني ممنوعاً . وتميز الشريعة الإسلامية بين الأفعال التي كانت يمنع فعلها (أو ما يطلق عليها حرام Haram) وتلك التي كان ينظر إليها كأعمال مكروهة . والذهاب إلى دار الحرب هو افتداء الأسرى ، حتى الغرض التجاري لم يكن مقبولاً بالرغم من أن بعض المؤلفين قد سمحوا بشراء المواد الغذائية من الأراضي المسيحية في حالة الضرورة القصوى [1] .

ولقد اتخذت عقيدة الجهاد - مثلها في ذلك مثل أغلب أركان الشريعة - شكلها التقليدي خلال القرن الأول فيصف المنطقة الإسلامية ، عندما كانت الجيوش العربية تتقدم تجاه فرنسا وبيزنطة والصين والهند ، ولم يكن الانتصار النهائي والعالمي للإسلام حتمياً ؛ بل كان على وشك الحدوث وقد بدأت تظهر بعد ذلك ثغرة في هذه الحالة بين القاعدة القانونية والواقع السياسي (وذلك كما حدث في الحالات الأخرى) ولقد تجاهل الحكام والجنود هذه الثغرة وبذل الفقهاء قصارى جهدهم لإخفائها . ولقد انقسمت الدولة الإسلامية الوحيدة التي كانت موجودة في الواقع ؛ خاصة خلال القرن الأول

والثاني إلى دويلات أصغر ، ووصلت عقيدة الجهاد المستمرة ، والتي لا يمكن أن تقاوم إلى نقطة النهاية ، وبمرور الوقت .. نشأت علاقة متبادلة متسامحة بين العالم الإسلامي وبقية العالم ، وظل بقية العالم أيضاً باسمه كدار للحرب ، ولكن إخضاع بقية العالم أرجئ لمرحلة تالية .

وفي نفس الوقت ظهر إلى الوجود عدد قليل أو كثير من الحدود الثابتة بين الدولة المسلمة وغير المسلمة ، وكان السلام فيها يعتبر هو الحالة أو السمة الغالبة . ولقد خرق هذا السلام الغارات وغيرت الحروب الحدود الثابتة ، فمنذ عصر إعادة الفتح والعصر الصليبي كانت هذه التغيرات الحادثة في الحدود تتشابه تماماً مع تغيرات الحدود أمام الزحف الإسلامي .

ولقد طرحت هذه التغيرات والتصرفات الناتجة عنها في العلاقات السياسية والاقتصادية مع العالم الخارجي مشكلات جديدة أمام الفقهاء ، ولقد اكتفى الفقهاء بتفسيرات على درجة من القيمة في هذا المجال ؛ فأعيدت صياغة وتفسير واجب الحرب المقدسة مرة أخرى . وأصبح من الممكن أن تتوقف الاعتداءات نتيجة لهدنة مؤقتة ، ولكن ظل في الإمكان تجديد مثل هذه الهدنة كلما تطلب الأمر ذلك ، وبهذا .. أصبحت دولة الإسلام منظمة من الناحية القانونية .

لقد أقر بعض الفقهاء المكانة المتوسطة لدار الصلح أو دار العهد (Dar al - Sulh or Daral - Ahd) بين دار الحرب ودار السلام. ويعقد هذا العهد بين عدد من الدول غير المسلمة التي لها علاقة تعاقدية مع دولة الإسلام ، ومن خلالها أذعنت لسيطرة المسلمين ، وقامت بدفع الجزية مع احتفاظها - إلى حد ما - بشكلها الذاتي الخاص بالحكومة . وكان بعض الحكام المسلمين ومستشاريهم من الفقهاء ينظرون إلى الهدايا على أنها جزية ، ولهذا وسعوا مجال المعاهدة ؛ بحيث تغطي مجالاً واسعاً من التنظيمات مع القوى غير المسلمة ، تختص بالشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية . ومن الممكن أن يقوم غير المسلم المقيم في بيت الحرب بزيارة الأراضي المسلمة ، وكان في هذه الحالة يمنح تصريحاً يكفل له المرور آمناً ، وأطلق على هذا التصريح اسم

أمان Aman . وطبقاً لرأي الفقهاء ، فإن أي رجل مسلم بالغ حر كان يستطيع أن يمنح الأمان لشخص أو لعدة أشخاص . كما يستطيع رئيس دولة الإسلام أن يمنح أماناً لمجموعة أكبر مثل مدينة أو رعايا الملك أو بعثة اقتصادية ، وقد أسهم الأمان الممنوح في تطور العلاقات الاقتصادية والسياسية بصورة كبيرة بين الدول المسلمة والمسيحية ، وهيأت الشريعة الإسلامية المجال لظهور طوائف التجار الأوروبيين بصورة دائمة في المدن المسلمة . وكان أحد الخلافات المحددة بين الجانبين أنه لم يكن يمنح هذا الأمان للمسلمين الزائرين ، أو الذين ظلوا مقيمين في أوروبا المسيحية ، ولقد كان الأمان صيغة قانونية مسلمة نتيجة لاستمرار السلام ، في حين أنه نتيجة التحول في ميدان القوى الحقيقية ، فإن هذه العلاقات أخذت تنظم لزيادة الوجود عن طريق الممارسة الاقتصادية والسياسية الأوروبية لا عن طريق الشريعة الإسلامية .

كانت دار الإسلام تمثل كياناً واحداً سواء من الناحية النظرية أو القانونية ؛ فعلى الرغم من كثرة الخلافات الطائفية والدينية والقومية والاختلافات الأخرى التي ظهرت بين المسلمين . . فإنه كان ولا يزال يوجد هناك شعور قوي بالتشابه العام . ولذا كان من الطبيعي أن يهتم المسلمون بإنشاء وحدة مشابهة لتلك التي في دار الحرب ، عملاً بالقول الذي ينسب أحياناً للنبي محمد ﷺ : الكفر ملة واحدة . . (*) ولكن مضمون ونسبة هذا القول إلى النبى محمد غير صحيحة البتة ، إلا أن هذه الجملة مع ذلك تعبر عن الموقف العام الذي انعكس على الكتابات والأعمال المسلمة ، ولقد كان التقسيم الحقيقي والمهم للجنس البشري إلى مسلمين وغير مسلمين إذا كانت التقسيمات بين المسلمين ذات أهمية ثانوية . . فإن التقسيم الكهنوتي العلمي لغير المؤمنين الذين يعيشون خلف الحدود الإسلامية ، كان ذا أهمية أقل .

وفي الحقيقة . . أن المسلمين أقروا الأهمية المحدودة للتقسيمات بين غير المؤمنين وكان أحد هذه التقسيمات يتمثل في التفريق بين هؤلاء الذين لهم ديانات سماوية ، واولئك الذين ليس لهم ديانات سماوية ، وكان هذا الاختيار واضحاً للمحمديين

(*) هذا ليس حديثاً ، ومن الواضح أن المؤلف يركز على الأفكار الغربية .

والمشكرين ، فإما الإسلام وإما الموت . وبالنسبة لليهود والمسيحيين الذين كان لديهم ما يثبت أنهم أصحاب ديانة سماوية تعتمد على كتب مقدسة ، فإن مجال الاختيار اتسع فشمل عنصراً ثالثاً : فإما الإسلام وإما الموت وإما الامتثال لدفع الجزية التي اشترطها الإسلام ، مقابل سيادة الإسلام عليها والتكفل بحمايتها .

وكان من الممكن أن يستبدل العبودية بالموت ، وكان يمنح هؤلاء الذين يمتثلون للشريعة والعمل الإسلامي تسامح وحماية الدولة الإسلامية ، وتنظيم العلاقة الناتجة عن ذلك يطلق عليها في اللغة العربية مصطلح الذمة AL- dhimma والذين ينتفعون بهذه العلاقة يطلق عليهم مصطلح أهل الذمة أو باختصار الذميين dhimmis لقد كان هذا العنصر مطلوباً بصفة عامة لليهود والمسيحيين ، وبعض الذين أصبحوا من رعايا الدولة الإسلامية ؛ فهذه العلاقة تسمح لهؤلاء بممارسة عباداتهم وفقاً لقواعد "الذمة"، وتسمح لهم بالإبقاء على أماكن عباداتهم الخاصة . وفي كثير من الأحوال تسمح لهم بتصريف شؤونهم الخاصة ؛ نتيجة اعترافهم الصريح برسالة الإسلام وسيادة المسلمين . لقد تم التعبير عن هذا الاعتراف في سلسلة من القيود ، التي فرضها القانون المقدس على أهل الذمة ؛ خاصة فيما يتعلق بالملابس التي يجب أن يرتدوها ، والمطايا التي يتعين عليهم أن يركبوها ، والأسلحة التي يجب أن يحملوها وأشياء أخرى مشابهة ، معظمها كانت صفته الاجتماعية الرمزية غالبة على صفته الواقعية والعملية . أما العبء الاقتصادي الوحيد الذي فرض على غير المؤمنين ، فكان عبئاً مالياً ، إذ كان عليهم دفع ضرائب باهظة ، وهذا هو النظام الموروث من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وفوق كل هذا كان عليهم دفع ضريبة الرأس ، التي تعرف باسم الجزية Jizya المقررة على كل رجل غير مسلم بالغ . وكان قانون أهل الذمة مستخدماً فقط مع اليهود والمسيحيين الذين يعيشون في المناطق الإسلامية ، وتحت رعاية حاكم دولة الإسلام . أما المسيحيون الذين ظلوا خلف الحدود فكان يطلق عليهم مصطلح حربي Harbi الذي يعني أنهم من سكان دار الحرب . أما الذين جاءوا من دار الحرب إلى دار السلام زائرين أو مقيمين مؤقتين . . فقد أطلق عليهم المصطلح المستأمنون Mustamin ، وهذا

المصطلح يعني أنهم يتمتعون بالأمـان ، ولا يخفى أن المعلومات عن المسلمين الموجودين في العالـم الإسلامي كانت كاملـة وأكثر دقة بالنسبـة لأهل الذمة ، وأقل قدراً بالـنسبة للمستأمنين . وتعد محدودة ولا يعتد بها بالنسبة لساكن دار الحرب .

وبناء علـى هذا فإن الخطوط العـريضة للتقـسيم من الممكـن رؤيتها ؛ فالتـصنيف الرئيسي كان عـن طريق الدين . وكان ينظر لليـهود المسيحيين على أنهم جـاليات دينية وسياسية مثل الإسلام نفسه ، ولكن بدرجة أقل والحقيقة أنه تم مناقشة الفكرة العامة عن الدين ؛ باعتباره طبقـة أو فئة منها اليهودية والمسيحية والإسلام كـأمثلة فردية ، وترجع هذه الفكرة في الأصل إلى مجيء الإسلام وقدرة المسـلمين على الملاحظة والتعرف على الديانـتين المميزتين الـلتين سبقـتا الإسلام ، واختلافـهما عن شكل ديـانتهم السـماوية والسياسية والخاصة بهم [٢] . هذا الإدراك لم يـكن موجوداً عند المـسيحيين أو الـيهود القدماء ، أو عند أي عبادة مـن العبادات في العالم القديم . أما بالنسـبة للمسلم ، فإن مجيء النبى محمد ﷺ ومعجزة القرآن وضع النهاية لمثل هذه الرسالات ، ومن خلال هذا عرف الجنس البشـري الهدف الإلهي . لقد كان هناك عدد من الأنبـياء أرسلهم الله في مهام للـجنس البشري ، وكان هؤلاء حمـلة كتب مقدسة ، وكان مـحمد هو خاتم الأنبياء ، وكان القرآن هو الكتاب الأخير الكامـل . ويحتوي القرآن على كل ما له قيمة في الأسفـار القديمة . أما الـذي لم يحتـويه القرآن من الـكتب السابـقة فمرجـعه إلى التحريـف أو التشويه للـنصوص القديمة . ولـم يكن اليهود أو المـسيحيون غربـاء على الإسلام فكلتا الـديانتين ظهرتا في البلاد العـربية قبل الإسلام ، وكانتا معروفـتين للنبي وصورتا في القرآن ، وفي معظم الروايات القديمة .

ويحدد الإسلام نفسه من وجهة نظره الخاصة أمـام المعتقدات السابقة : يحدد نفسه أمام اليهودية والمسيحـية وأيضاً أمام المعتقدات العربية الوثنيـة ، التي دارت المعارك معها بصفة رئيسية . عندما يعلن القـرآن (سورة ١١٢) ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [٣] . فهو يرفض قبول اللاهوت المسيحي . وعندما يقول (سورة ١٦/ ١١٤) ﴿ فـكلوا مما رزقكم الله حـلالاً طيباً واشكروا نعـمة الله ﴾ .

فإنه ينبذ بعض العقائد اليهودية المتعلقة بالغذاء [٤] ، وأبرز مبدأ التمايز والتعايش اعتماداً على ما ورد بالسورة (١٠٩) ﴿ قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين ﴾ [٥] لقد كانت هذه الفكرة جديدة تماماً وغير مسبوقة على الإطلاق في العقيدة المسيحية أو اليهودية ، ووجد المسلمون أنفسهم بعد الفتوحات الإسلامية أقلية حاكمة بين أغلبية مسيحية تشغل المنطقة الواقعة ما بين النهرين وإسبانيا ، ومن هنا واتتهم فرصة كبيرة لملاحظة أجزاء شاسعة من العالم المسيحي وملاحظته في نواحي العمل والعبادة واللهو . وأصبح قدر يسير من المعلومات الخاصة بالمعتقدات المسيحية يمثل جزءاً من المعرفة العامة عند المسلمين المتعلمين ، وقد تأثرت بعض الأمور المتعلقة بالمذهب والممارسة بما يشابهها في المسيحية .

وبالمناسبة . . هناك عالم مسلم قام بدراسة ما للديانة والكتب المقدسة والمسيحية واليهودية ، وفي بعض الأحيان كان الغرض من مثل هذه الدراسة تفنيد الديانات القديمة إلى الإسلام ، وفي بعض الأحيان كان الاهتمام بمثل تلك الدراسات تعليمياً أكثر منه جدلياً ، ولقد احتوت الكتب الإسلامية على بعض المناقشات عن العقيدة والكتب المقدسة المسيحية واليهوودية ، وذلك في ثنايا تصنيف الديانات والمذاهب . ويبدو أن هذه الدراسة الأدبية كان أول ظهورها في الإسلام الوسيط .

وبالتدريج حلت اللغة العربية مكان اللغات السابقة للمسيحيين واليهود ، الذين كانوا يعيشون تحت الحكم الإسلامي ؛ فبدأوا في تقديم أدب خاص بهم مكتوب باللغة العربية ، ويحتوي على ترجمات للكتب المقدسة . ورغم أن معظم تلك الكتابات المسيحية واليهودية كانت باللغة العربية فإنها كانت تظهر في أشكال بحروف اللغة السريانية للمسيحيين وحروف العبرية لليهود ، فكان متعذراً قراءتها بالنسبة للقراء المسلمين ، وحتى عند كتابتهم باللغة العربية . . فإنهم لم يجذبوا سوى عدد من علماء المسلمين . وبصفة عامة كان لهم احترام أقل ، وذلك لاقتناع المسلمين بكمال الإسلام وسيادة القوة الإسلامية ولاقتناعه أيضاً بأن هؤلاء الكتاب كانوا أتباعاً لديانات أخرى قبل

الإسلام وأعضاء جاليات هزمها الإسلام ، ولذلك لم يمتعوا إلا بقدر قليل من الاهتمام والتقدير .

وهناك أيضاً بعض الاعتبارات التي حددت المواقف الإسلامية تجاه الوثني الذي كان يعيش خلف الحدود الإسلامية . فخلال القرون الأولى امتدت الإمبراطورية الإسلامية أساساً تجاه الغرب والشرق وإلى الشمال والجنوب من بلاد المسلمين ، ولم تحظ المناطق الخالية لاوراسيا وأحراش وصحاري أفريقيا إلا باهتمام قليل من جانب المسلمين ، وكان تقدم الإسلام في هذه المناطق بطيئاً ومتأخراً . أما الاهتمام الأساسي بالغزو والفتح فقد وجه إلى أكثر المناطق ازدحاماً بالسكان امتيازاً ؛ حيث اتجه الفتح إلى الغرب صوب شمال افريقيا . ومن هناك أكمل المسيرة إلى أوروبا ، كما اتجه صوب الشرق عبر إيران إلى وسط آسيا ؛ حيث اقترب من الهند والصين ، وكان هناك أعداء كبار قابلهم المسلمون في الاتجاهين . في الشرق ، كانت هناك الإمبراطورية البيزنطية ومن خلفها الممالك المسيحية الناشئة . ومن وجهة النظر الإسلامية كان هناك اختلاف أساسي بين طبيعة الحرب ضد المسيحيين والحروب ضد الأعداء الآخرين للإسلام ، ومنها الشعوب المحبة للحرب في السهول والغابات ، حتى في الحضارات الكبرى للصين والهند التي كانت معلومات المسلمين عنها محدودة ، لم ير المسلمون وجود بديل ملموس للإسلام . واعتبروا التقدم الإسلامي في هذه المناطق جزءاً من الإسلام الحتمي لتلك الشعوب الوثنية ، ولذا فإنه لم يتصادم مع أي عدو عسكري ذي فكر أوسع أي بديل ديني له صفة الأهمية . وعلى العكس من هذا ، كان الصراع في الغرب ضد عدو وثني وضد نظام سياسي ينكر أساساً المهمة العالمية للإسلام ، وقد أعلن هذا الإنكار بصورة عامة واضحة . ولم يحجب اقتناع المسلمين بقدرتهم على الانتصار النهائي أهمية الصراع الطويل بين عقيدتين مجتمعتين . ولهذا . . نجد أن العالم المسيحي في الكتابات الإسلامية أصبح داراً للحرب ، وأن الحرب ضد المسيحية هي النموذج الأمثل للجهاد .

وفيما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ترتب على إعادة الفتح المسيحي لإيطاليا وتراجع الإسلام أن أصبحت البرتغال وإسبانيا ، وهما من أقدم وأكبر المناطق الإسلامية التي أنشئت ، تحت حكم المسيحيين . وفي أحوال كثيرة كان يتبع إعادة الفتح ، وبعد فترة من التسامح ، أن يقوم الحكام المسيحيون بجهد خاص لتحويل المسلمين عن دينهم أو طردهم . ولقد نجح هذا الجهد على المدى الطويل . وبصفة عامة . . فإن الرفض المسيحي للتساهل مع الرعايا المسلمين ، كان يقابله رفض إسلامي للبقاء تحت الحكم المسيحي . وقد ذكر معظم الفقهاء المسلمين أنه من المستحيل للمسلم أن يعيش تحت أي حكم غير إسلامي ، وإن أي وثني في أراضي الوثنيين تحول إلى الإسلام فإن من واجبه ترك بيته وبلده ، والرحيل إلى بلد يحكمه المسلمون ويتمتع بالقانون الإسلامي . والمصدر المقدس لهذه الشريعة كان هجرة النبي محمد ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة ، وهو الحدث الذي حدد مولد دولة الإسلام وبداية العصر الإسلامي ، وأي مكان كان يذهب إليه الرسول ﷺ كان على الآخرين أن يتبعوه إليه .

أدى ضياع الأراضي الإسلامية على أيدي الفاتحين المسيحيين إلى ظهور مشكلة جديدة تصدى لها فقهاء المدرسة المالكية التي ظهرت في شمال افريقيا وإسبانيا المسلمة وصقلية . وانقسم فقهاء المالكية في مناقشتهم للمشاكل الناتجة عن ضياع الأقاليم الإسلامية على أيدي المشركين ، والقليل منهم يذكر أنه إذا سمح الحاكم المسيحي بممارسة حرة للديانة الإسلامية ، وسمح للمسلمين بالعيش وفقاً لإرشادات القانون المقدس فإنه يجب على المسلمين البقاء . وبعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك ففضل السماح للرعايا المسلمين أن يتساهلوا مع المشركين ويخفوا دينهم ؛ انتظاراً لإعادة إحيائه مرة أخرى . وأياً كان الأمر فإن النظرة السائدة هي أنه على الأقل يجب على بعض المسلمين في البلد الذي أصبح تحت الحكم الوثني أن يفعلوا مثلما فعل أسلافهم في مكة ويقوموا بالهجرة من المنطقة الوثنية إلى منطقة إسلامية . وهناك صياغة تقليدية قدمها الفقيه المراكشي الونشريسي al- wansharisi الذي أشار إلى أنه يتعين على كل المسلمين الهجرة ؛ إذ إنها أفضل من البقاء تحت حكم المشركين (٦) ، حتى ولو كان المشركون

متسامحين فإن هذا سوف يكون دافعاً للرحيل بدلاً من إضعاف الدعوة . وحيث إن هناك خطراً أكبر وهو التخلي عن العقيدة ، فإن استبداد الإسلام أفضل من العدالة المسيحية . وبصفة عامة فإن العدالة المسيحية لم تكن متاحة .

ورغم وجود استثناءات فقد استقر المسلمون لفترة في صقلية بعد إعادة فتحها تحت حكم النورمان الذي تميز بالسماحة النسبية ، وكذلك كان الأمر في بعض أجزاء إسبانيا بعد أن أعاد المسيحيون فتحها ، ولكن وجود المسلمين وبقاءهم هناك اعتمد على الوجود المستمر للدول الإسلامية في الجنوب . وبعد الانتصار المسيحي النهائي في عام ١٤٩٢ لم يستمر هذا التسامح طويلاً ، وبعد فترة قصيرة جداً صدر مرسوم بطرد المسلمين ، وبرزت المشكلة مرة أخرى في أوروبا الغربية ؛ نتيجة للغزو الروسي للأراضي الإسلامية شمال وشرق البحر الأسود ، ونتيجة أيضاً لضياع الممتلكات العثمانية في البلقان ، وأصبحت هناك مجموعات جديدة من المسلمين تحت الحكم المسيحي ، ووجد بعضهم نفس الحل وهو الهجرة ، غير أن التحلل من المجتمع الذي عاشوا فيه في عصر الإمبراطورية الأوروبية ، لم يكن حلاً .

ومع نهضة الإمبراطوريات الروسية والبريطانية والفرنسية والألمانية . . انتشر الحكم المسيحي أخيراً في المراكز الرئيسية للعالم الإسلامي ؛ حيث أجبرت أعداد كبيرة من المسلمين على البقاء تحت السيطرة الوثنية ، ولكن أظهر المسلمون اهتماماً بالعالم المسيحي يسترعي الانتباه ، وما عرفوه عن هذا العالم كان كافياً بالنسبة لهم ، وهو الجزء الخاص بالإمبراطورية المسيحية اليونانية البيزنطية . ولقد عرفت هذه الإمبراطورية في الحوليات الإسلامية باسم أرض الروم حيث كانت تعتبر العدو الرئيسي للدولة الإسلامية . وذكرت بصورة متكررة في تاريخ الحروب الإسلامية ، وقد ناقشت الكتابات الجغرافية والتاريخية الإسلامية مقاطعات هذه الإمبراطورية التي تقع خلف الحدود الإسلامية مباشرة .

لقد كتب صاعد بن أحمد ، قاضي مدينة طليطلة ، بأسبانيا في عام ١٠٦٨م أي بعد معركة هاستنج بعامين وقبل ثلاثين عاماً من وصول الصليبيين لفلسطين ، كتب كتاباً

باللغة العربية عن فئات الشعوب ، وفي مقدمته قسّم شعوب الجنس البشري إلى نوعين هما : الذين وهبوا أنفسهم للعلم والمعرفة ، والآخرين الذين لم يفعلوا ذلك . أما الشعوب التي أسهمت في تقدم المعرفة فهم : الهنود والفرس . واليونانيون والرومان (ويشملون البيزنطيين والمسيحيين الشرقيين) ، والمصريون والعرب (ويشملون المسلمين بصفة عامة) واليهود. وهذه المجموعة من الشعوب تشكل موضوع بقية الكتاب ككل . أما عن بقية الجنس البشري فنجده يشير إلى أن الصينيين والأتراك من "أفضل الشعوب غير المتعلمة" وهم يستحقون التقدير لأنهم رواد في مجالات أخرى . . الصينيون لمهارتهم في الصناعات اليدوية والفنون التصويرية ولقوة تحملهم ، والأتراك لشجاعتهم ومهارتهم في فنون الحرب وفروسيتهم وإتقانهم استخدام الرمح والسيف والقوس أما بقية الأجناس فيشير إليها المؤلف بازدراء ، ويصفهم بأنهم شماليون وجنوبيون ، وقال عن الشماليين :

وأما سائر هذه المنطقة التي لم تعن بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس ، لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة التي في نهاية المعمورة من الشمال ، فافرط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم ، وبرد هوائهم وكثف جوهم فصارت لذلك امزجتهم باردة وأخلاطهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم ، وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذه دقة الأفهام وثقابة الخاطر ، وغلب عليهم الجهل ، والبلادة ، ونشأ منهم العجز والغباوة ، كالصقالبة ، والبلغر ومن اتصل بهم" (٧) .

مما سبق . . فإن صاعداً هذا كان يعبر بصفة عامة عن نظرة العلماء المسلمين في عصره ، وهو يحدد مركز العالم بأنه كان في الأراضي الإسلامية الممتدة من إسبانيا عبر شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط . وتشمل هذه المنطقة تقريباً كل الشعوب ومراكز الحضارات القديمة .

وإلى الشمال .. كانت الإمبراطورية المسيحية البيزنطية ، التي أعيد ظهورها مبكراً ، وهي تمثل مرحلة متخلفة من الحضارة ، ترتكز على الثورة الدينية ، بعد أن وصلت إلى شكلها النهائي والكامل في الإسلام . وإلى الشرق خلف بلاد فارس ، كانت هناك بلدان بها شكل ما للحياة المتحضرة ولكنها كانت مع ذلك من مرتبة أقل ، وكان ينتشر بها نوع من الوثنية . وكان للهمج البيض والسود جزء من هذا العالم في الشمال والجنوب ، ونظراً لتطور المعرفة الإسلامية عن بعض هؤلاء الهمج الشماليين .. نخصهم بالذكر في هذا المؤلف .

الفصل الثالث

اللغـــة والترجمـــة

فـي مؤلـف فارسي مـن القرن الرابع عشر عـن التاريخ العالمي لاحظ الكاتب وكان يناقش تاريخ أوروبا أن "الفرنجة" يتكلمون خـمساً وعشرين لغة ، ولا يفهم شعب لغة الشعب الآخر" ثم يضـيف ، والشيء الذي يشتركون فيه هو التقـويم والحروف المطبعية والأرقام [1] .

يبدو هذا التعليق طبيعياً لمسلم من العصور الوسطى ، قد تعود على الوحدة اللغوية للعالم الإسلامي الذي به لغتان أو ثلاث ، تخدم احتـياجات طبقة الكتبة الصغيرة (مثل اللاتينيـة في غرب أوروبا) ، وتخدم كذلك باعتـبارها وسيلة فعالة في الاتـصال العالمي بدلاً من اللغات واللهجات .

فـي البـداية كانت هنـاك لغـة واحـدة بين المسلمـين ، وهـي اللغة العربـية ، لغة القرآن ، ولغة الفاتحين العرب . ولفترة من الوقـت . . كانت العربية هي اللغة الوحيدة للحـكومة والتجارة والـثقافة في الأراضي الإسـلامية (وقد حلـت بشكل سريع ومـثير للدهشـة محل اللغات الـتي سبقتهـا ، وهذه اللغات هي الـلاتينية واليـونانية والقبـطية والسريانية والفارسية ، وهي اللغات التي ازدهرت في الأراضي التي تخص الإمبراطورية الإسلامية الآن) .

لقد اختفـت اللغات اللاتينية واليـونانية تقريباً ، وبقـيت القبطية والسريانـية لغتين كنسيتين (للشعائر الدينية فقط) وليس بوصفهما لغتين يتحدث بهما على مستوى الأقليات المسيحية .

أما الفارسية فقـد ظلت حية في شكل جديد وتطور جـديد . فمع تحول إيران إلى

الإسلام ظهر شكل جديد للغة الفارسية ؛ فقد صارت تكتب بالحروف العربية مع استعارة كثير من الكلمات العربية ، التي تختلف عن الفارسية فيما قبل الإسلام مثلما تختلف الإنجليزية عن الإنجلوسكسونية . وفي وقت ما كانت اللغة الفارسية هي اللغة الثقافية الثانية في العالم الإسلامي ، واستخدمت بشكل واسع في آسيا الوسطى والهند وتركيا وإيران ، وأدى مجيء الأتراك من آسيا الوسطى وتأسيس الحكم التركي لمدة بلغت ألف عام (*) على الأراضي الإسلامية إلى إدخال اللغة الرئيسية الثالثة وهي التركية . وقبل مجيء الترك إلى العالم العربي الإسلامي ، كانوا قد ضموا أتباعًا من ديانات مختلفة ، وكتبوا لغتهم بحروف مختلفة ، إلا أن لغاتهم المختلفة حدث معها ما حدث مع الفارسية ، بعد أن أصبح الترك بفئاتهم المختلفة مسلمين ، وأصبحت التركية تكتب بالخط العربي واستعارت كثيراً من الكلمات العربية ثم الفارسية ، ثم ظهرت لغات إسلامية أخرى في جنوبي وجنوب شرق آسيا وأفريقيا السوداء . ولكن اللغات السائدة على الأرض التي شهدت ظهور الإسلام ، والمراكز القديمة للحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى وآسيا الجنوبية وشمال افريقيا وأوروبا ، ظلت هي اللغات الرئيسية الثلاث : العربية والفارسية والتركية .

وبشكل عام . . فإن العرب - حتى المتعلمين منهم - لا يعرفون غير العربية والمتعلمون من الفرس يعرفون الفارسية والعربية . والمتعلمون من الترك يعرفون العربية والفارسية والتركية . أصبحت اللغة الفارسية لغة كلاسيكية ، والعربية مزيجاً من كونها كلاسيكية ولغة دينية ، جزءاً مهماً من تكوين المسلم المتعلم من أي جنس أو خلفية لغوية . وتستقي كل من الفارسية والتركية أو اللغات الأخرى التي يستخدمها المسلمون - تكتب بالخط العربي - كلماتها سواء كانت فكرية أو إيضاحية تقريباً بالكامل من مصادر عربية .

إن الترابط بين الدين والكتابة كامل ؛ فاليهود يستخدمون الخط العبري ليس للعبرية ولكن للغات الأخرى التي يتكلمونها ، والمسيحيون يستخدمون الخط السرياني ليس

(*) لم تصل فترة الحكم العثماني للعالم الإسلامي إلى ألف عام كما يقول المؤلف .

للسريانية فقط ولكن للعربية أيضاً . ويستخدم المسلمون الحروف العربية والخط العربي ؛ لكي يسود على الخطوط الأخرى ، ويعتبر المسلمون تعلم لغة أجنبية ينطوي على نوع من الزندقة والنجاسة (*) ، وقليل من المسلمين من يحاول أن يتعلم لغة أجنبية ، واللغات غير الإسلامية غير معروفة ، إلا ما جاء من طريق بعض الداخلين أو المعتنقين للإسلام .

يتناقض هذا الموقف تماماً مع ما هو سائد في أوروبا ، التي تنقسم إلى أقطار وأمم كثيرة ، لكل أمة منها لغتها .

لقد وجد الأوروبيون في مرحلة مبكرة أنه من الضروري تعلم لغات أخرى غير لغاتهم والإعداد لذلك . أما في العالم الإسلامي . . فكانت القواعد والمعاجم لأمد طويل مقصورة على اللغة العربية من أجل غرض ديني ، وهو تمكين غير العرب من قراءة وفهم النصوص المقدسة عندما يدخلون في الإسلام . إن نقص الاهتمام باللغات الأجنبية قد وجد في مناطق الحدود من إسبانيا ، ففي خلال الحكم الإسلامي لإسبانيا كانت اللغة الوطنية ، والتي تطورت فيما بعد إلى الإسبانية ، معروفة للمسلمين واليهود كما هي معروفة للمسيحيين ، ودليل ذلك أن الشعراء المسلمين واليهود كانوا يستخدمون اللغة المحلية في أشعارهم الغنائية (الموشحات) التي تكتب بالعربية والعبرية ، هذا هو الأسلوب المسمى الخرجة ، وما هو إلا بيت يكتب بالخط العربي أو العبري وهو يعطينا مصدراً مهماً للمعلومات عن التاريخ المبكر للغة الإسبانية والأدب . ومع هذا فلم يبد أنه قد ترك أي اهتمام عميق بين المسلمين في المجتمع الذي بزغ فيه ، إن الخرجة ليست إلا أسلوباً فنياً مأخوذاً من اللغة الدارجة ، وربما استخدم للإشارة إلى اللهجة الشعبية ، لقد استخدم في طراز معين من الارتجال الشعري ليس أكثر .

وهناك نوع من الأدب يسجل فيه الكتاب العرب الإسبان أمجاد الأندلس - وهذا هو الإسم العربي لإسبانيا المسلمة - ضد ادعاءات الشرق المسلم ، وأن لديهم الكثير

(*) هذا الكلام غير صحيح .

يقولونه عن الأرض الإسبانية وغنى مدنها وإنجازات شعبها المسلم ، وهم يعتقدون أن السكان الذين كانوا يقطنون إسبانيا قبل ذلك أو غيرهم لا يستحقون الذكر ، ومن خلال ثمانية قرون قضاها المسلمون في الأندلس (إسبانيا) لم تبق سوى وثيقة واحدة ، من الممكن أن تشير إلى نوع من الاهتمام باللغة الأوروبية . وهي عبارة عن شذرة متأخرة ليست أكثر من قطعة ورق ، تحوي كلمات ألمانية قليلة ، والمقابل العربي لها [٢] . من بين الأعداد الغفيرة للباحثين وفقهاء اللغة المسلمين الذين ظهروا في إسبانيا المسلمة ، هناك واحد فقط ، هو أبو حيان من غرناطة المتوفى في ١٣٤٤ ذكر أنه كان مهتماً بدراسة لغات أجنبية ، لقد تعلم التركية والحبشية . وهذا لا يعني أن فن الترجمة لم يكن معروفاً في العصر الوسيط للإسلام ، بل على العكس ربما كان نشاط الترجمة إلى العربية أكثر منه في أي لغة أخرى قبل العصور الحديثة .

هناك نصوص دينية وقانونية وأشياء أخرى ترجمت للفارسية والتركية واللغات الإسلامية الأخرى كدليل للمؤمنين ، وترجمت النصوص العلمية والفلسفية للعبرية واللاتينية لتعليم اليهود والمسيحيين ومن خلال هذا أصبحت متاحة للعالم الغربي [٣] .

لقد كانت حركة الترجمة المبكرة إلى العربية من الآداب تختار ما هو أكثر ملاءمة . وطبقاً للروايات العربية بدأت الحركة في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن ، عندما رتب أمير من البيت الأموي [*] لترجمة بعض الأعمال الإغريقية في الكيمياء . وكان المترجم اسمه اسطفان ويبدو من هذا الاسم أنه مسيحي . وتظهر الترجمات المبكرة ، وكأنها قد استخدمت استخداماً خاصاً أو شخصياً ، وقليل منها عاش وبقي . وكان الاختيار يتم باعتبارات علمية عملية ، تركز في مجالي الطب والكيمياء . كذلك كانت

(*) هو خالد بن يزيد بن معاوية (٨٥ هـ) الذي حاول أن يعوض فشله في الوصول إلى الخلافة بدراسة كتب الصنعة ؛ بغية اكتشاف سر تحويل المعادن إلى ذهب ، بفضل الكيمياء ، فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونان الذين وفدوا إلى مصر ، وتعلموا اللغة العربية ، ثم طلب منهم أن ينقلوا بعض كتب الصنعة « الكيمياء » من اللغة اليونانية ، والقبطية ، إلى اللغة العربية ، ويعد هذا في رأيهم أول نقل في الإسلام . ابن النديم / الفهرست ص ٣٣٨ ط التجارية بالقاهرة ١٣٨٤ هـ . (المترجم) .

هناك مادة دينية ترجمت نظراً لأن معرفة الديانتين اليهودية والمسيحية ، ربما تساهم في فهم أفضل للقرآن (*) .

لقد نمت حركة الترجمة على يد الخلفاء العباسيين ، الذين حلوا محل الأمويين في منتصف القرن الثامن . ولقد أدى تحول العاصمة من سوريا إلى العراق إلى تقوية المؤثرات الخاصة بالشرق الأوسط . وإضعاف المؤثرات الخاصة بالبحر المتوسط ؛ فترجمت بعض الأعمال التي عالجت بشكل رئيسي سلطة الدولة والمراسم الخاصة بالبلاط من اللغة الفارسية في العصر الوسيط إلى العربية ، وبعض آخر في الرياضيات .. ترجم عن لغات الهند . ولكن القسط الأكبر من الترجمة كانت من أصل يوناني ؛ فقد ترجمت من اللغة اليونانية مباشرة ، أو بأسلوب غير مباشر عن طريق التراجم السريانية ، ولقد كان المترجمون بلا استثناء غير مسلمين أو من معتنقي الإسلام حديثاً . وكان معظمهم مسيحياً ، وقلة من اليهود والباقون من الصابئة .

لقد كان اختيار الأعمال التي تترجم اختياراً تثقيفياً أو تعليمياً ؛ فالترجمات العربية عن اليونان تركزت في مجالي الفلسفة والعلم . أما الفلسفة فتتكون من الفلسفات الكلاسيكية لأفلاطون وأرسطو ؛ بالإضافة إلى عدد من الفلاسفة القدماء ، وكذلك الكتابات الهرمسية والغنوصية والأفلاطونية الجديدة . أما العلم فيشمل الطب والتنجيم والكيمياء القديمة والفيزياء والرياضيات ، وقد أعطى بعض الاهتمام أيضاً للإنتاج العملي مثل بعض الأعمال في الزراعة ، وهناك مقالتان في هذا المجال قد ترجمتا في القرن العاشر ، إحداهما من النبطية والأخرى من اليونانية .

في الوقت الذي أتى فيه المسلمون إلى الأرض الواقعة شرق البحر المتوسط كانت هذه الأرض من قبل مسيحية ، وإلى حد كبير كان الميراث الهيليني الذي وصل إلى المسلمين قد سد مجال اختيار أو تنقيح الكنائس المسيحية الشرقية . وهذا بلاشك جزء

(*) هذه مغالطة مقصودة في التعليل ، فلقد أخبرنا القرآن بما فيه الكفاية عن اليهودية والمسيحية وعن اليهود والنصارى كذلك ، وإخبارهم مع أنبيائهم . والقرآن لا يدنو منه شك ، بينما كتبهم قد ملئت بالتحريف والحذف والوضع والافتراء . (المرجم) .

من إيضاح الخيارات التي وضعها المسلمون ، وكذلك المترجمون الذين يعملون لهم : أي النصوص اليونانية تتم ترجمته ، وهذا فقط جزء وليس كل الإيضاح . وبعض الأعمال التي تبناها المسيحيون الشرقيون لم يهتم بها المسلمون بينما بعض ما أهمله المسيحيون قد عولج مباشرة من النصوص القديمة (من خلال الكتاب الكلاسيكيين لبيزنطة).

إن المعيار الأساسي للاختيار كان الاستفادة ، مع أن هذا قد أدى - في وقت ما - إلى الفضول العلمي مثل تحول التنجيم إلى علم الفلك ، وعلم الكيمياء القديمة إلى علم الكيمياء . إن معيار الاستفادة قد طبق على الفلسفة ليس بشكل أقل من العلم ، ولايجب أن تفهم الاستفادة على أنها المعنى النفعي الدقيق ؛ فالغرض منهما تمكين الإنسان من أن يحصل على ما يسميه الفلاسفة المسلمون السعادة Saada ، وهو المعنى المقابل للمفهوم اليوناني Endaimonica . ومع أنه معبر في اصطلاحات مجردة يختص بأفكار مجردة ، فإن هذا التقدير للفلسفة مؤسس على طلب مكاسب نوعية محددة أو مادية ، فإذا كان العلم يختص أو يهتم بالصحة وخير الإنسان في هذا العالم فإن الفلسفة تساعده على الإعداد لما بعد ذلك .

إن دراسة وترجمة النصوص الفلسفية هي أساساً نشاط ديني ، ولقد كان تأثير الفكر اليوناني على علم الكلام الإسلامي عظيماً .

لم تكن هناك أي محاولة لترجمة الشعر الإفريقي أو الدراما أو التاريخ ؛ فالأدب ما هو إلا تجربة أو خبرة شخصية ومرتبط بالثقافة . ومن الصعب تقدير الذوق الجمالي الأجنبي ، وكانت الترجمة الأدبية نادرة جداً في الماضي ، ولا يحدث هذا إلا إذا كان هناك ارتباط نفعي ثقافي قوي ، هناك ترجمات من اليونانية إلى اللاتينية ومن العربية إلى الفارسية ، ومن الصينية إلى اليابانية . وحيثما لا يوجد مثل هذا الارتباط فإن العلم والفلسفة أحياناً يترجمان ، أما الأدب فمن الصعب والنادر أن يترجم . إن تحول الشعر عن الحدود من حضارة إلى أخرى بدأ في أوروبا الحديثة المبكرة . أما بالنسبة لمسلمي العصور الوسطى ، فقد كان الأدب القديم أدب مجتمع غربي وثني ، ما كان ليستطيع

تقديم تذوق جمالي أو إرشاد أخلاقـي . إن تاريخ هذه الشـعوب المحرومة مـن الرسل والكتب المقدسة ، ما هو إلا تتابع للأحداث بلا هدف أو معنى ؛ فالأدب للمسلم يعني الشعر ويـلائمه تراثه الثقـافي الفني . إن التاريخ هـو من عمل الله كمـا هو واضح في حياة مجـتمعه الإسلامي . أما تاريـخ ما قبل الإسلام . . فهو ذو مغـزى واحد فقط ، حيث يهيئ لظهور الإسلام ويمهد لوصول المجتمع إلى الإسلام . ولم يحدث حتى عصر النهضـة أو فيما بعد الـنهضة الأوروبية أن مـجتمعاً بشـرياً لأول مرة كان لديه الـنضج والفضول معاً لدراسة وتقدير ثقافات مجتمعات أجنبية ومعادية أيضاً .

هناك نوعـان آخران للكتابة ولـكنهما ذو قيمـة محدودة ، وقد ترجما فـي كميات محدودة أيـضاً وهما الجـغرافيا والسـياسة . ومن خـلال ترجمة الأعمـال اليونانـية في الجغرافيا استطاع المسلمون اكتساب معرفة الـتكوين الجغرافي للعالم الذي يعيشون فيه . ومن خلال الأعمال اليـونانية في السياسة اكتـسبوا تصورات أساسية محددة عـن طبيعة الدولة والعلاقة بين الحـاكم والمحكوم ، وقد كان الفكر السياسـي الأغريقي مع ذلك ذا تأثير محدود ، والكتاب المسلمون في السياسة الـذين استخدموا المصطلحات اليونانية لم يكن لهـم تأثير قوي بالنسـبة للنبع الأساسي لـلإسلام ؛ حيث كان المؤثر الرئـيسي هو القرآن ، وسنـة المسلمين الأوائل . وقد انـتهت حركة الترجـمة عن اليونانيـة في القرن العاشر ، بعد أن كان قدر عظيم قد ترجم بالفعل .

وبعد ذلـك لأسباب عديدة تـوقفت هـذه الحـركة ، ولم يكـن السبب هـو نقص الكتب ، وإنما كان مـنها كمية كبيرة متاحـة وغير مترجمة . فلقد عـرفت الإمبراطورية البيزنطية المصادر العظيمة للأدب الاغـريقي ؛ فقد كان معروفاً في الأراضي الإسلامية ، ولدينا شـواهد على أن مبعوثين مـن قبل الحكام المسلمـين أرسلوا إلى بيزنطة لـلحصول على نـصوص يونانـية للترجـمة . ولا يمكن أن يـعزي توقف التـرجمة إلى نـقص في المترجمين . وبدون شك فـإن شدة استغراب الأقليات المسيحية قد جـعلت من الصعب وجـود بـاحـثين ذوي معرفـة وثيقة باللغـة اليونانية . ومـع ذلك استمـرت الترجمـات

فـي المجتمعات المسيحية لاستخـدامهم الخاص ، وهذه لم تعد تصل إلى القدر الشائع من الثقافة العربية ، والتي أصبحت في هذا الوقت مقاومة للتأثيرات الخارجية .

وحجم المادة المترجمـة عن اليونانية كبير جداً ، وكاف لإعطاء الـقارئ المسلم نظرة شاملة ورؤية كـاملة للفلسفة اليـونانية القديمة والطب والعـلم ، مثلما أعطت الهيـلينية المتأخرة لهـم . وعلى النقيض من هذا الحجـم الهائل المترجم عن الإغريـق هناك كتاب واحد ترجم عـن اللاتينية فـي هذه الفترة ، وهو الـتقويم المتأخر لأوروسـيوس ، وهو استثناء لـيس فقط في اللغة ، بل أيضـاً في الموضوع فهو في التاريـخ ، فإن هذا السرد الموجز للـتاريخ الروماني قـد ترجم في إسبانـيا ، واستخدام أساسـاً لكتابات المسـلمين المتأخرة عن تاريخ روما (٤) .

وإذا كان الاهتمـام بروما القديمة قـليلاً فإن الاهتمـام بأوربا في العصـور الوسطى ولغاتها كان أقل ، فعندما وصل سفير من إيطاليا إلى بغداد في عام ٩٠٦م بخطاب من المفترض أنه باللاتينية كانت هناك صعوبة في قراءته طبقاً لقصة عربية معاصرة .

"كان الخطاب على الحريـر الأبيض في كتابة تشبه اليونانـية ، ولكنها ذات حروف مستقيمة . وقد بحثت السلطات عـن مترجم يترجم الخطاب ، وكان بشر الخافي Bishr the eunuch وهو افرنجـي يستطيع قـراءة كتابه هذا للـشعب . وقد أحضر الخـافي في حضرة الخليفة ، وقد قرأ الخطاب وترجمه إلى الـيونانية ، ثم استدعى إسحاق بن حنين (وهو واحد من أعظم العلميين) فترجم الخطاب من اليونانية إلى العربية" (٥) .

والقصة هنـا تصور الجهل بلغة الغـرب اللاتيني في دوائر البـلاط في بغداد . وفي وقت لاحق من نفس القرن ، عـندما صنف الباحث العربي الكبيـر ابن النديم فهرست شاملاً للأدب كتب قائمة بست عشرة لغة ، ناقش بعضها بإسهاب ، وهناك ثلاث لغات غير الروسـية يمكن القول بأنـها أوربية : الأولى هي اليـونانية ، ويبدو أن لديـه معرفة واسعة بها ، والثانيـة هي "كتابة اللومبارد والساكسون" وهو شـعب يسكـن بين روما وفرنجـا قـرب حاكـم الأندلس ، ويتكـون خطهـم مـن ٢٢ حرفاً . وتـسمى بروفنسية

والكلمة نقلت حرفياً إلى العربية ، وهم يبدأون الكتابة من الشمال إلى اليمين" والثالثة هي لغة الفرنجة وكل ما يعرفه عنها ابن النديم هو ما ورد بالخطاب الذي ذكرناه في ٩٠٦م. ولم تذكر اللغة اللاتينية بالإسم وربما كان خط اللومبارد سكسكون Lombard- Saxon ما هو إلا صدى بعيد لحملات الإمبراطور السكسوني أوتو Otto في إيطاليا (٦) .

رفض العالم الإسلامي دراسة اللغات غير الإسلامية ، ولم يبد أي اهتمام بالأعمال التي كتبت بها ، ولكن المسلمين مع هذا كانوا مجبرين على الاتصال بالغربيين لأغراض غير أدبية . حتى قبل الحروب الصليبية . كانت التجارة بين الأقطار الإسلامية والغرب المسيحي قائمة عبر البحر المتوسط ، ومنذ الحروب الصليبية نمت باطراد في حجمها ومداها . ولابد أنه قد وجد شكل من الاتصال بين التجار الأوروبيين والمشترين في الشرق الأوسط ، والبائعين ، والسماسرة الذين تعاملوا معهم . وأعطت الدبلوماسيين أيضاً دفعة للتحادث وتبادل الخطابات والوثائق . إن العالم الإسلامي لم يتبين الأسلوب الأوروبي في العلاقات الدبلوماسية المستمدة من خلال سفارات مستديمة ، وذلك حتى الأعوام الأخيرة للقرن الثامن عشر ، وكان هناك شكل ما للاتصال الدبلوماسي منذ العصور المبكرة .

وخلال القرن الثامن عشر أضيفت قناة جديدة إلى جانب الاتصال الدبلوماسي والتجارة ، وهو تبادل المعرفة العسكرية والبحرية . إن تحديث الجيش العثماني والبحرية احتاج إلى إيفاد ضباط عسكريين وبحريين من أوروبا ؛ لكي يعلموا الجيش التركي ، ولابد من وجود لغة عامة للتحدث والتفاهم بها ، ومن أجل هذا كان لابد من وجود وسطاء مترجمين بين الجانبين ، ولابد أن أحد الجانبين حاول معرفة لغة الآخر . وبشكل عام فإن الأوروبيين هم الذين حاولوا هذا وليس المسلمون ، أولاً في إسبانيا ثم إيطاليا ، وبعد ذلك في الأقطار الشمالية . وكان هناك أوروبيون من خلال ظروف حياتهم ومنهم من يملكون الفرصة للعيش في البيئة التي تتحدث العربية أو التركية ، والحصول على الأقل على معرفة عملية باللغة المتكلم بها . وبينما كان عدد التجار الأوروبيين الذين

يستقرون في الأقطار الإسلامية يتزايد . . كان هناك قليل من المسلمين الذين أقدموا على الاستقرار في أوروبا ؛ ولذلك كان المسلمون تنقصهم الفرصة ، وكذلك الرغبة في تعلم أي لغة من اللغات الأوروبية ، وعلى طول الحدود الأوروبية للإمبراطورية العثمانية . ربما كان هناك استخدام أكثر للغة والتواريخ والاضطرار أحياناً إلى استخدام مترجمين في الاستفسارات والمداولات والمفاوضات ، خلال حروب الفرنسيين في القرنين ١٦ ، ١٧ ، والتي ربما كانت لغات محلية . وهذه اللغات ولاشك كانت معروفة للمسيحيين القاطنين في البلقان وللمسلمين ، الذين كانوا يذهبون إلى اسطنبول لسبب ما . وكانت اللغة التركية العثمانية بالذات في تعاملها المالي والبيروقراطي تستوعب تماماً عدداً من الكلمات ، ذات أصل بلقاني أو بلغاري ، ومع هذا لم يكن له أثر ضئيل أو غير موجود على الإدراك التركي للغرب .

تشير مثل هذه المعلومات عن المترجمين في خدمة المسلمين إلى أنهم إما مرتدون ؛ أي مسيحيون غربيون استقروا في بلد مسلم واعتنقوا الإسلام ، أو أنهم من أهل الذمة من المسيحيين واليهود ، أما يهود الدولة العثمانية فهم مهاجرون من أوروبا ؛ ولذلك فهم على معرفة ذات فائدة باللغات والأحوال الأوروبية .

وقد نسمع أحياناً عن مترجم مسلم المولد ، أتاحت له الفرصة أو سوء الفرصة تعلم لغة أجنبية ، ومن هؤلاء - عثمان أغا - وهو ضابط فرسان تركي من تمسفار في بلغاريا العثمانية ، قضى ١١ عاماً أسير حرب في أيد نمساوية ، ولذلك تمكن من الحصول على معرفة كبيرة باللغة الألمانية . وإن مذكراته تشير إلى أنه كان يعرف العربية والبلغارية ، ومنها نماذج لترجمة الخط العربي التركي ؛ حيث اقتبسها في مذكراته. وبعد هروبه عمل مترجماً لدى باشا تصفار في أثناء وجوده على حدود وسط أوروبا بين هابيسبورج والإمبراطورية العثمانية [٧] . وبعيداً عن دبلوماسية الحدود استخدم المترجمون في التجارة . وهناك تسجيل لضريبة عثمانية في طرابلس ، تذكر ضريبة المترجمين المسماة ترجمانية [٨] Terjumaniyya وهي كلمة مشتقة من العربية ترجمان ، وهي تعني مترجماً . ويبدو أن المصطلح الغربي dragomon مشتق منها ، وهو يحمل نفس المعنى .

وأكثر المترجمين أهمية هم هؤلاء الذين كانوا يعملون في خدمة الحكام المسلمين مباشرة . وقليل ما هو معروف عن المترجمين الذين كان يستخدمهم سلاطين المماليك في مصر وبقية الحكام المصريين في العصر الوسطى ، مع أن الدلائل الباقية تشير إلى أن أغلب المترجمين كانوا مرتدين من أوروبا .

هناك حالة خاصة مهمة تتعلق بالترجمان تغري بردي ، الذي عمل مترجماً ثم سفيراً للسلطان المملوكي في البندقية ؛ حيث وصل في ١٥٠٦ . إن اسمه تركي ويعني "عطاء الله" ونسبه أصبح ابن عبد الله ، وهذا عادة شائعة عند كثير ممن أسلموا ، وكانت أسماء آبائهم الحقيقية غريبة عن النموذج الإسلامي للأسماء .

يبدو من الواضح أن تغري بردي كان من أصل أوروبي ، مع أن هناك نوعاً من الشك بخصوص دينه الأسبق وجنسيته ؛ فبعض الكتاب المعاصرين يذكرون أنه مسيحي سابق ، وبعض آخر يقول إنه يهودي سابق ، وهناك رحالة مسيحي يقول أنه يهودي المولد ، ولكنه تحول إلى المسيحية ثم إلى الإسلام ، ويقول يهودي إيطالي زار مصر اسمه ماشولان دا فولترا إن تغري بردي من نسل يهودي "ولكنه مسيحي مع المسيحيين ويهودي مع اليهود" وهناك اتفاق عام على أنه ولد في إسبانيا ، ولو أن بعض المصادر تقول إنه ولد في صقلية (٩) .

لدينا أيضاً بعض المعلومات عن مترجم عثماني مبكر ، وكان بلغارياً عُرف بعد إسلامه باسم مراد ، ومع أنه كان في السابعة عشرة من عمره عندما أسره الأتراك في معركة Mohaco عام ١٥٢٦ ، ويبدو أنه كان على ثقافة لاتينية عالية ، وبفضل هذا أصبح مترجماً للأتراك ونيابة عن دينه الجديد . ألف مقالة إرسالية بالتركية ، وبعد ذلك باللاتينية وفي ١٥٥٩ ، ١٥٦٠ ، عندما طلب المبعوث الخاص بالبندقية لاسطنبول ترجمة مقالة سنشترو "عن الشيخوخة Be senectute ليقدمها للسلطان سليمان العظيم . والمرة التالية التي نعرف فيها خبراً عنه هي عندما فصل من وظيفة مترجم ؛ لإصراره على شرب الخمر ، ولقلة المال قبل تكليفاً من موظف أوروبي بترجمة أعمال تركية مختارة للتاريخ العثماني إلى اللاتينية (١٠) .

وتحت ظل العثمانيين كانت وظيفة المترجم الرسمي جزءاً أساسياً في الجهاز الحكومي لإدارة الشئون الخارجية . لقد كان المترجم يشكل جزءاً مهماً من هيئة السكرتارية الرئيسية "رئيس المكتب" أو رئيس أفندي ، وقد كان مسئولاً عن التعاملات مع الحكومات الأجنبية ، وذلك من خلال مكتب الوزير الأكبر . ولدينا قائمة بأسماء مترجمي القرن السادس عشر فصاعداً ، والأسماء المبكرة كلها لمترجمين حديثي الإسلام ، معظمهم أوروبيين ، وهؤلاء المترجمون كانوا بولنديين ونمساويين ويونانيين . وفي القرن السابع عشر أصبح المكتب المسمى الترجمان الأكبر معهداً ، وكان مقصوراً لمدة طويلة على مجموعة من العائلات اليونانية التي تعيش في ضاحية فنار في اسطنبول . وهؤلاء لم يعتنقوا الإسلام ولكنهم خلال توليهم لهذا المكتب – مثلما حدث مع آخرين تحت سلطة السلاطين – استطاعوا الحصول على مكانة عظيمة ومؤثرة في النظام العثماني ، ثم إن افتتاح السفارات العثمانية الدائمة في العواصم الأوروبية في الأعوام الأخيرة من القرن « ١٨ » قد وسع مدى نشاطهم ، وحقيقة كان كل واحد من هؤلاء السفراء يرافقه مترجم يوناني – عثماني ، يبدو أنه كان يؤدي دوراً رئيسياً لأعمال السفارة ، وأنه كان يزود الترجمان الأكبر في اسطنبول بتقاريره .

أما الدولة الإسلامية الأخرى . . فيبدو أن اعتمادها على الترجمة كان عرضيا ، ويبدو أنهم اعتمدوا في محيط واسع على غير المسلمين ؛ فقد كان على السفير المغربي لإسبانيا في نهاية القرن « ١٧ » أن يستخدم مسيحياً سورياً يتحدث العربية ، كان مترجماً في خدمة الإسبان . وفي بداية القرن « ١٩ » . . كان السفير الإيراني لأوروبا يصاحبه مسيحي – ربما كان أرمينيا من إيران – كان هو وسيلة اتصال هذا السفير أو المبعوث بالعالم الخارجي .

لم يكن الاهتمام الأوروبي مقتصراً على الحاجات العملية للتجارة والدبلوماسية ، ولا كانت هذه الحاجات تقابل مترجمين تعلموا الترجمة في مجالاتهم . إن الدراسة المنتظمة للغة العربية وإعداد أدوات بحث لهذا الغرض بدأ مبكراً جداً ، وإن أول معجم لاتيني عربي قد أعد في القرن الثاني عشر الميلادي . وفي القرن الثالث عشر نجد عدداً من الباحثين الأوروبيين قد شغلوا بدراسة العربية ، وهناك محاولات لترجمة أجزاء من

القرآن إلى اللاتينية . وقد تبع هذا نشر معاجم أكثر ، وفي عام ١٥٣٨ تم نشر أول مقالة باللاتينية عن قواعد اللغة العربية ، وقد شكل هذا نقطة الانطلاق لموجة واسعة من الدراسات العربية في الجامعات الأوروبية ، خلال الامتداد والتوسع الفكري العظيم للقرنين ١٦ و ١٧ .

شهدت نفس الفترة أيضاً نشر قواعد ومعاجم اللغة الفارسية والتركية ، وكذلك دراسات نقدية لها من مخطوطات ونصوص تلك اللغات ، وكان الغرض من هذه النشاطات - في جانب من جوانبه - عملياً مرتبطاً بمتطلبات التجارة والدبلوماسية وفي جوانب أخرى علمياً ؛ وذلك لإشباع التطلع الفكري الذي لا حدود له ، والذي بدأ اشتعال أواره في عصر النهضة . هناك شخصية مميزة هي شخصية ويليام بدويل (١٥٦١ - ١٦٣٢) وهو أول مترجم إنجليزي عربي رئيسي ، أو أول من فهم بالعربية من الإنجليز . وقد تحدث في مقالة عن أهمية اللغة العربية والحاجة لتعلمنا بعضها ، ووصفها بأنها اللغة الوحيدة للدين والرئيسية للدبلوماسية ، والتجارة مع الجزر المحظوظة أو السعيدة حتى البحار الصينية ، ثم يتحدث أخيراً عن قيمتها للأدب والعلم . وبالرغم من إنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في الجامعات الأوروبية ونمو البحوث عن هذه اللغة فإن إنتاج هذه الجامعات كان غير كاف على الإطلاق ؛ لإشباع حاجات التجارة والدبلوماسية القريبة في الشرق الأوسط ، فلوقت طويل كانت القوى الغربية تعتمد على المسيحيين المحليين في الترجمة ، والموظفين في القنصليات والسفارات . وفي القرن الثامن عشر تحول الفرنسيون إلى أسلوب جديد ، وذلك باختيار مجموعة من الشباب الفرنسي وتعليمهم اللغات التي يريدونها . ولمدة قرن من الزمان تعلم المترجمون الفرنسيون بهذا الأسلوب ، وهكذا أصبحت الحكومة الفرنسية قادرة على الاعتماد على مجموعة من المسئولين المتعلمين والمثقفين يعدون عالميين ، وفي نفس الوقت على معرفة بالشرق الأوسط ولغاته علمياً وعملياً . ولقد كان دورهم عظيماً خصوصاً أثناء الحروب الثورية والنابليونية .

وليس هناك أي دليل أو إشارة على الاهتمام الفكري باللغات الغربية وآدابها ، ولم نسمع عن باحث مسلم أو أديب قبل القرن الثامن عشر حاول معرفة اللغات الأوروبية ، أو حاول معرفة القواعد ، أو عمل معجم أو شيئاً من وسائل اللغة الأخرى . وكانت الترجمات الأخرى كذلك قليلة جداً ، وتلك التراجم المعروفة ما هي إلا مختارات من أجل أغراض عملية ، وهذه التراجم قام بها أناس حديثو الإسلام .

هناك كاتب عثماني مسلم وحيد هو الرحالة العظيم أرليا شلبي ، الذي أظهر اهتماماً باللغات الأوروبية ، ولكنه عرض لقرائه نماذج بسيطة وفي سياق قصة طويلة عن زيارته لفيينا ، حيث لاحظ أن سكان الامبراطورية النمساوية يتكلمون لغتين رئيسيتين : المجرية الألمانية ، والألمانية تسمى في التركية Nemce وهي الأهم . وقد لاحظ « أرليا شلبي » أن الـ Nemce لغة صعبة جداً وبها كلمات فارسية كثيرة . وسبب هذه الحقيقة الغريبة في رأي « أرليا » هو أن هذا الشعب جاء من فارس بأطفال Manucihr ، والإيضاح المحتمل لهذا هو أن أرليا قد لاحظ وجود بعض التشابه في الكلمات مثل الألمانية Tochter والفارسية Dmkhlar والألمانية Bznder والفارسية Bviader . وهذا يرجع إلى أن اللغتين من أصل هندي أوروبي .

يستطرد أرليا ليعطينا نماذج من اللغة الألمانية ، فبعض الصلوات نقلت إلى الخط التركي العربي مع قائمة بالأعداد والكلمات وبعض التعبيرات البسيطة . وقد لاحظ أنه مع أن Nemce كاثوليكيون ، ويتبعون حكم بابا روما فإن لغتهم تختلف عن لغة بابا روما ، وهي الإسبانية [١١] .

إن اسم Nemce الذي استخدمه الكتاب العثمانيون للإشارة إلى النمسا والنمساويين ، مشتق من كلمة سلافية تعني « أبكم Dumb » ، وهي مستخدمة في معظم اللغات السلافية للدلالة على الإيمان . بينما يعرض أرليا تفسيراً مختلفاً : « إن كلمة Nemce في المجرية تعني النفي « لست » ، وهكذا Nemce تعني أنا لست تشيكياً ، أنا ألماني » [١٢] .

يعرض أرليا أيضاً بعض المعرفة اللغوية ، التي لم تقتصر على أشعار المانية

وكلمـات؛ فهو يعـرض بعض نماذج للـغة يطلـق عليهـا اليهودية وعـرفها من الـيهود السفارديم - في فلسطين العثمانية ، ويبدو أنه لم يكن يعرف على الإطلاق أن هذه هي اللغة الإسبانية" [١٣] .

بشكل عـام يبدو أن العالم الإسلامـي لم يكلف نفسه عـناء معرفة ماهيـة اللغات المسيـحية . إن العـــدد الكبيـر للغات فـــي أوربا يبـدو أنه حـيَّر أو أربك المـلاحظين المسلمـين ، وقبل أرليا بأعـوام قليلة كان هـناك واحد من أعظم الـباحثين المسـلمين في عصـره ، هـو كاتب شلبي عرض على قرائه هذه الخريطة اللغوية لأوروبا ؛ فهو يقول : (فـي الأيام أو الأزمـان السابقة) "هذا المـلاح اليائس" تعود عـلى الحديث باليـونانية ، وهي بجانب كونها لغة الباحثين والقدماء كانت مستخدمة فعلاً . ولكن بدأ الناس الذين يتكلمونها ينـقرضون ، وبعد ذلك ظهرت اللغة اللاتينية ، وهـذه اللغة التي هي أساساً مشتقة مـن اليونانية أصبحت ذات شأن ، وعـلى جانب كبير من الأهمـية . ولكن هذا الشعب اضمحل أيضاً ، وظلت هاتان اللغتـان يستخدمهما الباحثون في أوروبا ، وأكثر الكتب علماً كانت بـهاتين اللغتين ، ولكن بعد ذلك بدأ شعب كل منطـقة يكتب بلغته الخاصة ، وأصبح عـدد كبير من اللغات مسـتخدماً بشكل شائع . هكذا فـي انجلترا مع لغـات ، هي : Scosiq, Anglia, Hilerinia ، أما في إسبـانيا والبرتغال فـكان هناك أيضاً الكـثير من اللغات ، وكـذلك في فرنسا ، وبـين سكان ساحل البحـر المتوسط ، وعلى سـاحل الأطلنـطي - وشبيهـة بذلك النـمسا فهـم يتكلمـون التشيـكية والمجرية والنمساوية . وتوجد أيضاً لغات أخرى مـثل المسكوفية والهولندية . وفي وسط إيطاليا يتكلمون السويسرية والإيـطالية التي بجانب كونها مستخدمة في إيطالـيا يستخدمها يهود تركيا ، ويطلق عليها اللغة الافرنجية .

أما في شـرق أوروبا فيتكـلمون لغات مثـل السلافة والألبـانية والبوسنيه والرومية والبلغارية والصربية ، كل هذه اللغات تختلف فيما بـينها أيضاً ؛ فأحسن وأوضح لهجة إيطالية تسمى التوسكانية ، ولغة البـندقية موصوفة بأنـها رديئة . وأنقى لغة فـي فرنسا تسمى الفرنسية. ولقد لاحظ كاتب شلبي أن اللاتينية لا تزال لغة التـعليم ، ولها مكانة

في المسيحية مثل مكانة العربية للإسلام والمسلمين . ملاحظة مماثلة لهذا أبداها سفير مغربي من القرن السابع عشر ، لاحظ أهمية اللغة اللاتينية في التعليم الإسباني ، ووصفها بأنها مماثلة للنحو والبلاغة ، يقصد اللغة العربية الفصحى (١٤) . إن قصة كاتب شلبي عن لغات أوروبا تدهشنا في كل تفاصيلها وجملها ، لقد سمع عن مثل تلك الغات المحلية مثل الباسك ، ولم يفرق بينها وبين تلك اللغات الرئيسيةمثل الفرنسية والألمانية . وإن كان يعرف أحسن من أرليا ، فإنه يعرف أن اللغة التي يتكلمها اليهود في تركيا ليست « اللغة اليهودية » ، ولكنها لغة أوربية ويحددها بأنها الإيطالية بدلاً من الإسبانية . إن تصوره عن لغات روما على أية حال متضارب ، ويبدو أن معلومات شلبي هذا قد جاءت عن طريق رحالة أوربى . . فإن أسلوبه في مناقشة هذه العبارات المبهمة وغير المهمة شبيه إلى حد كبير بأسلوب مكتشف أوربي متأخر ، يناقش اللهجات القبلية للقارة المظلمة (١٥) .

ولكن أي لغات تعلمها المسلمون ؟ ربما من أقدم المعلومات عن ذلك ما دون في فقرة عن مؤرخ الحرب الصليبية الألماني Arnold of Lubeck فقد نقل عن مبعوث ألماني زار سوريا ، وفلسطين في ١٢٧٥ ، عندما تكلم عن جماعة الحشاشين (*) Assassin يشرح أن رئيس الحشاشين كان يحضر الفتيان منذ طفولتهم ويدربهم على مهمتهم المرعبة . ومن بين الأشياء الأخرى "كان يعلمهم لغات متعددة مثل اللاتينية واليونانية والرومية ولغات أخرى كثيرة" (١٦) .

وربما تشير كلمة « رومانية » إلى اللغة التي يتكلم بها المعسكر الصليبي ، وربما تكون هذه القصة خيالية ، إلا أنها تعطي إشارة لأي اللغات من المعتقد أنها ذات فائدة .

وبشكل عام فإن الإشارات الوحيدة التي لدينا من العصور الوسطى عن استخدام المسلمين لـلغات الأجنبية تشير إلى اللغة الأم للمعتنقين الجدد للإسلام . وليس لدينا حتى عصر العثمانيين أي معلومات يوثق بها أن محمد الثاني فاتح القسطنطينية ، قد ذكر

زائر من البندقية معاصر له إنه يتكلم الإغريقية والسلافية كما يتكلم التركية ، ويقال إنه استضاف متخصصي العلوم الإنسانية الإيطاليين ، وإنه أبدى اهتماماً بأعمالهم ، ومنحه كاتب سيرته باليونانية لقب محب للهلينية . ومن غير المحتمل أن السلطان كان يعرف أي لغة غير اللغات الإسلامية ، ولكن اليونانية بالتأكيد كانت شائعة بين العثمانيين الأوائل وكانت معرفة اللغات السلافية ، منتشرة أيضاً بين المعتنقين الجدد للإسلام ، وكذلك المجندين الذين شكلوا جزءاً كبيراً من الدولة العثمانية .

هناك أيضاً فرمانات Fermans باليونانية ، صدرت من ديوان محمد الغازي (أو الفاتح) نفسه ، ويطلق فيها على الإمبراطور Omegas Authentes أي السيد العظيم [١٧] . إن هذا اللقب الإيطالي والتركي Efendi ربما يكونان مأخوذين من اللقب اليوناني . إن الأشكال المتعددة للغة الإيطالية كانت شائعة الاستخدام في وسط وشرق البحر المتوسط ، ومن المحتمل أن البحارة الأتراك - وكان كثير منهم من أصل أو موطن مسيحي - كانت لديهم معرفة عملة بهذه اللغة [١٨] .

كانت اللهجة التركية البحرية فى القرن السادس عشر قد أخذت عدداً كبيراً من الكلمات الإيطالية ، بعضها بطريقة مباشرة وبعضها عن طريق اليونانية ؛ فهي تحوي كلمات مثل قبودان Kapudan ، للربان البحري . ومن هنا نجد قبطان باشا تعني قائد الإسطول العثماني و Lostozmo أو Nostozmo وهي كلمة شائعة في البحر المتوسط ، وتعني رئيس البحارة في السفينة ، وربما ترجع إلى الكلمة الإسبانية العامية أو البرتغالية التي يستخدمها عبيد السفن وتعني رئيسنا . وكلمة Foztona في التركية ، والتي جاءت لتعني عاصفة Mangia ، هي كلمة يستخدمها البحارة الأتراك ، أصلها الإيطالي واضح وهي تعني الإطعام . يرجع معظم هذه الكلمات البحرية المستعارة إلى أصل إيطالي؛ خاصة لهجة أهل البندقية ولكن بعضها جاء من الإسبانية أو البرتغالية . إن عدد هذه الكلمات المستعارة يتزايد في التركية الشائعة أو العامية ؛ خاصة المتصلة بالبحر .

إن ترسانات بناء السفن والملاحظة والصيد تشهد ببعض التأثير الغربي . ومن

دواعي الدهشة ألا يكون هناك وجه مقارنة بين الكلمات الغربية في اللغة التركية ، وبين ما للغربية أو الفارسية فيها حتى عصور حديثة نسبياً .

ويبدو أن الإيطالية ظلت لزمن ما معروفة جيداً بين اللغات الأوروبية للأتراك ، وحتى القرن التاسع عشر كانت اللغات أو الكلمات الأوروبية في اللغة التركية إيطالية في صيغتها ؛ فهي تشمل مصطلحات سياسية وفنية ؛ خاصة صناعة الملابس ؛ فهي تحتاج للدلالة على الأثواب والأدوات والمعاهد اللازمة من أوروبا (١٩) .

إن الوثائق التي تجمع بين كتابات من اللغات الأوروبية والتركية قد اقتصرت على اللاتينية ، ما دامت لغة أوروبية رسمية وشرعية ودبلوماسية .

وهكذا فإن معاهدات Carbuitz في Passarourtz, Logg ١٧١٨ كتبت باللاتينية ، وأيضاً بالتركية ، ومع هذا فإن الإيطالية اكتسبت أرضاً جديدة ، وفيما بعد في القرن الثامن عشر كانت المعاهدات مثلما في معاهدة Kücük kaynarca ١٧٧٤ كانت تكتب بهذه اللغة .

في القرن الثامن عشر نسمع للمرة الأولى عن دبلوماسي تركي يتحدث الفرنسية . وقد كان اسم هذا الدبلوماسي سيد أفندي وكان قد رافق أباه حين سافر إلى باريس سفيراً في ١٧٢١ ، وسافر بنفسه بعد ذلك في بعثات دبلوماسية كثيرة . ويقول مؤرخ عثماني أن سيداً درس وتعلم اللاتينية . ومن غير المحتمل - بدرجة كبيرة - أن عثمانياً من القرن الثامن عشر قد عمل على قضاء وقته تحصيلاً للغة وثنية ميتة . ولقد لاحظ ناقد فرنسي معاصر أن "سيداً يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها" ، وربما كان هذا الكلام من خيال المؤرخ (٢٠) . وحتى ذلك الوقت كانت أفكار العثمانيين عن خريطة أوروبا اللغوية لا تزال غامضة .

ويبدو أن ظهور الفرنسية قد بدأ بتوظيف الضباط ، الذين يتحدثون الفرنسية في مدارس التدريب العسكرية في القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر . وأن نمو التأثير للغة الفرنسية ارتبط بتلك الفترة حيث كانت مراسلات الدبلوماسيين الروس والوزراء

النمساويين الأجانب مع سفاراتهم في القسطنطينية ، تكتب بشكل واسع بالفرنسية . ومن القرن التاسع عشر وصاعداً ، بدأت الكلمات التركية ذات الأصل الأوروبي تأخذ الصيغة الفرنسية أكثر من الإيطالية . مثل كلمتي مجلس الشيوخ Senato والبرلمانات Parlements وهما كلمتان مأخوذتان منذ وقت مبكر وتظهر فيهما الصيغة الإيطالية . لقد سمع الأتراك عن مجالس الشيوخ والبرلمانات التي نشأت عندنا في عصر مبكر في أوروبا القديمة . ولم يقابلوا شيوخاً Senators حتى بعد مضي وقت بعد ذلك ، وهم يعرفون في التركية Senators ، وأحياناً تحل الصيغة الفرنسية محل الصيغة الإيطالية المعادلة . وهكذا كانت البطلة في الأسطورة الرومانية التركية تلبس روب دي كاميرا Roba Di Camera وبالتالي غير الـ روب دي شامبر Robe Di Chambre ثم جاءت الإنكليزية في وقت متأخر .

وفي ١٨٠٩ فسر السفير البريطاني في القسطنطينية لماذا كان عليه أن يكتب المعاهدة مع الأتراك بالفرنسية مع أن المفاوضات تمت في القسطنطينية ، بأنه ما كان ليجد ترجماناً يجيد الإنجليزية تماماً ، لكي يكون مسؤولاً عن الإمضاء الخاص بالمفاوض التركي . ولم يحدث حتى عصر الرياضة والتكنولوجيا والسفر بالطائرات أن أحرزت الإنجليزية أي تأثير [1] .

هناك عملية موازية لهذا ربما يمكن تتبعها في إطار شمال إفريقيا ، حيث كانت اللغتان الإيطالية والفرنسية معروفتين بشكل أوسع من أي لغات أوروبية أخرى ، وحيث حلت محلهما فيما بعد اللغة الفرنسية . أما في إيران والهند فما كان للإيطالية تأثير يذكر . ويبدو أن البرتغالية قد تركت تأثيراً طفيفاً ، أما بالنسبة لمعظم مسلمي إيران والهند . . فقد قدم الغرب نفسه في صيغة إنجليزية أو فرنسية . إن سيادة الإدراك الفرنسي من الممكن أن تراها في الكلمة الفارسية المعادلة للولايات المتحدة فهي (. . .)

إن أسلوب المدارس العسكرية الغربي الذي أسسه السلاطين والباشاوات المصلحون ، وكذلك تدريب الشباب المدنيين الصغار لخدمة الدبلوماسية الحديثة قد خلق

عنصراً جديداً في المجتمع المسلم خلق طبقة من الضباط الشباب المسئولين على علم باللغات الأوروبية ، عادة الفرنسية ، وعلى اهتمام بدراسة بعض مظاهر الحضارة الغربية ومدربين على الاقتداء بالخبراء الغربيين المسيحيين ؛ بوصفهم معلمين ومرشدين إلى الوسائل المناسبة . وهناك نص نشر في Üsküdar في ١٨٠٣ ربما كان من عمل مترجم يوناني في الباب العالي ، حيث وضع النص التالي على لسان ضابط مهندس عثماني :

"لكي أتعلم عجائب العلم الأوربي صممت على أن أجد المدخل لهذا . ولم أضيع الوقت ، ففرغت نفسي لدراسة اللغة الفرنسية على أنها أكثر اللغات عالمية ، وأقدرها على تمكيني من معرفة المؤلفين في مجال العلوم . لقد كنت شديد الفرح لرؤية وطني على الحالة التي أتمنى أن يكون فيها كل يوم مضاءً بمشاعل العلوم والآداب والفنون [٢٢] .

إن الانتقال من الاتجاه القديم - وهو احتقار لغات الوثنيين - إلى اتجاه جديد ، مؤداه احترام وسائل سمو الفنون والمعرفة كان ولاشك سهلاً ، وفي الأعوام الأولى للقرن التاسع عشر . . كان العثمانيون لا يزالون يعتمدون بشكل كبير على الموظفين اليونانيين لمعرفتهم باللغات الأوروبية ، ولمعرفتهم - إلى حد ما - بالأحداث الجارية في أوروبا وشئونها . إن أخطاء هذا الموقف للباب العالي قد كشفت عنها الثورة التي حدثت في اليونان ، وجعلت اليونانيين والأتراك في حالة حرب ، ويبدو أن حكومة السلطان قد اعتقدت - ربما عن خطأ - أنه ليس من المستطاع أن يوثق بأمر كبير المترجمين اليونانيين ستفاراكي استاش فقررت إعدامه ، وتعيين مسلم مكانه .

إن القول دائماً أيسر من الفعل ، فإن الإصلاحات التي تمت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر قد أدت إلى ظهور قليل من الأتراك المثقات في اللغات الغربية ، ولكن في هذا الوقت كان أغلبهم قد مات والقلة الباقية ، إما اختفوا أو نسوا فنونهم ومهاراتهم اللغوية . ويخبرنا مؤرخ تركي معاصر أنه لمدة أسبوعين أو ثلاثة تراكمت الأوراق اليونانية أو الفرنجية في مكتب الترجمان الرئيسي في الباب العالي . ولمعالجة هذا الأمر لجأ السلطان إلى المكان الآخر الوحيد الذي تستعمل فيه اللغات

الأجنبية ، وهو المدارس العسكرية . وقد أصدر أمراً بنقل يحيى أفندي المدرس بالمدرسة العسكرية للهندسة إلى مكتب الترجمان ، ويؤكد المؤرخ المعاصر ساني زاده Sani zada أهمية هذا النقل فهو يضع - لأول مرة - الترجمة وقيادات العلاقات الأجنبية في يد مسلمة ، وهكذا جعل معرفة واستخدام اللغات الأجنبية مهنة إسلامية محترمة [٢٣] . حتى يحيى نفسه لم يكن من أصل إسلامي فقد تعدد الرأي فيه . أيرجع إلى أصل بلغاري أم يوناني أم يهودي ؟ لقد كوّن يحيى أفندي جماعة من التراجمة والسفراء ، كان لهم دور مهم في تركيا في القرن التاسع عشر عند وفاته في ١٨٢٣ أو ١٨٢٤ ، وتبعه معلم خر نقل من مدرسة الهندسة هو المعلم إسحاق Hoja Ishak ، وهو يهودي اعتنق الإسلام ورأس المكتب حتى ١٨٣٠ عندما عاد إلى التدريس ثانية .

ويبدو أن الاعتماد على المسلمين كان يقابله كثير من الصعوبات ، وتقابله مقاومة ذات خطر ؛ فقد كان على السلطان المصلح محمود الثاني أن يعتذر عن إدخال اللغة الفرنسية في المنهج عام ١٨٣٨ في الخطبة الموجهة للطلاب في افتتاح المدرسة الطبية الجديدة يقول :

"إنكم ستدرسون علم الطب في فرنسا . إن غرضي من تعلمكم الفرنسية ليس أن تعرفوا الفرنسية لذاتها ، ولكن لكي تتعلموا الطب ، ورويداً رويداً نحوله إلى لغتنا . لذلك اعملوا جيداً على تحصيل علم الطب من مدرستكم ونقله إلى التركية ، وجعله مستخدماً فيها بشكل واسع" [٢٥] .

في هذه الملاحظات يشير السلطان إلى واحدة من المشكلات الأساسية أمام عملية الاستغراب Westernization وحتى عام ١٨٣٨ - العام الذي ألقيت فيه الخطبة - كان عدد الأتراك الذين كانوا على معرفة ذات شأن باللغة العربية لا يزال صغيراً بشكل عظيم . فلقد كان الجانب الأعظم من عملية التعليم في المدارس - حتى على أيدي المعلمين الفنيين في القوات المسلحة - يمر من خلال الترجمة . وإلى حد كبير كان المترجمون لايزالون مسيحيي الأصل وقد أدى حضورهم إلى تقوية الحاجز أكثر من إضعافه ؛ فقد كان من المكروه التعلم تحت قيادة الإفرنج ، بل لقد كان من الأسوأ أن

تتم عملية التعليم أو القيادة من خلال مترجم يوناني أو أرمني، لغته أو خبرته ومظهره يبعثان على احترامه بين (الطلبة) أو المسيحيين الأتراك .

ولأسباب عديدة . . كان من الضروري للطلبة المسلمين تعلم اللغات الأجنبية . والغرض بالنسبة لهم هو تحصيل المعرفة المفيدة طبية أو تكنولوجية أو علمية أو عسكرية ، ليس أكثر ، ولكن من الصعب السير على هذا المنهج .

لقد كان التلاميذ وبعد ذلك الطلبة يتعلمون الفرنسية ، وكانوا ينظرون إلى الفرنسيين والأوروبيين نظرة التلميذ لأستاذه .

وفي منتصف القرن التاسع عشر أصبح تعلم لغة أوروبية وسيلة ضرورية أمام الشباب المسلم الطموح ، الذي يأمل في الحصول على وظيفة في الحكومة ، وكان مكتب الترجمة التابع للجيش والقصر واحداً من الطرق إلى الترقية والسلطة .

الفصل الرابع

الوساطة والوسطاء

جاور المسلمون الأوروبيين ، وقاسموهم حوض البحر الأبيض المتوسط ، حيث كانت معظم الأمصار الإسلامية تمثل جزءاً من أراضي الإمبراطورية الرومانية . وكان المسلمون - شأنهم شأن الأوروبيين - يعرفون الكثير عن التراث اليوناني والروماني ، ويعرفون الكثير عن المسيحية وبعض الثقافات والأديان الأوروبية أكثر من معرفتهم بالحضارات الأسيوية والإفريقية [1] ، لذلك كان الستار الحديدي - بين الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى - يداوم المحافظة على التبادل الثقافي إلى أقصى الحدود ، وقد يفرض بعض القيود على المعاملات الدبلوماسية والتجارية . ومن ثم كان للعالم الإسلامي خطوط مواصلاته واتصالاته الداخلية الخاصة براً وبحراً ، فقد كان مستقلاً بذاته تماماً عن الطرق والخدمات الغربية ، مستشعراً الفخر والزهو ، واثقاً بتفوقه ، محتقراً همجية الرجل الأوربي والوثني غير المؤمن ، الذي يقطن أراضي الشمال ، وأراضي البحر الأبيض المتوسط وأوروبا .

بعد ذلك بدأ الإسلام زحفه تجاه أراضي غير المؤمنين به ، ولم يرض بعض من الناس عن هذه الخطوة ، ولكن لم يكن منها مفر ، هذا إلى جانب انعدام الضرر من اتخاذها .

ولقد قام كاتب جغرافي مسلم في القرن العاشر الميلادي - بوصف روما من خلال ثلاثة تقارير قام بتدوينها عن بعض الرحالة الذين لم يذكر أسماءهم ، ولكنه أورد ذكرهم على أن أحدهم يهودي ، وثانيهم راهب مسيحي ، وثالثهم تاجر . ويبدو أن هذه الفئة من الناس هي التي كانت تنتقل بين العالمين : الإسلامي والمسيحي [2] . كان

الحجاج المسيحيون واليهود يتوجهون لزيارة الأراضي المقدسة في القدس (أورشليم) وكان بعض من رجال الكهنوت المسيحيين يتجهون من الشرق إلى روما ، وقد ساعد ذلك على تقوية الوشائج بين روما وعديد من كنائس الشرق .

أما المسلمون . . فكانوا يتوغلون في الأراضي الأوروبية وغيرها مرتحلين عن رغبة في الارتحال أو غير رغبة . ويحكى أن أسيراً أعرابياً يدعى "هارون بن يحيى" ألقي القبض عليه في الشرق ، وذلك في القرن التاسع ، ثم نقل إلى القسطنطينية ، ومنها إلى روما بعد فترة وجيزة [٣] .

يوضح هذا المثال أن وجود هؤلاء الأسرى المسلمين في أيدي المسيحيين جعلهم يعرفون كثيراً من المعلومات عنهم ؛ خصوصاً خلال العهد العثماني عندما اندلعت الحروب بين العثمانيين وأعدائهم في جنوب شرق أوروبا ومنتصفها ، هذا بالإضافة إلى الحروب البحرية الدائمة في البحر المتوسط التي تركت بعضاً من المسلمين والمسيحيين أسرى .

بدأت بعد ذلك البعثات الإسلامية تذهب إلى إسبانيا ، وبعض الدول الأخرى في محاولة لإطلاق سراح أسرى المسلمين .

وعند عودة المسيحيين من الدولة العثمانية (من شرق أفريقيا بالتحديد) وصفوا تجربتهم القاسية في الأسر بين هؤلاء الأعداء الذين عاشوا بينهم ، أما المسلمون الذين عادوا إلى بلادهم من الأسر ، فلم يتركوا انطباعاً محدداً للآخرين .

وقع بعد ذلك حادثان هامان ، أولهما في نهاية القرن السادس عشر ، عندما وقع القاضي التركي أسيراً في أبريل عام ١٥٩٧ في أيدي فرسان القديس جون ، وكان القاضي في طريقه إلى قبرص ليتولى أحد المناصب المهمة ، فأسر ، ونفي إلى مالطة لأكثر من عامين ، وقد نشرت بعد ذلك نبذة عن فترة أسره اختيرت من المخطوط الفريد ، الذي سجل فيه حادثة أسره [٤] .

أما الحادثة الثانية فهي تتعلق بشاب يدعى "عثمان أغا" وهو أسير حرب تركي ،

أصبح مترجماً يعمل في خدمة الدولة العثمانية ، وقام بكتابة بعض الأعمال التي تتعلق بسيرته الذاتية في الأسر ، وكان ذلك في الفترة من ١٧٢٤ إلى ١٧٢٥ ، مما أثار اهتمام بعض من المؤلفين العثمانيين - في هذا المجال الأدبي - إلى مصنفات المؤلفات والفهارس (وهي نوع من أنواع دراسة أوصاف الكتب وطباعتها وفهرستها) لقد حفظ كل هذا في مخطوطتين نادرتين ، واحدة في لندن ، وأخرى في فيينا Vienna ولم يعرف أحد عنها شيئاً ، حتى اكتشفتها مجموعة من الدارسين [٥] . وهكذا يمكنك أن تلاحظ أن الأسرى العائدين إلى بلادهم كانوا يمثلون مصدراً مهماً للمعلومات الجديدة عن أوروبا .

وكان أهم الجماعات الرحل في ذلك العهد : التجار والدبلوماسيين ، وهاتان الفئتان تستحقان التريث أمامهما وتفصيل وصفهما .

استطاع المسلمون أن يضربوا المثل الأعلى في سن القوانين وتطبيقها ، وإطاعة الشرع ، والتمسك بالتقاليد أثناء ترحالهم إلى البلاد الأوروبية . واستطاعوا كذلك استيراد السلع المتعددة من الهند ، وجنوب شرق آسيا والصين (مثل الحرير والتوابل والمعادن والعطور والفخار) ، وتمكنوا من جلب بعض السلع الرئيسية من افريقية السوداء (مثل الذهب والفضة) ؛ مما ساعد على مد شبكة التبادل التجاري مع الإمبراطورية البيزنطية ، وشرق شمال أوروبا ، حيث كان يتم استيراد الفراء والكهرمان ومنتجات الأسماك ، وكذلك العبيد . وكانت معظم هذه العمليات التجارية تتم في منتصف شرق أوروبا وافريقيا ، وقلب آسيا ، وإلى جانب هذه السلع الأوروبية ، وجدت العمليات التجارية المتعلقة ببيع السلاح والصوف الإنجليزي التي كانت تتم حتى نهاية العصور الوسطى ، وبداية العصر الحديث الذي تطورت فيه الصناعات ، وبدأ نظام المستعمرات يشق طريقه إلى العالم الجديد ، وهذا يكاد يوضح إلى أي مدى بلغ التبادل التجاري بين أوروبا وبلدان العالم الإسلامي .

ظهرت بعد ذلك عوامل ، أخذت تحد من ارتحال المسلمين إلى جنوب أوروبا ، منها : عنت حكام وشعوب هذه البلاد وعدم تسامحهم مع المسلمين .

في هذه الأقاليم التي كانت تضرب عليها الوثنية بجرانها أجبر المسلمون المقيمون فيها على ترك الإسلام ، فإما التنصر أو النفي أو الموت .

أما اليهود الذين عاشوا في أوروبا في العصور الوسطى ، فلم يشجعوا أحداً على الاستقرار والإقامة بينهم ، مما صعب الموقف بالنسبة للمسلمين الذين يرغبون في ممارسة شعائرهم كبناء الجوامع ، والحمامات ، وذبح الحيوانات وإعدادها حسب الشريعة الإسلامية وبعض المتطلبات الأخرى التي تتعارض مع هذه المجتمعات غير المسلمة .

ولقد ترك أسامة بن منقذ - وهو سوري مسلم - مجلدات مهمة خاصة ببعض الذكريات التي ذكر فيها - وكان ذلك في القرن الثاني عشر - أن أحد جيرانه في سوريا كان من فرسان الفرنجة ، وقد أنشأ معه صداقة طيبة ، وقبيل رحيل الفارس إلى بلاده . . اقترح على أسامة أن يسمح لإبنه البالغ من العمر اربعة عشر عاماً في أن يرافقه إلى بلدته ليعيش بين الفرسان ، ويتعلم الفروسية والحكمة .

كان الفارس يظن أن هذا الاقتراح تقدير منه للصداقة التي بينه وبين أسامة ، أما أسامة فرأى أن هذا اقتراح سخيف ، وكلام ينفيه العقل ، يتفوه به رجل يتحدث عن الحكمة ، فكيف أن يترك ابنه يؤخذ ، وكأنه أسير حرب يساق إلى أرض الفرنجة ؟

قال أسامة للفارس : كنت أفكر في هذا الأمر ، ولكن الذي يمنعني عن الموافقة أن جدة الغلام تحبه حباً جارفاً ، ولا تسمح له بالخروج معي إلا إذا أقسمت بأنني سأعود به إليها .

فقال له الفارس : أما زالت أمك على قيد الحياة ؟

فقال أسامة : نعم . . فقال الفارس : إذن يجب أن لا تعصى أمك (٦) .

مما سبق نستنتج أن الرحلات إلى أوروبا لم تكن مهمة للتجارة أو الأغراض الدبلوماسية فقط ، ولكن لتوطيد العلاقة أيضاً ؛ لذلك فقد كان حكام المسلمين يفضلون إرسال أحد أتباعهم من المسيحيين أو اليهود ، الذين يمكنهم إنشاء اتصالات مع المجتمعات الدينية التابعة لها أوروبا ، وخلف حدود الأراضي الإسلامية ، وبالتالي . .

يمكن للمسيحيين واليهود الذين يعيشون في أوروبا الانتقال إلى الأراضي الإسلامية .

إن التاريخ الإفرنجي يؤكد القصة المشهورة عن تبادل السفارات بين شارلمان وهارون الرشيد بدوره بعثتين دبلوماسيتين مماثلتين في نفس العامين .

ويقال أيضاً إن ملك الإفرنجة قام بإرسال بعثتين إلى البطريارك المسيحي في أورشليم عام ٧٩٩م - وربما عام ٨٠٢ - وقام باستقبال أربع بعثات أرسلها البطريارك فيما بين عامي ٧٩٩م و ٨٠٧ (٧) - ولكن هذه البعثات لم تذكر في تسلسل الأحداث العربية ، ويبدو أن ذلك لعدم أهميتها .

لم يذكر التاريخ العربي سوى السفارة الغربية التي أرسلتها ملكة الإفرنجة (بيرثا) إلى الخليفة المكتفي في بغداد عام ٩٠٦م ، وقد جاء بالقصة التي ذكرها المؤرخ العربي "أن الملكة بيرثا ابنة لوثر ملكة الإفرنجة والدول التابعة لها ، قامت بإرسال هدية إلى المكتفي بالله خليفة بغداد مع على الطواشي (الخصي) - وهو أحد خصيان بن زياد الله بن غلاب بين عامي ٢٩٣ و ٩٠٦م - وكانت الهدية تتكون من خمسين سيفاً ، وخمسين درعاً ، وخمسين حربة ، وعشرين رداء من الصوف عليهم وشي من الذهب ، وعشرين من الصقالبة ، وعشرين من الإماء الحسان ، وعشرة من الكلاب القوية التي تفتك بالوحوش ، وسبعة صقور ، وسبعة عقبان ، وخيمة من الحرير ومتعلقاتها ، وعشرين ثوباً من الصوف الذي تتقلب ألوانه في ضوء الشمس ، فيبدو كقوس قزح ، وثلاثة من الطيور النادرة التي تتميز بها أراضي الإفرنجة ، وهي الطيور التي تستطيع تمييز الطعام المسمم من غيره ، إذ إنها تطلق صرخات غريبة وتحرك أجنحتها بطريقة تلفت الأنظار لمثل هذا الخطر .

قام على الطواشي بتسليم هذه الهدية ، ومعها رسالة من الملكة إلى المكتفى بالله خليفة بغداد تطلب فيها الزواج منه ، والصداقة معه .

ولم تحقق هذه السفارة كثيراً ، فلا صداقة ، ولا زواج (٨) .

وهناك تقرير دبلوماسي مبكر عن سفارة دبلوماسية متبادلة بين العرب في إسبانيا

والفايكنج على الأندلس ، وفي المرحلة الأولى للحرب .. استطاع الطرفان المتنازعان توقيع معاهدة صلح ، فقد أرسل الفايكنج بعثتهم إلى السلطان المسلم عبد الرحمن الثاني ، أمير قرطبة ، يطلبون الصلح ، فأرسل لهم السلطان - بالمثل - بعثة دبلوماسية ، اختار لها يحيى بن الحكم البكري سفيراً ، وهو الملقب بالغزال لوسامة وجهه . ويحكى أن يحيى بن الحكم حدث صديقه تمام بن علقمة بهذه القصة ، ثم سردها هذا الأخير على ابن دحية المؤرخ العربي .

ويقال أن السفارة كانت في بلاد أيرلندا أو الدانمارك ، وقد انقسمت الدراسات الحديثة حيال هذه القصة بين مصدق ومكذب .

أما الغزال فلم يذكر لنا أين كانت سفارته بالضبط ، إلا أنه يؤكد وصوله إلى بلاط الفايكنج ، وكيف أنه استطاع الحفاظ على شرفه ، ومكانة الإسلام بالرغم من محاولات أعدائه للتقليل من مكانته : "وبعد يومين من وصول البعثة .. استدعاهم الملك إلى رؤيته ، فاشترط الغزال عليه ، ألا يسجد له ، ولا يخرجهما على شيء من سنتهما - هو ورفيقه يحيى بن حبيب -، فأجابهما إلى ذلك ، فلما مشيا إليه قعد لهما في أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذي يفضي إليه فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً ، فجلس الغزال على الأرض ، وقدم رجليه في الدخول ، فلما جاز الباب استوى واقفاً ، والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعر ، بل قام ماثلاً بين يديه ، فقال :

"السلام عليك أيها الملك ، وعلى من ضمه مشهدك ، والتحية الكريمة لك ، ولازلت تتمتع بالعز والبقاء والكرامة المفضية إليك إلى شرف الدنيا والآخرة ، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم ، الذي كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه المرجع " ففسر الترجمان ما قاله فأعظم الكلام وقال : هذا حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاتهم ، وعجب من جلوسه على الأرض ، وتقديمه رجليه في الدخول ، وقال : " أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه ، لولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه" (٩) .

وهذا النص يذكرنا برواية سردها بعض المبعوثين الأوروبيين إلى أراضي البربر في الشرق ويواصل المؤرخ حديثه ذاكراً أن الغزال عندما كان يجادل نظراءه في بعض الأمور فإنه كان يبكتهم ويفحمهم .

وكانت هذه البعثة التي رأسها الغزال واحدة من عديد من بعثات التبادل الدبلوماسي بين المسلمين أو المسيحيين في إسبانيا وشمال أوروبا ، هذا إذا كانت قد حدثت بالفعل .

ويقال إن هناك بعثة مسلمة واحدة ، هي التي أرسلها خليفة قرطبة إلى الإمبراطور المقدس في منتصف القرن العاشر ، وهي مدونة بالمستندات الرسمية الخاصة بذلك .

ظهرت جماعة من القراصنة المسلمين الذين تمركزوا بمدينة في Alpine Passes وجلسوا بالممرات ثم كانوا يفاجئون طرق المواصلات بغاراتهم المستمرة ، فيقطعون الطريق على القوافل الآتية من إيطاليا أو الذاهبة إليها . وفي عام ٩٥٣ أرسل الإمبراطور أوتو الكبير بعثة دبلوماسية إلى خليفة قرطبة ، يطلب منه المساعدة واستدعاء هؤلاء المسلمين إلى بلادهم . بعد ذلك وفي ظروف غير معلومة قام الخليفة بإرسال بعثة إلى ألمانيا ، وكان أحد أعضائها إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي ، نسبة إلى طرطوشة ، وهي بلدة صغيرة على ساحل قطالونيا بجوار برشلونه [١٠] ، ولم يعرف ما إذا كان إبراهيم عضواً في البعثة الدبلوماسية أم كان السفير ، ويبدو أنه كان طبيباً . وعلى أية حال ، كان إبراهيم كثير الترحال ، انطلق إلى فرنسا ، ومنها إلى هولنده ، ثم إلى شمال ألمانيا وبوهيميا وبولنده ، وربما كانت عودته عن طريق شمال إيطاليا ، ويبدو أنه قام بتدوين رحلاته وتنقلاته خلال أوروبا ، ولسوء الحظ فقدت هذه المذكرات ، إلا ما دونه منها جغرافي أندلسي عربي الأصل في القرن الحادي عشر الميلادي ، اسمه البكري وله زميل آخر اسمه أودري .

لقد استطاع البكري أن يحافظ على ما جاء في رواية إبراهيم بن يعقوب عن رحلاته إلى بلدان سلاف - حالياً بولنده - ، وألمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا . وتعد هذه الرواية مصدراً مهماً من مصادر التاريخ المبكر مثل هذه البلدان .

أما أعمال زميله أودري Udhri فقد فقدت أيضاً ، ولم يبق منها إلا المقتطفات التي منها ما يتعلق بوصف ألمانيا وغرب أوروبا ، والتي اقتبسها القزويني Qazvini الجغرافي الفارسي الأصل في القرن الثالث عشر (الميلادي) .

ويقول البكري أن مصدر روايته كان إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي .

أما القزويني فقد أشار إليه - ببساطة - باسم الطرطوشي ، ولذلك اعتقد لفترة طويلة أنهما شخصان ، أحدهما يهودي والآخر مسلم ، وقد استطاع جورج يعقوب ، وهو ألماني الأصل بعد دراسة لهذه النصوص أن يتبين أن هناك اختلافات جوهرية وعرقية بين الشخصين ، وقد توصل من هذه الاختلافات إلى ملاحظات مهمة أدت في النهاية إلى توضيح أن جوهر الاختلاف يرجع إلى أن أحدهما دبلوماسي عربي والآخر تاجر يهودي [11] . ولكن تاديوس كلوفالسكي استطاع إثبات أنهما شخص احد عندما ربط بين روايتي البكري والقزويني ، وأشار إلى أن مصدرهما واحد .

وهناك بعض الشكوك تتعلق بشخصية إبراهيم بن يعقوب ، أهو مسلم أم يهودي ، أم هو مسلم من أصل يهودي ؟ وقد ساعد اسمه الذي يشترك فيه المسلمون واليهود على هذا الاضطراب . ولا تذكر الرواية متى كانت زيارته للإمبراطور أوتو الكبير ، ويبدو من تاريخ رحلاته إلى إيطاليا أنه التقى به عام ٩٦٥م بناء على أوامر الخليفة في قرطبة ، أو بناء على طلب الإمبراطور لإرسال سفارة إلى الأندلس عام ٩٥٣ [12] . ويمكن ملاحظة أن رواية إبراهيم بن يعقوب عن غرب أوروبا متفوقة على ما سبقها من روايات ، وذلك من عدة زوايا ، فقد استطاعت تقديم صورة كاملة رغم أنها على شكل مقتطفات ، فقد جمعها رجل محترف متخصص في تجميع القصص المطولة .

ومن ثم نلاحظ أن المسلمين لم يذهبوا لـلقاء الأوروبيين ، بل لجأ الأوروبيون إليهم سعياً في عصر الحروب الصليبية ، إذ استطاع الصليبيون الاستيلاء على بعض الأراضي الإسلامية وحكمها من إسبانيا إلى فلسطين ، فكانت هذه فرصة للمسلمين كي يلتقوا

بثقافة الإفرنجة وأساليبهم ، دون أن يتركوا أراضيهم للسعي خلف هذه المعرفة وراء حدود بلادهم .

يسرد علينا أحد المؤرخين العرب رواية إرسال بعثة دبلوماسية أخرى إلى ملوك الحملة الصليبية في أقصى حدود الأرض لبلدان مثل صقلية وجنوب إيطاليا ، تلك البعثة التي أرسلها السلطان المصري الظاهر بيبرس إلى الحاكم الصقلي "مانفريد" عام ١٢٦١م ، وكان على رأس هذه البعثة المؤرخ السوري المعروف باسم جمال الدين بن واصل ، والذي استطاع أن يصفها في أعماله الخاصة التي سجلت الأحداث من عام ١٢٠٧ إلى ١٢٩٨م ، التقى ابن واصل بالحاكم الصقلي مانفريد في مدينة بارليتا ووصف مانفريد بأنه رجل متميز في أموره محباً للعلوم التأملية ، يحفظ - عن ظهر قلب - البديهيات العشر التي جاءت في كتاب إقليدس في الهندسة . وكان من المعروف أن مانفريد صديق للمسلمين الذين في حاشيته ، وقد سببت له هذه الصداقة كثيراً من المتاعب أثارها البابا [١٣] .

والدليل على صحة هذه والرواية أن المؤرخ الذي قام بتدوينها هو عينه السفير الذي قام بهذه البعثة ، ولكن يبدو أن هذا السبب غير كاف لوجود عديد من المؤرخين داخل البعثة الدبلوماسية .

ولكن ليس هناك من المؤرخين من يعتبر أعظم من المؤرخ ذائع الصيت ابن خلدون الذي أرسل في بعثة دبلوماسية لمقابلة الحاكم بيدو الأول ، في مدينة كاستيل في الفترة ما بين ١٣٦٣ - ١٣٦٤ [١٤] .

إن أهم الأحداث والروايات هي تلك التي ذكرها أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨) ، والتي تتعلق بكيفية ترك الحروب الصليبية أثرها الكبير على المسلمين في الشرق الأوسط .

يواصل أسامة حديثه عن علاقاته مع جيرانه من الإفرنج ، الذين كان يشعر باحتقار نحو أساليبهم البربرية ، وكيف استطاعت أساليب المسلمين أن تضيف شيئاً جديداً

لثقافتهم وأكسبتهم كثيراً من الحضارة . يواصل أسامة حديثه ذاكراً أنه أرسل أحد المغامرين إلى مدينة أنطاكية التي يحتلها المسيحيون في مهمة عمل ، فيصف حياتهم قائلاً :

"ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من قريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شواذ لا يقاس عليه . نحو ذلك أنني نفذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل . وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي ، وبيني وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في أنطاكية فقال لصاحبي يوماً : "قد دعاني صديق لي من الإفرنج . تجيء معي حتى ترى زيهم" قال: "فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق ، الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج ، وقد أعفي من الديون والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة . ورآني متوقفاً عن الأكل فقال : كل طيب النفس . فأنا ما أكل من طعام الإفرنج . ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير . فأكلت وأنا محترز وانصرفنا" .

فبينما كنت أجتاز السوق ، وإذا بامرأة إفرنجية تتعلق بي ، وهي تنطق بلسانهم وما أدري ما تقول فاجتمع علي خلق من الإفرنج ، فأيقنت بالهلاك . وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني . فجاء فقال لتلك المرأة : "مالك ولهذا المسلم ؟ قالت : هذا قتل أخي عرسي وكان عرسي هذا فارساً بأفاميه قتله بعض جند حماة فصاح عليها ، وقال: هذا رجل برجوازي (أي تاجر) لا يقاتل ، ولا يحضر القتال : "وصاح على اولئك المجتمعين ، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى ، فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل" [١٥] .

إن هذه الرواية الخاصة بأسامة تعتبر من القصص الأدبية ، التي مع الأسف لاوجود لها هذه الأيام ، بل تعتبر نادرة في عالم الإسلام ، ولكن هناك بعض الروايات القليلة التي تظهر الانطباعات الشخصية من خلال الاتصالات مع المسيحيين الأوروبيين . وهذه الرواية الخاصة بأسامة تعتبر من الروايات المعاصرة لهذه الأحداث [١٦] . أيضاً

أبو حامد (*) أهم ما لفت نظره في شرق أوروبا هو مدينة روما ، التي كانت مصدره الأدبي . بعد ذلك انتقل من هناك إلى منتصف أوروبا ، ولكنه لم يتعد سهول بلغاريا . وبرغم أنه لم يذكر الكثير . . إلا أنه ظل من العلامات البارزة في تاريخ معرفة المسلمين لأوروبا ؛ لأنه الرحالة المسلم الوحيد الذي استطاع الذهاب إلى أوروبا "بمحض إرادته للدراسة وليس في مهمة رسمية" ؛ ليظل اسمه وكتاباته معروفة للجميع في القرن العاشر .

هناك أيضاً رحالة آخر من أقصى أسبانيا ، وقد قام بزيارة سوريا عام ١١٨٤ وبلاد الإفرنجة أيضاً ، وكان من الأماكن التي مر من خلالها مدينة عكا وهي الميناء الرئيسي للصليبيين يقول : "إن مدينة عكا دمرها الله وأعادها (للإسلام) هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة (والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية) ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الأقدام . تستعمر كفراً وطغياناً ، وتفور خنازير صلباناً ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجساً وعذرة" (١٧) .

ويبدو هنا أن ابن جبير يشير إلى الدنان المملوءة خمراً وإلى الخنازير ، وآلات العزف ، والكنائس ، والأشياء الأخرى التي تؤذي عين المسلم في ذلك العهد ، لأن المسلمين كانوا يتمسكون بعقيدتهم وإيمانهم الإسلامي أكثر من المسيحيين الأوروبيين ، لذلك فإن الزوار المسلمين الذين توجهوا شطر أوروبا في بداية القرن التاسع عشر ، كانوا يعلقون على خصومهم الأوروبيين قائلين : إنهم يفتقرون إلى مبادئ الصحة والنظافة الشخصية . لذلك لم يكن ابن جبير يسعد بكل ما يراه في بلدان الإفرنجة . ولكنه كان يسعد برؤية طقوس الزفاف المسيحية في مدينة صور خصوصاً ، عندما تلفت نظره العروس الجميلة فيعقب :

(*) أبو حامد (١٠٨١ - ١١٧٠) هو أحد مسلمي مدينة غرناطة بإسبانيا ، وكان عالماً في الجغرافيا . ولقد استطاع هذا العالم القيام برحلة طويلة خلال الشمال إلى روسيا ، ومن روسيا توغل تجاه الغرب إلى أوروبا ، ثم إلى بلغاريا التي قضى بها ثلاثة أعوام (المترجم).

"وهي رافلة في رحيلها وحللها ، تمشي فترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر" (١٨) .

كانت هناك أشياء أخرى تلفت أنظار ابن جبير غير جمال العروس الإفرنجية ، فقد لاحظ أن الإفرنجه يعاملون الفلاحين المسلمين بالإنسانية والعدل أكثر من جيرانهم المسلمين "إن ما رأيته يجعل قلوب المسلمين تمتلئ حزناً ، رأيت المسلمين يعاملون إخوانهم من المسلمين بطريقة غير مشروعة ، ورأيت الأسياد من الإفرنجة يعاملون المسلمين بالحسنى والعدل ، لذلك تجد العامة من المسلمين - لسوء الحظ - يتذمرون على حكامهم المسلمين ويشكون الاضطهاد ويمجدون سلوك خصومهم وأعدائهم لهم . إنهم الإفرنجة الذين فتحوا بلادهم وقاموا على ترويضهم وهم الذين يحسنون معاملتهم فليس غير الله يشكون إليه" (*) .

إن هذه الملاحظة التي ذكرها ابن جبير ، ومن قبله أسامة وأبو حامد تعد شواهد تمثل ظواهر معزولة ، ليس لها سوى تأثير بسيط على تطور معرفة المسلمين بالغرب .

أما العامل المهم في ذلك التطور . . فهو نمو وازدياد العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا ، وعلى وجه الخصوص غرب أوروبا مع البلدان الإسلامية التي في الشرق الأوسط وشمال افريقيا ، هذا بالإضافة إلى التجارة التى ساعدت على توثيق العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والأوروبيين (في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا ونيوزلاندا وانجلترا) (٢٠) .

وهكذا . . يمكنك أن تلاحظ أن التبادل التجاري ساعد على تطور العلاقات الدبلوماسية بين بلاد المسلمين والأوروبيين .

ظهرت مصر الدولة ذات المركز المستقل والمكانة الواضحة في العالم الإسلامي ؛ حيث كانت المنافسة شديدة بين الشرق والغرب في الشرق الأوسط وبين الأنظمة الحاكمة

(*) هذا النص لم نجده في رحلة ابن جبير . (المترجم) .

في وادي النيل ، تلك التي كانت تسيطر على سوريا وفلسطين أيضاً ، والتي كانت تجد التأييد من العراق وإيران .

والذي أزاد من حدة التنافس في المنطقة ظهور المغول في القرن الثالث عشر ؛ حيث إضافت بذلك قوة جديدة ضد الإسلام في الشرق ، وزاد من أمل مسيحيي أوروبا في وجود حليف لهم ، يمكن أن يفتح جبهة جديدة ، ولكن خابت ظنونهم عندما اعتنق الخان في بلاد الفرس الدين الإسلامي وأصبح مسلماً [٢١] ، على هذا لم تثمر الاتفاقات التي كانت بين أوروبا وحكام المغول عن أية نتائج مثمرة ، ولكنها لفتت أنظار الحكام المماليك في مصر إلى الاهتمام بأوروبا عن طريق إقامة علاقات دبلوماسية مع المسيحيين .

وفي عام ١٣٤٠ قام أحد المسئولين المصريين اسمه شهاب الدين العمري [*] ، بوضع كتيب للمراسلات الدبلوماسية ، يمكن الاستعانة به في مجالس القضاء الملكي المصري [٢٢] ، ووضع به قائمة توضح الأراضي ذات السيادة ، والملوك الذين لهم علاقة دبلوماسية ومراسلات مع سلطان مصر ، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم كإمبراطور بيزنطة ، وملوك جورجيا وأرمينية ، والصرب وسنوب ورودس ، ولكنه لم يذكر من أسماء حكام الغرب سوى اسمين فقط ألفونسو ملك الأندلس ، وريد فرانس ، وهذا الأخير يمثل ملك فرنسا في اللغة القومية (الرومانية) ، ولكن لم يعرف كيف استطاع المؤلف أن يفهم هذه العبارة .

بعد ذلك ظهر كتاب آخر للعمري اسمه التثقيف ، ذكر فيه بعضاً من الأسماء منها البابا وحكام جنوا والبندقية ونابلس .

وفي الجزء الثاني ذكرت العناوين التي تخدم في المراسلات الصادرة عن ملوك مصر

(*) لم نجد هذا إلا في الجزء الثامن من (صبح الأعشى) للقلقشندي ، وليس في الخامس ، ط. المطبعة الأميرية - القاهرة - المقصد الرابع من ص٤٢ ، وفيه أحد عشر مكاتبة ، وليس خمس مكاتبات فقط ، والمكاتبة الخامسة هنا هي رقم (١١) في صبح الأعشى ، ويبدو أن الكاتب اطلع على صبح الأعشى في نسخة ناقصة ، أو عن طريق مرجع وسيط . (المترجم) .

طبقاً للبروتوكول المعمول به والمتفق عليه مع الملوك غير المسلمين (كالإفرنجة ، واليونانيين ، والأحباش . . الخ) [٢٣] .

ثمة رجل آخر من رجال الدولة المسئولين يلقب بالقلقشندي [*] ، استطاع مناقشة أمور ملوك الشرق المسيحيين من البلقان وإسبانيا ، واستطاع أن يتصل - في الجزء الخامس من كتابه - إلى أنه عند استخدام المراسلة مع الملوك شمال روما الإفرنجة ، يراعى أن تكون المراسلة حسب اختلاف أجناسهم ومكانتهم . ودياناتهم جميعاً الملكانية :

١- مكاتبة الباب (البابا) وهو بطريرك الملكية .

٢- المكاتبة إلى ملك الروم صاحب القسطنطينية .

٣- المكاتبة إلى حكام جنوة .

٤- المكاتبة إلى صاحب البندقية .

٥- المكاتبة إلى صاحبة نابل [*] [٢٤] .

ومن خلال هذا العمل الخاص بالقلقشندي ، وبعض المراجع القليلة الأخرى التي في سجل أحداث التاريخ . . يمكننا أن نلاحظ أن المراسلات مع ملوك أوروبا كانت نادرة إلى حد ما ، ويبدو أن المسلمين في نظرتهم إلى البعثات الدبلوماسية إلى أوروبا ، كانوا يشاركون في ذلك المغول [٢٤] ، الذين قالوا :

"إننا عندما نريد عقاب أحد المجرمين [**] المستحقين للموت فإننا نرسلهم سفراء لنا إلى الأراضي الأجنبية حيث المناخ غير الصحي ، وعدم العودة بأمان كي نتخلص منهم" [٢٥].

(*) القلقشندي هو أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ ، وأشهر كتبه : صبح الأعشى في صناعة الإنشا" الذي كتبه بديوان الإنشا بمصر ، ورتبه إلى مقدمة وعشرة مقالات وخاتمة ، وقد نشر في القاهرة في ١٤ جزءاً سنة ١٩١٣ - ١٩١٥م (المترجم) .

(**) هذه مغالطة من المؤلف ، فالمسلمون معروفون بحسن انتقائهم لسفرائهم ، والاهتمام بذلك . (المترجم) .

وخلال عصر النهضـة الأوروبية (من القرن الرابع عشر حتى الـقرن السادس عشر) والاكتشافـات العظيمة . . ازداد اهتـمام الأوروبيين بالعـالم الإسلامي ، بينمـا لم يعد الإسلام يشكل منافسة للمسيحية ، ولكــن الإمبراطورية العثمانية ما برحت تكن العداء لهـم ، فبدأت فـي الزحف إلـى قلب أوروبا ؛ ممـا أوشك علـى تهديـد بقاء المـذهب النصراني .

وفي القــرن السادس عشر ظـهرت قوة جديدة معـادية للإسلام ، هي قـوة زعماء الشيعـة من أسرة الصفويين ، فـي إيران ، حيث شكلـت بعض المتاعب للإمـبراطورية العثمـانية فـي ذلك العـهد الذي تدفق فـيه الأوروبـيون ، باكتشافاتـهم العظيمة الـتـي أنجزوها ، إلى كل مـن إفريقية وآسيا وأمريكـا ، بعدها بدأت المراحل الثقـافية والأدبية تأخذ مسيرتها الطبيعية بعد ظهور النهضة الأوروبية ، فامتدت إلى البلدان المجاورة ، ثم انتشرت المصانع الأوروبيـة ، وتزايد استيراد السلع من المستعمـرات الأوروبية في العالم الجديد ، والتصدير إليها ؛ مما شجع التـجار الأوربيون على النظر إلى الشرق الإسلامي بصفته أعـظم الأسواق ، التي تساعد علـى رواج سلعهم المختلفـة ، وهذا بدوره ساعد على زيادة حدة التوتر (التنافس) التجاري والسياسي بين الدول العربية على بلدان الشرق الأوسط .

بعد ذلك . . حدث تـطور جديد ، إذ ضمت اسطنـبول إلى العاصمة العـثمانية ، وفي نهاية القرن السـادس عشر ، أخذت معظم الدول الشرقية والغربية تـرسل مبعوثيها بانتظام إلــى مدينة اسطنبــول ، وأقيمت عـلاقات وبعـثات دائمة معها ، ونذكـر مـنها البندقية ، وفرنسا ، وانجلترا .

وفي بداية القرن السابع عشر ضم العثمـانيون بعضاً من البلدان الأخرى إليهم ؛ مما تسبب في استقرار بـعض الأسر الأوروبية المتوسطة ، والراقية في العاصـمة العثمانية ، التي كانت تستعين بغير المسلمين في تأدية بعض الأعمال المعينة .

وكانت هـناك ثلاث طوائف أو جاليـات تعيش بين المـسلمين - في الإمبـراطورية

العثمانية - هم : اليونانيون والأرمن ، واليهود . ثم ظهرت طائفة جديدة معظمها من المسيحيين الكاثوليك ، ولكن جنسياتهم مختلفة ، وهم يتحدثون عدة لغات مختلفة ، كالإيطالية واليونانية . . الخ . وكان كل منهم يدعى أنه من دولة معينة بأوروبا ، لأنه كان يطلق عليه في هذه الأيام اسم (ليانتنس) أي من سكان البلاد الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانوا يطلقون عليهم في تركيا اسم (تابسوفرنجي) أي إفرنجة من بلاد المياه العذبة ، ليميزوا بينهم وبين الفرنجة من بلاد المياه المالحة (بلدان البحر المتوسط).

أما العلاقة الدبلوماسية مع كل من إيران والمغرب فقد تطورت إلى موقف يتسم بالجمود بعض الشيء ، فقد أرجئت زيادة المبعوثين لهذين البلدين ، في ضوء التطورات الحادثة ، إلى أجل غير محدود .

ولقد شجع التبادل التجاري والدبلوماسي بين أوروبا ، والدول الإسلامية كثيراً من الأوروبيين على الإقامة بالبلدان الإسلامية ، فاختلطوا مع باقي مجتمعات دول الشرق الأوسط ؛ مما ساعد على زيادة المستشرقين ودراساتهم وتطلعاتهم إلى هذه البلدان . ثم أصدرت كتب عربية في بعض المطابع الأوروبية ، من التي يعتمد عليها معظم القراء المسلمين بكونها مراجع لهم .

ولكن تواجد هذه الطوائف الأوروبية - سواء من التجار أو الدبلوماسيين أو غيرهم - وكانت تعيش في عزلة عن الدول الإسلامية (أي من معتقداتها وتقاليدها) ، ولذلك لم يستعن بهم المسلمون إلا من أجل الوساطة؛ حيث استعانت الدولة العثمانية بهؤلاء الأوروبيين بوصفهم وسطاء ؛ لأن مثل هذه المهام تحتاج إلى مهارة معينة غير موجودة لدى المسلمين ، الذين لم يهتموا باكتسابها .

بعد ذلك ظهر نوع من التجارة ، كان يسمى حينذاك "بالتجارة القذرة" ، وهذا يعني التعامل في تجارة غير المؤمنين بالإسلام ، وبيع منتجاتهم ، وقد برع في هذا النوع

من التجارة عدد من الطوائف على رأسها الطائفة اليهودية والمسيحية ؛ خصوصاً في المهام الدبلوماسية ، وأعمال المصارف ، والتجسس .

ويعد القرن السادس عشر نقطة التحول المهم في مكانة الأتراك ومواقفهم تحت قيادة بعض السلاطين ؛ فقد تزوج الأمراء العثمانيين من الأميرات المسيحيات ذوات الأصل البيزنطي الأرستقراطي ، وثمة سجلات ومحفوظات توضح ذلك ، كما توضح ارتباطهم ببعض الأسر الحاكمة والأسر العسكرية .

بعد ذلك . ازدادت الصداقة والعلاقة بين المسلمين ودول أوروبا ؛ ففي الفترة ما بين القرن السادس عشر ، وبداية القرن التاسع عشر . . نجد أن العرب الشرقيين كانوا يعتمدون تماماً على العثمانيين في الاتصالات السياسية مع أوروبا ، وإيران ، وبعض دول الشرق ، فأي معلومة تصل إلى العرب . . كان لابد أن تمر خلال القنوات العثمانية الرسمية .

وسرعان ما تطورت العلاقات بين الدول العثمانية وأوروبا ، وكانوا يعتمدون في ذلك على الوسطاء وما يقومون به حيال هذه القضايا المهمة والتي كانت تتطلب مهارة دبلوماسية خاصة ، كانت تمتاز بها بعض الطوائف التي جاءت من أوروبا . وثمة شيء آخر هو كون هؤلاء الوسطاء من أهالي هذه الأقاليم الأوروبية . وكان معظمهم من اللاجئين اليهود ، وقد ساعد على تجمع اليهود في الدول العثمانية ، الاضطهاد الذي عانوا منه في إسبانيا والبرتغال والأراضي الخاضعة للحكم الإسباني ، مما أدى إلى توجه مجموعات كبيرة من اللاجئين اليهود الأوروبيين إلى الدول الخاضعة للحكم العثماني واستقرارهم بها ، في أواخر القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر ، وكان معهم ثروة كبيرة من اللغة ، والمهارات والمعرفة والفنون والحرف .

وفي عام ١٥٥١م قام الرحالة الغربي نيكولاس دي نيكولاي بزيارة تركيا ، ودوّن ملحوظات مهمة استطاع استنباطها خلال حكم الإسبان والمارونيين البرتغاليين (طائفة

مسيحية) ، الذين أرغموه على اعتناق النصرانية ، فهرب إلى تركيا ليعود إلى اليهودية فقال :

"إن الأتراك يتمتعون بذوق رفيع في الفنون ، فبينهم من يمارس الفن ، وبعض الصناعات التي تحتاج إلى مهارات معينة ، وخصوصاً هذه الطائفة (المسيحية) من المارونيين الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال لأسباب دينية ، والذين قاموا بتعليم الأتراك عدداً من الاختراعات المختلفة مثل الماكينات والآلات ، ومعدات الحرب والصناعات الحربية ومنها صناعة المدفعية والبارود والقذائف ، وعدد كبير من الأسلحة المختلفة ، وقاموا بإنشاء المطابع التي لم يتعود هذا الإقليم رؤيتها من قبل ، ولكن لم يكن يسمح لهم بالطباعة باللغة التركية أو العربية" (٢٦) .

وبذلك استطاع اليهود كسب ود المسلمين ، وأصبح لهم ميزة على المسيحيين ، فكان الأتراك يثقون كثيراً بذكائهم اللماح ، ومهاراتهم في القضايا السياسية والاقتصادية الحساسة ، والدليل على ذلك أنه بمجرد فتح الأتراك لقبرص . . قاموا على الفور بتسليم الجزيرة (التي بها طوائف مختلفة من اليونانيين المسيحيين الأرثوذكس ، والإيطاليين الكاثوليك) إلى بعض الأسر اليهودية لتحكم جزيرة قبرص (٢٧) . وكان غرض الدولة التركية من ذلك أن تضمن للإنتاج الصناعى في التجارة في هذه الجزيرة التوسع والامتداد والازدهار ، تحت إشراف اليهود الذين يمتازون بمهارات تساعدهم على تطوير هذه الجزيرة التي لا تعتبر يونانية أو إيطالية أو مسيحية ، ولكنها فقط كانت جزيرة تتعاطف مع مسيحيي أوروبا . وكان اعتماد الدولة التركية في الاتصال بالغرب على اليهود أكثر من اعتمادهم على أي طائفة أخرى مثل اليونانيين أو الأرمن (٢٨) .

وهكذا ، تمكن اليهود بذكائهم من إقامة وتطوير مستعمرة تجمع التكتل اليهودي في مدينة سالونيكا بعد فتح العثمانيين لها ؛ حيث تمكنوا من الاستفادة من هذه البقعة والميناء البحري الاستراتيجي المهم ، وهكذا يمكنك أن تلاحظ أنه خلال القرن السادس عشر استطاع اليهود الأوربيون الظهور بالمظهر المشرف في الدولة العثمانية ، حيث أظهروا مهارات وقدرات تمكنهم من أداء الخدمات الخاصة والمهمة ، لذلك . . كانوا

يؤدون بعض الأعمال الخاصة لملوك مصر الذين كانوا يستعينون بخبرتهم ومعرفتهم باللغات الأوروبية ، ومن ثم . . كانت تعهد إليهم المهام الخاصة بالأنشطة الدبلوماسية ، وأصبح لهؤلاء اليهود حق التنقل بحرية تامة ، والاشتغال بالتجارة تحت حماية الدولة العثمانية ، وقد استطعنا ، أخيراً ، أن نحصل على دليل قوي من المحفوظات والأرشيف الإسباني يؤكد أن الدولة العثمانية كانت تستعين أيضاً باليهود في التجسس لحسابها ضد أوروبا المسيحية ، معتمدة عليهم في ذلك اعتماداً تاماً .

بالإضافة إلى اليهود . . كانت هناك مجموعات أخرى من اللاجئين المضطهدين من الجماعات المسيحية تسمى "يونيتاريان" (أي الطائفة المسيحية التي تنكر عقيدة الثالوث (الآب والابن والروح القدس ولاهوت السيد المسيح عليه السلام) وعدد كبير آخر من المارقين المرتدين ، ويطلق عليهم التاريخ الإسلامي اسم المهتدين الذين وجدوا تاريخ الحق .

وفي القرن السابع عشر . . توقفت هجرة المرتدين واللاجئين إلى البلدان الإسلامية ، وذلك لتحسن الظروف في أوروبا ، وانتهاء حروب الدين التي جعلت الأوروبيين يتعلمون بعض التسامح في المسائل الدينية ؛ مما جعل المسيحيين الهراطقة (أي مبتدعي الأفكار التي تتنافى مع معتقدات النصارى) واليهود يستقرون بأوروبا .

أما الطوائف التي كانت تسعى للشهرة وجمع المال في الإمبراطورية العثمانية فقد انطلقت إلى العالم الجديد بمجرد ظهور الاكتشافات الأوروبية ، حيث أقيمت المستعمرات التي كانت تبشر بفرص أكثر للعمل . لذلك انطلق هؤلاء المغامرون تاركين العمل بخدمة المسلمين إلى أمريكا ، العالم الجديد .

وفجأة ظهرت حركة لجماعة جديدة هي القراصنة الذين كانوا يتحركون ويتنقلون من غرب أوروبا إلى أفريقية ، وكان ذلك في القرن السابع عشر ، وقد وضعت جماعة القراصنة كل مهاراتها البحرية والقتالية بين يدي زعيمهم كورسايرس الهمجي .

بعد ذلك . . بدأ اليهود يفقدون أهميتهم ، وتوقف تدفقهم من أوروبا إلى الشرق

الأوسط ، أما هؤلاء الذين كانوا بتركيا فقد فقدوا مهارتهم بناء على التغيرات التي ظهرت نتيجة الظهور المفاجئ لأمريكا ، أي العالم الجديد ، إلا أن بعض اللاجئين مازالوا يفدون إلى تركيا سعياً وراء الأمان والثروة ، وكان منهم هؤلاء الذين قدموا من بلغاريا وبولنده ، بعد أن فروا من الانقلاب أو الانتفاضة غير الموفقة التي حدثت في بلغاريا عام ١٨٤٨م ، مما جعلهم يلجأون إلى الإمبراطورية العثمانية ، واعتنق بعضهم الإسلام ، وصارت له مكانة طيبة بعد ذلك في خدمة الدولة العثمانية ، فقد استطاعوا تحديث الإدارة التركية والمعدات العسكرية وتطويرها ، وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر . وهكذا . . تجد بعضهم يأتي من أوروبا ، وبعضهم الآخر يذهب إلى أوروبا خصوصاً اليونانيين ، الذين فقدوا الأمل كله - خلال القرن السابع عشر - في استعادة الإمبراطورية البيزنطية ، والتغلب على عدائهم السابق للنصرانية الغربية (*) .

بعد ذلك قام المسيحيون اليونانيون المقيمون بالأراضي العثمانية بإرسال أبنائهم إلى أوروبا ، وخصوصاً إلى إيطاليا ، للدراسة ، فاستطاع اليونانيون التخرج من الجامعات الإيطالية وتخصصوا في الطب .

في نفس الوقت . . قامت بعض الطوائف المسيحية العثمانية - لا سيما هؤلاء الذين ينتمون إلى الكنائس الشرقية - بالتوجه والاتصال بروما . ومنذ ذلك العهد - أي من أواخر القرن السادس عشر - استطاع الفاتيكان زيادة جهوده ، وتكثيفها بين مسيحيي الشرق الأوسط ، وقامت على الفور الأنظمة الرهبانية بإرسال بعثات المبشرين إلى لبنان ، وأماكن أخرى متعددة ، ثم أنشئت بعد ذلك بعض الكليات لتعليم أبناء الطوائف الشرقية في روما ، ومن ثم تأثرت الطقوس الدينية الخاصة باليونانيين والمسيحيين والأرمن والأقباط المارونيين والسوريين ، باتصالاتهم بأوروبا ، التي أثرت أيضاً على تعاليمهم الأرثوذكسية ، وتركت أثراً على جيرانهم المسلمين .

بعد ذلك استطاع عدد من الأطباء اليهود الذين جاءوا من الغرب أن يطيحوا

(*) بيزنطة مدينة يونانية قديمة على البوسفور ، بني الإمبراطور قسطنطين في موقعها (عام ٣٣٠ قبل الميلاد) مدينة القسطنطينية ، وقد عرفت في العهد العثماني بالآستانة ، وتعرف اليوم بإسطنبول . (المترجم) .

بالأطباء اليونانيين من الدولة العثمانية ، والإيطاليين الدبلوماسيين كذلك ، واستولوا على مكانتهم الاجتماعية مرة أخرى ، لأنهم يفهمون لغة الأتراك وعاداتهم .

في القرن السادس عشر بدأت الدول الإسلامية الثلاثة (تركيا - إيران - المغرب) في زيادة الاتصال بالدول الأخرى ؛ فقاموا بإرسال مبعوثين أو تجار لبعض الدول الأوروبية ، لتوطيد العلاقات بينهما . وكما سبق أن ذكرنا ، كان الملوك يستعملون اليهود الذين لم يعتنقوا الإسلام في حمل الرسائل والعودة بالرد . وثمة مثال على ذلك ، يتعلق بالأخين انطواني وروبرت شيرلي اللذين رحلا من انجلترا إلى إيران . في عام ١٥٩٨م ، قام إيرل(*) اسيكس بإرسال أنطوني إلى بلاد فارس للحصول على مؤازرتها ومساندتها ، والدخول معهم في تحالف ضد العثمانيين ، وطلب منه أن يظل هناك لفترة يقوم من خلالها بتدريب جيوش بلاد الفرس على فنون الحرب الأوروبية . وفي عام ١٥٩٩م ، أي بعد مرور عام من إرساله بواسطة إيرل اسيكس ، قام الشاه بإرسال انطوني إلى إيرل اسيكس بوصفه مبعوث الشاه أي مبعوثه الشخصي ، ولكن هذه المهمة لم تقدم أي نتائج. وهنا نود أن نقول إن أخاه روبرت شيرلي كان ما زال في إيران ، وقام الشاه في عام ١٦٠٧م بتزويجه ابنة أحد الزعماء الجراكسة ، وفي عام ١٦٠٨م أرسله في مهمة دبلوماسية إلى أوروبا ، ساعدت كثيراً في إنشاء علاقات دبلوماسية وتجارية بين انجلترا وإيران (٢٩) .

إن رجال الدولة المسلمين كانوا نادراً ما يرسلون في مثل هذه المهام الرسمية إلى أوروبا ، ولكننا نسمع عن السفير المغربي الذي أرسل إلى لندن أيام شكسبير ، ويبدو أن هذا الأعرابي هو الذي أوحى إليه خلق شخصية عطيل الشهيرة ، ونسمع أيضاً عن البعثات التركية إلى فيينا ، وباريس ، وبعض العواصم الأخرى وذلك في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، ولكن في عام ١٥٨١م ، لم يصل إلى باريس سوى مبعوثين فقط من الأتراك : الأول منهم توجه لتقديم دعوة إلى هنري الثالث ملك فرنسا من السلطان التركي مراد الثالث بمناسبة ختان ابنه الصغير محمد ، أما المبعوث

(*) إيرل : لقب إنجليزي أدنى من ماركيز ، وأرفع من كونت . (المترجم) .

الثاني فقد توجه أيضاً إلى فرنسا لإحضار نسخة من الامتيازات الممنوحة للرعايا الأجانب (داخل الدولة العثمانية) ، التي تم تجديدها ، وقد أرسل معه خطاباً بهذا المعنى إلى هنري الثالث ، ولكن المبعوث التركي ظل في مدينة البندقية ثلاثة أشهر منتظراً السماح له بدخول فرنسا ، وكاتب السفير الفرنسي بالبندقية الملك بذلك فبعث إليه بأنه لا يرغب في مقابلة هؤلاء الأتراك ، لأن هذا السلوك يخالف المسيحية ، فالمقبول هو إرسال مبعوثين مسيحيين إلى الملوك والأمراء المسلمين ، أما استقبال مبعوثين في هذه العواصم النصرانية فسلوك غير مقبول .

فما زال السفير الفرنسي بالملك حتى غير رأيه وأقنعه بمقابلة المبعوثين الأتراك الذين استقبلوا استقبالاً حافلاً بباريس ، وأرسلت بعد ذلك بعثة دبلوماسية تركية أخرى عام ١٦٠٧م ، ولكن ، يبدو أن الأوروبيين والأتراك كانوا يفضلون مواصلة أعمالهم في اسطنبول بعيداً عن العواصم الأوروبية [٣٠] ، أما زيارة المبعوثين الأتراك إلى أوروبا ، فكانت دائماً ما تحاط بالشك والريبة والتساؤلات : هل هذه محاولة للتحالف ضد قوة أو دولة مسيحية ، أو ضد المتمردين الأوروبيين الذين استقروا ببلدان الشرق الأوسط بين المسلمين ؟

ويقال إن ظهور المبعوثين الأتراك في باريس عام ١٦٤٠ وعام ١٦٦٩ أوحى إلى موليير - الكاتب المسرحي - تجسيدهم في إحدى مسرحياته ، أما زيارة المبعوث الفارسي إلى باريس لمقابلة لويس السابع فقد لفتت كثيراً من الأنظار . وظهرت بعد ذلك البعثات المغربية في عدة مناسبات مختلفة ، ويبدو أن عدداً منهم كانوا يتفاوضون على دفع الفدية الخاصة ببعض الأسرى الذين أسروا عن طريق البحر المتوسط [٣١] .

ونود أن نقول إن كل هذه البعثات الإسلامية المبكرة إلى أوروبا ، عرفناها من مصادر غربية . فمعظم هذه الأحداث قد لا تكون مسجلة في سجلات الأحداث الإسلامية . وطبقاً للروايات الإسلامية فإن أول سفارة أقيمت هي التي رأسها السفير العثماني كارا محمد باشا ، الذي توجه إلى فيينا عام ١٦٦٥م [٣٢] بمناسبة توقيع معاهدة (هدنة) بين العثمانيين والأمراء النمساويين ، وإقامة علاقة صداقة بين الدولتين ، وتعد

هذه أول سفارة عثمانية على نطاق واسع ، ويقال إن السفير اصطحب وفداً مكوناً من ١٥٠ شخصاً ، أما المترجم فكان شخصية معروفة حينذاك ، وهو أوروبي يسمى فرانكيز دي مسجينين ، وكان يعد كبير المترجمين للإمبراطور النمساوي ، وقد كتب تقريراً مطولاً عن هذا الحدث باللغة الإيطالية ، وحفظ في الأرشيف بمدينة فيينا ، وسجل فيه البروتوكول وأسلوب الترحيب الذي استقبلت به البعثة التركية ، والموافقة على إنشاء السفارة في هذه المدينة (٣٣) .

هناك أحد الرحالة يسمى إيفليا چليبي ، قام بوصف العاصمة النمساوية ، وهو كاتب روماني ، لم يخف عن قرائه أن زيارته للنمسا لم تكن للاستجمام أو الدراسة ، وقد استطاع أن يكتب عشرة مجلدات ، وفي (كتاب الرحلات) قام بوصف عديد من البلدان التي زارها ، ووصف أيضاً كثيراً من البلدان التي لم يضع فيها قدمه ، ويبدو أنه كان يسجل كل ما يسمعه ، فلم يميز بين الحقيقة والخيال . وفي المجلد السادس من رحلاته يصف أحد الحملات العسكرية ، من أساطيره التي اشترك فيها شخصياً ، فيقول أنه كان ضمن أربعين ألفاً من جنود الترك التتار الذين اكتسحوا النمسا وألمانيا وهولندا ، ثم اتجهوا معاً إلى بحر الشمال .

وفي المجلد السابع يصف فيينا والنمسا التي قام بزيارتها فيقول إنه كان أحد أعضاء سفارة كارا محمد باشا . وفي إحدى المرات كان يقول إنه لم يقم بزيارة فيينا (*) (٣٤) ، وذلك قد يدعو إلى الشك في المجلدات التي كتبها .

ووصفه للإمبراطور النمساوي يعد مثالاً على أسلوبه الأدبي حيث يقول: "خلق الله هذا الرجل ، وحباه رأساً كالزجاجة ، استدارت فبدت وكأنها طرطور درويش يرقص ، ومنحه حاجبين مفلطحين ، فإذا نظرت إلى وجهه وجدته مستطيلاً شاحب اللون ، يبدو عليه مكر الثعالب ، ولقد حباه الله أذنين كبيرتين كأنهما أحذية الأطفال ، وأنفاً أحمر كحب العنب الأحمر ، أما أنفه فكلتا فتحتيه يمكنك من وضع ثلاثة أصابع داخلها ، وله شارب كثيف كأنه لشاب في الثلاثين من الشباب المتعجرف ، تجده مسترسلاً فوق شفتيه كشفتي الناقة ، وله فم يمكنه من ابتلاع رغيف كامل دفعة واحدة

فعندما يتكلم يتطاير الرذاذ من فمه ، لذلـك جعلوا له غلاماً بجواره يقف ممسكاً بمنديل أحمر يمسـح له بصاقه ، أما أصابـعه فتشبه الخـيار ، وأقسم لو كان كل الأبـاطرة بهذا الشكل الـقبيح ، ثم حاول أحـد الفنانين أن يرسم لأحـدهم وجهاً جميـلاً على إحدى العملات لشنقوه ، لأن هؤلاء الأباطرة يفتخرون بقبح وجوههم" (٣٥) .

ورغم هذه الصورة الـكاريكاتورية الهزلـية . . إلا أن إيليا چليـبي ، كان أول من يتجاوز نماذج السخرية الـتقليدية ، ولكنه يصف الإمبراطور النمـساوي بمعلوماته الخاصة التي جمعها من بيئته المحيطة ، من العثـمانيين ، وهذا يعد وصفاً ، وليس فيه مقارنة ما في دول أوروبا بما يقابله في الدولة العثمانية .

وصار عرفاً عند سفراء تركيا إلى أوروبا ، أن يكتبوا تقارير مفصلة عند عودتهم إلى بلادهم يصفون ما شـاهدوه ، وما قاموا به من أعمال ، وظلت هذه الـتقارير والرسائل تكتب من أواخر القرن السابع عشر إلى القرن الثامن عشر .

ومن هذه التقاريـر نذكر ما كتبه محمد سعـيد المعروف بييرميزكي (أي سـيد الثامنة والعشرين) لأنه كان يعمل ضابطاً بالفرقة ٢٨ فـصيلة عسكر حرس السلطان العثماني ، وتوجه إلى باريـس في الفترة ١٧٢٠ - ١٧٢١ سفيراً عثـمانياً إلى البلاط الملـكي للقاء الملك لويـس ، والتفاوض على تـوقيع إحدى المعاهـدات المهمة ، وقد عمـل بعد ذلك رئيساً لخزانة الإمبراطور (٣٦) .

وكان من مهام السفارة الاتفاق مع السلطان على اتخاذ الإجراءات الضرورية لإعادة ترميم الكنـيسة الضريح المقدس ، والتفـاوض على ما سلبه فرسان مالـطة ، والتفاوض حول بعض القضايا الدبلوماسية والسياسية (٣٧) ، وقد طلب من السفير إعداد دراسة عن الحضارة والتـعليم الأوروبي ، لتطـبيقه في الدولة الـعثمانية . إن هذا الـرجل يعد أول مبعوث عثماني يحوز احترام الآخرين له ، وتقربهم إليه في باريس (٣٨) ، وعندما كان يمر بأحد القـنوات متـوجهاً إلى مقـره كانت الحـشود تتجـمـع على الضفاف لتـنظر إليه وتحييه . ومن الملاحظ أن السفير محمد سعـيد لم يحاول مقارنة ما يراه في فرنسا ، بما

عليه المجتمع العثماني [٣٩] ، وإن كان معروفاً عنه دقة وصفه للأشياء ، فمثلاً عندما كان يصف المرصد السماوي كان يصفه بدقة العالم المتمكن الذي يعرف هذه الآلات والأدوات العلمية ، كذلك وصفه للمستشفيات والأنشطة الثقافية كالمسرح والأوبرا ، والصناعة الفرنسية ، وفن المعمار ، وتصميم القصور ، والحدائق ، والطرق والقنوات والجسور .

وهنا يمكنك أن تلاحظ الفرق بين ما يراه السفير محمد سعيد ويصفه ، وبين ما يراه إيليا جليبي في فيينا ويصفه .

يقول الدوق دي سانت سيمون الذي التقى بالسفير العثماني خلال فترة إقامته بباريس : "إن هذا الرجل يتسم بالخبرة والمعرفة ، ويبدو عارفاً بالكثير عن الآلات والتصنيع وخصوصاً العملات ، والطباعة ، ويبدو أن لديه علماً وخبرة عظيمة بالتاريخ ، استطاع استيعابها من المجلدات والكتب الراقية" [٤٠] . ويقول سانت سيمون: "إنه بمجرد عودة السفير العثماني إلى اسطنبول فإنه سيقيم مطبعة ومكتبة ، وسوف يساعده في ذلك ابنه سيد أفندي الذي رافقه في رحلته إلى باريس ، والذي صار له بعد ذلك مستقبل مرموق ، بعد أن عمل في السلك الدبلوماسي ، ثم صار رئيساً للوزراء في الدولة العثمانية" .

توالت بعد ذلك زيارة البعثات العثمانية إلى كل من لندن وباريس وبرلين وفيينا ومدريد وسانت بطرسبورج ، وكان أعضاؤها يداومون على كتابة التقارير الخاصة بهم ، ولكن لم يكن من بينهم من يكتب عن الظروف العامة أو السياسية في هذه البلدان ، ويبدو أن هذا الافتقار إلى التعليق السياسي يعود إلى أن هذه المستندات أو التقارير لم تكن سرية ، والدليل على ذلك أنه عند عودة محمد سعيد أفندي إلى اسطنبول قادماً من باريس عام ١٧٢١م ، قام بإرسال صورة من تقريره إلى السفير الفرنسي في اسطنبول على سبيل المجاملة ، فقام السفير الفرنسي بترجمة التقرير ونشره في كل من العاصمتين .

ولقد استطاع اثنان من المبعوثين العثمانيين أن يجدا أهدافهم ووسائل التحليل في

مقدمة ابن خلدون ، هذا المؤرخ العربي العظيم ، وقد كان مشهوراً ذائع الصيت في العهد العثماني ، ومن ثم فقد استعانا بعبارات وجمل ابن خلدون في وصف الأحداث التي تدور في أوروبا (٤١) ، والدليل على صدق ذلك هو استعانة رسمي أفندي ، الذي عين سفيراً في فيينا عام ١٧٥٧م ، ثم سفيراً في برلين عام ١٧٦٣م ، بكلمات وعبارات ابن خلدون في مناقشة التغيرات في الموقف الأوروبي والثورة الدبلوماسية ، وانتصار بروسيا على أعدائها (٤٢) .

وفي أواخر القرن الثامن عشر .. ذهب مبعوث عثماني آخر ، يدعى فاسيف أفندي إلى مدريد في الفترة ما بين ١٧٨٧م إلى ١٧٨٩م (٤٣) ، وكان من رجال الأدب الرواد في عصره وتولى في أحد الأعوام منصب المؤرخ الرسمي لتدوين الوقائع التاريخية بالإمبراطورية ، ثم تولى منصب السكرتير العام لرئيس الوزراء ، وهو منصب يتيح له الاحتكاك بالشئون الخارجية ، وخلال إقامته في إسبانيا تعرف على الكاتب الإنجليزي وليام بيكفورد الذي تحدث عنه في مذكراته الخاصة ، ويبدو أنه كان يعتمد على الوهم في وصف الإسبان في بعض رحلاته .إنه يتحدث عن أول الصعوبات التي تواجه الزائر العثماني لأوروبا ، وذلك عند مروره من الكارنتينا - أي الحجر الصحي - الذي أقامته الحكومات الأوروبية ، لحماية أنفسهم من خطر العدوى ، التي قد تأتي مع الزوار القادمين من الشرق ، ثم يواصل سرد روايته قائلاً : "بعد ذلك توقفت بنا الباخرة في برشلونة . ومن هناك اتجهنا إلى بلنسية ؛ حيث تبادلنا الهدايا مع القائد الإسباني الذي تسبب لي في بعض المضايقات بعد أن سلمته هدية ، كيساً مزركشاً للنقود ، كنت قدمت مثله للقائد الإسباني الذي التقيت به في برشلونة ، ومن ثم ، أرسل القائد إليّ بزجاجتى زيت زيتون ، ومن هذا السلوك يمكن للمرء أن يحكم على شخصية هولاء الإسبان" (٤٤) . وهناك شخصية أخرى بارزة ، وهو أبو بكير راتب أفندي الذي أرسل إلى مدينة فيينا ليشغل منصب سفير ، وذلك فيما بين عامي ١٧٩١ - ١٧٩٢ ، وقد استطاع هذا السفير العثماني أن يكتب تقارير مطولة ، تتعلق بكل من الشئون السياسية والعسكرية ، وقام بوصف هيكل الحكومة النمساوية وبنيانها ، وتنظيم القوات المسلحة النمساوية ، واستطاع أن يعقب على المجتمع النمساوي .

وهو أحد الكتاب العثمانيين الذين استطاعوا نقد الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر ؛ فعقب على مشكلة التخلف والضعف العثماني ، وتقدم المسيحيين الذي يتطلب نوعاً من الدراسة المقارنة ومحاولة تقليد المناهج الناجحة التي اتبعوها (٤٥) .

ولم يكن السلطان العثماني المسلم الوحيد الذي يحتاج لإرسال مبعوثين إلى أوروبا ، فقد كان السلطان المغربي يداوم ، هو أيضاً ، على إرسال مبعوثيه الذين كتبوا تقاريرهم الخاصة بذلك ؛ فمنهم من كان يدفع فدية لتخليص المسلمين الأسرى في بلاد المسيحيي وهكذا (٤٦) .

ومن التقارير ذلك السجل المبكر الخاص بالوزير الفاشاني السفير المغربي لدى الملك تشارلي الثاني ملك إسبانيا ، فقد قام بزيارة مدريد في الفترة ١٦٩٠ - ١٦٩١ ، ففي تلك الآونة استطاع السلطان المغربي أن يلقي القبض على لاراتشي ، وهو إسباني ومعه حامية من الجنود . وطالب في مقابل تسليمهم إطلاق سراح خمسمائة من المساجين المسلمين في إسبانيا ، وخمسة آلاف مخطوطة عربية من مكتبة الاسكوريال ، وقد وافق الطرف الآخر على ذلك (٤٧) .

وكان الغاساني رجلاً ذكياً ويتسم وصفه لإسبانيا بالذوق والجمال ، فقد بدأ الكتابة زائراً مغربياً عادياً لإسبانيا ، وانتهى باكتمال الفتح ، ولم يكن الغاساني السفير الوحيد ، فقد توالى إرسال السفراء إلى أوروبا وخصوصاً إسبانيا .

وتعني كلمة المغرب في العالم الإسلامي بلاد المغرب الأقصى ، وهي دولة كانت بعيدة كل البعد عن تهديد دول أوروبا لها ، ولقد شاهدوا ضياع شبه جزيرة إيبريا من العالم الإسلامي منذ عدة قرون ، وما زالوا يشاهدون عملية الفتح التي قام بها الإسبان والبرتغاليون ، حاملين رايات النصرانية عبر المضايق في اتجاه شمال افريقية ، ولكنهم - أي المغاربة - واجهوا بعض المشكلات في القرن السادس عشر ، وهذه المشكلات واجهتها كل من الدولة العثمانية والمصريين في القرن الثامن عشر عند تصديهم للصليبيين .

ولم يكـن شاه إيران أقل اهـتماماً مـن نظرائه بـتوطيد عـلاقاته مع أوروبـا ، فقام بإرسال أحـد مبعوثيـه الفرس إلى انجلتـرا واسمه ناقد عـلى بك الذي كان يـلازم سير روبرت شيرلي عام ١٦٢٦م (٤٨) .

أما الشخصية المهمة التي لفتت أنظار الجميع فهو محمد رضا بك الذي أرسله الشاه إلى باريس عام ١٧١٤م ، وأسفرت زيارته عن توقيع المعاهدة الفرنسية الفارسية في العام التالي على الفور .

ولم يبدأ النشاط الدبلوماسي الفـارسي لإيران في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر عندما بدأت نيران حرب نـابليون تمتد من بلد إلى آخر من ناحيـة ، وظهر تقدم القوات الروسية من ناحية أخرى ، مما جعل الإيرانيـون ينظرون إلى الغرب ، ويستلهمون روح وفكر مونتسكيو (٤٩) .

ويعد الحـاج ميرزا أبو احسنَ خـان ابن سيرزا علـي شيرازي المعروف بأبـي الحسن الشيرازي أول الزوار الإيرانيين للغرب .

وكان كـبير الوزراء عـمه وحمـاه ، ومن ثم ، غـادر أبو الحسن مـدينة طـهران ، متوجهـاً إلى لندن في ٧ مايـو ١٨٠٩ ، وكان يرافقه في هذه الـرحلة الكاتب الـشهير جيمس موريـر ، مؤلف الرواية الخالدة "حاجـي بابا الأصفهاني" وكان غـرض الرحلة التأكيد عـلى الإعانة التي وعدت بها بريـطانيا بناء على معاهـدة مارس ١٨٠٩م وطريقة دفع هذه الإعـانة . بعد ذلك تـرك أبو الحسن لنـدن في رحلتـه للعودة يوم ١٨ يـوليو ١٨١٠م ، يرافقه كل من جيمس مورير ، وسير جون أوزلي وهو مستشرق بريطاني .

وفي عام ١٨١٥م . . أرسل بوصفـه مبعوثاً خاصاً إلى مدينة سـانت بطرسبورج ، وفي عام ١٨١٨م أرسل مرة أخرى في مهمة خاصة إلى انجلترا ، ثم عين بعدها مسئولاً عن العلاقات والشئون الخارجية ، واستمر في هذا المنصب حتى عام ١٨٣٤ ، وفي هذا العام توفى فارس على شاه .

وثمة تقارير كتبها شيرازي عن مهمته في انجلترا عام ١٨٠٩ - ١٨١٠ ، ولكنها لم تنشر بعد (٥٠) .

ثمة مبعوث إيراني آخر أرسل إلى الغرب ، يدعى حسين خان مقدام رجودان باشا ، وهو ضابط بالجيش تم ترقيته إلى لواء الجيوش ، وفي عام ١٨٣٨م أرسله محمد شاه في مهمة دبلوماسية إلى أوروبا ، وذلك لحماية وتأمين استدعاء السفير البريطاني في طهران ، وهو سير جون ماكينل ، فتوجه إلى اسطنبول ، ثم فيينا ، ثم باريس ، وبعدها توجه إلى لندن في أبريل عام ١٨٣٩م ، ويبدو أن حسين خان لم يترك خلفه تقارير أو أشياء توضح مغامراته [٥١] .

ولم يكن الدبلوماسيون المسلمون الزوار الوحيدين من العالم الإسلامي إلى بلدان الغرب [٥٢] ، فقد كانت هناك الأقليات من المسيحيين واليهود - في العصور الوسطى - يداومون الارتحال إلى أوروبا لأغراض دينية أو تجارية، ونذكر منهم القس الياس بن حنا، وهو من الموصل ، رحل عام ١٦٦٨م إلى إيطاليا ، ثم فرنسا ، ثم إسبانيا ، ومن هناك أبحر على ظهر أحد البواخر ، متوجهاً إلى المستعمرات الأمريكية . فكان أول شرقي - من الشرق الأوسط - يقوم بزيارة هذا العالم الجديد في بيرو ، وبنما ، ومكسيكو [٥٣] ، ويصفه خلال فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة .

وكانت هناك قلة من اليهود المتنصرين يعيشون في الأراضي الإسلامية ، وهم ذوو ثقافة متواضعة ، وأقل أهمية من نظرائهم المسيحيين ، ولدينا كثير من التقارير مما يفيد انتقال اليهود وارتحالهم من أوروبا إلى الشرق الأوسط ، ولكن ، ليس لدينا كثير عن انتقال اليهود وارتحالهم من الشرق الأوسط إلى أوروبا ، وهذا يعود في المقام الأول إلى انجذاب اليهود إلى الأراضي المقدسة الخاصة بهم ، إلى أورشليم أرض العبادة والحجيج .

وليس هناك سوى قليل من الكتب من هذه الانتقالات ، نذكر منها المقتطفات التي ذكرها إبراهيم بن يعقوب الذي اعتنق الإسلام بعد ذلك ، ومنها ذلك العمل الذي يتعلق بالحاخام هاييم دافيد أزولاي ، الذي سافر كثيراً إلى أوروبا ، وكان يجمع الأموال لمدرسة تخريج الحاخامات في مدينة هبرون . هذا الحاخام قد استطاع القيام بثلاث رحلات : الأولى ، ما بين عامي ١٧٥٣ و ١٧٥٨م إلى كل من إيطاليا وألمانيا وهولندا

وانجلترا وفرنسا . والثانية عام ١٧٦٤م إلى هذه البلدان نفسها ، أما الثالثة فكانت في عام ١٧٨١، وكانت إلى إيطاليا فقط ، وظل بها حتى وفاته في مدينة ليفورنو عام ١٨٠٦. ولقد ألف هذا الحاخام كتاباً عن رحلاته ، وطبع مؤخراً ، ونشرته ، عن مخطوط سيرته الذاتية ، المدرسة اللاهوتية اليهودية لتخريج القساوسة في نيويورك (٥٤) .

ففي القرون الوسطى ، كان يتفق على أن تكون للتجار أماكن خاصة لمبيتهم ، وليست دوابهم ، وهنا ظهرت كلمة عربية من أصل يوناني ، هي كلمة فندق التي تعني المأوى للبشر وللحيوان ، ولتخزين البضائع الشائعة في العالم الإسلامي ، لذلك كان يسمح للتجار بالحفاظ على فنادقهم الخاصة ، ولا يسمح لغيرهم باستخدامها ؛ فكانوا يطلقون أسماء بلادهم عليها ، مثل فندق فينيسيا (البندقية) ، والفندق الفرنسي . . إلخ ، ويقال إن أوروبا كانت تطبق الإجراء نفسه ؛ حيث كانت تطلق على بعض الفنادق أسماء عربية ، ويقال إنه كانت هناك مستعمرة عثمانية للتجار في فينيسيا في أواخر القرن السادس عشر ، ويقال أيضاً أنه عند اندلاع نيران الحرب بين فينيسيا والدولة العثمانية في عام ١٥٧١ طلب مجلس الشيوخ الفنيسي إلقاء القبض على التجار العثمانيين في فينيسيا ، وقامت أيضاً الدولة العثمانية بإلقاء القبض على تجارهم الذين بمدينة اسطنبول (٥٥) .

وفي عام ١٥٧١ طالب محمد باشا المسئولين بفينيسيا بإطلاق سراح التجار العثمانيين وبضائعهم مقابل التجار الذين من فينيسيا وبضائعهم المحجوزة في اسطنبول ، ويقال إن نسبة كبيرة من التجار العثمانيين كانوا من اليهود . وفي العام نفسه (١٥٧١م) تم إطلاق سراح التجار ، وفي عام ١٥٧٣ بعد عودة السلام بين الدولتين عادت التجارة كما كانت عليه من قبل ، وبدأت في زيادة نشاطها ، فقام العثمانيون بزيادة عدد المترجمين الذين يعملون بخدمتهم ، وطالبوا فينيسيا أن تسمح للأتراك بإقامة فندق خاص لهم ، شبيه بهذه الفنادق الخاصة بالمسيحيين في بلاد المسلمين (٥٦) .

كان هنالك رجل يوناني مقيم في فينيسيا (البندقية) يعرف كثيراً عن عادات العثمانيين وتقاليدهم ، فكتب إلى رئيس القضاة (في مدينة البندقية) يقترح إنشاء خان ، يضم كل هؤلاء التجار معاً ، ويكون منتجعاً لهم ، ومن ثم.. وافق مجلس الشيوخ على هذا الاقتراح في ١٦ أغسطس من عام ١٥٧٥م ، فتعالت بعدها أصوات تحتج على هذا التجمع من التجار العثمانيين في مكان واحد ؛ مما جعلهم يفكرون في إنشاء مسجد جامع للصلاة ، وهذا يسيء إلى المدينة أكثر مما أساء إليها اليهود والألمان البروتستانت . وفي نفس الوقت ، فإن هذا المكان قد يخدم المطامع السياسية العثمانية التي تمتلك القوى البحرية ، والتي يقودها السلطان . وهذا قد يتسبب في تدمير مدينة البندقية أكثر مما يتسبب فيه الزعماء اليهود . ومن ثم فإن هذه الآراء زادت من الشقاق بين الأتراك الآسيويين والقسطنطينيين والألبانيين [٥٧] .

وفي القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر .. أخذ نشاط هذه التجمعات يتدهور من وقت إلى آخر ، بسبب اندلاع العداء بين البندقية والإمبراطورية العثمانية ؛ فاقتصرت الدولة العثمانية على استيراد المواد الخام فقط ، ولكنه بتوقيع معاهدة كارلوفيتس عام ١٦٩٩م ، بدأ التجار الأتراك العودة إلى مدينة البندقية مرة أخرى ، ولكن معظمهم كان يفضل إرسال البضائع عن طريق الوكلاء أو المراسلين تفادياً للبقاء في أراضي غير المؤمنين .

وفي أواخر القرن الثامن عشر .. ظهر التجار الأتراك مرة أخرى متبعين أسلوباً آخر ، ومن ثم فقد اختفت هذه الجماعات التي تمثل أقلية من التجار الآسيويين ، ولكن يقال إن معظم زوار أوروبا في منتصف القرن الثامن عشر وأواخره كانوا من دول البلقان [٥٨] ، وبدأت مدينة البندقية تسعى في محاولة تفادي ما قد يحدث من جراء تعصب أهل البندقية وعدائهم لمثل هؤلاء الزوار ، فصدر قانون في ١٦١٢م بفرض عقوبات صارمة على من يعتدي بالكلمة أو بالفعل على التجار الأجانب بالمدينة ، وهذا يشير إلى أن حماية الرحالة المسلمين أو المقيمين منهم بالمدينة من الاعتداء عليهم أو إصابتهم لم تكن عملية سهلة ؛ لأنك قد تجد التسامح من المواطنين وقد لا تجده أيضاً .

صدرت بعد ذلك مراسيم وقرارات ملكية من إسبانيا إلى السويد ، بمنع دخول اليهود والمسلمين إلى أراضيها ، كما قامت الحكومة الإسبانية في عام ١٧١٣ ، بناء على معاهدة أوترخت بالتخلي عن حقها في جبل طارق إلى الحكومة البريطانية ، واعترفت بالسيادة البريطانية على جبل طارق ، بشرط أن تقوم حكومة جلالة ملكة بريطانيا بناء على الأوامر الصادرة من الملك الكاثوليكي بعدم الموافقة على منح إذن لأي من اليهود المغاربة (من غرب الأندلس وشمال غرب أفريقية) بالإقامة أو الاستقرار في المدينة المجاورة لجبل طارق . لذا . . يجب على حكومة جلالة الملكة البريطانية التعهد بذلك منذ البداية" [٥٩] .

إن عدم رغبة الأوروبيين في استقبال الزائرين المسلمين ، جعل المسلمين ورحالة الشرق الأوسط يمتنعون عن الذهاب إلى أروبا .

بعد ذلك . . ظهرت مستعمرة يهودية من أبناء لاي في إيطاليا في مدينة البندقية ، وكانت تحافظ على الاتصال مع الدولة العثمانية ، وتوالت أيضاً حركة اللاجئين من جديد ، فبدأت أعداد كبيرة من اليهود والمسيحيين الهروب من النصرانية إلى أراضي الإسلام ، بينما كان عدد اليونانيين المسيحيين ، الذين هاجروا من اليونان إلى إيطاليا بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية ، محدوداً .

بعد ذلك . . فرت جماعات مسيحية مارونية من لبنان وبعض الجماعات الصغيرة الأخرى من الأرمن واليونانيين ، ومعظمهم من الطوائف المسيحية التي تنكر عقيدة الثالوث وألوهية السيد المسيح ، واستقروا في روما ، ومدينة البندقية وفي بعض البلدان الأوروبية الأخرى .

كذلك كانت هناك مجموعة من الأمراء العثمانيين الذين فروا أيضاً من أوروبا ؛ سعياً وراء اللجوء والاستقرار هناك بعيداً عن النزاع والخلافات داخل الدولة العثمانية [٦٠] ، وكان منهم أحد الشخصيات المهمة ، ألا وهو الأمير جيم إلى جزيرة رودس (باليونان) ؛ حيث استقر بها بعض الوقت ، وكان يحكم هذه الجزيرة فرسان

القديس جون ، وفي عام ١٤٨٢ أبحر الأمير من هناك إلى فرنسا ، وحاول جاهداً الحصول على تأييد الحكام الأوروبيين ومؤازرتهم ، ففشل ، ولكن الحكام الأوروبيين كانوا يعدونه رهينة ، أو مخلباً يمكن استخدامه ضد السلطان العثماني .

بعد ذلك استقر الأمير ، الذي كان يصحبه عدد من العثمانيين منهم حيدر ، وهو أحد الشخصيات العثمانية البارزة في ذلك العهد ، استقر الأمير بمدينة نيس بفرنسا لمدة أربعة أشهر [٦٣] .

بعد ذلك لما طلب البابا فرسان القديس جون بنقل الأمير جيم إلى روما ، لصالح النصرانية ، فوصل إلى روما في الرابع من مارس عام ١٤٨٩ ، واستقبله البابا بعد وصوله بعشرة أيام ، وصار منذ ذلك الحين الهدف بدلاً من الموضوع ، وكثرت عليه المزايدات والمساومات بين المسيحيين .

وفي عام ١٤٩٤ . . قام ملك فرنسا تشارلي بالتوجه إلى روما ، والتقى بالبابا ، وبعد مناقشات . . استقر الأمر على أن يذهب الأمير جيم مع ملك فرنسا ، ورافقه في الحملة العسكرية التي قام بها ضد نابلس ، ولكنه شعر بألم أثناء هذه الرحلة ومات في نابلس في ٢٥ من فبراير عام ١٤٩٥ ، وكانت ثمة إشاعات تقول أن السم قد وضع للأمير بأمر البابا نفسه .

وترك الأمير العثماني الذي عاش في النفي ، وصية يطلب فيها الإعلان عن وفاته على الجميع منذ موته ؛ حتى لا يستخدم الكفار اسمه ، في خططهم عند مهاجمة الإسلام وطلب أن يتسلم أخوه جثته ، ويعود بها إلى أراضي الدولة العثمانية ، وأن تسدد ديونه ، وأن يهتم بأمه وابنته وبقية أهل منزله ، وقد تم هذا بالفعل .

لقد ترك الأمير جيم سجلاً حافلاً بالمغامرات عن بلاد الإفرنجة ، وما تركه خلفه في الدولة العثمانية ، وكان هذا الأمير شاعراً فذا ، جمعت قصائده في ديوانين ، أحدهما في بلاد الفرس ، والآخر في الدولة العثمانية ، بالإضافة إلى بعض رسائله التي حفظت في محفوظات الدولة . وهناك أيضاً التقرير الذي يوضح مهمة الجاسوس العثماني ، الذي أرسل في أعقاب الأمير من اسطنبول ليراقب نشاطه .

وبالإضافة إلى الدبلوماسيين والتجار والحجاج .. كانت هناك فئة أخرى هم المرشدون الذين يعملون في الغرب ، وكذلك الجواسيس . ومن طبيعة هذه الأشياء استطعنا أن نجد بعض المعلومات ، التي كانت تشير إلى وجود هذه الأنشطة التي لاتعتمد على منظمات للتجسس ، لأنها تعمل في الخفاء .

وهناك معلومات تشير إلى أن المسلمين كانوا يشتغلون بأنشطة التجسس هذه ، ويرسلون عملاءهم بين النصارى ، الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه ، ولكن على نطاق أوسع ، وليس محدوداً مثل نشاط المسلمين .

وثمة تقرير يؤكد أن الدولة العثمانية استطاعت تجنيد عميل سري ، أرسل إلى فرنسا عام ١٤٨٦ ، لمراقبة الأمير جيم الذي يعيش في المنفى ، لأنه كان يمثل إغراءً واضحاً ، وفرصة سانحة ، لحكام النصرانية ، لاستغلاله ضد السلطان . لقد جعلت فترة الاثنى عشر عاماً التي قضاها هذا الأمير في أوروبا منه نقطة ارتكاز لعديد من المؤامرات للإيقاع به واستخدامه ضد الدولة العثمانية . وهذا جعل السلطان يشعر بالقلق ، فقرر مراقبة خصومه ، فكان عليه أن يحدد مكان الأمير أولاً ، ثم يقبض عليه ويعود به آخراً . لقد وجد عدد من المستندات المتعددة المحفوظة بقصر توكابي ، تشير إلى التعامل مع الأمير جيم . وثمة تقرير آخر من قبطان بحري من الأتراك أرسل إلى إيطاليا ثم أبحر إلى فرنسا ، حيث استطاع أن يجد الأمير المفقود ، وقدم تقريراً كاملاً عن رحلته إلى أوروبا دون أن يلفت الأنظار إليه ، لمعرفته بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم [٦٣] .

وثمة شخصية مهمة أخرى ، وهو مبعوث عثماني ، قام بزيارة انجلترا ، وتخفى تحت أسماء مختلفة ، وهو معروف بإسم جبريل دي فرانس ، وهو من أهالي فرنسا ، ويقال إن جبريل هذا كانت له اتصالات في الشرق الأوسط ؛ حيث كان والده قنصلاً فرنسياً بالإسكندرية ولما كان صغيراً اختطفته إحدى العصابات ، وبيع كالعبيد إلى العثمانيين فتبناه رجل مسلم ، وأطلق عليه محمد عبد الله ، وألحق بخدمة السلطان ؛ حيث كان يعمل في تنظيم أعمال الجاسوسية لحساب الدولة العثمانية [٦٥] .

حينذاك كانت الدولة النصرانية تعد هذه الأغراض إعداداً حسناً ، فكان لديهم الأشخاص الذين يتحدثون بلغات بلدان الشرق الأوسط ، وكان لديهم موظفون دائمون وعملاء في الطوائف المتعددة المستقرة في بلدان المسلمين في الشرق الأوسط . وهناك معلومات تؤكد أن الإمبراطور البيزنطي والدول النصرانية والأوروبية والحديثة ، والدول الإسلامية ، جميعهم كانوا يقومون بعمليات التجسس ، ولكن نشاط المسلمين في ذلك كان محدوداً للغاية ، حيث لم تكن لديهم طوائف إسلامية تعيش مستقرة في أوروبا .

ونعود مرة أخرى إلى أوروبا ، حيث تطور ذلك النظام الذي عرف باسم "الكارنتينا" - أي الحجر الصحي - الذي كان يفرض فترة انتظار ، تصل إلى أربعين يوماً على الزوار تفادياً لانتشار بعض الأمراض داخل مدينة البندقية ، فقامت السلطات بهذه المدينة بتنفيذ هذا النظام في القرن الخامس عشر على كل من يأتي من الدولة العثمانية ، ومنذ ذلك الحين صار الحجر الصحي الوسيلة المهمة لحماية أوروبا من التلوث [٦٥] .

ثم صار هذا النظام يطبق على جميع الزوار مهما كانت ديانتهم أو جنسيتهم أو مكانتهم الاجتماعية ، سواء كان سفيراً أو تاجراً أو أحد الرعايا أو من الحجاج ، ولكن السفراء المسلمين كانوا يعدون نظام الحجر الصحي هذا نوعاً من الإهانة ، لأنه أثناء فترة حجزهم بالحجر الصحي كان الناس يتجمعون حولهم لمشاهدتهم ، فيقول السفير محمد سعيد الذي احتجز بالحجر الصحي بمدينة "جيت" بجنوب فرنسا: "عندما كنت أهم بالسير داخل الحجر الصحي كانت حشود من الناس تقف تنظر ناحيتي ، وخصوصاً النساء ، فكن يتجمعن في مجموعات كل منها تتكون من عشرة سيدات ، ويجلسن بالساعات يتفحصن المرء منا " [٦٦] .

ويقول فاسيف أفندي : "كنت أحاط بحشد كبير من المتفرجين الذين كانوا يحيوننا من مسافة بعيدة ، وكانوا ينظرون إلينا في دهشة ، وكأنهم لم يروا رجالاً قط من عالمنا ، ولكنني كنت أعلم بدهشتهم ، لأني جئت من بيئة تختلف عن بيئتهم " [٦٧] .

وأرسل عزمي عام ١٧٩٠ من برلين ، يقول :

"جاء الجنرال إلينا وقال : يجب أن تظلوا بالحجر الصحي لفترة من الوقت ، لأننا لا نريد انتشار أقاويل بين الناس بشأن هذا الموضوع" ، ثم يقول « عزمي وعرفت من كلامه أنه يحاول الاعتذار عن نظام لابد من تطبيقه » (٦٨) .

إن من يجرؤ من الرعايا على خرق هذا النظام يحاكم عسكرياً ، وتقرأ الأحكام عليه من مسافة بعيدة ، ويطلق عليه الرصاص ، ثم يدفن بإهمال شديد في أرض اللازاريتو - وهي جزء من الأرض الخاصة بالكارنتينا الذي يرفع فوقه العلم الأصفر - وعند لقاء أحد من الزملاء . . فإنه كان يقف على ضفة النهر يلوح لنا من بعيد ، وهذا ما كان عليه الحال في أرض النصرانية " (٦٩) .

إن أول شرح مفصل عن غرب أوروبا كان من بعض الرحالة المسلمين ، ولكنهم ليسوا من الشرق الأوسط أو من شمال افريقية ، وإنما جاءوا من الهند في الفترة ، التي كان يتقاتل فيها الحكام العثمانيون مع إيران ، متغافلين عن بلاد المسلمين في الشرق من تقدم أوروبا ناحيتهم ، وتقدم الروس من الشمال ، والقوة البحرية من الجنوب ؛ فسقطت في هذه الآونة بعض الأراضي الإسلامية البعيدة تحت الحكم الأجنبي ، أما تقدم القوات الروسية الإمبراطورية والبريطانية في شمال آسيا وجنوبها فقد جعل الملايين من المسلمين يقعون تحت سيطرتهم .

ويلتقي المسلمون والأوروبيون ، ليسا كجيران في الأرض أو بوصفهم زواراً ، ولكنه - ولأول مرة - يكون الأوروبيون في موقف الأسياد ، وكانت بالطبع تجربة قاسية أعقبها قيام عدد من الأوربيين بمحاولة اكتشاف هذا العالم الغريب الجديد .

أما المسلمان الهنديان اللذان قاما بزيارة انجلترا ، فأولهما الشيخ اعتصام الدين ، وهو مسلم بنغالي ، رحل إلى انجلترا عام ١٧٦٥م ، ويقال إنه أول هندي يقوم بزيارة لندن ، وترك قصة يتحدث فيه عن رحلاته ، في المحفوظات الخاصة ببلاد الفرس ، ويصف في روايته ما رآه من أماكن تلفت الأنظار في كل من انجلترا واسكتلندا ، وكان يعقب على بعض الملاحظات الدينية والعادات والتقاليد والتعليم والمجتمع ، والقانون ، وبعض الموضوعات العسكرية ، وأماكن اللهو ، كذلك تحدث عن قصر القديس جيمس

ومجلس البرلمان البريطاني ، كما قام بالتعقيب على الملاحظات والعادات الخاصة بالشعب الفرنسي ، أثناء توجهه إلى انجلترا من خلال فرنسا (٧٠) .

أما الشخصية الثانية ، وهي أشد أهمية ، فهو ميرزا أبو طالب خان ، الذي ولد في لوكنو عام ١٧٥٢م من أسرة تركية فارسية ، وكان يعمل مراقبا لإيرادات الدولة ، وقام بالرحيل إلى أوروبا في الفترة ما بين عامي ١٧٩٩ و ١٨٠٣م ، وأثناء عودته إلى الهند أنشأ كتابا عن مغامراته ، ودون به كل شيء عن تنقلاته ، وعن معظم أوقاته التي قضاها في لندن وأيرلنده ، وأثناء عودته مر خلال فرنسا وإيطاليا ، ثم الشرق الأوسط (٧١) .

لقد استطاع الإسلام أن يشق طريقه خلال المرحلة الجديدة التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما بدأ السلطان سليم الثالث في تنفيذ برنامج الإصلاح .

وفي عام ١٧٩٢ قرر السلطان أن جزءاً من برنامج التغيير يضع الدولة العثمانية في موازاة الدولة الأوروبية ؛ فبدأ بإنشاء السفارات العثمانية في البلدان والعواصم الأوروبية الرئيسية ، ومن ثم أنشئت أول سفارة في لندن عام ١٧٩٣م ، ثم في فيينا وبرلين ثم باريس .

وفي عام ١٧٩٦م وصل سيد علي أفندي إلى الجمهورية الفرنسية بوصفه أول سفير للسلطان العثماني ، وقد طلب من كل سفير منهم أن يتعلم لغة البلد التي يعمل بها ، بالإضافة إلى بعض الواجبات الدبلوماسية الأخرى ، كما طلب منهم معرفة وتعلم الأشياء التي تفيد الإمبراطورية عند تطبيقها (٧٢) .

لكن الرواد الأوائل من الدبلوماسيين العثمانيين الذين أقاموا في أوروبا كانوا من أبناء المسئولين الذين نشأوا في القصور ، وتعلموا بالطريقة التقليدية ، لذلك فهم يجهلون لغات الغرب ، ولا يعلمون بتقاليده المحافظة ، ومن ثم عندما تحكم على رسائلهم المتبادلة تشعر أنهم يهتمون باكتساب القليل من هذه البلدان التي يرسلون إليها ، وإنهم سعداء بما يتعلمون .

ومن بين هؤلاء العثمانيين . . نجد الدبلوماسي العثماني الفذ "علي عزيز أفندي" وهو من أهالي جزيرة كريت ، وابن أحد المسئولين العثمانيين ، وكانت لهذا الدبلوماسي عدة وظائف شغلها في الإدارة العثمانية ، لذلك تم اختياره سفيراً للدولة العثمانية في بلاد بروسيا . وفي عام ١٧٩٧م . . وصل إلى برلين في شهر يونيو ، وتوفى في أكتوبر ١٧٩٨م . وكان على عزيز أفندي يتحدث الفرنسية والألمانية ، وكان على دراية بلغة الأدب العربي ؛ حيث كان يلتقي في برلين بالمستشرق الألماني ردريك فون ديز ، وكان يناقشان معاً عدة موضوعات مختلفة تتعلق بالفلسفة والعلوم ، ومن خلال بعض المراسلات التي وجدت . . ظهر أن هذا السفير العثماني لم يكن يعرف الكثير من العلوم التجريبية ، أو الفلسفة العقلية للتفكير الواعي ، ولكنه وضع كتاباً قبل وفاته به مجموعة قصص من الأساطير ، وترجم هذا الكتاب المستشرق الفرنسي Petis de la Croix الذي قام بأول طبعة لهذا الكتاب في الفترة ما بين ١٧١٠ و ١٧١٢م ، وقيل إن هذا الكتاب يشبه في تأليفه الفني أسلوب كتاب ألف ليلة وليلة (٧٣) .

لم يرحل السفراء العثمانيون إلى أوروبا بمفردهم ؛ بل كان دائماً في صحبتهم عدد من المترجمين اليونانيين ، الذين كانوا يمثلون القنوات الرسمية التي يتم الاتصال عن طريقها . وكانوا يصحبون معهم أيضاً مجموعة من السكرتارية من العثمانيين ، كانت مهمتهم الأساسية هي تعلم اللغات وخصوصاً الفرنسية ، واكتشاف الجديد بالمجتمع الغربي . فكانت هذه المهام تقدم فرصاً لعدد كبير من صفوة الشباب العثماني المثقف ، كي يقضي بعض الوقت في العواصم الأوروبية ، يتعلمون فيه لغاتهم الغربية ، ويكتسبون فكرة عن الحضارة الأروبية . ومن ثم فإنه عند عودتهم يشغلون بعض الوظائف الحكومية المهمة ، وبذلك يمكنهم التمركز في فئة مهمة ومتخصصة داخل النظام البيروقراطي للدولة العثمانية ، وذلك بعد إتمام تدريبهم في أوروبا .

ونود أن نقول إن بعضهم يلتحق ضابطاً في الأكاديميات العسكرية والبحرية المطورة التي أصبحت كتلك الأكاديميات البحرية والعسكرية الغربية (٧٤) .

ومن هؤلاء محمد رايف ، الذي توجه إلى لندن ، وعمل بمنصب السكرتير العام

للسفير العثماني بلندن . ومنهم أيضاً يوسف أغا أفندي ، الذي شغل منصب السكرتير العام لرئيس الوزراء منذ عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٠٥م . بعد ذلك صار محمد رايف خبيراً بالسياسة والبروتوكول الإنجليزي . وبعد عودته إلى تركيا كان يلقب بمحمد الإنجليزي ، وقام بإعداد كتاب وصف فيه انجلترا وعدداً من مؤسساتها ، ثم حفظ هذا الكتاب في مكتبة السراي بمدينة اسطنبول ، كما أنه تمكن من تأليف كتاب عن الإصلاحات بالدولة العثمانية ، وتم طبع هذا الكتاب في يوسكودار (سكوتاري) في عام ١٧٩٧م [٧٥] .

وهكذا. . نجد أن معظم الضباط والدبلوماسيين ، كانوا من الطلاب الذين يجلسون بجوار أقدام مدرسيهم الأوروبيين يستمعون إليهم وإلى توجيهاتهم . وفي الماضي نجد حكام المسلمين يحاولون دائماً إرسال تلاميذهم إلى أوروبا ، ليأخذوا الفرصة السانحة للتعليم ، وكان من بين هؤلاء الحكام محمد علي باشا ، الذي يعد أول من أخذ بهذه الخطوة المهمة ، وهو حاكم مصر الذي أرسل أول تلاميذه إلى إيطاليا ، وكان ذلك في عام ١٩٠٩م . وقد بلغ عدد الطلاب بالخارج في عام ١٨١٨ ثمانية وعشرين طالباً ، وفي عام ١٨٢٦ أرسل محمد علي باشا أول بعثة من الطلبة المصريين إلى فرنسا ، وعدد طلابها أربعة وأربعون طالباً ، وصاحبهم أحد مشايخ الأزهر في ذلك الوقت ، وكانت مهمته لا تتعدى حدود الموجه الديني ، وكان معظم الطلبة الذين يوفدون من مصر للتعلم في أوروبا من الأتراك أو الرعايا العثمانيين ، وكان من بينهم المصريون الذين يتحدثون العربية ، وهم مسلمون بطبيعة الحال . ونذكر أن الشيخ الذي رافق بعثة الطلبة المصريين هو الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، الذي مكث بباريس خمسة أعوام ، استطاع خلالها أن يتقن الفرنسية ، وصار رفاعة من الشخصيات المهمة حيث استطاع بكتبه وتعاليمه أن يفتح مجالاً جديداً للفكر العربي على الدول الغربية ، وكان ذلك في القرن التاسع عشر [٧٦] .

ثم قام السلطان العثماني محمد الثاني بتتبع خطوات نظيره المصري (محمد علي باشا)؛ فأرسل أول دفعة من الطلبة الأتراك إلى عدة بلدان أوروبية مختلفة ، وكان تعداد

هذه البعثة يتجاوز مائة وخمسين طالباً وذلك في عام ١٨٢٧ ، وكان غرض السلطان من هذه البعثة تدريب هؤلاء الشباب ليصبحوا معلمين في المدارس الجديدة التي تنشىء في تركيا ، وقد توالى بعد ذلك إرسال البعثات إلى أوروبا ؛ فقامت إيران بإرسال مجموعات صغيرة من الطلاب إلى أوروبا في عام ١٨١٥ ، وكان من بينهم ميرزا محمد صالح ، الذي ترك عدداً من الكتب التي يبين فيها بعض تنقلاته (٧٧) .

ولسنا في حاجة لأن نقول إن هذه التحركات واجهت معارضة قوية من الدوائر الدينية المحافظة ، ومع ذلك استطاعت تلك الحركات أن تحصل على القوة التي تمكنها من الاستمرار ، وكان ذلك في بداية الحقبة الأولى من القرن التاسع عشر ، وازداد عدد الطلاب المسلمين من الشرق الأوسط في رحيلهم إلى أوروبا ؛ وخصوصاً في الهيئات التعليمية بالكليات والجامعات الأوروبية ، ومعظم هؤلاء المدرسين من الذين يعيشون في المنفى وأوروبا ، ولكنهم شعروا بسعادة عند عودتهم لتقاليدهم العربية .

أما الطلبة فقد تعلموا كثيراً من نظرائهم ومعلميهم ، وكان من الدروس المهمة التي تعلموها "تحول تاريخ الشرق الأوسط" .

الفصل الخامس

معرفة المسلمين عند الغرب

في عام ١٦٥٥ قام الجغرافي العثماني الرياضي "كاتب جلبي" بكتابة كتيب بعنوان "المرشد عن الأمور المحيرة في التاريخ اليوناني والروماني والمسيحي" [1] وفيه يشرح الأسباب التي دفعته لكتابة هذا الكتيب في مقدمته . لقد صار عدد المسيحيين كبيراً ، ولم يعودوا مقتصرين على ذلك الجزء من العالم المسكون ، ذلك الجزء الذي كانوا يعيشون فيه من قبل . وعلى الرغم من أن طوائف المسيحيين كانت طائفة واحدة ، فقد انتشروا وأصبح عددهم كبيرًا جداً حتى أنهم ذهبوا إلى مناطق عديدة من العالم . ولما عبروا بسفنهم عبر البحار الشرقية والغربية . . أصبحوا أسياداً لعدد من الدول .

ولم يكن في مقدورهم التعدي على الإمبراطورية العثمانية ، ولكنهم كسبوا انتصارات في العالم الجديد ، وانتشروا في موانى الهند التي سيطروا عليها . وكذلك . . فقد اقتربوا من المناطق العثمانية . وفي مواجهة هذا الخطر المتفاقم . . فإن كل هذه التواريخ الإسلامية التي تقدم حول هذه الشعوب كانت واضحة الأكاذيب وكانت أساطير ملفقة . ولما كان الأمر كذلك. . فقد كان من الضروري التزود بمزيد من المعرفة والمعلومات ؛ حتى لا تكون الشعوب الإسلامية غير عارفة بجيرانها ، الذين يناصبونها العداء ، وكذلك حتى تكون الشعوب الإسلامية في مقدورها أن تنهض من نومها ، وأن تستيقظ من سباتها الذي سمح بالفعل لهؤلاء الملعونين بأن يستولوا على دول معينة من أيدي المسلمين ، ومن هنا أحالوا الأراضي الإسلامية إلى مواطن للكفر .

وللتزود بهذه المعلومات والمعارف . . فإن الجغرافي "كاتب جلبي" يقول إنه اعتمد على "الأطلس الأصغر" الإفرنجي ، وعلى أعمال أخرى كان قد ترجمها .

والجزء الأول من الكتاب مقدمة ويتكون من جزءين ، أحدهما حديث عام عن الدين المسيحي ، قائم على أعمال مكتوبة باللغة العربية ، كتبه النصارى الذين اعتنقوا الإسلام في العصور الوسطى ، صريحة العداء في الشكل العام وشديدة العداء في الغرض .

والجزء الثاني من المقدمة يمد القارئ بمعلومات عن النظم الأوروبية للحكومة . وقد قدم هذا في صورة مجموعة تعريفات بشروح لعدد من الألفاظ السياسية الأوروبية مثل لفظ "إمبراطور" و"ملك" الخ ، وتبع ذلك بالمراتب في الكنيسة والدولة ، تلك التي اهتم بتمييزها ، إنها تتضمن قداسة البابا والكاردينال والبطريارك والكونت ، بالإضافة إلى الألقاب العلمانية الأخرى . وينتهي جزء المقدمة بجملة مختصرة في اللغات أتت على النحو التالي : "هذه الفرقة المستنكرة" .

ويعلق "كاتب جلبي" على عدد كبير من اللغات الناطقة بالأوروبية والغموض المتبادل . ويتكون بقية الكتاب من تسعة فصول ، تتعلق بالباباوية والإمبراطورية وفرنسا وإسبانيا والدانمارك وترانسلفانيا والمجر وفينيسيا ومولدافيا ، ومن الواضح أن هذه هي الدول الأوروبية التي اعتقد "كاتب جلبي" أن من الضروري الانتباه لها . وتتكون المعلومات المعطاة من أقل من القوائم العددية للباباوات والحكام ، التي تخللت المقالة بأجزاء غامضة من معرفة كتابة مجهولة ومختلفة .

والنظام الحكومي الوحيد الذي نوقش في تفصيل معين ، هو ذلك النظام الخاص بمدينة فينيسيا ، وبالنسبة للدولتين فرنسا وإسبانيا . . فقد كان كذلك قادراً على التزود بقدر من المعرفة التاريخية والجغرافية المحدودة . وكان " كاتب جلبي" ذا نية حسنة ، ذلك أن كتاباته في الجغرافية وفن الخرائط تبرهن على ذلك ، وتدل على المجهودات التي قام بها للحصول على معرفة من مثل هذه المعارف التي كانت متاحة له . ولاشك في أنه كان على حق في وضفه للأدب المبكر الذي استمد منه أفكاره عن أوروبا ، ورأى فيه تقدماً جوهرياً كبيراً . وبالتأكيد فإن لم يكن هناك شيء قابل للمقارنة متاحاً في العربية

أو الفارسية حتى القرن التاسع عشر ، وكذلك فإن تقديمه متاحاً في العربية أو الفارسية حتى القرن التاسع عشر .

وكذلك فإن تقديمه للتاريخ الأوروبي والشئون الجارية الذي كتبه عام ١٦٥٥ يبدو ساذجاً وتافهاً ، إذا ما قورن بالتصور الأوروبي للعثمانيين . وقبل ما كتبه "كاتب جلبي" بأكثر من قرن في مقالته فإن القارئ الأوروبي كان تحت تصرفه قدر كبير من الأفكار التفصيلية الجيدة عن التاريخ العثماني والمؤسسات العثمانية بما في ذلك الترجمة ، التي تمت لكتابات بعض المؤرخين العثمانيين العظام الأوائل . ولم يكن الاهتمام الأوربي مقصوراً على الأتراك العثمانيين الذين عالجوا المشكلات الجارية ذات الأهمية .

ولقد اهتموا كذلك لفترة بالتاريخ المبكر والثقافة الأولى للإسلام ، وأنتجوا بالفعل أدباً شاملاً اشتمل على طبعات وترجمات لنصوص عربية بالإضافة إلى دراسات لتاريخ المسلمين وفكرهم ورسائلهم . وفي أيام "كاتب جلبي" كانت هناك بالفعل مناهج عربية ، في عدد من الجامعات الأوروبية الغربية ، ومثل جاكوب جوليوس في هولندا وإدوارد بوكوك .

في انجلترا . . كانوا يضعون أسساً للاستشراق الكلاسيكي ، ونحو نهاية القرن السابع عشر عندما أعد الفرنسي بارتلومي هربيلوت القاموس الشرقي . وهو قاموس حرفي خاص بالحضارة الشرقية ، كان قادراً على استغلال الكم الجوهري من الأدب المنشور في اللغة اللاتينية ، بالإضافة إلى عدد من اللغات العامية الأوروبية ، وجاء جزء من المعرفة عن طريق الأسرى الهاربين أو المحررين ، وجزء عن طريق المسافرين السياسيين أو التجاريين . ولكن هذه المعرفة زادت عن طريق جيل جديد من العلماء الذين كانوا يطبقون على دراسة اللغات والآداب الإسلامية ، الأساليب التي أتقنتها أوروبا لمعالجة ودراسة النصوص القديمة المنقوشة .

بالنسبة لكل ذلك لم يكن هناك شيء يقبل المقارنة من بعيد بين المسلمين ، حيث اقتصرت المعرفة ، سواء المتعلقة بفقه اللغة أو غيرها ، على آثار إيمانهم الخاص ، وقانونهم وأدبهم . ومع هذا كان هناك شيء معروف عند الغرب ، وقد يكون مجدياً أن ننظر إلى المصادر والمضمون الخاص "بالأكاذيب والخرافات" التي أدانها "كاتب جلبي" بمنتهى الشجاعة العدل .

وأول تقارير جدية في العربية حول أوروبا الغربية بقيت ، هي تلك التي ظهرت إبان القرن التاسع . لقد نهلوا بنهم من المصادر اليونانية ، وبصفة خاصة من جغرافية بطليموس ، ويبدو أن هذه الجغرافية قد ترجمت مرات عديدة إلى العربية . والنص الباقي عبارة عن نص تم في بداية القرن التاسع ، على يد الفيلسوف الرياضي الآسيوي المشهور محمد بن موسى الخوارزمي [٢] ، بترجمة بطليموس ولكنه أدخل في رؤيته عدداً من التصحيحات والإضافات المشتقة من المعرفة الجغرافية المتاحة للفرس والعرب . وكان هذا صحيحاً حتى بالنسبة للتفكير الأوروبي الغربي على الرغم من أن ذلك كان بعيداً عن أجزاء أخرى من العالم . ولسوء الحظ . . وضع الأوروبيون أسماء ، شوهت بطريقة بشعة في إحدى النقوش المتبقية ، إلى درجة أن بعض هذه الأسماء غير معروف ، أو لا يمكن التعرف عليه .

من هذه الترجمة وربما من بعض الأعمال الأخرى المترجمة - بما فيها الكتابات السورية علاوة على الكتابات اليونانية - كان العلماء المسلمون قادرين على الحصول على بعض الأفكار الخاصة بالشكل الجغرافي لأوروبا الغربية ، وكذلك الخاصة بأسماء بعض الأماكن .

وفي الحال بدأوا في تقديم أعمال جغرافية خاصة بهم ، وتلك الأعمال - على الرغم من أنهم كرسوا بصفة عامة مكاناً صغيراً لهذا المكان البعيد وغير المهم مثل أوروبا الغربية - فإنها لم تحقق على الرغم من ذلك انتشاراً تدريجياً للمعرفة [٣] .

وأول جغرافي مسلم وصل إلينا عمله ، هو بالتأكيد "ابن خرداذبه" [*] ، وهو الجغرافي الفارسي الذي كتب باللغة العربية نحو منتصف القرن التاسع . وكان موظفاً ورئيساً في مكتب بريد بالدولة ، مسئولاً عن وثائق الدولة وعن تناوب الخدمة ، وكتابة الكثير من الأدب الجغرافي الخاص بالإسلام في القرون الوسطى فقد كان على الأقل في جزء منه ، توحي به الاحتياجات ، وتفيد من ملفات الخدمة في العمل . لقد كان هذا الكتاب بطبيعة الحال متعلقاً أساساً بالحدود في ظل الحكم الإسلامي . ومع ذلك . . فقد أولى هذا الكتاب اهتماماً بالامبراطورية البيزنطية التي كان لها خدمة بريدية على علاقة بتلك ، التي في كاليفيت ، ويمدنا الكتاب بقدر مختصر عن الأجزاء والمناطق الأوروبية الأبعد .

"ويقول ابن خرداذبه " وقسمت الأرض المعمورة على أربعة أقسام ، فمنها أروفي وفيها الأندلس والصقالب والروم والفرنجة وطنجة وإلى حد مصر ولوبية وفيها مصر والقلزم ، والحبشة والبربر" ، وهذا التقسيم جاء في نصوص عربية قديمة أخرى ، ولكنها قليلة جداً ، تسجله المصادر اليونانية ويختص تماماً هذا التقسيم من الأدب الجغرافي الإسلامي وأوروبا ابن خرداذبه بهجاء "Uraga" تتكون من الأندلس (إسبانيا الإسلامية) والأراضي السلافية ، والرومانية والأراضي الإفرنجية والدولة من طنجة إلى حدود مصر [٤] .

وقد تعلم ابن خرداذبه نوعاً في إسبانيا المسلمة ، وهي جزء من دار الإسلام . وعن الدول الواقعة فيما وراء حدود المسلمين يقول: "ورمية وبرجان وبلدان الصقالب

(*) هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ، الذي اعتنق جده الإسلام ، وكان أبوه سنة ٢٠١هـ (٨١٦م) والياً على طبرستان (الطبري، القسم الثالث ، ص ١٠١٤ وما بعدها) نشأ في بغداد حيث درس الموسيقى والأدب على إسحق الموصلي ، وتولى بعد ذلك البريد بنواحي الجبل (إقليم ميديا قديماً) وكان يكتب في سامراء بين سنتي ٢٣٠ و ٢٣٤هـ ، موظفاً في ديوان البريد المركزي :

١- كتاب المسالك والممالك .

٢- كتاب اللهو والملاهي .

٣- حديث عن أصل الموسيقى وفن الغناء والنغم ، ألقاه في مجلس الخليفة المعتمد .

٤- يذكر أبو العلاء المعري (رسالة الغفران ٢/ ٧٩ س٥) "طبقات المغنين" لإبن خرداذبه . وتوفي في حدود سنة ٣٠٠ هـ (المترجم) .

والإبر شمالي الأندلس ، والذي يجيء من البحر الغربي الخدم الصقالب والروم الإفرنجيون واللمبرديون والجواري الروميات والأندلسيات وجلود الخز والوبر ، ومن الطيب الميعة ، ومن الصيدنة المصطكى ، ويقلع من قعر هذا البحر بغرب فرنجة البسذ bussadh وهو الذي تسميه العامة المرجان .

فأما البحر الذي خلف الصقالبة وعليه مدينة تولية . . فليس يجري فيه مركب ولاقارب ولا يجيء منه شيء ، وكذلك البحر الذي فيه جزائر السعادة لا يركب فيه ولايجيء منه شيء وهو غربي أيضاً" (٥) .

وكان هناك تجار يهود . . يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية ، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف" (٦) .

لقد أعطى التجار اليهود الذين تحدث عنهم ابن خرداذبه نهضة للأدب التعليمي ، وقد قامت محاولات عديدة للتحقق منهم وتوطينهم وتقدير أهميتهم . ويبدو كذلك أنهم كانوا أصلاً من الشرق الأوسط وليسوا من الغرب .

وهناك فقرات متماثلة نجدها في كتابات اثنين آخرين من الجغرافيين المسلمين في ذلك الوقت . واحدة من هذه الفقرات لابن الفقيه (*) . (٩٠٣هـ) تتبع سلفه ، ولكنه أضاف التالي :

"والإقليم السادس فرنجة وأمم أخرى ، وفيه نساء من عادتهن قطع ثديهن وكيه في صغرهن لئلا يعظم"

أما الآخر فهو ابن رسته (**) (٩١٠هـ) ويخبرنا أيضاً بنفس القصة ، ولكنه يضيف تفصيلاً جديداً مثيراً :

(*) هو أبو بكر أحمد بن إسحق بن الفقيه الهمذاني ، ولد في المدينة الفارسية همذان ، والف كتاب "البلدان" عقب وفاة الخليفة المعتضد سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢م).

(**) هو أبو علي أحمد بن عمر بن رسته كتب في أصفهان بعد سنة ٣٣٠ ، (٩٢٢م) موسوعة عنوانها "الأعلاق النفسية" يتناول الجزء السابع منها الجغرافيا .

"وفيه أيضاً من ناحية الشمال اثنتا عشرة جزيرة تسمى جزائر بريطينية Barayttiniya ثم يبعد من العمران فلا يعرف أحد كيف هو" (٨) .

وثلاثتهم جميعاً يذكرون اسم روما التي كان لديهم قصص أكثر غرابة يحكونها عنها . وفي القرن العاشر . . كانت هناك معرفة أكثر اتساعاً متاحة للفقراء المسلمين ، وكان أعظم كاتب جغرافي في زمنه هو المسعودي (*) (٩٥٦م) ، وتشتمل ملاحظاته عن شعوب أوروبا على أصداء أفكار جغرافية يونانية مع إضافات شيقة :

"وأما أهل الربع الشمالي ، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم . . فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ؛ فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم وجفت طبائعهم وتوعرت أخلاقهم وتبلدت أفهامهم وثقلت وألسنتهم ابيضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة ورقت جلودهم وغلظت لحومهم ، وازرقت أعينهم أيضاً ، فلم تخرج من طبع ألوانهم وسبطت شعورهم ، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب ، ولم يكن في مذاهبهم متانة . وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة .

(*) هو أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ، ولد في بغداد ، وهو ينتمي إلى أسرة يرجع نسبها إلى عبد الله بن مسعود ، صاحب النبي ﷺ وكان أسلوبه الثقافة التى درج عليها الحديث في زمانه يتطلب منهم الرحالة إلى أهم حواضر الإسلام طلباً للحديث والعلم ، فلم يقنع المسعودي باقتفاء أثرهم ، بل دفعه تطلعه العلمي إلى تجاوز البلدان الإسلامية والتجوال فيما وراءها بحثاً عن أخبارها جمعها لمعارفها . وبعد أن طاف ببلاد فارس وكرمان ، وأقام في اصطخر سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، ورحل إلى الهند فزار أولاً "ملطان" و "المنصورة" ثم مر "بكنباية" و "صيمر" فوصل إلى "سرنديب" في جزيرة "سيلان" ومن ثم ابحر مع رفقة من التجار إلى الصين ، ثم رجع أدراجه إلى "زنجبار" و "عمان" .
وبعد جولة قصيرة له في البلدان المحيطة ببحر الخزر ، نلتقي به سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م عند طبرية في فلسطين . وفي سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣ م طاف في أنطاكية وثغور الشام ثم رجع إلى البصرة ، وذهب بعد ذلك سنة ٣٣٤هـ إلى دمشق . وفي السنة عينها نزل بمدينة الفسطاط في شهر جمادي الآخرة سنة ٢٤٥ هـ/ ٩٥٦م ، وقيل سنة ٣٤٦هـ وله من مصنفاته :
١- كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة .
٢- كتاب الأوساط وهو مختصر من الكتاب السابق . ٣- كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر .
٤- كتاب التنبيه والإشراف . ٥- رسالة في إثبات الوصية لعلي بن أبي طالب .
٦- رسالة في أحوال الإمامة .

ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك فيهم الأبعد فالأبعد إلى الشمال . . .

وأما من كان خارجاً عن هذا العرض إلى نيف وستين ميلاً يأجوج ومأجوج وهم في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم " [٩] .

ونفس المؤلف يعقب في عمل آخر ، ويقول:

"الإفرنجة والصقالبة واللومبارد والإسبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزروبرجان واللان والجلالقة وغيرهم ممن ذكرنا ، ممن حل بالجربي وهو الشمال لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين ، أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافت بن نوح وهو الأصغر من ولد نوح ، فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً وأمنعهم جنبة وأكثرهم عدة وأوسعهم ملكاً وأكثرهم طاعة ، إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً وأعظم منهم نكاية ، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الفرنجة .

وكلمة الإفرنجة متفقة على ملك واحد لا تنازع بينهم في ذلك ولا تحزب ، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بريزة ، وهي مدينة عظيمة ، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور " [١٠] .

من خلال هذه الكتابات الجغرافية وتلك العربية والفارسية لهذا الزمن . . فإنه من الممكن تكوين صورة عن الشكل الأوروبي كما كان يبدو لعيون المسلمين . وإلى الشمال من الأراضي المتحضرة في الأندلس الإسلامية ، في جبال شمال إسبانيا وتلال بايريني المجاورة كانت هناك شعوب بدائية مسيحية غير متحضرة هي شعوب الغال وسكان جبال البرانس . وفي إيطاليا ، شمال المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين ، كانت حدود روما ، التي يحكمها ملك قس يدعى البابا ، ووراء ذلك في الدولة التالية توجد طائفة من الشعوب الهمجية تدعى لومبارد . وعند الحدود الشرقية للبحر الأبيض في الشمال من الحدود الإسلامية كانت مملكة الروم ، الإمبراطورية اليونانية المسيحية ، ووراء ذلك كانت أراضي سلافيا الواسعة مجالاً هائلاً مقسمًا إلى شعوب عديدة ، بعض هذه

الشعوب كان معروفاً للمسلمين التجار والمسافرين ، وغرب سلافيا كانت المملكة الواسعة Franja فرنجا ، وهي أرض الـفرنجة التي تصل كل المـسار إلى الحدود الشمالـية للألب والبايريني وبين هذه السلطات ، ومن بعضها بالتحديد تميز شعب آخر يدعى البورجان أو بورجونـد ، ثم بالاتجاه أكثر إلـى الشمال فيمـا وراء الإفرنج . . كان هناك عبـدة النار المجوس ، وهـو اللقـب والصفـة التي نـقلها الـعرب تمامـاً من الفـرس القدامـى إلى الاسكندنافيين[11] وألقاب قليلـة لتلك الأراضي الأبعد شمالاً ، ولا تظهـر في الكتابات الإسلامية بريطانيا ، وأحياناً أيرلندا وكذلك اسكندنافيا .

ومن وقت لآخر استـخدم المؤلفون المسلمـون لفظ الروم (Rüm) لأوروبا الوسطى والغربية ، ويـجعلونه بذلك يتطابـق في شكل جامد مع المسيحـية . ومع ذلك . . فإن الأوروبيين الغربيين شاع أكثر تعريفهم بمجموعة ألقاب مختلفة أكثر هذه التسميات شيوعاً هو إفرنج Ifranj أو فرنج Firanj وهي الصورة العربية لإسم الإفرنج . وربما وصل هذا الإسم إلى المسلمين عن طريق بيزنطة ، وأطلـق أساساً عندهم على سكان الامبراطورية الغربية إمبراطـورية شارلمان ، وبعد ذلك امتد إلى الأوروبيين بـصفة عامة هذا الإسم . وفي استخدام العصور الوسطى . . لم يكن مطبقـاً بطريقة عادية على المسيحيين الأسبان أو الشعوب الإسكندنافية ، ولكنه استخـدم على الرغم من ذلك بمعنى شامل عام لقارة أوروبا والجـزر البريـطانيـة ، وكانت أرض الإفـرنج معروفـة في اللـغة العـربية فـرانجا (Franja) أو إفرنجا (Ifranja) وفي اللغة الفارسية ، وكانت مـعروفة بعد ذلك في اللغة التركية باسم فرانجستان .

وهناك لقـب يستخدم أحيانـاً فـي نصوص العـصور الوسطى ، يشيـر إلى شعوب أوروبا ، وهو بنـو الأصفر التي تعـني "أبناء الرجل الأصـفر" . في البداية أطـلق هذا المصطلـح عند العرب القدماء عـلى اليونانيين والرومـانيين ، ثم امتد فيمـا بعد إلى أمم إسبانيـا ، ثم أطلق بعد ذلك عـلى الأوروبيين بصفـة عامة . واستمد علـماء الأنساب المسلمون عادة هذا الاصطلاح من اسم شـخص هو أصفر ، وهو الابن الأكبر اسو وأبو روميل سلف اليونانيين والرومان (الروم) . وبعض العلماء شرح هذه التسميات باعتبارها

تشير إلى اللـون الفاتح لجلد الأوروبيين ، أي اللون الأصفر ، والأشـقر الذي كان على العكـس من اللون البـني والأسود في آسيا وأفـريقيا . وهذا الأمـر لا يبدو متشـابهاً . فالمؤلفـون الـعرب والفرس عـادة ما يسـمون البيض بيضاً وليس صـفراً ؛ علاوة على ذلك . . فإنـهم نادراً ما يتحـدثون عن الأروبيين بألـقاب الجنس أو اللون . ولمـا كانوا عارفين بالتناقض بين أنفسهم وجيرانـهم ذوي البشرة السوداء إلى الجنوب والشرق ، فقد أعطوا أهمية قلـيلة جـداً إلـى البشـرات الأفتـح نوعاً ، تلك التـي يتميـز بها جيرانهم فـي الـشمال . وهناك استدلال آخر ، عـادة مهين لذوي اللون الأبيـض من الأجناس الشمالـية ، بما فيها تـركيا وشعوب الاستبـس الأخرى أكثر من الإفرنج . فـي العصور العثمانية كانت تسمية بنو الأصفر تستـخدم أحياناً للشعوب الصقلية من أوروبا الوسطى والشرقية ، ولكنها استخدمت بصفة خاصـة للروس الذين يدعى أحياناً قيصرهم بالملك الأصفر (١٢) .

ما هي مصـادر معرفة المسلـمين عن الغرب ؟ المصـادر الأوروبية التي استـخدموها كانت بصفة رئيسة يونانية ، مع بعض الإضافات القليلة من المصادر السورية والفارسية ، وبالتأكيد . . لـم يتعلموا كثيراً من الكـتب الغربية ، وعلى قدر ما نـعرف . . فإن كتاباً غربية واحداً ترجـم بالفعل إلى اللغة العـربية في العصور الوسطى . وكـتاب أو كتابان يمكن أن يكـونا قد صارا معروفـين بوسائل غير مبـاشرة ، وهكذا يقدم المـسعودي قدراً مختصراً عن ملـوك الإفرنجة من كلوفس إلى لويس الرابع ، ويقـول إنه يعود إلى كتاب أسقف إفرنجي في عام ٩٣٩م لمعرفة الحكم أمير قرطبة .

قال المسعودي : "ووجدت في كتاب وقع إليّ بـفسطاط مصر ، سنة ست وثلاثين وثلاثـمائة ، أهداه غـدمار الأسقف بمـدينة جرنـدة من مدن الإفرنجـة ، في سنة ثـمان وعشرين وثـلاثمائة إلى الحكم بن عـبد الرحمن بن محـمد بن عبد الله بن مـحمد بن عبدالرحمن بن الحكـم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هـشام بن عبد الملك بن مروان بـن الحكم ، ولـي عهد أبـيه عبد الـرحمن صـاحب الأندلـس في هذا الـوقت المخاطب في عمله بأمير المؤمنين ، أن أول ملوك الإفرنجة قلودويه وكان مجوسياً فنصرته امرأته وكان اسمها غرطلد .

ثم ملك بعده ابنه لزريق ، ثم ولى بعد لزريق ابنه دقو برت ، ثم ولى بعده ابنه لزريق ، ثم ولى بعده قرلمان أخوه ، ثم ولى بعده ابنه قارله ، ثم ولى بعده ابنه قارله ، ثم ولى بعده ابنه ببين ، ثم ولى بعده ابنه قارله وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة ، وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس وتدافع أولاده بعده ، ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الإفرنجة ، بسببهم ، وصار لزريق بن قارله صاحب ملكهم فملك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر ، وهو الذي أقبل إلى طوشة فحاصرها . ثم ملك بعد قارله بن لزريق ، وهو الذي كان يهادي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان محمد يخاطب بالإمام، وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر ، ثم ولى بعده ابنه لزريق ستة أعوام ، ثم قام عليه قائد للإفرنجة ، يسمى قومس فملك الإفرنجة وأقام في ملكهم ثماني سنين وهو الذي صالح المجاس عن بلده سبع سنين ، بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة ، يؤديها صاحب الإفرنجة ، إليهم ثم ولى بعده قارله بن تقويرة أربع سنين ، ثم ولى بعده قارله آخر فمكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، ثم ولى بعده لزريق بن قارله وهو ملك الإفرنجة إلى هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، وقد استوفى في مملكته عشر سنين إلى هذا التأريخ على حسب ما نمى إلينا من خبره » [١٣] .

ومن بين ١٦ اسماً في قائمة المسعودي كانت العشرة أسماء الأخيرة من شارل مارتل إلى لويس الرابع التي يمكن التأكد منها والتحقق منها نوعاً . وبين الست أسماء الأولى كلوفيس وزوجته كلوتيلد وابنه العظيم داجوبرت لصعوبة فيهم . أما بقية الأسماء فمن غير الممكن التحقق منها بين حكام مير وفنجينا وكارولنجيا.

وأهمية الفقرة مع ذلك لا تنصب على القائمة الفعلية بالأسماء التي تعج بالأخطاء والحذف . وإنما تنصب على وجودها . والتأريخ الكلاسيكي للعالم الإسلامي يتميز بالأهمية والخطورة وربما بصورة أوضح من كل الدول في أوروبا في العصور الوسطى مجموعة ، وفي مستوى أعلى من الفلسفة . إنها مميزة بأنه على الرغم من المواجهة الطويلة بين الإسلام والمسيحية عبر البحر المتوسط من إسبانيا ، ومن خلال صقلية إلى

البلاد الواقعة في شرق البحر المتوسط . . فإن هـناك نقصاً كبيراً في الاهتمام والانشغال بين العلماء المسلمين بما كان يـجري وراء الحدود الإسلامية في أوروبا . ومن أول حقبة الألف عام . فإن ثلاث كتابات فقط هي التي بقـيت وتمد القارئ المسلم بأي معرفة عن تاريخ أوروبا الغربية . وقائمة المسعودي هي أولها .

إذا كان تأريـخ أوروبا الغربية مـهملاً تماماً تـقريباً . . فإن جـغرافية أوروبا الغـربية استـمرت تلقـي بعض الانتـباه . إن معرفـة المسلمـين هي التي كـرست جل الاهتـمام للجغرافية ، وقدمت أدباً غزيراً في هذا الموضوع . وبداية بالأشياء الملائمة ذات الأهمية من الأعمال اليـونانية فقد أثرى هذه المعرفـة عدد من كتب الرحالة ، وبالفـعل فقد قدم العلمـاء المسلمون كتـابات قضايا نظـامية ، بعضهـا في صورة مقالات في الجـغرافية ، والبعض الآخر خـاص بالقواميس الجغرافيـة الأبجدية . وقد تضمنت هـذه في الغالب بعض الأسماء الأوروبية .

وكان اسم "روما" العظيمة بطبيعة الحال معروفاً للعالم الإسلامي ، حيث كان مع ذلك تختلط معه بيزنطة ، التي شاع أن يطلق عليها كلمة "الروم" .

بعض العلـماء مع ذلك كانوا عارفين "بـروما" في إيطاليا أيضـاً ، ومؤلف عربي قديم اقتبس اقتباسـاً طويلاً من هارون بن يحيى ، وهو أسير عربي يـبدو أنه قضى فترة قصيرة في روما حوالـي ٨٨٦ . ويصف هارون المدينة والكنائس في عـبارات خيالية ، ويستمر إلى أن يقول :

"ومن هذه المدينـة تركب البحر فتسير ثـلاثة أشهر . . حتى تنتهـي إلى بلاد ملك برجان ، وتسـير منها في جـبال وعقاب شهراً واحداً ، حـتى تنتهي إلـى بلاد فرنجة ، ومنها تخرج فتسير أربعة أشهر ، حتى تنتهي إلـى مدينة بريطينية وهي مدينة كبيرة على ساحل بحر المغرب ، ويتملك عليها سبـعة من الملوك ، وعلى باب مدينتها صنم إذا رام الغريب أن يـدخلها نام فلا يمـكنه دخولها حـتى يأخذه أهل المديـنة فيقفوا عـلى مغزاه ومقصده في دخـول المدينة ، وهم قوم نصارى ، وهم آخر بـلاد الروم ، ليس وراءهم عمران" (١٣) .

ومن الواضح أن هـارون لم يغامر إلى أبعـد من روما . ومن الشيق أنـه سمع عن بريطانيا وعن الحكم السباعي (*) heptarchy الانجلوساكسوني - وكان قادراً حتى على إعطاء ما هو أول تفكير لعمليات هجر الإنجلوساكسون ، وكانت معرفته مع ذلك خارج التاريخ منذ توقفت حكومة السبعة عن الحكم ، الذي امتد حوالى ٣٠ سنة .

وكثير من معرفة هارون عن روما أتى بوضـوح من مجموعات قصص روما الرائعة التي نسوق مثالاً عليها التيار الذي كان في أدب العصور الوسطى . بعض هذه القصص جمعها ابن الفقيه ، ووضعها ياقوت ، وهـو واحد من أعظم الجغرافيين المسلمين ومات ١٢٢٩ . وكانت لياقوت شكـوك خطيرة حول بعض القصص التي يـكررها ويعيدها . وفي القاموس الجغرافي يبدأ الدخول إلى روما على النحو التالي :

"رومية Rümiya بتخفيف الياء من تحتها نقطتان كذا قيده الثقات . قال الأصمعي: (فقيه مشهور) : وهو مثـل انطاكية وأفامية ونيقية وسالوقيه وملطية وهو كـثير في كلام الروم وبلادهم ، وهناك روميتان : إحداهما بالروم والأخرى بالمدائن بنيت وسميت باسم ملك فاما التي فـي بلاد الروم ، فهي مدينة رياسة الروم وعلمهـم ، قال بعضهم : هي مسماة باسم رومي بن رومية ، واسمها رومانس ؛ فعرب هذا الإسم فسمي من كان بها رومي ، وهي شمالي غربي القسطنطينية ، بينهما مسيرة خمسين يوماً أو أكثر وهي اليوم بيد الإفرنج ، ملكها يقال له ملك ألمان ، وبها يسكن البابا .

ورومية من عجائب الدنيا بناء وعظماً وكثرة خلق ، وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأ إلى الناظر في كتـابي هذا ، مما أحكيه من أمرها . . فإنها عظـيمة جداً خارجة عن العادة مستحيلة وقوع مثلها ، ولكني رأيت جماعة ممن اشتهروا برواية العلم قد ذكروا ما نحن حاكوه فاتبعناهم في الرواية ، والله أعلم" (١٥) .

وبعد هذه الوثيقة المهمة أو قل الوثيقة التعليمية . . يقتبس ياقوت بنهم من روايات

(*) مجموعة من سبع مقاطعات أو ممالك متحالفة ، يحكم كلاً منها حاكمها الخاص (المترجم).

العصور الوسطى - ومعظمها - ربما من أصل أوروبي - عن عجائب ومعجزات روما ، ثم ينتهي إلى الآتي :

"جميع ما ذكرته ههنا من صفة هذه المدينة فهو من كتاب محمد ابن أحمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ، وليس في القصة شيء أصعب من كون مدينة تكون على هذه الصفة من العظم ، على أن ضياعها إلى مسيرة أشهر لا يقوم مزروعاتها بميرة أهلها ، وعلى ذلك فقد حكت جماعة عن بغداد أنها كانت من العظم وكثرة الخلق والحمامات ما يقارب هذا ، وإنما يشكل فيه أن القارئ لهذا لم ير مثله والله أعلم ، فأما أنا فهذا عذري على أني لم أنقل جميع ما ذكروا وإنما اختصرت البعض [١٦] .

ومن السهل أن تتعاطف مع وجهة نظر ياقوت . إذ إن معظم الأوصاف الإسلامية في العصور الوسطى لأوروبا الغربية مستمدة مباشرة ، أو عن طريق غير مباشر من الفكرة التي قدمها السفير إبراهيم بن يعقوب في منتصف القرن العاشر . ولابد أن مثالين يكفيان عن أوصاف ابن يعقوب :

ايرلنده جزيرة في شمال الإقليم السادس وغربية ، قال العذري : ليس للمجوس قاعدة إلا هذه الجزيرة في جميع الدنيا ، ودورها ألف ميل أهلها على رسم المجوس وزيهم ، يلبسون برانس قيمة الواحد منها مائة دينار ، وإنما أشرافهم فيلبسون برانس مكللة باللآلئ .

وحكي أن في سواحلها يصيدون فراخ الأبيلنيه ، وهو نون عظيم جداً ، يصيدون أجزاءها يتأدمون بها وذكروا أن هذه الأجزاء تتولد في شهر أيلول ، فتصاد في تشرين الأول والثاني ، وكانون الأول والثاني ، في هذه الأشهر الأربع ، وبعد ذلك يصلب لحمها فلا يصلح للأكل .

أما كيفية صيدها . . فقد ذكر العذري أن الصيادين يجتمعون في مراكب ومعهم فشيل كبير من حديد ذي أضراس حداد ، وفي الفشيل حلقة عظيمة قوية ، وفي الحلقة حبل قوي ، فإذا ظفروا بالجرو صفقوا بأيديهم وصوتوا ، فيتلهى الجرو بالتصفيق

ويقترب من المراكب مستأنساً به ، فينضم أحـد الملاحين إليها ويحك جبهته حكاً شديداً فيستـلذ الجرو بذلك ، ثم يضـع الفشيل وسط رأسـه ويأخذ مطرقة من حـديد قوية ، ويضرب بها على الفـشيل بأتم قوة ثلاث ضربات فلا يحس بالضربـة الأولى وبالثانية ، والثالثة يضطرب اضـطراباً شديداً ، فربما صادف بذنبه شيئاً من المـراكب فيعطبها ، ولا يزال يضطرب حتى يـأخذه اللغوب . ثم يتعاون ركاب المراكب على جـذبه حتى يصير إلى الساحـل . وربما أحست أم الجرو باضـطرابه فتتبـعهم ، فيستـعدون بالثوم الكـثير المدقوق ، ويخوضون به المـاء فإذا أشمت رائحة الثوم استبعدتها ورجـعت القهقري إلى الخـلـف ، ثم يقطـعون لحم الجـرو ويملحـونه ولحمه أبـيض كالثـلج وجـلـده أسـود كالنـعـش [١٧] .

إن فكرة ابن يعقوب عـن صيد الحيتان في البحر الأيرلندي ، يـتضح أن لها قاعدة موضوعة ، وهي تـكشف عن معرفة أن الحيـتان لها أمهات تصاد بـالرماح . ومع ذلك فهناك مجالاً للشك حول ما إذا انطلق بحراً فـي إيرلندا وفكرته هذه قديمة ومستهلكة . ومن الواضح أن وصفه لـبوهيميا من ناحية أخـرى قائم على تجربة مباشرة : "بـوهيميا هذه أرض الملك بويسلاف يتطلب امتدادها من مدينة براج إلى مدينة كراكاو رحلة أسابيع ثلاثة ، ويعادل مشوارها في طوله أرض الأترك .

بنيت مدينة براج من الطوب والجير ، وكانت واسعة التجارة ، ذات غنى يربو على كل هذه الأراضي . وكـان الروس والسلافيون يجلـبون البضائع إلى هنـا من كراكاو ، ويجلب المسلمـون واليهود والأتراك كذلك البضائع من أرض الأتـراك ، وكانوا يجلبون العبيد والحديد وأنواعاً مختلفة من الـفرو . وكانت بلدهم هي أفضل البلاد بين شعوب الشمال وأغناها في علف الدواب ، وكان مقابل بـنس واحد تباع كمية كافية من الدقيق تكفي الإنـسان شهراً . وبنفس المبـلغ يباع الشعيـر لغذاء الحيوانات مدة أربعـين ليلة . وكانت تباع دجاجات عشر ببنس واحد ، وفي مدينة براجوي . . كانوا يصنعون البرادع والتروس والدروع ، الجلدية الرقيقة التي تستخدم في هذه الأجزاء . وفي أرض بوهيميا كانوا يصنعون المـناديل الرقيقة الجميلة الشـبكية المزينة بالهلال ، التي لا تـستخدم لشيء

وكان سعر عشرة منـاديل هناك بنساً واحداً ، وكانوا يتاجرون كل مـع الآخر ويتعاملون كل مع الآخر ، ويملكون أواني يعتبرونها كـالأموال وأعني الأشياء تشترى بها ، القمح والعبـيد والخيول والذهب والـفضة وكل شـيء . ويميز شعب بـوهيميا الشـعر الأسود الداكن ، ويندر الجنس الأشقر بين هذا الشعب (١٨) .

لقد وضع الغزاة الصـليبيين والمسلمين والغربيين في تـقارب شديد واتصال قوي ، سواء في الـسلام أو الحرب . وفي هذه الفـترة يتوقع الإنـسان أن تكون لدى المسـلمين تفاصيل أكثر ومعرفة أكثر دقة عن جيرانهم المسيحيين الأوروبيين ، ومعرفة أكثر جوهرية عن التقاريـر الغامضة والشائعات ، وتـصورات الزمن القديم . ومن المؤكـد أن مسلمي القرون الثانـي عشر والثالث عشر والرابـع عشر ، قد عرفوا أكثر عن الـغرب ، بشكل يفوق أسلافـهم في الفترة الـسابقة على الصـليبيين . ولكـننا ما زلنا لا نـقدر إلا على الدهشـة إزاء قلة ما عـرفوه في واقع الأمـر ، وكذلك إزاء قلـة ما اهتمـوا به . وأحد الجغرافيين العظماء في ذلك العصر وهو الفارس زكريا بن محمد القزويني (*) (١٢٨٣) يعتمد أساساً على ابن يعقوب في فـكرته عن أوروبا ، وفي واقع الأمر إن الفضل يعود إليه في بقاء رواية ابن يعقوب . وعن الإفرنج يقول الآتي :

"أفرنجة بلـدة عظيمة ومملـكة عريقة في بلاد الـنصارى بردها شديـد جداً وهواؤها غليظ لـفـرط البرد . وإنها كثـيـرة الخيرات والفواكـه والغـلات ، غزيرة الأنهار كـثيـرة الثمار ، ذات زرع وضرع وشجر وعسل ، صيودها كـثيرة الأنواع ، بها معادن الفضة ، وتضرب بها سيوف الهند .

(*) القزويني (١٢٠٣ - ١٢٨٣م) هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، يرجع نسبه إلى أنس بن مالك إمام المدينة وفقيهها المشهور . ولد في قزويـن وإليها نسب ، ثم رحل إلى دمشق ، وهو شاب ، وتولى بعدئذ قضاء واسـط والحلة في زمن المستعصم العبـاسي ، آخر خلفاء بني العباس فـي بغداد ، وسقطت بغداد في يد هولاكو المغولي ، وهو في ذلك المنصب ، كان عالماً في التاريخ الجغرافيا ، وكتابه عجائب المخلوقات أول كتاب في هـذا الموضوع في اللغة العربية ، وتتـصل آثار القزويني كلها بعلـمي الجغرافية ووصف الكائنات ، ويساوي كتابه "آثار البلاد وأخبار العبـاد" في قيمته كتابه عجائب المخلوقات ؛ فقد جمع فيه كل ما وقع له وعرفه وسمع به وشاهده من لطـائف صنع الله وعجائب كلمته المودعة في بلاده وعباده . (المترجم) .

وأهلها نصارى . ولهم ملك ذو بأس وعدد كثير وقوة ملك ، له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب في وسط بلاد المسلمين ، وهو يحميها من ذلك الجانب ، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء ، ويرون الموت دون ذلك [١٩] .

ولاشك في أن جزءاً من ذلك يأتي من كاتب أقدم ، ربما كان ابن يعقوب ولكن الجزء المتأخر بإشارته إلى ممتلكات الإفرنجة "في وسط أراضي" والدليل القاطع الذي يسوقه هذا الجزء على قوة الأسلحة الإفرنجية يبدو أنه يرجع تاريخه إلى زمن الصليبيين . وملاحظات القزويني جديرة بأن تعكس الانطباعات الناتجة من الاتصال المباشر ، إنها شيء مختلف تماماً عن روايات الرحالة والأساطير والشذرات المنقحة من التعليم اليوناني ، الذي شغل أفكار الغرب الأولى .

وكانت هناك معرفة متاحة نوعاً في الغرب الإسلامي ، في شمال أفريقيا وأسبانيا ، حيث وضع تقدم الغزو المسيحي المسلمين في اتصال مقرب - ولو أنه غير مرحب به - مع أوروبا . وهناك جغرافي من القرن الثاني عشر يدعي الزهري ، ربما كان يكتب في إسبانيا يتحدث عن البندقية وأمالفي وبيزا وجنوة مع بعض الملحوظات عن تجارها ومنتجاتها . ويذكر عن جنوة أنها "واحد من أعظم المدن الرومانية والإفرنجية وشعبها كان قريش الرومان" ولما كانت قريش القبيلة المكية التي ينتمي إليها النبي ﷺ هي أشرف القبائل العربية فإن هذا الوصف مبالغ فيه .

وهذا ليس هو كل شيء ؛ فالزهري يستمر في حديثه إلى أن يصل إلى أن أهل جنوة ينحدرون عن قبيلة عربية تعتنق المسيحية هي قبيلة غسان ، كانت تعيش على الحدود السورية العربية قبل ظهور الإسلام . "وهؤلاء الناس لا يشبهون الرومان في مظهرهم ؛ فغالبية الرومان يتميزون بالجمال ، أما هؤلاء فإنهم يتميزون باللون الأسود والشعر المجعد والأنف الشامخة . وهذا هو السبب في القول بأنهم ينحدرون من العرب " [٢٠] .

في تلك الأثناء كتب مسلم غربي آخر يعيش في ظل الحكم المسيحي في صقلية النورماندية كتاباً ، يمثل مستوى سطح المد والجزر لمعرفة المسلمين الجغرافية في العصور الوسطى عن أوروبا ، بالإضافة إلى بقية العالم ، هذا الكاتب هو أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي ، وهو سليل عائلة حاكمة مراكشية ، ولد في كيوتا في مراكش عام١٠٩٩ ، وبعد أن درس في قرطبة وكان يسافر عادة إلى أفريقيا والشرق الأوسط ، قبل دعوة من الملك النورماندي في صقلية روجر الثاني واستقر في بالرمو ، وهناك أتم أفضل أعماله الجغرافية المعروف "كتاب روجر" على أساس رحلاته ومعرفته التي جمعها من معارف أخرى . ولقد انتهى من هذا العمل سنة ١١٥٤ ، وهذا الكتاب يتضمن كما هو متوقع معرفة أكثر عن إيطاليا ، وكذلك يشتمل على أوصاف تفصيلية عن معظم أوروبا ، وفي هذه الفصول أدلى الإدريسي اهتماماً محدوداً بكتابات المسلمين الجغرافية ، ويبدو أنه يعتمد بشكل مباشر على المعارف المسيحية الغربية وعلى الخرائط الغربية ، وكان هذا متاحاً له في صقلية النورماندية ، وعلى النحو التالي . . وهكذا يبدأ الإدريسي وصفه للجزر البريطانية :

"يتكون الجزء الأول من المناخ السابع عن المحيط وجزره مهجورة ، وغير مأهولة بالسكان ، ويحتوي الجزء الثاني من المناخ السابع على جزء من المحيط الذي توجد فيه جزيرة انجلترا ، وهذه جزيرة عظيمة تشبه رأس نعامة ، وفيها جزر مأهولة بالسكان وجبال عالية وأنهار جارية وسهول . وخصوبتها عالية وشعبها جاف وصعب ، يتميز بثبات العزيمة والشتاء هناك مستديم . وأقرب لها وزانت Wissant في أراضي فرنسا ، وبين هذه الجزيرة والقارة . . يوجد ١٢ ميل عرضاً. . ." (٢١) .

ويستمر الإدريسي بعد ذلك في وصف دورشستر وويرهام ودارتموس ، والجزء الضيق من الجزيرة التي تدعى كورنول التي تشبه منقار الطائر. سالزبوري وسوثامبتون ، ونشستر ، وشوريهام وهاستنجس" ، وهي مدينة ذات حجم معقول وعدد كبير من السكان ، مزدهرة بالأسواق والحرفيين والتجار ودوفر ولندن ولنكولن ودورهام . وفيما وراء هذه المناطق تقع اسكتلندا التي يتحدث عنها الإدريسي على النحو التالي : "إنها

ترتبط بجزيرة انجلترا وهي شبه جزيرة طويلة إلى الشمال من جزيرة أكبر إنها غير مسكونة ، وليس بها مدينة أو قرية وطولها ١٥٠ ميلاً . . . " (٢٢) .

وكذلك يسمع الإدريسي عن مكان أبعد :

"من آخر حدود شبه الجزيرة الخالية ، شبه جزيرة اسكتلندا إلى آخر حدود جزيرة أيرلندا . . توجد مسافة إبحار يومين نحو الغرب . ويقول مؤلف "كتاب العجائب" (وهو كتاب شرقي قديم) إن هناك ثلاث مدن ، وقد اعتادت هذه المدن أن تكون مسكونة ، واعتادت السفن أن تذهب إلى هناك وتشتري الكهرمان والأحجار الملونة من مواطنها الأصلية . بعد ذلك حال أحدهم أن يجعل نفسه حاكماً عليهم . . فشن حرباً ضدهم بشعبه فحاربوه ، وظهرت بينهم العداوة ، فأباد كل منهم الآخر ، وهاجر بعضهم إلى اليابسة . وهكذا حطمت مدنهم ولم يبق سكان فيها" (٢٣) .

إن معرفة الإدريسي عن الجزر البريطانية معرفة ضئيلة نسبياً . . فلم يعرف جيداً عن القارة الأوروبية حدودها الشمالية أو الشرقية . وأوصافه للجزر بأنها تشبه رأس نعامة أو منقار طائر تشير إلى أنه قد نظروا إلى ذلك ، وربما أيضاً التقط أسماء متعددة للمكان الذي يذكره . وحذا الجغرافيون المتأخرون حذو الإدريسي وقد وضع مؤلف - غير مؤكد التاريخ ومن مكان ما في الغرب الإسلامي - يدعى ابن عبد المنعم قاموساً جغرافيا يتضمن مواد عن أوروبا . أما ابن صاعد (١٢١٤ - ١٢٧٤) ، من الكالاريال كتب "جغرافية العالم" التي اقتبس منها الكتاب المسلمون المتأخرون كثيراً وكثيراً في كل من الغرب والشرق . ويحتوي فكر ابن صاعد عن الغرب على عدد شيق من القصص . فيتحدث عن انجلترا فيقول (*) : "وصاحب هذه الجزيرة يسمى الانكتار في تاريخ صلاح الدين في حروب عكا" (٢٤) ، والحاكم المذكور في تاريخ صلاح الدين هو بالطبع ريتشارد قلب الأسد الذي يظهر في كل حسابات المسلمين عن الحرب الصليبية الثالثة تحت نفس الإسم الغريب الانكتار . ولدى المؤرخين المسلمين أقوال كثيرة من الأعمال

(*) النص مأخوذ من كتاب تقويم البلدان (المترجم) .

العسكرية والسياسية للصليبيين من الشرق ، ولقد أظهروا مع ذلك اهتماماً ملحوظاً بسيطاً بالشئون الداخلية للبلاد الصليبية ، التي تتباين فرقها العسكرية القومية ، ولا أحد على الإطلاق في بلادهم له أصل . إن تحقق ابن صاعد من سكان هذه الجزر البعيدة والغامضة تصوير للتاريخ السوري الفلسطيني هو أمر غير مألوف ؛ لأن معظم المسلمين المؤرخين كانوا يعدونهم جميعاً كفاراً أفرنجيين جاءوا من الأراضي الشمالية للبرابرة ، وكلما أسرعوا في العودة هناك . . كان ذلك أفضل ونادراً ما يذكر الحكام والقادة الإفرنج بأسمائهم ، ولكن يوصفونه بالقاب أو أوصاف مبهمة وعادة تتبع هذه الألقاب بهذا التعبير "رحلة موفقة لروحه إلى الجحيم" أو بشيء من هذا القبيل .

يوشك المؤرخون أن يقيموا علاقة (يربطوا بين معرفتهم للإفرنج في سوريا والمعرفة الضئيلة عن أروبا الموجودة في كتابات جغرافيي الطبيعة والجغرافيين والرحالة . وأما فكرة أن الدين الإفرنجي والفلسفة والعلم والأدب يمكن أن تنال أي اهتمام ، فلا تبدو أنها طرأت لأي منهم على الإطلاق ، ولا نستطيع حتى القرن الرابع عشر بعد عدة قرون من العلاقات التجارية والدبلوماسية (السياسية) أن نرجع إلى كاتب عربي ، أبسط الأفكار عن إمكان وجود مثل هذه الأمور في أوروبا . إنها قد تأتي - كما قد نتوقع - من أحد أصحاب العقول العظيمة ، التي أنتجتها الحضارة الإسلامية ، ويمكن التعبير عنها في عبارات أدبية (تعليمية) خاصة .

في الجزء الجغرافي من مقدمة ابن خلدون المشهورة . . يضع المؤرخ وعالم الاجتماع التونسي العظيم ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) وصفاً لأوروبا الغربية ليس فيه أكثر مما يمكن أن يوجد في كتابات الإدريسي والجغرافيين المسلمين الآخرين . وفي نهاية "المقدمة" مع ذلك . . توجد فكرة عن أصل وتطور العلوم العقلية التي تشتمل على قبول التغيير . وبعد وصف أصول توجد فكرة عن أصل وتطور العلوم العقلية التي تشتمل على قبول التغيير . وبعد وصف أصول العلم بين اليونانيين والفرس ، والشعوب القديمة الأخرى ، يستمر ابن خلدون في مناقشة تطور هذا العلم في ظل الإسلام وانتشاره نحو الغرب عبر شمال افريقيا إلى إسبانيا ، ثم ينتهي في حديثه إلى السطور التالية:

"كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض رومة ، وما إليها من العروة الشمالية نافقة الأسواق ، وعن رسومها هناك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة متفرقة وطلبتها متكثرة ، والله أعلم بما هنالك ، وهو يخلق ما يشاء ، ويختار "(٢٥) .

وهذا الجزء الأخير معناه مقتبس من القرآن ، ويبدو أنه شيء يفوق الاعادة مثل مولد التعليم بين الإفرنج ؛ حيث لم يكن واقعاً وراء نطاق قدرة الله على كل شيء .

وكان ابن خلدون أيضاً مؤلفاً للتاريخ العام ، كتب له مقدمة عرفت واشتهرت "بمقدمة ابن خلدون" وهذا التاريخ الذي ألفه كما قد يتوقع الإنسان ينصب تماماً على شمال افريقيا ، ويتضمن المصير المؤلم للصليبيين الذي قادهم الملك المقدس لويس التاسع ملك فرنسا ، ضد تونس . . وهذه الفكرة واضحة في نواح متعددة . فابن خلدون يعطي اسماً لحاكم فرنسا وهو سان لويس ابن لويس ولقبه الذي كان يطلقه عليه هو ملك فرنسا . وكذلك كان عارفاً بأن الملك كان معروفاً بالقديس . على الرغم من أن المؤرخ ابن خلدون لم يستخدم كلمة صليبية . . فإنه مع ذلك يقوم الحملة على تونس ؛ باعتبارها جانباً من الصراع التاريخي بين المسيحية والإسلام الذي امتد قروناً بما فيه هذا البعد نفسه ، وحكي كذلك عن أحداث الحروب العربية البيزنطية ، وألوان الصدام الأخير في فلسطين وإسبانيا . وربما أكثر ما يميزه عنه يبدأ فكرته بمناقشة مختصرة عن غزاة البلد ، التي رغم ذلك لا تذهب إلى ما هو أبعد من النطاق المحدود للمعرفة الجغرافية المتاحة .

أما ما قاله عن أوروبا فقليل ، والجزء الثاني يتعلق أساساً بالشعوب غير الإسلامية وشعوب ما قبل الإسلام ، بما في ذلك الجزيرة العربية قديماً وبابل القديمة ومصر وإسرائيل (*) وفارس وبلاد اليونان وروما وبيزنطة ، ويذكر فقط القوط الغربيين ، ونبذة

(*) يعمد برنارد لويس في هذا الموضع إلى ذكر إسرائيل كوطن ، ولا يذكر فلسطين . والأغلوطة هنا واضحة إذ أن إسرائيل كدولة لم تظهر سوى عام ١٩٤٨ ، أما بنو إسرائيل فهو شعب توزع في العالم القديم بين مختلف الشعوب .

مختصرة عنـهم ضرورة كمقدمة لفتح المسـلمين لإسبانيا ، وهي كذلك جزء مـن التقليد التاريخي الجغرافي الخاصة بالعرب الإسبان . ولم يمتد تاريخ ابن خلدون العام إلى شمال إسبانيـا أو شرق فارس ، وهكذا يمكـن أن نقول إن تاريخه كـان مقتصراً علـى حضارته الخاصة به وبأسلافه ، وهكـذا فإن هذا التاريخ يشبه معظم ما يسمـى بالتاريخ العام الذي كتب في العالم الغربي حتى الماضي القريب .

ولكن قبل ذلك بقـرن تقريباً في الشرق في بلاد فارس قامت محـاولة لتقديم تاريخ عام حقيقي يغطي سائر العالم المأهول بالسكان ، كما كان معروفاً آنذاك ، محاولة كانت غير مسبوقـة وكانت لفترة طويلة محاولـة لا مثيل لها . وقد جاءت الفرصـة المناسبة من الفتوحات المغوليـة التي قامت لأول مرة في التاريخ بين آسيا الشرقيـة وآسيا الغربية ، في نظام سلطة واحدة قامت ووضعت حضارات الصين وفارس ، في اتصال مقرب ومثمر .

وفي السنوات الأولى مـن القرن الرابع عشر . . دعا غازان خان الحـاكم المغولي في فارس طبيبه ومستـشاره رشيد الدين ، اليهودي الذي اعتنق الإسلام ، لـيعد تاريخاً عاماً للبشـرية يضم كل الشعـوب والممالك المعروفة . ويضـع العمل الجديد رشيـد الدين بين أعظم المؤرخين فـي الإسلام ، وفي واقع الأمر في البشـرية كلها . وهو عمل تـبدو فيه مراعاة الضمـير بطريقة مؤثرة واضحـة بالنسبة للتاريـخ الصيني استشار اثنـين من علماء الصين ، جاءوا إلى فـارس خصيصاً لهذا الغرض . وبـالنسبة لتاريخ الهـند استدعى . . زاهد "بوذي من كـشمير . وفي عمـل تاريخي بهذا الحجـم الكبير . . نجد حـتى برابرة غرب أوروبا يحظون بوصف مختصر في هذا العـمل ، وكثير منهم حدث معه ذلك منذ أن كانوا في مفـاوضات سياسية مع سيد رشـيد الدين . إن معرفته عن أوروبـا وشئونها تبدو كمعـرفة أحد الإيطاليين ، وربما كان أحـد مبعوثي البابا ، ثم بـعد ذلك داوم على ساحات المغول . وعـن طريقه قام رشيد الديـن بالاطلاع على عصور التـاريخ الأوروبية التي حققت أخيراً ، مثل تحقيق العصـر الخاص بالقرن الثالث عشر ، الذي قام به المؤرخ مارتن والمعروفة كذلك- على رغم أنه من أصل تشيكي- باسم مارتينوس بولونوس [٢٧] .

والجزء الذي كتبه رشيد الدين عن الإفرنج يـنقسم إلى جزءين : الجزء الأول يتكون

من مسح جغرافي وسياسي للدول والبلـدان الأوروبية . والجزء الثاني يتكون من التأريخ المختصـر للأباطرة والبابـوات ، ولقد استفـاد رشيد الدين بـشكل واضح من الكـتابات العربية والفارسية المبكرة عن أوروبا ، غيـر أن كثيراً من معرفته جديدة ، ولم تطرق من قبل . وفكرته عن علاقات البابا والإمبراطور تم تفصيلها ، وهي تأتي بوضوح من بعثة باباوية . وكانت لديه مـعرفة مناسبة باحتفالات التتويج الإمـبراطوري ، ولقد سمع عن صوف انجلترا القرمـذي ، وعن جامعات باريس وبولونيا ، وعن بحيـرات البندقية وعن جمهوريات إيـطاليا واختفاء الثـعابين مـن أيرلندا . وكـل هذا يمثل تقدماً ملـحوظاً فـي المعرفة ، وحتى عبارته الغامضة بأن حاكم الجزيرتين (أيرلندا وانجلترا) يكون اسكتلنديا ، وأنهما يبعثان بالجزية إليه ربما يكون فيها شيء من الحقيقة .

إن تأريخـه للأباطرة والبـاباوات ينتهي بـالإمبراطور ألبـرت الأول والبابا بيـندكت الحادي عشر ، وكلاهما يوصف بطريق صحيـح ؛ حيث كانا يعيشان في ذلك العصر . وهذا لا يتضمن أكثـر من اختصار لمارتن الراجع إلى هذا التـاريخ . وفكرته عن أوروبا واهية وسطـحية وأحياناً غيـر صحيحة ، وبالمقـارنة بينها وبين مـعالجته الطويلـة والمملة للحضارات الأخرى "مثـال حضارة الهند والصين ، فإن هذه الفكرة تبـدو شيئاً تافهاً ، ولكن بعد القائمـة القصيرة الخاصة بحلول الفرنجة ، التي قدمـها المسعودي يبدو أن هذه هي الحالة الوحيدة التي قام بها مؤلف إسلامي فـي العصور الوسطى ليحدد معالم تاريخ أوروبا المسيحـي ، ولم تتم المحاولة الثالثة إلا فـي العصور العثمانية فـي القرن السادس عشر . وخلال فترة العصور الوسطى ظل الإسلام يـهمل ولا يهتم بالشعوب الكافرة أو بماضيها ، تلك الـشعوب التي عاشت في الأراضي الواقعة إلى شمـال البحر المتوسط . والشيء المميـز الملاحظ هو أن مفكراً عظيمـاً وأصيلاً مثل ابن خلدون نفـسه - وموطنه تونس إحدى الـبلاد المسلمة الـتي على دراية كبيـرة ومباشرة بالغـرب - شارك في هذا الإهمال العـام . وأثارت المناقشـة العظيمـة لـلصليبيـين ، الواضـحة جداً فـي التاريخ الغربي ، موجـة من الغموض في البلاد الإسلامـي . وحتى التطور السريـع للعلاقات التجارية والسياسيـة مع أوروبا بعد الصليبيين ، يبدو أنه لم يثـر أي رغبة في التوغل في

أسرار الجانب الآخر . وبينما كانت البلاد الإسلامية القديمة في إسبانيا والشرق تتدهور وتتساقط تحت الحكم الأجنبي ، كانت تنشأ في الأناضول إمارة كانت تنمو سريعاً على حساب الإمبرطوريات الإسلامية الأخيرة والعظيمة جميعها . والدولة العثمانية ولدت على الحدود بين الإسلام والمسيحية ومن البداية وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا قد كرسوا بكل قلوبهم للإسلام أكثر من أي من الأسلاف ، فقد كانت لهم معرفة أكثر علماً وأكثر تقارباً على الأقل مع بعض مناطق أوروبا المسيحية . وبالنسبة للعثمانيين المتقدمين لم تعد أوروبا الإفرنجية لغزاً غامضاً كما كانت بالنسبة للعرب والفرس في العصور الوسطى . لقد كانت جارتهم وغريمتهم بعد أن حلت محل الإمبراطورية البيزنطية المنهارة كرمز للمسيحية ، الغريم والخصم الأصيل لموطن الإسلام . وكان أساسياً أن يعرف الأتراك فنون الحرب الأوروبي ويتعلمونها . وفي التعليم البحري بصفة خاصة اتبعوا الأساليب الغربية ، ولم يقوموا حتى بتحسينات قليلة من عندهم . وعن طريق الفنون البحرية الأوروبية كانوا يحتاجون كذلك إلى معرفة عملية بالخرائط والبحرية الأوروبية (١٥٥م) هو بيري ريس ، الذي يبدو أنه كان يعرف بعض اللغات الغربية ، ويبدو أنه استغل المصادر الغربية . وفي ١٥١٧م كان قد قدم خريطة للعالم إلى السلطان سليم الأول كانت تتضمن نسخة لخريطة كولومبوس لأمريكا التي رسمت ١٤٩٨م . ولما كانت خريطة كولومبوس الأصلية قد فقدت ، فإن هذه الخريطة التي ربما ضاعت في إحدى الهجمات البحرية العديدة مع الإسبان والبرتغاليين ، بقيت فقط في الترجمة التركية التي ما زالت موجودة في مكتبة مصر توبكابي في اسطنبول ، وتبع ذلك ١٥٨٠ فكرة اكتشاف العالم الجديد على ما يبدو من المصادر الأوروبية لجغرافي عثماني هو محمد بن حسن سعودي ، وأهداه إلى السلطان مراد الثالث" [٣٠] .

وهناك كاتب عن البحرية التركية في البحر المتوسط ، ألف عام ١٥٢١ ، أعيد تنقيحه سنة ١٥٢٥ ، يحتوي على تعاليم بحرية تفصيلية لسواحل البحر المتوسط . والنسخة المنقولة سنة ١٥٢٥ تتضمن مقدمة وفهرساً يعطيان فكرة عن المعرفة الجغرافية ، والتصورات الجغرافية التي كان يستخدمها عندئذ الأتراك . وخريطة متأخرة ترجع إلى

عام ١٥٥٩، يبدو أن راسمها حاجي أحمد من تونس ، وهو الذي درس في جامعة مسجد الطرابيشي في مراكش ، وكان فيما بعد ذلك أسيراً في أوروبا ، وربما كان في البندقية ، وعلى أي حال . . فهناك أعد خريطته التركية في تغطية أوروبا وآسيا وافريقيا والمناطق المعروفة من أمريكا . وهو يعطي كذلك بعض التفاصيل عن نفسه التي يظهر منها أنه جهز خريطته أثناء أسر "رجل فاضل ومتعلم" ، وعندما يصف كتابه يقول :
"لقد قمت بإنتاج جديد لكتابة المسلمين بترجمة اللغات الإفرنجية والكتابات الإفرنجية
"لقد وعدوا بتحريري لقاء جهودي وأعمالي التي تعجز مثل هذه الكلمات عن وصفها . . . ولقد كتبت ذلك (أو ربما فصلته) باللغة التركية بطريقتي وفقاً لأوامر سيدي ؛ لأن هذه اللغة لها سلطة عظيمة في العالم" [٣١] . وأول الأعمال الجغرافية الكبرى الخاصة بالعثمانيين بصفة عامة (Jihannüma) أي (مرآة العالم) وهو خاص بالجغرافي كاتب جلبي Katib Celebi الذي يخبرنا في مقدمته بأنه فقد الأمل تقريباً على القدرة على تأليف جغرافية عامة جامعة ، عندما أدرك أن الجزر البريطانية وأيسلندا ، لايمكن وصفها بغير الرجوع إلى الأعمال الأوروبية ، طالما هذه الأعمال كلها المتاحة له بالعربية والفارسية والتركية غير مكتملة وغير دقيقة ، وهو يقول إنه ناقش من خلال وسطاء جغرافية أورتيليوس والأطلس (الأصغر والأكبر) وأطلس ميركاتور في الوقت الذي كان يأمل فيه أن يجد نسخة من أورتيلويس "كان حظه طيباً في أن يجد الأطلس الأصغر وهو اختصار للأطلس الأكبر ، وفي الوقت نفسه . . كان حظه طيباً أن يعرف الشيخ محمد إخلاصي ، وهو راهب فرنسي سابق اعتنق الإسلام ، وبمساعدة الرجل الفرنسي بدأ في ترجمة الأطلس الأصغر وأكمله في سنة ١٦٥٥" [٣٢] .

وعند نهاية القرن . . ظهر كاتب آخر في الجغرافية ، وهو أبو بكر ابن بحرام الدمشقي (١٦٩١م) ، وكان متمتعًا بمزايا الوزير فازيل أحمد باشا ، عمل في الأجزاء المختلفة من مرآة العالم الخاصة بكاتب جلبي وأضاف هو نفسه بعض المواد إليها . وأما عمله الأكبر فهو ترجمة الأطلس الأكبر الخاص بجوان بلو . ويبدو أن الدمشقي قد اهتم أساساً بجغرافية بلو - بنسبة أقل - وبهندسيته . ومن الواضح أن فكرته عن النظريات

الكونيـة الخاصة بتيكوبراهـي وكوبرنيكوس قد اختـصرت إلى جملة هي "هنـاك نظرية أخرى تبعاً لها ، تكون الشمس مركز العالم والأرض تدور حولها" (٣٤) .

وأن الاتجاه الذي بدأ به عـمل كاتب جلبي والدمـشقـي استمر في الـقرن الثامن عشـر . وتظهر عدة أعمال جغرافية أخرى تـقريباً في صورة توابع أو ملاحق لمرآة العالم (Jihannuma) وهناك عمل ينـسب بأرمني له أهمية ما ، وهـذا الأرمني هو بدروس - بارونيان الذي كان يعمل ترجمانًا لبعثة بلاد الأراضي المنخفضة (هولندا) وفيما بعد عمل ترجماناً لوفـد مملكة الصقليتين ، ويقال إنـه أعد ترجمة تركية لعمل فرنـسي كتبه جاك روبس بعنوان "طريقة لفهـم الجغرافية بمدخل سهل" (٣٥) والأدب على الرغـم من أن له اهتماماً يبدو أن احـتكاكه محدود . وهناك شك فيما إذا كان الـبحارة الأتراك قد عرفوا كثيراً عـن البحر المتوسط . وفي سـنة ١٧٧٠ عندما أبحر أسطـول روسي حول أوروبا الغربية ، وواجه بغتة القـوات العثمانية في بحر إيجه ، عقدت الدولة العـثمانية اتفاقية صورية مـع ممثل البـندقية ، يشـكون من أن حكـومته قد سمـحت للأسطـول الروسي بالإبحـار مع البلـطيق إلى الأدرياتـيك . وهذا يشـير إلى صفة خـاصة ببعـض خرائط العصور الوسـطى ، التي تبين وتوضح قنـاة بين هذين البحرين مع آخـر حدودهما في البندقية . وعلى الرغم من أن كاتب جـلبي وتلاميذه قد عرفوا جيداً هذه الأمور ، وأن مرآة العالم (Jihannuma) كانت بالفعل قد طبـعت . . فإن الموظفين في بورت ، كان من الواضـح أنهـم لا يزالون يهتدون بالتصورات الجغرافية ، الـتي ترجع إلى العصور الوسطى .

ويشير المؤرخ العـثماني واصف الذي يرجع إلى القرن الثـامن عشر إلى أن الوزراء العثمانيين لم يستطيعوا أن يدركوا أن هناك طريقة ما للأسطول ؛ كي يتجه من بيترسبرج إلى البحر المتوسط" (٣٦) .

يخبرنا المترجم والمؤرخ النمساوي جوزيف هامير بتعبير مشابه أو مقارب للشك هو "تحت بصري" فـي سنة ١٨٠٠ عندما رفض الوزيـر العظيم ليوسـف زيا أن يصدق أن الإمدادات البريطانية يمـكن أن تأتي من الهند عن طريق البحر الأحـمر . ويعقب هامير

فيقول : كانت لدى السيد سيدني سميث الـذي ساعدته مترجماً أثناء هذه المقابلة ، كل متاعب العالم ومـشكلاته ؛ لكي أؤكد له بفحص الخرائط أن هـناك علاقة واتصالاً بين المحيط الهندي والبحر الأحمر" (٣٧) .

ويقدم تـاريخ أوروبا الحديث وأمـريكا الشمالـية أمثلة ، تـعادل ذلك من النـاحية التراجيدية علـى الجهل الجغرافي حول دور السياسيين وحتـى رجال الدولة . ومثل هذا الجهل مـع ذلك على الـرغم من أنه كـان موجوداً بين الحـكام أحيانـاً . لم يكن سـمة الصفـوة السياسية ، وقـد صحح هذا الجهل عـن طريق خدمات مـدنية أحسن تدريـبها وتعليمها .

ومن الجغرافية البشرية لأوروبا - التي كانت شعوباً مختلفة عاشت في البلاد ، التي لاحت في الأفـق العثماني - كـانت هناك معـرفة قليلـة في الأدب العثمانـي ، وهناك استثناء ظريف لشـخص يدعى مصـطفى على من مدينة كليبولي (*) (١٥٤١-١٦٠٠) مؤرخ شهـير ، وشاعر مـتعدد الجوانب فـي عصره . وعلـى الأقل في موضـوعية . . يحاول مصطـفى علي في نوع من علـم الأجناس الأوروبي في الجزء الخامس مـن كتابه عن التـاريخ العام (الجامع) الـذي لا يتضمن أوروبـا ، أن يقدم استطراداً مـطولاً في الأجناس المتشابكة مع العثمانيين ، في داخل وخارج حدودهم .

وتنصب فقرة أخرى مسـاوية للفقرة السابقة في عمل آخر لمصـطفى علي ، يناقش فيها النمـاذج المختلفة للعبيد والخـدم وأنـواع السلالات وطبائـع الشعوب الـتي ينتمون إليـها . وقد تعـلم مصطـفى علـي بطبيـعة الحال أحـسن تعلـيم عن الأجنـاس داخل الامبراطورية ، وهو يعكـس بشكل كبير التميز المعروف لصاحب الـعبيد . وتقع حسن الأخلاق والكـرامة من الألبانيـين ، والولاء من الأكراد ؛ فهـذا أمر يشبه توقـع توقف

(*) كليبولي مديـنة تطل على مضيق الدردنيل ، وتقـع على شاطئه الغربي في شبه جزيـرة كليبولي ، وهي عبارة عن شبه جزيرة تقع في الجزء الأوروبي من الأراضي التركية وممر الدردنيل ، وهو الممر الذي يصل بحر مـرمرة بالبحر المـتوسط ، وكانت المـدينة في الماضـي ميناء مهمـاً ، وهي الآن أحد مراكز الـصيد الصغيرة ، وبهـا حامية عسكرية ، وكانت أيـضاً مسرحاً للحملة الـعسكرية الشهيرة باسـمها في الحرب العالمية الأولى . (المترجم) .

صياح الدجاج التي تفقس البيض ، وكذلك من غير الممكن لعبدة روسيا ألا تكون عاهرة ، أو لفارس من جنوب روسيا ألا يكون سكيراً ، ويفكر مصطفى على في السلافيين البلقان أما البوسيناك وخاصة الكروات فشعب محترم . ومن بين الأوروبيين الآخرين . . يذكر فقط المجريين والإفرنج والألمان ، والإفرنج والمجريين - إلى حد ما - يشبه أحدهما الآخر ، ويتميزون بالنظافة في عاداتهم الخاصة بالمأكل والمشرب والملبس ، وملحقات المعيشة المنزلية . وهم كذلك على استعداد للفهم والإدراك السريع ، ويتميزون كذلك برشاقة الحركة . ومع ذلك . . فإنهم يميلون إلى الالتواء والحيلة ، ويحترمون اكتساب الأموال . كذلك فالنشأة الطيبة والكرامة صفات يوليها مصطفى علي اهتماماً ، هي صفات متوسطة. ومع ذلك . . فإنهم كانوا قادرين على الحوار المتصل البناء ، وبينما كان أغلبهم يتميز بجمال وذكاء الشكل . . فإن قليلاً منهم هم الذين يتمتعون بصحة جيدة ، والكثير منهم تثقله ألوان المرض المختلفة . وأجناسهم الطبيعية متنوعة ، يسهل تفسيرها . وكانوا قادرين بشكل كبير على ممارسة التجارة . وعندما يجتمعون للشراب والمسامرة . . فإنهم يستمدون سعادتهم ويأخذونها بحكمة . وكلهم كما يقول مصطفى على أناس يتميزون بالأناقة . والألمان من ناحية أخرى كانوا يتميزون بالعناد ، ومطبوعون على الشر ، ومهرة في الحرف اليدوية وما يشابهها . ويتميزون بثقل اللسان وبطء الحركة . وقليل منهم دخل الإسلام هم يفضلون الإصرار على كفرهم . ومع ذلك . . فهم مقاتلون ممتازون سواء في الفروسية أو المشاة [٣٨] .

وبطبيعة الحال . . كان مصطفى علي يكتب من نقولات (شائعات) . وبعد نصف قرن حاول أفيليا جلبي عقد مقارنة بين أهل المجر أهل النمسا قائمة على الملاحظة المباشرة . ويلاحظ أفيليا أن المجرمين كانوا قد أضعفتهم الغزوات العثمانية في القرن السابق ، وهؤلاء الذين لم يهزمهم الأتراك سقطوا تحت سيطرة النمساوية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد اعتبرهم أسمى بكثير من النمساويين الذين في نظره لا يحبون الحرب ، "إنهم تماماً مثل اليهود ، وليس لديهم جلد في القتال " والمجريون هم أفضل شعب .

"وعلى الرغم من أنهم فقدوا قوتهم ، فإنهم ما يزالون أصحاب الموائد العظيمة

الكرماء مع ضيوفهم ، وهم قادرون على الزراعة في أراضيهم الخصبة . وشأنهم شأن التتار ، يركبون الخيل أينما ذهبوا ، ومعهم من خمس إلى عشر ما يشبه المسدسات ، كذلك بالسيوف والدروع ، وفي واقع الأمر . . فإنهم يبدون مثل جنود الحدود يرتدون نفس زيهم ، ويركبون نفس الخيول الأصيلة ، ويتميزون بالنظافة في أساليبهم وفي مأكلهم وتكريم ضيوفهم . إنهم لا يعذبون أسراهم كما يفعل النمساويون ، ويتدربون على لعبة السيوف مثل العثمانيين . باختصار فعلى الرغم من أن الجانبين كفرة بغير إيمان ، فإن المجريين كفار أكثر احتراماً ونقاءً ونظافة . إنهم لا يغسلون وجوههم كل صباح ببولهم كما يفعل العثمانيون [٣٩] . ولو أن الكفار الحاليين قدموا قليلاً من القيمة ، فإن كفار الماضي قدموا أقل من ذلك ، ولم يشغل المؤرخون العثمانيون أنفسهم عادة بتاريخ أوروبا . ومع ذلك فهناك وميض من الاهتمام ، إذا صدقنا التأريخ العثماني المبكر بالاستيلاء على المدينة العظيمة التاريخية القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، الذي أثار قليلاً من الغموض حول ماضي المدينة .

"بعد أن هزم السلطان محمد قسطنطين نظر إلى آيا صوفيا في دهشة ، وسأل شعب الروم وشعب فرنجستان والرهبة والبطارقة وكذلك هؤلاء الرومانيين والإفرنج الذين عرفوا تاريخهم ، وأراد أن يعرف من الذين بنى مدينة القسطنطينية ، ومن الذي كان يحكم هناك ، ومن الذين كانوا ملوكها . . جمع السلطان الرهبان وأناساً آخرين من الروم والإفرنجة الذين عرفوا التاريخ ، وسألهم "من الذي بنى مدينة القسطنطينية هذه ؟ ومن كان يحكمها ؟ ومن جانبهم أفادوا السلطان محمد علي قدر معرفتهم من كتبهم التاريخية ومن المعرفة التي تلقوها" [٤٠] .

ومن الواضح أننا لا نعرف من يكون هؤلاء الرهبان والمؤرخين والإفرنج واليونانيين الذين استشارهم السلطان ؛ والذي سجل عن تاريخ المدينة قبل العثمانيين تاريخًا خياليًا تماماً ، وليست له أي علاقة بتاريخ هذه المدينة اليوناني والروماني والبيزنطي ، واهتمام السلطان محمد بالتاريخ المبكر للمدينة ، ولم يطرقه الكتاب اليونانيون والإيطاليون بشكل مستقل ، وبعضهم في وقت واحد أو وقت آخر . واهتمامه مع ذلك يبدو أنه غريب وفريد ، وعلى أي حال . . لم يترك أثراً في التاريخ الجغرافي العثماني .

إن أول الأعمال التاريخية التركية عن أوروبا الغربية ، هو ما كتب في القرن السادس عشر المتأخر أنه يتكون من تاريخ فرنسا المؤسس الأسطوري فاراموند إلى سنة ١٥٦٠م ، وتبعاً للبيانات المذكورة في نهاية هذا العمل . . فقد علم أنه ترجم إلى اللغة التركية بأمر الباي فيردون الذي احتفظ بوظيفة السكرتير الرئيس للوزير الأعظم من ١٥٧٠م إلى ١٥٧٣م ، ونفذ هذا العمل رجلان ، كان أحدهما المترجم حسن بن حمزة ، وكان الآخر الناسخ علي بن سينان . واكتملت الترجمة ١٥٧٢م ، وحيث إنها بقيت في مخطوطة واحدة ، وكان هذا في ألمانيا . . فمن الواضح أن هذا العمل لم يثر اهتماماً كبيراً بين القراء الأتراك .

وخلال القرن السابع عشر . . كانت هناك علامات تغيير وقليل من المؤرخين الأتراك والعلماء الآخرون يظهرون اهتماماً بأوروبا وكذلك بعض المعرفة بالمصادر الأوروبية . فهناك شخص يدعى إبراهيم مولهمي (١٦٥٠) يقال إنه كتب تاريخ ملوك الرومان والإفرنج ، ولم تظهر أي نسخة باقية من هذا التاريخ . وقد كتب معاصره المشهور كاتب جلبي الذي كرس اهتمامه بأوروبا في أعماله أيضاً في التاريخ ، وهو يذكر في أحد أعماله ترجمة "التاريخ الإفرنجي للملوك الكفار" ، وعلى الأقل بقيت نسخة واحدة من هذه الترجمة في ملكية خاصة في تركيا وطبعت أجزاء من هذه الترجمة في صورة مسلسلة في جريدة تركية في ١٨٦٢ - ١٨٦٣ ، وفي المقدمة يعدد كاتب جلبي مصادره ، ويسميه التاريخ اللاتيني الخاص . استخدم جوهان كاريون (١٤٩٩ - مارتن لوثر) كثيراً من الدعاية البروتستانتية ، ربما كان من الممكن أن يشير إلى كاتب جلبي رغم التعاون الفرنسي ، ثم وصفه به باعتباره راهباً سابقاً . . فإن له خلفية بروتستانتية وليست كاثوليكية .

بالإضافة إلى هذه الترجمة فإن كاتب جلبي كتب عملاً أصلياً عن أوروبا ، الذي بقي فقط في مخطوطة وأوضح ذلك في بداية هذا الفصل ، وكان غرضه كما يشرح أن يعطي المسلمين معرفة دقيقة يحتاجونها كثيراً عن شعوب أوروبا ، وعلى الرغم من هدفه هذا ، فإن مقالته تساعد في فهم كلمات السيد فيكتور ميناج ، وبتفاهتها الشديدة فإنها

عبارة عن فهرس للجهل الأوروبي الذي انتشر في يومه بين الرجال العثمانيين المختصين بالتعليم [٤١] .

في تلك الأثناء . . كان هناك اهتمام قليل بالتاريخ الغربي ، على الرغم من أن ذلك كان في مستوى منخفض ، ويبدو أن هذا الاهتمام قد تزايد نوعاً في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، عندما نتج نوع جديد من المجتمعات في المدن حول اسطنبول . واستطاع العلماء الأتراك عندئذ مواجهة المسيحيين العثمانيين المتحدثين بالتركية وحتى الأوروبية ، وكان عليهم أن يتعلموا شيئاً عن العلم والمعرفة الغربية ، ومفتاح ذلك الأمير الروماني ديمتريوس كانتمير الذي كان وطنه كل من المجتمع العثماني والمجتمع الأوروبي ، وهو نفسه مؤلف تاريخ الإمبراطورية العثمانية . إن هذه المواجهات مع ذلك كان لها نطاق مجدد ، ويبدو أنه كان لها تأثير طفيف على التصور العثماني العام للعالم الخارجي . وأحد الاستثناءات هو مؤرخ معروف قليلاً من القرن السابع عشر المتأخر ، يدعى حسين حيزارفن (١٦٩١) الذي ما زالت معظم أعماله غير منشورة ، وشأنه شأن كاتب جلبي الذي يذكره بإعجاب ، كان رجلاً يحيطه غموض كبير ويهتم بالجغرافيا والتاريخ المتعلقين بالأراضي البعيدة ، بالإضافة إلى التاريخ القديم لبلاده ، ومن المعروف أنه تعلم مع مثل هذه الشخصيات مثل الكونت فرديناند مارسيجلي وأنطوان جالاند ، وربما يكون قد عرف كانتمير والمستشرق الفرنسي العظيم Petis de La Croix وربما في جزء من مكاتب ومعارف هؤلاء الأوروبيين الآخرين ، كان حسين حيزارفن قادراً على التوصل إلى أسرار الكتب الأوروبية والاستفادة منها والاستعانة ببعضها في أعماله الخاصة وأحد هذه الأعمال : "تاريخ التاريخ" ، وقد اكتمل الكتاب عام ١٦٧٣ ، وهو عمل تاريخي مقسم إلى تسعة أجزاء ، السادس والسابع والثامن والتاسع منها يتعلق بالتاريخ الخارج على الفترة الإسلامية وإسلاميها المعروفين ، وهذه نسبة مميزة بدرجة عالية . ويتعلق الجزء السادس بالتاريخ اليوناني والروماني ، والجزء السابع يتعلق بتاريخ مدينة قسطنطين منذ تأسيسها ، ويتعلق الجزء الثامن بأسياد الصين والفلبين وبشرقي الهند وسيلان ، ويتعلق الجزء التاسع باكتشاف أمريكا ، وندهش لأن حسين حيزارفن لم

يضمن أوروبا في عرضه ، ولكن أوصافه لكل من آسيا وأمريكا تقوم تقريباً بشكل تام على المصادر الأوروبية ومعظمها جاء عن طريق مرآة العالم (Jihannüma) الذي دونه كاتب جلبي .

إن أفكاره عن التاريخ اليوناني والروماني والبيزنطي مستمدة أيضاً من المصادر الأوروبية التي ساعدت على مناقشة جانب من المعرفة الإسلامية الكلاسيكية القديمة [٤٣] .

ونعود إلى التاريخ العام في أسلوبه العظيم بذلك العمل الخاص بأحمد بيه لطف الله ، المعروف باسم Münej Jmbasi الفلكي الأكبر (١٧٠٢) ، ونذكر أن عمله الأكبر هو تاريخ عام البشرية من آدم إلى عام ١٩٧٢م ، وهو كما يخبرنا يعتمد على سبعين مصدراً . وقد اختار Münej Jmbasi أن يكتب عمله باللغة العربية ، وفيما عدا قليل من الاستثناءات . . فإن النص الأصلي لم يطبع بعد كاملاً ، ومع ذلك فإن الترجمة التركية المعدة خلال أوائل القرن الثامن عشر على يد الشاعر التركي العظيم نديم Nedim طبعت في اسطنبول في كتب ثلاثة ١٨٦٨ . وأعظم جزء في الكتاب كما قد نتوقع هو ماكرسه للتاريخ الإسلامي ، ويتعلق الجانب الأساسي من الكتاب الأول مع ذلك بتاريخ ما قبل الإسلام والبلدان غير الإسلامية .

الأول يتضمن كالعادة الفرس والعرب القدامى من ناحية ، والإسرائيليات والمصريات القديمة من ناحية أخرى ، يناقشهم في سطور تقليدية تكثر وتقل .

ويذهب تاريخ Münej Imbasi القديم إلى ما وراء النطاق الإسلامي العام ، ومن الواضح أن أفكاره عن الرومان واليهود مصادرها رومانية ويهودية . وكانت هذه المصادر في جانب منها متاحة بالفعل في التطبيق العربي لابن خلدون ، مع ذلك فإن معرفته أكثر قدراً من معرفة المؤرخ العظيم في شمال أفريقيا ، وتتضمن وحدات مثل الآشوريين والبابليين والسلوقيين ، والبطالمة المعروفين من قبل بشكل واضح للمؤرخ الجغرافي الإسلامي . ومن الواضح أنه لابد وأنه استخدم مصدراً أوروبياً لهذه الأفكار ، ويصبح

ذلك مؤكداً في فصل Münej Imbasi عن أوروبا ذلك الفصل الذي يتضمن أقساماً عن تقسيمات الشعوب الإفرنجية ، وكذلك عن ملـك فرنسا وألمانيا وإسبانيا وانجلترا . ويبدو أن مصدره كان الترجمة التركية لتاريخ جوهان كاريون Johan Carion رغم أنه منذ أن استمر Münej imbasi في روايته عن فترات لويس الثالث عشر الملك الفرنسي والإمبراطور ليوبولد Leopold في ألمانيا وشارل الأول في انجلترا ، لابد من أنه كانت له مادة ملحقة تحت تصرفه . وهو يحكي عن الحرب الأهلية الإنجليزية وإعدام الملك شارل ، وهو ينتهي إلى القول التالي : "وبعده لم يعين الشعب الإنجليزي ملكاً آخر عليه ، وليست لدينا معرفة أكثر من ذلك عن شئون هذا الشعب" (٤٤) .

والكُتّاب : كاتب جلبي وحسين حيزارفن و Münejj Imbasi يمدون التاريخ الجغرافي العثماني بأسره في غرب أوروبا ، إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر ومعرفتهم ضئيلة وتأتي أساساً من نفس مجموعة مصادر المعرفة .

حتى هذه الدرجة المحددة من الاهتمام ناقصة عند الكتاب العثمانيين الآخرين ، وبالنسبة لمعظم المسلمين العثمانيين . . فإن الإنجازات الأوروبية الجديدة بالانتباه إليها كانت في فنون الحرب ، ويمكن دراسة تلك الفنون من خلال البنادق والسفن ، التي تم الاستيلاء عليها بمساعدة الأسرى ومعتنقي الإسلام حديثاً ، إن للغات والآداب والفنون والفلسفات الأوروبية كان يمكن أن يكون بها اهتمام أو لها ضرورة لم تغز عقولهم ، ومثل هذه الحركات الأوروبية المتعلقة بالأفكار من فعل حركات المسلمين الفكرية في أوروبا في ذلك الوقت .

هذه الكتابات كرست لأوروبا ، وعندئذ . . فإن شعوبها وشئونها ذات أهمية ضئيلة ، وإنها تبقى في نسخ قليلة ، وأحياناً في نسخة واحدة فقط ، والجزء الأكبر منها غير مطبوع . إن اتصالهم بالفكر العثماني ، لابد أنه كان اتصالاً طفيفاً ، ويمكن جمع فكرة أفضل للتصور العثماني لأوروبا من مجموعة المؤرخين العظام ، وكان بعضهم يحتل مرتبة Vakanüvis أو المؤرخ الجغرافي الإمبراطوري ، والبعض الآخر غير موظف ، وهؤلاء المؤرخون معاً أنتجوا مجموعة كتابات تاريخية تغطي تاريخ

الإمبراطورية من منشأها إلى نهايتها ومعظمها كتابات طبعت في تاريخ قديم نوعاً ، وباختصار . فإنها تضمنت التأثير الأكثر أهمية على إدراك العثمانيين لأنفسهم ومكانتهم في العالم والتفاصيل الأخرى .

وبينما كان المؤرخون العثمانيون ، مثل هؤلاء المعروفين للتاريخ على أنهم من مجتمع فاضل . بينما كانوا يهتمون أساساً بشئونهم الخاصة . . فإن هؤلاء أيضاً قد وضعوا بعض الأمور المتعلقة بأوروبا في الحرب والتجارة والسياسة ، وأمور أخرى تشبه ذلك إن مثل هذه الاحتكاكات نجد تعبيراً مناسباً لها في الأدب العثماني التاريخي ، الذي تعكس صفته تغيرات القرون التالية .

وخلال فترة التقدم العثماني العظيم داخل أوروبا في القرن الخامس عشر كان التاريخ الجغرافي العثماني ما يزال قليلاً نوعاً ما ، ويتكون أساساً من الروايات البسيطة المكتوبة باللغة التركية البسيطة ، وتعكس النظرة العامة والتطلعات والمقاتلين المسلمين على الحدود . إنهم يرون الأوروبيين بادئ ذي بدء أعداء ثم بعد ذلك رعايا يدفعون الجزية ، ويظهرون معرفة قليلة واهتماماً بسيطاً حول ما يحدث على الجانب الآخر من خطوط القتال . ومع ذلك فهم يعرفون أنهم يواجهون الآخرين بجانب خصومهم المسيحيين ، وكلمة إفرنج Frank لا تأتي بصفة متكررة في قوائم الأعداء الذين تمت مواجهتهم والتغلب عليهم .

وفي الكتابات العثمانية الأولى . . تظهر هذه الكلمة لتدل على الإيطاليين ؛ خاصة أهل البندقية الذين التحم معهم الأتراك أثناء امتدادهم إلى اليونان وجزر البحر المتوسط الشرقية . وبطبيعة الحال . . كان الأفرنجة دائماً يهزمون ويمدون المنتصرين بغنائم عظيمة .

وفي وصف نصر تم سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧م أعد المؤرخ العثماني القديم Ourc قائمة بالمقادير الضخمة التي سلبت من الإفرنجة المهزومين من العملات الذهبية والفضية وفرو القاقم ، وأنواع أخرى ومن الحرير والساتان والمنسوجات المرصعة بالذهب والفضة "لقد

وجدوا هذه الأشياء واستولوا عليها بكميات لا حدود لها ، حتى أن أحداً لم يعبأ أو يهتم بالعربات أو الخيول أو الجمال أو الأسرى . وكذلك تم أسر عدد هائل من الأسرى يفوق الحصر" والأوقات التي عثر فيها على مثل هذه الغنائم الرائعة هي فقط كما يقول Ourc في الجهاد في فارنا (١٤٤٤) وفي كوسوفا (١٣٨٩) وفي غزو مدينة القسطنطينية (١٤٥٣) "أو هكذا كما يقال" ويستمر في عرض ملاحظاته فيقول إن أغنى شعبين في العالم هما الشعب البولندي والإفرنجة "أغنى من أي شعوب أخرى في البضائع العالمية لذلك فهم يقدمون غنائم هائلة إلى المقاتلين المؤمنين" (٤٥) .

وهناك نظرة سوفسطائية عن أوروربا أبعد من أن تقع في تاريخ أو وثيقة ، ولكن في الشعر الملحمي أو في القصيدة الملحمية التي كتبت في بداية القرن السادس عشر ، وتسجل هزيمة الحملة البحرية الأوروبية ضد الأتراك والمقدمة في حد ذاتها صغيرة . إن القوات التركية استولت على مودون وعلى مواضع أخرى على الساحل اليوناني . ونجح أهل البندقية في جلب الدعم من أجزاء عديدة في أوروبا ، وفي أثناء الحرب شنت حملة بحرية فرنسية مع بعض الحلفاء هجوماً على الأتراك المقيمين في جزيرة ليسبوس Lesbos في نهاية شهر أكتوبر ١٥٠١ ، وصُدت الحملة وأعطت المناسبة فرصة ظهور قصيدة روائية تمجد الانتصار التركي ، والشاعر الذي حصل على لقب فردوس التركي (بعد شاعر الملاحم الفارس العظيم الفردوسي) يشرح أن غزو الأتراك لمودون قد تسبب في قلق شديد بين الإفرنجة ؛ خاصة عند زعيمهم رن باب Rin- Pap المعروف بأنه البابا في روما ، وعندما غزا السلطان بايزيد مودون يقول الشاعر أن الإفرنجة كانوا خائفين ومفزوعين جداً من سيفه ، حتى أن الجزر الأيونية غرقت في البحر مثل التمساح ، وعندما سمع Rin- Pap غير المؤمن عن هذا بدأ يعمل على تكوين حلف أو تحالف لاسترداد مودون ، وبعث رسائل إلى كل حاكم افرنجي كافر . عندئذ قدمت مجموعة غريبة من القادة الإفرنج الذين يعاودون الظهور ، من وقت لآخر في الرواية التالية . وهذه المجموعة تتضمن ملوك فرنسا والمجر وبوهيميا وبولندا وكان ملك بولندا يسمى تسميتين تشيكي Czech ، وليش Lech ، وشخصيات أوروبية أخرى مثل كيزخان

وجيرل خـان ، وهـي إيزابـيل التي أرسـلت "بان" Ban خاص بها (وهذا مـصطلح مجري ، يدل على الرئيس ، كان يطلقه الكتـاب العثمانيون غالباً على الضابط ، الذي يحكم فرقة عسكريـة إسبانية في الأسطول ، ودوزا Doza رئيس القضاء في البندقية ، وحكام الأندلس وقـطالونيا Catalonia وفرسـان رودس ، وحتى أميـر موسكو إيـفان الثالث [٤٦] . وفي أسلوب ملـحمي حقيقي سمـح لقادة الأعداء أيضاً أن يقولـوا خطباً ويكتبـوا خطابات ، وهذا ألقي ضـوء مباغتاً إلى حـد ما على ما يدرك الشـاعر أنه من المعتقدات الإفرنجية ومبادئ الإفرنجة . ويتحدث هؤلاء بطبيعة الحال وينظرون إلى أنفسهم على أنهم كفار ، وهذه جملة مميزة تنسب إلى أمير سلاقي .

"أنا عبد للمـسيح ، أنا عبد لتمثال البنـدقـية ، وأنا وثنـي وأكثـر كفراً من ملك المجر" [٤٧] وأثناء الـقرن السادس عشـر كانت الإمبراطـورية العثـمانية في أوج قـوتها ومؤرخوها يعكسون ثقة المسلمين في سموهم ، الذي لا يقبل التحدي ، ونجاحهم الذي لا ينقطع ، وفـقط الوزير الأعظم لطفي بـاشا الذي انقطع عن الدراسة وأمـعن النظر ، وتدبر فـي ويلات الإمبراطورية بـعد خلعه ، وحذر الحـاكم من خطر مزدوج هـو فساد الوطـن وقيـام البحـريـة الإفـرنجية ، ومـعظـم المؤرخين الآخـرين لم تـزعجهـم هذه الاهتمامـات . فلو ذكر الإفرنجة علـى الإطلاق فهذا يتم بـاحتقار بمثل عبـارات البرابرة الأعداء ، أو مثل دافعـي الجزية . وفي القرنين المتـأخرين السادس عشر والسـابع عشر توجد علامات عـلى ظهور التجار الإفرنج ، وحـركة السفن ، وأحياناً تـوجد علامات على وصول سياسيين إفرنجة إلى اسطنبول .

ويسجل المؤرخ العثماني سيلانيكي مـصطفى أفندي ، وصول السـفير الإنجليزي إلى اسطنبول في ١٥٩٣ ، ويدعى ادوارد بارتون في هذه الكلمات :

"حاكـم دولة جزيـرة انجلتـرا التي تبـعد ٣٧٠٠ ميـل بحراً عـن القرن الذهـبي لإسطنبول ، وهناك امرأة تحكم منطقة موروثة وتبقى على دولتها وحكمها في أتم قوة ، وتدين بالديانة اللوثرية (نسبة إلى مارتـن لوثر) . وتبعث برسائل تكريم ، وتبعث رسلاً وهدايا ومنحاً . وفي يوم كان هناك اجتمـاع المجلس ، وقد حضر السـفير ، وتم تكريمه

وفقاً للقانـون . وسفينة غربية مثل هـذه لم تدخل ميناء اسطنبـول . لقد عبرت ٣٧٠٠ ميلاً بحـرياً ونقلت ٨٣ بنـدقية ، بالإضافة إلى أسـلحة أخرى - وبصورة عـامة كانت الأسلحة النارية على شكل خنزير وجدير بأن تسجل لأمرها العجيب" (٤٨) .

وسفينة سيلانكي Selaniki الإنجليزية ببنادقها الثلاثة والثمانين الـتي تأخذ شكل الخنـازير ، تبدو خـالية بـعض الشيء ، ولـكن علـى الأقل قد عـرف أن هناك ملـكة بروتستانتية في انجلـترا ، وكذلك هو أو معرفته قد لاحظت التسليح الشـقيل للسفن التي شيدت لتبحر في الأطلنطي .

وأثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . . يكرس المؤرخون العثمانيون اهتماماً ما بالعلاقات مع أوروبا رغم أن ذلك لم يكـن على درجة كبيرة . وما زال يشار إلى الأمم الأوربية المختـلفة بإشارات مثل "الـكفار الإنجليز" ، "الـكفار الفرنسيـين" الخ ، على الرغم من أن اللعنات المعتادة فـي التاريـخ الجغرافي المبكر أصبحـت أقل تكراراً أو أقل حدة .

وبصفة عامة مع ذلك عندما بدأ المؤرخون العثمانيون في الاهتمام أكثر بالشئون على حدودهم الأوروبية ، كـان لديهم القليل الـذي يقولونه عما يجـري في أوروبا . وكان هناك اتساق مـميز في ذلك ، يرجع من ناحيـة إلى أن المؤرخين العثمانيـين اعتبروا رواية الأحداث السابقة والماضية نوعاً من التسجيلات الوثائقية الثابتة ، أكثر منها جملاً تخص أفراداً ؛ ولذلك . . فقد شعروا بالحرية في النسخ في نهاية الأمر .

وحتى عالم القرن السابع عشر جلبي . . الذي يظهر في كتاباته الجغرافية والتاريخية الأخرى بعض الاهتـمامات بأوروبا تحول قليلاً جـداً من عادة التاريخ العثـماني العام . وفكرته تلك الخاصة بالوصول إلى تركيا من أخبار حرب الثلاثين عاماً ، فكرة مختصرة ومميزة ، وتبدو تـقريباً حرفية (أو بالحـرف) عند عدد من الكتاب الآخـرين . ولقد كان هناك اهتمام بتاريخ الأحداث بالنسبة لـلمسلمين سنة ١٠٥٤ . وفي شهر شوال من هذا العام ، الموافـق لشهر ديسمبـر ١٦٤٤ ، كما يخبرنـا جاءت تقارير إلى اسطـنبول "من المعروفين على حدود قلعة بودا تحمل القصة التالية : "كان الإمبراطور الروماني فرديناند

يود أن يخفض الناخبين السبعة ، المعروفين في تركيا بالملوك السبعة ، حتى يتفقوا مع تسمية ابنه باعتباره خليفة للقب الإمبراطوري أثناء حياته . وأحد هؤلاء السبعة مناضل الفرنسيين ، خطفه الإمبراطور باتفاق مع ملك إسبانيا وقتله ، فغضب الملك الفرنسي جداً ، وعقد اتفاقية مع السويد التي غزت الأراضي الألمانية واستولت على مدينة براج القديمة واستمرت الحرب حتى عام ١٠٥٧ (١٦٤٧) حتى عقد السلام . بعد ذلك اضطر النمساويون الذين كانوا قد ضعفوا جداً إلى التنازل عن الاسك Alasce لفرنسا وبوميرانيا سويد[٤٩] .

هذه الفكرة أخطأت تاريخ كل من دخول السويد إلى مدينة براج (حيث فشلوا صدفة في الاستيلاء على المدينة القديمة) وكذلك أخطأت تاريخ معاهدة ويستفاليا وهي تظهر جهلاً ملحوظاً بالأمور الأولى في الحرب ؛ حيث لم تتناول مركباتها الدينية والسياسية . وفي فقرة أخرى تحت عنوان "حرب الفرنسيين والسويد ضد الكفار النمساويين" يعطي كاتب جلبي فكرة تفصيلية أكثر قليلاً ، يقول بإنها حدثت بين أحداث ١٠٤٠ (١٦٣٠/١٦٣١) . وأن الملك الفرنسي لويس الثالث عشر يريد أن يصبح إمبراطوراً ، والإمبراطور يعين بسبعة ملوك يدعون الناخبين ، كل واحد منهم له أرضه الخاصة به ، ويقال إن الملك لويس نجح في الانتصار على اثنين منهم .

وكان الامبراطور آنذاك هو أبو الإمبراطور الحالي فرديناند (فرديناند الثالث الذي مات ١٦٥٧) ورتب لأن يلقب ابنه باعتباره الخليفة له مدى الحياة . ولم ينل ذلك اللقب استحسان الناخبين حيث قالوا بأن ذلك لا يبدو مناسباً ، وأنه ضد القانون ، وشن الملك الفرنسي حرباً اعتراضاً على ذلك ، وتحالف مع الملك السويدي قائلاً بأن مثل هذا اللقب مدى حياة الإمبراطور أمر ضد قوانين الكفار .

وفيليب الرابع (١٦٦٥) "الذي كان ما يزال ملكاً على إسبانيا . . كان خال ملك فرنسا وكان هناك سلام بينهما ، ولكن ملوك إسبانيا مثل Nemce كانوا من دوستوريا ، ولذلك فقد انضم إلى جانب الإمبراطور "وبعد ذلك تأتي فكرة مختصرة عن حرب الثلاثين عاماً حتى السلام النهائي في ويستفاليا"[٥٠] .

ويقدم كاتب جلبي تقارير عديدة أخرى عن الشئون الفرنسية . وخلال عام ١٠١٨

يلاحظ أن بعثة جاءت من عند الملك الفرنسي هنري للاستفسار عن تجديد الامتيازات [٥١] . وقد أشار السفير الفرنسي فرنسكو سافاري إلى الصداقة التي وجدت بين الحكام الفرنسيين والعثمانيين الأوائل إلى الامتيازات التي كانت تمنح في زمن السلطان محمد الفاتح (المنتصر) . ويقول كاتب جلبي أن آخرين بجانب الفرنسيين تسلموا هذه الامتيازات ؛ فعدّد أهل البندقية الإنجليز أهل جنوة والبرتغاليين وتجار كاتلا وصقلية وانكونا وإسبانيا وفلورنسا وقد دخل عديد من هؤلاء تحت العلم الفرنسي وباسم الملك الفرنسي . ونوقشت مسائل أخرى على يد السفير ، كما يقول تضمنت إمكان الحج إلى القدس ، ونشاطات البرابرة ، والتعاون العسكري القديم .

ودعا وصول بعثة البندقية في يناير ١٦٥٣ لاستغلال السلام بمساعدة السفير الإنجليزي المؤرخ العثماني إلى تعليق شخص نادر . إنه يقول إن سفير البندقية (أو الفينيسي نسبة إلى فينيسيا) "كان كافراً عمره تسعين عاماً برأس وأيدي ترتعش ، ولكنه كان سفيراً ماكراً" [٥٢] . ولا يبدو أن البندقيين كانوا يستخدمون نفس السياسة ، وربما كان ذلك أمراً خاصاً به لسنه المتقدمة .

هناك استثناء عن المؤرخين العثمانيين في القرن السابع عشر ، وهو إبراهيم رسفى ، غطى تاريخه الأعوام بين ١٥٢٠ - ١٦٣٩ . وقد ولد في ١٥٧٤ في مدينة Pecs المجرية حيث لقب بلقب المدينة . وبالنسبة لأبيه . . فقد جاء من أسرة تركية كانت تخدم السلاطين لأجيال ، تنتمي أمه إلى سوكلا وهكذا كانت تتمتع بأصل إسلامي . وفيما عدا بعض المهمات التي قام بها في الأناضول ، فإنه يبدو كما لو كان قد قضى معظم حياته في المجر ، ومولده وتربيته في الولايات على الحدود الأوروبية أعطياه قدراً من المعرفة ، وكذلك من الاهتمام الذي كان نادراً بين المؤرخين العثمانيين . ولم يكن برسفي Percevi معيناً بالتاريخ العام أو الجغرافيا العامة وكان ما يزال معنيًا قليلاً بكتابة أو ترجمة تواريخ الملوك الكفار . وكانت أولى اهتماماته مثل معظم العثمانيين ، ومعظم المؤرخين الغربيين هي اهتماماته بتاريخ الإمبراطورية ، التي كان هو أحد رعاياها ؛ خاصة بحروب هذه الإمبراطورية ضد خصومها في أوروبا .

وبالنسبة للفترة المبكرة . . لذلك يبدو أنه قد اتبع التقاليد العامة لأسلافه من المؤرخين ، وبالنسبة للفترة المتأخرة . . فقد اعتمد بطريقة أساسية على الدليل أو البرهان ، الذي لم يتناوله أحد ، وهو عبارة عن تجاربه وخبراته الخاصة وتقارير الجنود القدامى ، ولكن إلى جانب هذه المصادر العادية المعروفة . كانت لدى رسفي فكرة متجددة هي استشارة مؤرخي الأعداء . وفوق ذلك كان مهتماً بالتاريخ العسكري ومركزاً بصدق على التفاصيل الخاصة بالمعارك الكبيرة التي قامت في سهول المجر . ولكن العثمانيين تنقصهم التفاصيل أحياناً ، وكذلك كان رسفي على جانب آخر من ذلك فيقول : "في بلادنا يوجد مجريون بعدد كبير قادر على القراءة والكتابة (هو يستخدم الكلمة المجرية Deak ، وتعني أن الفرد يمكنه أن يقرأ اللاتينية) [٥٣] ، وكان هناك بلاشك عدد من المجريين في الإمبراطورية ، سواء أكانوا أسرى أم معتنقين للإسلام يكفون غرض رسفي ، ويبدو أنه اتصل بالمؤرخين المجريين الذين كتبوا باللاتينية ، وقرأ لهم وترجم لهم إلى التركية . وضمن منها عدداً من الفقرات في تاريخه الخاص ، وبينها أفكار عن معركة Mohacs العظيمة ووقائع أخرى في الحروب المجرية . وعلى الرغم من أنه لم يعدد مصادره ، فإن اثنين من هذه المصادر تحقق منهما العلماء المحدثون [٥٤] . ويبدو أن رسفي كان أول مؤرخ عثماني ، يقارن أفكار الأعداء عن المعركة بأفكار جانبيه ليؤلف بينهما في رواية واحدة . وفي مثل هذا الأمر سبقه القليل في أماكن ما ، وبالتأكيد أصبح له قليل من الخلفاء لفترة طويلة .

وتاريخ رسفي يتضمن إشارات أخرى عديدة للأحداث في أوروبا ؛ خاصة تلك الأحداث ذات الاهتمام العثماني الإسلامي ، وهو يتحدث باختصار عن الارتباط الفرنسي والتركي في العمليات البحرية في البحر المتوسط ضد البندقية وحلفائها . ومن وقت لآخر يتحول عن الشئون السياسية والعسكرية ، التي تمثل جل اهتمام المؤرخين ؛ فتارة يصف مقدم التبغ إلى تركيا من التجار الإنجليز ، وتارة يعطي موجزاً عن اختراع كل من الطباعة والبارود في أوروبا [٥٥] .

وربما أكثر مميزة في تواريخ الإمبراطورية العثمانية هي مجموعة "تاريخ نايما" . وهي تغطي الفترة من سنة ١٠٠٠ إلى سنة ١٠٧٠ من التاريخ الإسلامي الموافق من سنة

١٥٩٠ إلى سنة ١٦٦٠ ، ونايما الذي طبع تاريخه بالإضافة إلى أنه أجاد كتابته كان واحداً من أعظم المورخين العثمانيين ، وعلى عكس عدد كبير من زملائه الذين كانوا يؤرخون بوصفهم مجرد مؤرخين للأحداث . . كان نايما يتمتع بتصور فلسفي لطبيعة التاريخ ، وكان فكره عميقاً في التاريخ .

وأحد مقالاته الكبرى في التاريخ كانت الحرب في أوروبا ، في كل من شبه جزيرة البلقان ومنطقة البحر الأسود . وأفكاره حول هذه الصراعات مفصلة تماماً ، وكذلك بالنسبة إلى القراء الأوروبيين المحليين في المجر وترانسلفانيا ، الذين دخلوا ضمن هذه الحروب ، وظل امبراطورها أيسبرج غامضاً وغير واضح المعالم ، وكانت صوره عادة بغير اسم ، بينما يظهر ملوك وممالك الغرب بأسمائهم . وبين أحداث حرب الأعوام الثلاثين في ألمانيا . . يوجد حدث مركزي في الفترة التي يغطيها أكبر ، لابد أنه كان يمثل أهمية مباشرة للعثمانيين ، ولا يقدم نايما أكثر من نقل للتواريخ السابقة عليه ، وينسخ بطريقة مهملة جداً لدرجة أنه يشير إلى الملك الإسباني فيليب الرابع على أنه "ما زال ملكاً على إسبانيا في ذلك الوقت" بعد مرور مائة عام على رحيله . ومن العجيب أنه أيضاً أقل اهتماماً بالأحداث والوقائع البعيدة مثل أفعال ونشاطات لويس الرابع عشر في فرنسا ومثل الحرب الأهلية ، ونظام الثروة المشتركة في انجلترا .

ومع ذلك . . ففي جانب واحد يضع نايما دليلاً على تخليه الطريف عن الأمور العادية في التاريخ الجغرافي العثماني ، وذلك في اهتمامه بتاريخ الماضي البعيد والأحداث الجارية ، ولم يكن ذلك تماماً دون سابقة في التاريخ الجغرافي العثماني . ويصف مؤرخ القرن السادس عشر كمال بايزيد كيف أن السلطان سليمان العظيم خرج في سنة ١٥٢١ يشن حرباً ضد الإمبراطور ، ويقدم نوعاً من الثأر لغزو آسيا على يد الصليبيين الألمان في العصور الوسطى ، ونايما الذي يكتب في القرن الثامن عشر المبكر ، وعندما اهتزت الإمبراطورية العثمانية بهزائمها في أراضي النمسا وروسيا ، حاول أن يجد راحة في قصة النجاحات الأولى والهزيمة الأخيرة للصليبيين قبل ذلك بقرون .

"بعد ستة قرون من العصر الإسلامي (تاريخ نايما خطأ بشكل طفيف) لأنه ليس هناك أي اتفاق أو اتفاقية بين ملوك الإسلام .. ظهر نزاع وخلاف ، وبينما كانوا مشغولين بمحاربة كل الآخر .. فإن الكفار الفرنسيين والملوك الآخرين الكفار اللامحدودة من الجنود المرسلين من النمسا (محاولة جاء هو بشكل غامض لربط الصليبيين بالحروب النمساوية الجارية) جاءوا بأسطول عظيم إلى شواطئ البحر المتوسط واحتلوها .

ويستمر نايما في وصف كيف كان الإفرنج المنتصرون ، قادرين في البداية على إقامة أنفسهم عبر السواحل السورية والفلسطينية ، وكذلك ليهددوا دمشق ومصر ، وقد انتهى هذا الخطر على يد صلاح الدين الذي حاصرهم ، حتى طردوا في نهاية الأمر على يد خلفائه وطهرت الأراضي التي احتلونها من دنسهم " .

ويبدو أن نايما قد وجد دليلاً في ذلك للعثمانيين في عصره . وجد سلاطين العصور الوسطى في مصر وأنه من الضروري أن يعقدوا مصالحات (أو تسويات) ، وكان أحدهم يبغي توقيع معاهدة تخلي عن القدس الإفرنج . ويبدو أن هذا المغزى هو أن العثمانيين أيضاً لما كانوا يقاسون من مجموعة هزائم .. كان لابد أن يعدوا أنفسهم لنشر الإسلام ، حتى إذا جاء ذلك في عبارات ليس من مصلحتهم ؛ لكي ينقذوا ما يمكن إنقاذه من حطام ، ويجهزوا أنفسهم لعودة نهائية (٥٦) .

وفي موضع آخر ازداد نايما وضوحاً : "لقد كتب هذا لغرض بيان ، كيف يكون من المهم عقد هدنات مع الملوك الكفار ، وفي واقع الأمر عقد سلام مع المسيحيين في كل الأرض حتى يمكن أن توضع الأراضي العثمانية في نظام ويأخذ السكان هدنة ومهلة " (٥٧) .

وخليفة نايما كمؤرخ جغرافي للسلطة ، راشد أفندي يبدأ حيث ينتهي نايما في سنة ١٠٧٠ الموافقة لسنة ١٦٦٠ ويستمر إلى ١٧٢٠ . وهكذا فإن تأريخه يغطي مجموعة من الأحداث العظيمة في العلاقات العثمانية بأوروبا . والحصار الناجح الثاني لفيينا

والانسحاب الذي تبع ذلك ومعاهدة كارلوتز سنة ١٦٩٩ والحرب مع بيتر الأعظم في روسيا سنة ١٧١٠ - سنة ١٧١١ ، ومع البندقية والنمسا في سنة ١٧١٤ - سنة ١٧١٨ والعلاقات الغامضة المركبة مع الملك شارل الثاني عشر ملك السيد بما في ذلك إقامته في تركيا ضيفاً ثقيلاً على السلطان . ولا عجب في أن راشد يولي اهتماماً أكبر من أسلافه بالعلاقات السياسية (الدبلوماسية) بما في ذلك مفاوضات السلام مع الخصوم الحاليين للعثمانيين وروسيا والنمسا والبندقية ، وكان عنده قليل يقوله عن بعض البلاد البعيدة عن أوروبا . وكذلك فإن راشد هو أول من قدم تقريراً عن رحيلهم وعدتهم . ويقدم راشد ممارسة جديدة في كتاباته التاريخية من التقارير التي يبعثونها ، والذين يشغلون مناصب السفراء يقدمونها بعد عودتهم إلى اسطنبول ، رغم تزايد الاهتمام بالعلاقات الدبلوماسية مع أوروبا فقد ظل لا يأبه تماماً بالشئون الداخلية للبلاد الأوروبية ، وشأن أسلافه . . يمر مر الكرام على الأحداث الكبرى في التاريخ الأوروبي في تلك الفترة .

ويمكن أن يقال نفس الكلام عن معظم معاصريه الذين غطوا العقود الوسطى من القرن الثامن عشر ، رغم أن المرء يلاحظ تزايداً طفيفاً في المساحة التي خصصت للعلاقات الدبلوماسية مع أوروبا ودرج التفاصيل عن الحكام الأوروبيين . وكذلك هناك بداية للاهتمام بشئون أوروبا . يقدم المؤرخ العثماني السلحدار نقلاً تركياً لمعاهدة ريسوك سنة ١٦٩٧ [٥٨] . ويبغي المؤرخون العثمانيون أو كثير منهم أن يكرس صفحة أو اثنتين للخلافة النمساوية ولتعديد المناطق الداخلة ضمن هذا واهتماماتها .

فيما عدا الأفكار المختصرة جداً عن حرب الثلاثين سنة ، فإن هذا هو النضال الأوروبي لأول الذي يلقى هذا الاهتمام من المؤرخين والجغرافيين العثمانيين ، وهناك مؤرخ آخر من هذا الوقت سمدانيزاد سليمان أفندي Semdaniade Suliyman Efendi يفسر النظام الانتخابي للإمبراطورية الرومانية المقدسة بهذه الكلمات العثمانية : "منطقة Nemce تتكون من ممالك تسع ، ثلاث منها هي Sanjaks of Maizn و Trier في إيليت Eyalet في الراين Raine ، وهؤلاء هم أول ثلاثة من الناخبين ويحملون خاتم الكهانة "والمملكة الرابعة ثم المتابعة czechEyalets of وبافاريا Bavaria ، وساكسون

Saxony وبروسيا San jak Eyalet, Prussia وهانوفر Hanover . وبالإضافة إلى هذه الولايات التسع Sanjak سانجال ، سافوي Savoy ، عندئذ في ظل حكم ملك ساردينيا ، ولديه ملاحظات قليلة عن هاتين الولايتين الأولى سانجال وهي مقاطعة مستقلة ، والثانية إيليت سوابيا Swabia Eyalet of وهي جمهورية مستقلة أيضاً .

وهو يشير إلى أن حاكم إيليت بروسيا Eyalet of Prussia شخص عظيم يطلق عليه اسم العظمة Grandebur وهو أيضاً اسم لقلعة في هذه الولاية ، أما لقب هذا الحاكم فهو فريدوريكو Fredoricus . وعن هانوفر Hanover يشير سيمدانيزيد (٥٩) أيضاً ملاحات مختصرة عن الأحداث الأخرى في أوروبا ، ولما كان مهتماً أساساً بالنمسا وروسيا . . فقد ذكر تلميحاً مناسباً عن الدول الأبعد والأكثر غموضاً مثل فرنسا وانجلترا وهولندا والسويد ، ورغم أنه كان يعرف الخلافات والنزاعات بينهما . . فقد اتجه إلى افتراض عداء عام للدولة الإسلامية ، وهكذا في الأزمة مع روسيا ١٧٣٦ عندما خاف السفراء الإنجليز والهولنديون الانحدار والانهيار العثماني ؛ فقد كان من الواضح أنهم يحرضون على المؤامرات والتدابير الروسية (٦٠) .

ويمكن أن نلاحظ تغييراً آخر في تاريخ Vasif الذي يغطي الفترة من ١١٦٦/ إلى ١١٨٨ / ١٧٧٤ ، يتعلق بفترة الخطر الذي كان يحدق بالإمبراطورية العثمانية مركزاً على المعاهدة الكارثة "كوكوك كاينارجا" Kiucuk kaynarja التي فرضتها على الأتراك روسيا المنتصرة . وواصف نفسه عاش في الفترة النابليونية الثرية وفترة الحروب النابليونية (نسبة إلى نابليون) وكان شاهداً على أحداث عظيمة مثل غزو فرنسا واحتلالها مصر ، ذلك الغزو الذي كتب عنه كتاباً مستقلاً . في هذا التأريخ يكتب واصف تقريراً عن البعثات العثمانية إلى فيينا وبرلين ، ويقتبس كثيراً من أفكارهم عن سياسات أوروبا الوسطى .

وفي القرن الثامن عشر المبكر عندما كانت الامبراطورية العثمانية متورطة في شئون أوروبا فإن الاهتمام الذي أعطاه المؤرخون لهذه الشئون ما يزال اهتماماً ضئيلاً بشكل ملحظ ، وفيما عدا الحروب الفعلية التي وصفت بطريقة تفصيلية نوعاً ما فقد اهتم

المؤرخون قليلاً بعلاقات العثمانيين مع روسيا والنمسا والغرب ، أكثر من اهتمامهم بفارس ، وبأخبار الولايات التي تتعلق بالأحداث المختلفة والنزاعات ، نزاعات الباشاوات ومشاهير الإمبراطورية . وكان الاهتمام بالشئون الخارجية أكبر قليلاً من ذي قبل ، ولكنه ما يزال محدوداً ، ويبدو أن المعرفة التي استخدمها مختلف المؤرخين العثمانيين آتية من نفس القدر القليل من المعارف ، وعن طريق الأجانب ومعتنقي الإسلام حديثاً وغير المسلمين داخل الإمبراطرية . ولقد عرف القرن الثامن عشر العثماني كثيراً عن البلاد والقوميات الأوروبية ، مثلما عرف القرن التاسع عشر عن قبائل وشعوب افريقيا ، ونظروا إليهم بنفس الاحتقار ، ويبدأ الإحساس المتزايد بالخطر بإدخال تعديل على هذه النظرة ، إن كان هذا التعديل بطيئاً وتدريجياً .

ومع نهاية القرن الثامن عشر . . لم تهتم الأفكار العثمانية عن أوروبا بأي شيء جوهري جداً ، ومع ذلك فإنها تمثل تقدماً ملحوظاً ومعتدلاً عما كان يجري من قبل ، وكانت ما تزال في تناقض ملحوظ مع النقص الكلي في مثل هذا الأدب في اللغة الفارسية ، أو مع استثناء تقارير السفارة المغربية القليلة في اللغة العربية .

والموقف الجديد في القرن الثامن عشر - وهو معرفة الهزيمة والعلم بالخطر - أدخل تعديلاً في طبيعة الاهتمام العثماني أوروبا . وإنه الآن يتعلق في المقام الأول بالدفاع . ولكن الحدود الفاصلة بين الحضارتين حدث أن خرقت ؛ فلم يعد من الممكن الاحتفاظ بسيطرة دقيقة على المرور من الحدود . وقد أدى الاهتمام بالعلوم العسكرية من ناحية ، والحاجة إلى معرفة سياسية وعسكرية من ناحية أخرى ، إلى اهتمام بالتاريخ الأوروبي الحديث ، الذي على الرغم من أنه كان في البداية عابراً ومتقطعاً ؛ فقد أصبح أكثر ضرورة وأهمية حيث بدأ الأتراك تدريجياً في إدراك أن حياة إمبراطوريتهم تعتمد على فهم وثيق لما كان يحدث في أوروبا . وتتضمن الكتب التي طبعت في المطابع التركية الأولى التي أنشأت في سنة ١٧٢٩ ، وأغلقت في سنة ١٧٤٢ اهتماماً بالتاريخ والجغرافية . وبين هذه الكتابات ، فكرة السفير محمد سعيد أفندي عن سفارته لدى فرنسا ، ومقالة في علم التكنيك الذي كان يطبق في الجيوش الأوروبية ، كتبها مؤسس

المطبعة إبراهيم موتيفريكا ، وترجمة للروايات الأوروبية عن الحروب في بلاد فارس . كذلك نشر إبراهيم بعض الأعمال القديمة ، التي تتضمن تاريخ القرن السادس عشر الخاص باكتشاف العالم الجديد ، وجزءاً من الكتابات الجغرافية الخاصة بكتاب جلبي .

وبالإضافة إلى هذه الكتب التي طبعت في مطبعة موتيفريكا . . فقد حفظت بعض المخطوطات في مجموعات إسطنبول ، وتدل على ظهور اهتمام جديد بالتاريخ الأوروبي ، ومخطوطة يرجع تاريخها إلى ١٧٢٢ تقدم تاريخاً خاصاً عن النمسا من ٨٠٠ إلى سنة ١٦٦٢ ، وقد ترجمت من اللغة الألمانية على يد المترجم عثمان أغا من تيمسفار Temesvar ، وتتعلق بشكل مباشر بالشئون الجارية ، ومخطوطتان كتبتا في ١٧٢٥ تعطيان معرفة لم يتناولها أحد - فهي جديدة بحق - عن أوروبا المعاصرة . وإحدى هاتين المخطوطتين قصيرة ، ولا تحمل أسماء تتعرض للشئون في أوروبا ، وهي باقية في تركيا في أربعة نقوش على الأقل ، وتوجد بها درجة من العناية أنها تبدأ بتحديد وتعريف المراتب العلمانية والدينية ، وتتكون بصفة أساسية من نوع من الرومانية المقدسة ، وتتبعها دول إيطاليا (البندقية وجنوة وغيرها) ثم سويسرا وإسبانيا والبرتغال ومالطة "مناطق الإنجليز" وهولندا والدانمارك والسويد وبولندا وروسيا . وكان المؤلف ضعيف المعرفة بانجلترا فهو يسمى الحاكم ويليام الثاني (ويليام الثالث الذي مات في سنة ١٧٠٢ قبل أن يكتب هذا النص بالتأكيد) ، وعلى الرغم من أنه نص مكتوب بعناية ، ويعدد أسماء أماكن أجنبية . . فقد شوه معظم هؤلاء في بريطانيا . وكاتبه عارف جيداً بشئون القارة ، عندما يلاحظ على سبيل المثال أن Archibshop من كولونيا كان ابناً لدوق بافاريا ، وأن ميكلنبرج Mecklenburg دخلت مؤخراً تحت الاحتلال الروسي (حقيقة في ١٧١٦) ، وأن القيصر (بيتر ، بطرس الأعظم الذي مات ١٧٢٥) قد استولى على معظم الأراضي البلطيق من السويد (بمعاهدة ١٧٢١) ، وتعبيرات أخرى مماثلة .

ويبقى النص الآخر أيضاً في مخطوطات متعددة ، ويتعلق بجريان العالم ، وفقاً للمحوظة في المخطوطات جاءت على هذا النحو "راهب متعلم جاء مؤخراً من تولوزي

Toulouse في فرنسا واعتنق الإسلام في حضرة الوزير الأعظم . ولما كان قد قام برحلات متعددة ، وقد عرف تماماً شئون العالم فإن هذه المقالة مأخوذة من شهادته" [٦١] .

من الواضح أن المقالتين كتبهما مؤلف واحد ، ربما الناشر الذي أعد المعرفة على الأمور البحرية التي تم الحصول عليها من الفرنسيين ، الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً . وتشير الصورة الهجائية التي جاءت عليها الأسماء الغربية إلى أن صاحب هذه المسألة ربما من أصل مجري ، وربما لا يكون غير إبراهيم موتيفريكا [٦٢] .

وتقرير آخر يرجع تاريخه إلى ١٧٣٣ - ١٧٣٤ يتعلق "ببعض الأحوال التاريخية لدول أوروبا" وصفة كلاود ألكسندر من بونيفال ، ثم أحمد باشا ، وهو نبيل فرنسي التحق بالخدمة العثمانية ، واعتنق الدين الإسلامي .

ويتعلق هذا التقرير الأخير بالأحداث في النمسا والمجر وإسبانيا وفرنسا ، وقد ترجم إلى اللغة التركية ربما عن المؤلف الفرنسي الأصل . وضمن المؤرخ عبد الرحمن مونيف أفندي (١٧٤٢) في عرض شامل وعام للممالك الكبرى ليس فقط حكام الإسلام ، ولكن أيضاً الأباطرة الرومان الوثنيين والمسيحيين ، والأباطرة البيزنطيين وملوك فرنسا وملوك النمسا . مخطوطة من القرن الثامن عشر المتأخر بعنوان "عرض للشئون الأوروبية" بروسيا في ظل حكم فريدريك ويليام الثاني ، وفرنسا في ظل الحكومات الثورية ، وفي سنة ١٧٩٩ أعد مسيحي من اسطنبول يدعى كوسمو كوميداس Cosmo comidas قائمة باللغة التركية عن الحكام الأوروبيين بتواريخهم الميلادية ، وتواريخ توليهم العرش ، وعواصمهم وألقابهم وورثتهم ومعلومات مفيدة أخرى .

وفي الدول العربية التي كان معظمها تحت السيطرة العثمانية أو الهيمنة العثمانية كان الاهتمام بالغرب معدوماً ، فيما عدا اهتمام محدود بين الأقليات المسيحية . وفي مراكش أرسلت بعض التقارير من السفراء إلى عواصم أوروبية مختلفة ، تمد ببعض المعلومات والمعرفة الأساسية بالأحوال السياسية الداخلية ، وفيما يتعلق بالاهتمام

التاريخي . . لـم يكن هناك أحد حتى القـرن التاسع عشر . وفي الشـرق العربي الذي يسيطر عليه العثمانيون . . فإن الهجوم الفرنسي والإنجليزي فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عـشر أيقظ نوعاً مـا بعض الاهتمام بالـشعوب الأخرى . ولكن الأفـكار التي كتبت في ذلك الوقت قـليلة العدد ، وتهتم أساساً بمناشط الإفـرنجة في الشرق ، وليس بالأحداث الوطنـية التي دعتهم للـذهاب هناك . ولا نجد قبل ١٨٢٠ أية تـرجمات في مصر للكتب الغربية الآتية من المطبعة التي أنشئت في القاهرة على يد الحاكم محمد علي باشا ، وفي الدول العربية الأخرى ، وفي إيران . . جـاءت اليقظة الإسلامية والاهتمام بالغرب متأخراً إلى حد كبير ، في شكل ترجـمات ، وكان هذا الاهتمام نتيجة لسيطرة الوجود الأوروبي .

الفصل السادس

الديـن

الدين جوهر ذاتيـة المسلم ، وذاتية الآخرين أيضاً . وكـانت دار الإسلام هي قوام العالم المتحضر الذي تحكمه حكومة مسلمة ويسوده قانون إسلامي ، وأقليات غير مسلمة تتمتـع بسماحة دولة الإسـلام وبظروف وافقت علـيها ، والفارق الأساسـي بين هؤلاء والعالم الخارجي يرتكز فى قبول أو رفض رسالة الإسلام .

وكان الإصطلاح الجـسماني ؛ أو حتى الجـغرافي البشري المـتعارف عليه ذا أهـمية ثانوية . وكما رأينا فإن الكتاب المسلمين كانوا يدركون حقيقة وجود شعوب أخرى خلف الحدود الشمالية ، وكانوا يطلقون عليهم الرومان ، أو الفرنجة أو العبيد ، وأسماء أخرى غيرها ، وكانت هذه الشعوب تتحدث بلغات مختلفة ومشوشة ، لكن هذا في حد ذاته كان غير محدود . وكانت هناك أجناس وشعوب خـاضعة للسيطرة والنفوذ الإسلامي ، وبالرغم من أن المسلمـين فضلوا تأسيس عدد محدود جداً من اللهـجات المستخدمة في الإدارة والثقافة والتجارة . . إلا أنهم يسرفون في الموازنة بين اللهجات المحلية واللهجات المميزة للقارة الأوروبية .

وكان الدين هو الاختلاف الحقيقي ، وكان يطـلق على الذين اعتنقوا الإسلام اسم مسلمـين ، وكانوا جزءاً من حزب الـله ، دون إعطاء أهميـة للبلد ، أو القـانون الذي يعيشون تحت سيادته . أما الذين رفضوا الإسلام فهم كفرة ، وتعني الكلمة كافر Kafir في الأصل من لا يعتقد في رسالة الإسلام ولا يؤمن بها وينكرها .

وتشير كلمة « كافر » إلى غير المسلمين كلهم ، ومع هذا . . فإن الاستخدام العربي والفارسي والتركي كان مترادفاً فعلاً مع الاستخدام المسيحي للكلمة . وبنفس النظرة كان

ينظر إلى دار الحرب علـى أنها تتكون بصفة رئيسية من عقيدة ودولة معارضة ، اعتقد أنها العالم المسيحي أولاً ، ثم أوروبا أخيراً وبطبيعة الحال كان المسلمون مدركين تماماً لفكر الآخرين بالإضافة إلى المسيحيين . وبعض هؤلاء مثل الهندوس والبوذيين في آسيا كانوا فـي عزلة إلى درجة لا تسمح بوجود أي صدام بينهم وبين معتقدات وعادات شعوب الشرق الأوسط والبحر المتوسط الإسلامية .

وبعضهم الآخر مثل افريقيا السوداء غير المسلمين ، وكانت للمسلمين علاقات وثيقة بهم ، إلا أنه كان ينظر إليهم أصلاً على أنهم مشركون وعابدوا أصنام ، ولكنهم غالباً كانوا محدودين . وقد عرفت في الشرق الأوسط ديانتان أخريان هما الزرادشتية واليهودية ، وكانت كل منهما محدودة جداً ؛ بحيث لم يكن لهما شأن كبير ، وفقدتا قوتهما السياسية ، ولم ينظر إليهما على أنهما دولتان في حالة حرب مع الإسلام . أما اليهود فكان ينظر إليهم على أنهم أهل ذمة ، ولقد سمح للبقية القليلة من الزرادشتيين بأن يكون لها نفس الوضع بصورة أقل أو أكثر . وكان الاستخدام الرسمي لكلمة كافر في العهد العثماني لا يشمل اليهود ؛ ففي المعاملات المالية المتعددة ، وفي الوثائق الأخرى التي تتعامل في أمور الشعوب غير المسلمة . . كان الإصلاح العثماني المتعارف عليه هو الكفرة واليهود ، وواضح ضمنياً أن اليهود هنا لا ينضمون تحت مصطلح الكفرة ، وهذا تعبير يدل على تفوق المسيحيين من ناحية ، وعلى الاعتراف بوحدة اليهود غير المتصدعة من ناحية أخرى .

وفي الاستخدام العثماني والتركي (الحديث) . . فإن كلمة كافر Kafir غالباً يحل محلها كلمة Gavur ، وهي تشير إلى الكفر بوجه عام والمسيحيين بوجه خاص – ودون شك . . فإن الكلمة هي تحريف لفظي لكلمة Kafir ، وربما تأثرت بالكلمة الفارسية الأقدم Gabr التى تعني في الأصل الزاردشتيين ، ولكنها في بعض الأحيان كانت تستخدم للدلالة على المسيحيين .

ومن الممكن رؤية التصنيف الذي يرتكز على الدين في التنظيمات الجمركية العثمانية، التي قسمت إلى ثلاثة أنواع من الضريبة الجمركية لا ترجع إلى نوعية

البضائـع ، ولكن ترجع إلى الـتجار وديانتهـم بصفة خاصة ، وكـان أقلها للمـسلمين العثمانيين أو الآخـرين ، وأوسطها لأهل الذمة وأعلاها للحـربيون ، وهم الذين جاءوا من دار الحرب . ومن الغريب أن اليهود كانوا يدفعون طبقاً للقسم الخاص بأهل الذمة ، مهماً كان ولاؤهم القومي والسياسـي ، وحتى إذا كانوا قد حضروا من أوروبا . وكانت نفس الـقاعدة مستعـملة في اتجاه عكـسي ، ويمكن رؤية ذلك فـي التفسير الـذي قدمه الفرس للامتـيازات الخاصة بخارج الحدود ، والتي طـلبها منهم الروس فـي بداية القرن التاسع عشر . وهؤلاء كـانوا على وفاق مع المسيحيين الروس ، ولكـنهم كانوا رافضين للمسلمين السنيين الذين جاءوا من الامبراطورية الروسية .

وهكذا . . فقـد كان الكافر مسـاوياً المسيحي من نـاحية الامتياز ، والأقـطار التي كانت تتـكـون منها أوروبـا طبقاً لتصـوره الخاص ، كانت بالنـسبة للمسـلمين أراضي للكفرة ، وهي تعني المملكة المسيحية . ويبدو أن المقياس الديني للتطابق والاختلاف كان عالمياً . ففي حين أن الزائرين من أوربا للعالـم الإسلامي كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم انجليز ، وفرنسيون وإيطاليون وألمان . . الخ ، بين المشارقة كالأتراك ، أو الفرس ، فإن الزائرين المسلمين لأوروبا بالمقارنة سواء أكانوا قادمين من مراكش أم تركيا أم إيران ، كانوا لا ينظرون إلـى أنفسهم إلا على أنهم مسـلمون في مملكة مسيحـية ، ولا يشيرون عادة إلى أنفسهم أو بلادهم بالألقاب القومية أو الإقـليمية أو الجنسية . وكانوا يتحدثون عن بلادهـم بلا استثنـاء بأنها أرض الإسلام ، وعن حـاكمهم أنه حـاكم الإسلام ، أو كانوا يعبرون عن هذه المعاني بتعبيرات مترادفة .

لقد بدأ المـبعوثون العثـمانيون في نهـاية القرن الثامـن عشر فقط في الحـديث عن أنفسهم وعن بـلدهم بشيء من التخصيـص ، وذلك بأنهم عثمانيون وأنـهم يمتازون في الشكـل الإسلامي العـام ، ومثلما أشـار الرحالة إلـى أنفسهم بـأنهم مسـلمون ، وأن جماعتـهم هي جماعة الإسـلام أشاروا - كذلك وببسـاطة عند الحديث عـن الجماعات الأوروبية بلا استثناء ، أشاروا إلى أنهم كـفرة . ويذكر أحد الأتراك الذين زاروا النمسا في القرن الثامن عشر أن "السفير النمساوي أرسل ثلاثة كفار ليقابلونا" [1] . وهذا يعني

أن السفير (أطلق عليه اسم النمساوي لأن الحكومات هي فقط التي تستطيع أن تعين سفراءها) قد أرسل ثلاثة رجال لمقابلتهم ، ولم تكن كلمة كافر تستخدم فقط في التعبير عن بعض الإشارات القومية أو السياسية الخاصة بالأوروبيين ، ولكنها أيضاً كانت تستخدم بصورة متكررة وكبيرة لتحل محل كلمات أساسية كثيرة ، مثل الشخص أو الرجل أو الإنسان .

ويعتبر الأوروبي مختلفاً ، لا لأنه ينتمي إلى بلد آخر ، أو لحاكم ، أو لأنه يعيش في مكان آخر ، أو يتحدث بلغة أخرى ، ولكنه مختلف لأنه يتبع ديانة أخرى . ونتيجة لهذا الاختلاف . . فقد اعتقد أنه عدو وعرف بأنه في مرتبة أقل . ودون شك . . فإن استخدام الأساليب الخاصة بالدعاية والإعلان الحديث كان معروفاً جيداً ، فإن الكتاب عن المملكة المسيحية استخدموا تكرارات لأحد لها للتأكيد على هذه النقاط ، فلم تذكر أي دولة ، أو مجموعة أو شخص أوروبي بدون ذكر كلمة كافر سواء كضمير ، أو كصفة ، إلا في استثناءات قليلة ، ولكن في بعض الأحيان - خاصة في كل المعاملات الرسمية والكتابات التاريخية - يكون من الضروري التمييز بين الدول أو الشعوب المختلفة ، وفي هذه الحالة كان يشار إليهم على سبيل المثال كالآتي : الكفرة الإنجليز ، والكفرة الفرنسيين ، والكفرة الروس وهكذا . وغالباً كانت هذه الصفة تؤكد باستخدام بعض صفات السباب واللعنات ، وكانت تأتي عادة على شكل قافية أو سجع .

وفي الاستعمال العثماني كانت لكل شعب سجعه الخاص ، مثل انجليزي دنس وفرنسي نجس ، وهنجاري منحوس ، وروسي موكوس ، وألماني قاسي القلب . . وهكذا . وبالنسبة للبلاد الإسلامية كان يوجد السجع الموجب والسالب وفقاً للظروف . أما بالنسبة للكفار . . فكانت كلها سالبة ، وكانت تحذف عند التعبير عن حسن النية [٢] . وكانت أسماء الأشخاص الأوروبيين في الكتابات التي ترجع للعصور الوسطى تصحبها عبارات سباب ثابتة ، ولم يكن هذا السباب سطحياً على الإطلاق ، ولكن كانت هناك تأكيدات ذات أهمية ، يصرح بها لتدل على سباب واضح . وكان الاستعمال الذي يشير إلى الأوروبيين بأنهم كفرة مستمر ومنتشر بصورة ملحوظة . وعلى سبيل المثال . . فهي

موجودة فـي الخطابات الـتي كان يقصـد منها الـصداقة والمجاملـة والمرسلة مـن الحكام المسلمين إلى الملوك المسيحيين الأوروبيين . وهـكذا . . نجد السلطان مراد الثالث يكتب إلـى المـلكة إليـزابيث ملـكــة انجلـترا ، يخبـرها بانتصـاراته ضد الكـفرة النمـساويين والهنجاريين ، ويلـتمس من الملكة "الاتجاه والتقدم نحو الكـفرة الأسبان ، وأنها سوف تنتصر عليهم بمـساعدة الله" ، ويعبر عن حسن النية إلى حد ما تجـاه الكفرة البولنديين والبرتغاليين "الذين هم أصدقاؤك" . وحتى إن "جلبي" الذي يكتب في منتصف القرن السابـع عشر لا يزال يجد أنـه من الضروري أن تصاحـب كل إشارة عن الفرنجـة بعض العبارات مثـل اللعنات والدعاء بالخراب والجـحيم المقدر لهم وما يشـبه ذلك . وسجل موظف عثماني رسمي في نهاية منتصف الـقرن الثامن عشر في تقريره عن العمل الذي كلف به لتـحديد خط الحدود الفاصل مع الـنمساويين ، وهو يبدأ تقـريره بالإشارة إلى تحرير بلجراد "دار الجـهاد" مـن "أيـدي النمساويين الـكفرة السارقين" (٣) . وبصفـة عـــامة . . فإن الـسـياسة الأوروبـية والأعمال الحـكوميـة الأوروبية والأفراد ، وصـفت بصفات ، تنطوي عـلى الشر ، مثل الأدنى : التآمر والدسائـس ، والحيل ، وتعبيرات أخرى تشير إلى السفالة .

وعموماً . . فإن هـذا التصميم كان غالـباً ذا أساس ، وكان يعد من البـديهيات ، واستمر اسـتعمال مثل هـذه العادات اللفظـية بصورة جيدة فـي العصر الذي كانـت فيه الامبراطورية العثمانية تشارك بصـورة مباشرة في شئون أوروبا سواء أكان مع الحلفاء ، أم مع الأعداء عندما بدأ الموظفون الرسميون والمؤرخون العثمانيون في توجيه الاهتمام نحو النقاط الدقيقة في العلاقات العالمية الأروبية . ولم تحذف ألفاظ السباب هذه نهائياً إلا في أواخر القرن الثامن عشـر ، وحتى بعد ذلك التاريخ . . استمر الدبلـوماسيون المسلمون يشيرون فـي تقاريرهم بكلمـة كافر المحطة من القـدر لكل شخص أو مجموعـة أو هيئة قابلـوها . ومـع الـقـرن التاســع عشـر . . فإن هذه اللغـة بدأت في الانقـراض عند استعمال الوثائق والتأريخ ، بالرغم من أنها ظـلت مستعملة بصورة شائعة ودارجة لفترة أكثر تأخراً .

ونظراً لإعطاء الديانة مركز الصدارة بالنسبة لاهتمامات المسلمين حتى من قبل الدولة . . فمن المتوقع أن يوجد بعض الاهتمام تجاه الديانة في العالم الغربي . ولقد أشار جزء كبير من المبعوثين والمؤرخين المسلمين إلى الأمور الدينية ، ولكنهم لم يظهروا اهتماماً كبيراً تجاه المسيحية الأوروبية وقدموا عنها معلومات قليلة جداً ، فلقد عرفوا أن الأوروبيين كانوا مسيحيين ، وكان هذا كافياً بالنسبة لأغلبهم ، ومع كل هذا فلم تكن المسيحية جديدة بالنسبة لهم ، بل كانت الديانة السابقة على الإسلام مباشرة ، ولا تزال ممثلة في أقليات كبيرة في الأراضي الإسلامية . ومن وجهة النظر الإسلامية . . كانت الديانة المسيحية موضوعة في الاعتبار ومفهومة .

ولقد كان لدى الدارس المسلم في العصور الوسطى مؤلفات أوروبية كبيرة باللغة العربية عن المعتقدات والشعائر المسيحية ، وربما تجمعت منها معلومات مفصلة إلى حد ما عن التاريخ المبكر للمسيحية وعن المدارس المختلفة والطوائف داخل الكنيسة . هذا الاهتمام المبكر لم يكن متواصلاً ، ويبدو أن المناقشات التي مارسها المؤلفون عن المسيحية كانت تعتمد على النصوص الإسلامية المبكرة ، أكثر من اعتمادها على الملاحظات أو المعلومات الجديدة . وهكذا . . فإن "كاتب جلبي" في بحثه العلمي الذي كتبه عن أوروبا في ١٦٥٥م يبدأ بتعليق عن الديانة المسيحية في العصر الوسطى تقريباً . ويذكر لقرائه أن هذه الديانة ترتكز على أربعة أناجيل أحصاها بصورة صحيحة ، وإذا ماقورنت بالإسلام فإنها ترتكز على خمسة أسس رئيسية هي : التعميد ، والثالوث المقدس ، والتجسيد ، والعشاء المقدس ، والاعتراف . ولقد خصص جزء مختصر لكل من تلك الأسس ، تحت المعلومات عنه شاملة إلى حد ما ، فقد كانت موجودة في الكتابات العربية الكلاسيكية ، ويفسر هذا بأن المسيحيين كانوا ينتمون إلى ثلاث مدارس، أو طوائف رئيسية ، والكلمة التي يستخدمها "مذهب" Madhhab (باللغة التركية Mazheb) وهي عادة تشير إلى المدارس الأربعة الخاصة بالفقه السني . والمدارس المسيحية الثلاثة هي : اليعقوبية ، والملكانية ، والنسطورية ، ويقدم "كاتب جلبي" تفسيراً لمذاهبهم المختلفة يعتمد على طبيعة المسيحية الإنسانية المقدسة . بحديث

مباشر . . فإن اليعاقبة هم أتباع الكنيسـة السورية الخاصة بيعقوب البرادعي ، ويبدو أنه يعني أصحاب الطبيـعة الواحدة بصفة عامة ، وهذا يظهر من إشارته بـأن معظم اليعاقبة أرمنيون ، والمـالكانية هم أتبـاع المدرسة التي اتفق عـلى إنها الأرثوذكسيـة وهي مدرسة الروم اليونانيين والرومان .

ويفسر الـنسطورية بأنـها مجمعة مـتأخرة انفصلـت عن المذهب المقبـول الشائع ، وشكلت طائفة منفصلة . ولقد تضاءلت كنـائس اليعاقبة والنساطرة أيام "كاتب جلبي" إلى قدر طفيف ، وكانت كنائس الأرض والأقبـاط رعايا للحكم الإسلامي . ومن مثل هذه الاختلافات الأخـيرة حدث الانشقاق الذي قسم الكـنيسة المالكانية إلـى أرثوذكسية يونانيـة شرقية وكاثوليكـية رومانية غربية ، والـتقسيم الجديد في الـكنيسة الكاثولـيكية الرومانية الغـربية ، الذي كان سببه الإصلاح الدينـي البروتستانتي الذي نعـتقد أنه أكثر أهمية بالنسبة لـلمراقب العثماني من المحاولات الأوروبية الخاصة بالـيعاقبة والنساطرة ، ولم يذكر لنا "كاتب جلبي" شيئاً يذكر عن كل هذا(٤) .

إلا أن الاختلافات بين الـكاثوليك والبروتستـانت لم تصرف الاهتمام تمـاماً فهناك شرح لأحد المؤرخين العثمانيين عن الحروب الديـنية في وسط أوروبا . فهو يذكر لنا أنه في يوم ما . . كان إمبراطور النمسا يشعـر بالحزن والاكتئاب بصورة اضحة والدموع تملأ عينـيه لدرجة أن زوجة ابن مـلك إسبانيا سـألته عما يؤلمـه . فقال إن سبب القـلق هو الاختلاف بيني وبين السلطان العثماني . فـكلما أرسل السلطان أوامره باستدعاء الأمراء الذين تحت سلطته ليأتوا بقواتهم للخـدمة في جيوشه حضروا في الحال ووضعوا أنفسهم رهن إشـارته دون شرط ، أما حـين يرسل إمـبراطور النـمسا هـذه الرسائل إلـى أمراء هنجاريـا فإن تلك الرسائل لا تمثـل موضوعاً يشغلـهم بحيث يقدمون لـه أية خدمة أو امتثالاً لأوامـره ، وأجابت الامبراطورة عـلى هذه الشكوى بـقولها "إن محاربـي الباشا العثماني منتمون إلى عقيدته وكيانـه ، وهذا هو سبب طاعتهم له ، بينما يرفض امراؤك الهنجاريون الامتثال لك لأنهم على ديانة أخرى غير ديانتك" ، فأعجب الامبراطور بهذه الإجابة ، وأرسل المبعوث والـكهنة في الحال إلى الأمراء النهجاريـين وأمرهم "بالتحول

إلى عقيدة المضللة" . ولقد قبل بعضهم هذا ، لكن أكثرهم رفضوه ، مما أدى إلى طغيان أكثر . وهذا يفسر لماذا أرسل الله العلي العظيم ، الذي لا يغفل عن أي بشر ولو كان كافراً ، الجيوش الإسلامية ضده(٥) . أيضاً "إفيليا جلبي" الذي رحل عبر المجر والنمسا ، وهم أقدم من السابق بفترة قصيرة ، إن الاثنين يتميان إلى كنيستين مختلفتين ؛ فالهنجاريون ينتمون إلى عقيدة اللوثريين ، في حين أن النمساويين "يطيعون قداسة البابا" . ولقد سجل أنه بسبب هذا كان كل يواجه الآخر بشراسة كلاهما مسيحي . . فقد اجتمعا معاً ضد المسلمين ؛ لأنهم طبقاً للكلمات الإسلامية التقليدية التي أشار إليها "إفيليا جلبي" بأن "كل غير المؤمنين كانوا على ديانة واحدة" (٦) .

ويبدو أن البيروقراطية العثمانية كانت أكثر انتباهاً من العلم العثماني لأهمية الاصطدام بين البروتستانت والكاثوليك وقيمته المحتملة للباحث الإسلامي . وجزء منها ربما يرجع إلى المعلومات التي احضرها اللاجئون المسلمون من إسبانيا ، وجزء يرجع إلى المجهودات التي بذلها بعض المبعوثين البروتستانت الذين أظهروا أنفسهم بأنهم موحدون زاهدون أكثر التصاقاً بالإسلام عن العبادات الصورية والكاثوليك المشرك ، وقد كان ذا أهمية تناسب التجارة أو أي أمور أخرى . ويبدو أن العثمانيين لم يكن لديهم أي اهتمام بمثل هذه المناقشات ، ولكن من حين لآخر كانوا يضعونها تحت الفحص . وعندما قام الموريسكون Moriscs بثورة إسبانيا عام ١٥٦٨ - ١٥٧٠ أرسل لهم السلطان رسولاً خاصاً ليجذب اهتمامهم لصراع اللوثريين المستمر ضد "هؤلاء ، الذين كانوا رعايا لقداسة البابا ولمدرسته" ونصح المتمردين بتأسيس حركات سرية ضد اللوثريين ، وذلك عندما قاموا بالحرب ضد قداسة البابا لفرض عقوبات على المقاطعات الكاثوليكية وعلى الجنود الذين في منطقتهم (٧) . وقام سليم الثاني بإرسال عميل سري لمقابلة قادة البروتستانت في هذه المقاطعات . ويسجل خطاب ملكي عثماني الاهتمام الشائع بين المسلمين واللوثريون الذين كانوا أيضاً في حالة حرب مع الكاثوليك ، ورفضوا قبول عبادتهم للأصنام " حيث إنك قد رفعت سيوفك ضد تابعي الكنيسة الكاثوليكية ، وحيث إنك قد نظمتهم بصفة منتظمة ، فإن رأفتنا الامبراطورية واهتمامنا الملكي قد

خصص لك وهو في الطـريق لبلدك ، وحيث إنك لم تكن عابـداً للأصنام ، وإنك قد أبعـدت عـابدي الأصنام والصـور عن الكنائس ، واعـتنقوا ديانتـك بحبل الله الـعلي العظيم ، هو الواحـد وعيسى المقدس هو رسوله وخادمه ، وهم الآن يلتـمسون بالقلب والروح العقـيدة الصادقة ، ولكن ادعـى غير المؤمنين أن البابـا لم يعثر على ضـالته في نسب القدسية إلى عيسى المقدس (عليـه السلام) ولقد ألقت عبادة الأصنام والصور التي صنعها بيديه الشك في وحدانية الله ، وحـرضت كثيراً من خادمي الرب على السير في طريق الخطأ هذا [٨] . ولقد كان الاهتمام العثماني بالملـكة اليزابيث الإنجليزية له اهتمام مشابه فيـما بعد مع البرتسـتانت ليسوا كخلفـاء ، لا قدر الله ، ولكن كتشـويش مفيد للقوى الكاثوليكية . وهكذا استطعت الهيئة البابوية أن تهرب بصعوبة من دائرة الاهتمام الإسلامي ، وقد علق كثير من الكتاب المسلمين على الظاهرة الغريبة لحكام الروم ، وهو نوع آخر من نظام الملك الكاهن أطلق عليه اسم البابا Al- Bab ، ولم تكن في الإسلام وظيفة كـاهن أو نظام كنسي ، وكـان من الصعب على المسـلمين إدراك ظاهرة التـنظيم الموسع للكنيسـة المسيحية ، وقد أدت المعرفة اللـبقة للنظام الإداري للكنيسـة الغربية في العصور العثمانية إلى أن تكون مثل تلك الهيئات واضحة . ولذلك.. فإن أول من ذكر البابا ، هو أميـر عربي يسمى هارون بن يحيى ، الـذي زار روما حوالي ٨٨٦م ، ولقد سجل بوضوح أن روما مدينة يحكمها ملك يطلق عليه اسم البابا وهو لا يقدم أي شرح لهذا اللقب . ويبـدو أن إطلاق هذا اللقب كان بمثابة اسم شخص . ولقـد جاء التعليق عن روما في القـاموس الجغرافي لياقوت كـاملاً شيئاً ما : "في الوقـت الحالي روما في أيدي الفرنج ويطلـق على ملكهم اسم ملك الألمان ، ويـثبت فيها البابا ويطـيعه الفرنجة وهو بالنسـبة لهم في مقام الإمام . وإذا لم يطـعه احد منهم اعتبروه مـتمرداً وشريراً ، يستحق النفي والـعقاب والموت ، وتفرض عليه عدة تحريات تختص بـنسائهم وجنودهم وطعامهم ، وشرابهم ، فلا يستطيع أحد أن يخالفه" [٩] .

ويبدو أن بعض الأمـــور الخاصة بهذه الهيـئة قد انتقلت إلى الأجزاء الـشرقية من العالــم الإسلامي ، ففي القـرن الثالث يتحـدث الشاعر الفـارسي الخاقاني في قـصيدة

هجائية عــن بطريرك الزمان البابا بطـرس في ذلك الوقت [١٠] . ويبدو أنه يـخلط بين تلك الهيئة وبين البـطريكية الخاصة بالكنائس الغربية ، وهو الخـطأ الشائع لدى المؤلفين المسلمين المتأخرين .

لقد ذكر المؤرخ السوري ابن واصل [*] أحد التعليقات الأولى عن السلطة البابوية، وقد زار جنوب إيطاليا كمبعوث دبلومـاسي عام ١٢٦١م ، وهو يقول عن البابا "والبابا برومية هـو خليفة المسـيح عندهم ، والقائـم مقامه ، وإليه التـحريم والتحليـل والقطع والفصل" . ولقد قدم مزيـداً من الكتاب المؤرخين تعليقات متشـابهة ، واحد منهم هو المؤلف التركي للمغامرات ، الذي قد سجل شيئاً فوق العادة وهو الاعتقاد المسيحي بأن البابا يسـتطيع أن يغفر الخطـايا ، ولـم يسبب مثل هـذا الوضع لسلطان البـابا دهشة بين الزائرين الـقادمين من الأراضي المسلمـة ، فلقد كان المسلـمون شديدي المعرفة بالـسلطة الدينية ، وفي الحقيـقة لم يعترفوا بأي دين آخر ، كما أن الإسلام لم يـعترف بالرومانية كشيء مميز للـسلطة الدينية بين الجنس الـبشري . وبالنسبة لهم . . فإن الـسلطات التي منحــت للبابا كـانت تـخص الله وحـده . ويسـتطرد ابن واصل حديثه قـائلاً: "وهـو الذي يلبس الملوك تيجان الملك يقيمهم . ولا يتم لهم أمر في شريعتهم إلا به . ويكون راهباً ، وإذا مات قام مقامه من هو أيضاً متصف بصفة الرهبانية " [١١] .

ونجد ملاحظة أخـرى مختصرة عند القلـقشندي عن الباب ، وذلك فـي كتابه عن ظيفة المجلـس القضائي الكنسـي يقول فيها : "مكاتـبة البابا ، وهو بطريـرك الملكية ، القائم عندهم مقام الخليفة ، والعجب من جعله في "التثقيف" بمنزلة القان عند التتار ، والقان إنما هو بمنزلة مـلكهم الأكبر ، والباب ليس من هذا القبيـل ، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحريم .

وقد تقدم في الكلام علـى المسالك والممالك عند ذكر البطاركة أنـهم كانوا يسمون القسيس ونحوه أباً ويسمون البطريرك أباً ، فأحـبوا أن يأتوا على البطريرك بسمة له تميزه عن غيره من الآباء ، فاختاروا له لفظ البابا ، وإنه يقال فيه الباب والبابا أبو الآباء ، ثم لما غلـب الروم على المـملكة ، وعـلت كلمـتهم علـى اليعاقـبة ، خصوا اسـم الباب

ببطريكهم ، فصـار ذلك علماً عليه ، ومقره مدينة رومية عـلى ما تقدم هناك ، ورسم المكاتبة إليه على مـا ذكره في التثقيف ضاعفاً الله تعالى بهجـة الحضرة السامية ، الباب الجليل ، القديس الروحاني ، الخاشع ، العامل ، بابا رومية عظيم الملة المسيحي ، قدوة الطائفة العـيسوية ، ملك ملوك النصـرانية ، حافظ الجسور والخلجان ، مـلاذ البطاركة والأساقفة والـقساوسة والرهبان ، تـالي الإنجيل ، معرف طـائفة التحريم والتـحليل ، صديق الملوك والسلاطين. . . . " .

هذا ما وجدته مسطوراً ولم يكتـب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه" [١٢] .

وهناك تفســـير عـــن الـبابوية كان تاريخياً ومـعاصراً يوجد فـي الـتاريخ الجامع "لرشيد الـدين ، وهو الذي كتب فـي إيران في السنوات المـبكرة للقرن الـرابع عشر ، وهـي مستقاة طبقاً لما ذكـر مـن المبعوث الـبابـوي ، ومـن التاريخ الممثل . وفـي بحث « كاتب جلبي » الـقصير عن أوروبا ، يشتمل علـى فصل عن البابوية به قائـمة رئيسية ببدء البابوات وتواريخ انتخابهم ومدة ولايتهم بـدءاً ببطرس ومنتهياً بالبابا بول الثالث ، حيث من المعروف أنه أصبح بابا سنة ١٥٣٥ [١٣] وبرغم أن ما ذكره « كاتب جلبي » عن البابـاوات ، لم يكن بـه أي ذكر لموت بول الـثالث الذي كـان عام ١٥٤٩ أو لأي من خلفائه . . فمن الممكن الاعتقاد بأن مصدر المعلومات الذي استخدمه كان عمره أكثر من مائة عام . ومثل كثير من الأمور الأخرى . . فإن المـؤلف المسلم في هذا الأمر لم يشعر بحاجة أوروبا ، ولم يجـد فرصة للحصول على معلومات جاريـة للعصر . وحيث أن تعليق كاتب جـلبي عن علم اللاهوت المسيحي أقدم بألـف عام . . فإنه من المدهش أن قائمة البابـاوات قد اختفت بعد ذلك بقرن .

وأفضل تفسيـر عن البابـاوية وعن المسيحـية الأوروبية قدمه السفير المـراكشي الوزير الغســاني الذي زار إسبـانيا في نـهاية القـرن السابع عـشر ، وكان لديـه قدر كبيـر من المعلومـات ليس للحديث فقـط عن البابا ، ولكن عـن تنظيم البابويـة ودور الكرادلة ، والطريقة التي ينتخب بها البابا الجديد ، ويبدو أن النظام كله قد أثار غضبه الخاص فكان

كل ذكر عن البابا يقدمه بسباب لعنات ، ويستمر في مناقشة تلك الأمور محكمة التفتيش الدينية التي اضطهدت اليهد ، وتاريخ الإصلاح الديني ، والديانات اللاحقة التي اصطدمت مع المملكة المسيحية ، حتى أن يذكر شيئاً عن الإصلاح الديني في انجلترا الذي أرجعه إلى المشاكل المادية للملك هنري الثامن . ودون شك . . فإن هناك نقاطاً وثيقة تجمعت عليه نتيجة لوجوده في إسبانيا . وكانت مناقشاته تدور أحياناً حول الممارسة الكاثوليكية للاعتراف ، وعن الأضرار التي أدت إلى ظهورها [١٤] ولقد ترتب على ذلك أن المبعوثين المراكشيين إلى إسبانيا اتبعا ما ذكره في مناقشته عن الكنيسة وهيئاتها وتناول عديداً منها بإسهاب مثل محكمة التفتيش الدينية .

ومن الموضوعات القليلة التي يبدو أنها أثارت اهتماماً ما بين هؤلاء الزائرين المسلمين إلى أوروبا موضوعات ترتبط بالإسلام نفسه ؛ ففي الأماكن القليلة نجح السكان المسلمون في البقاء في البلاد التي عادت إلى الحكم المسيحي . وبطبيعة الحال . . كانت تلك الأماكن تجذب بعض الاهتمام . ولقد كان ابن واصل مهتماً بالعثور على سكان مسلمين لا يزالون يعيشون في جنوب بلاد إيطاليا تحت حكم النورمان : "وبالقرب من البلد الذي كنت نازلاً به مدينة تسمى لوجره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية ، تقام فيها الجمعة ، ويعلن بشعار الإسلام ، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور . وكان منفريدا قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع االعلوم النظرية . ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين . ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة" . ويلاحظ ابن واصل أن "البابا كان قد حرم منفريدا لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم" [١٥] .

ولقد طرد المسلمون من صقلية وإيطاليا بعد مرور وقت مناسب . وظلوا موجودين لبعض الوقت في إسبانيا حتى بعد قرار إبعادهم سنة ١٤٩٢ ، ولقد منح كل المسلمين واليهود في مملكة إسبانيا حق الاختيار : إما التحول إلى عقيدة جديدة أو النفي أو الموت ، ولقد نجحت طائفة مسلمة تعرف باسم الموريكوس في البقاء لبعض الوقت ، وقامت بعديد من التمردات ضد التاج الإسباني ، وفي وقت ما نجحوا في السيطرة على

مدينة غرناطـة ، ولقد اتجه المسلمون الإسبان سواء قـبل أو بعد هزيمتهم النهـائية لطلب المساعدة من العـثمانيين أكبر قوة مسلمـة في ذلك الوقت ، ولكن لم يكن لـطلبهم هذا تأثيـر كبير . حقيـقـة .. قـام الـعثمانيـون بالمفاوضات مـع الموريكـوس وحـــاولوا بوسـائـل مختلفة نصحـهم ومساعدتهم من حـين لآخر . ولقد أرسل مبعوث عـثماني سري لتنسيق العلاقات والمعلومات والتحركات بين إسبانيا وشمال أفريقيا ، واسطنبول ، ولكن كانت هـذه قضية خاسرة .. فبعد فـترة من الزمن اتبع الموريكـوس أسلافهم في اختيار النفي .

وبدأ يظهر مـوقف مشابه في الانسحـاب العثماني من وسط أوروبـا . وفي معظم الأماكن المسيـحية التي أعيد فتحـها .. كان يتبع الفتح رحـيل المسلمين باستـثـناء الفتح الروسي لأراضي التتار . وحتى القرن التاسع عـشر .. فإن السكان المسلمين كانوا تحت الحكم المسيـحي جوهرياً . وقد ظل كل هذا في أي مـكان آخر باعثاً للاهتمـام بالعهود الماضية وذكريات الماضـي الإسلامي . ولقد كان على المبعوثين المراكشـيين إلى إسبانيا ، والمبعوثين العثمـانيين إلى وسط وجنوب أوروبا المرور غالباً عبر المـقاطعات الإسلامية ، التي فقدت نتيجة لإعادة الفتح المسيحي . وتظـهر المجموعتان تشابهاً ملحوظاً .. فمثل الزائرين الأوروبيين للشرق الذين يبحثون عن آثار الماضي الكلاسيكي والمسيحي .. فإن الزائرين المـسلمين لأوروبا كانوا مهـتمين بالبقايـا الإسلامية ، وكانت تحركهـم النقوش الإسلامية . وهكذا .. فإن السفير الغساني يسجل أن سكان مكان ما في إسبانيا يسمى Villafrance- Palacios هم من تـبقا أحياء مـن الأندلسيين ، وهـي كلمة تعـبر عن السكان المـسلمين الأوائل بإسـبانيا فدمهـم دم العرب ، وتختلـف وسائل عيشتـهم عن وسائل الأجانب (Ajam) وميولهم نحـو المسلمين ، ورغبتهم أن يكونوا مـعنا وحزنهم عند الرحيـل كل هذا يشير بصورة قاطعـة إلى أنهم هم بقايا الأندلسـيين ، وكان قد مر وقت طويـل أقاموا خلاله بـين غير المؤمنين الـلهم احفظـنا" ، وادعى الغسـاني وجود Crynto - Muslim تسلم منحنى وهو ٢٥- Belos الذي جاء مع ابنه "لها نفس المظهر العربي" والذي قام بعـمل "إشارات غامضة" صدقها السفيـر ، بالرغم من عدم وجود أي إثبات يشير إلى أنه مسلم مختلف[١٦] .

أيضاً وجد السفراء العثمانيون وسيلة للتعبير عن التعاطف بينهم وبين رعاياهم السابقين في ضجاريا وفي جنوب بولندا . وهكذا . . فإن عزمي أفندي الذي مر عبر ضجاريا عام ١٧٩٠ يسجل قمة الصداقة والود التي أظهرها تجاهه وتجاه الامبراطورية العثمانية بصفة عامة (١٧) .

ويشير المبعوثون العثمانيون الذين كانوا يمرون عبر المقاطعات التي فقدت في وسط وجنوب أوروبا إلى الشعور الدافئ الواضح من تلك الشعوب تجاه أسيادهم السابقين . وأكثر دهشة من هذا أن السفراء المراكشيين إلى إسبانيا في أواخر القرن الثامن عشر اكتشفوا وجود عاطفة متشابهة .

ويحذر Keenly من البقايا الإسلامية الكثيرة في تلك البلد ، الذين اندسوا في الحياة الدنيا واعتقد بعض المبعوثين من مراكش أن المسيحية في إسبانيا كانت تطفو على السطح فقط ، وأن الموالين المسلمين القدماء في انتظار ظهورهم مرة أخرى . ويبدو أن تشويه البقايا المسلمة قد أدى غالباً إلى قلق الزائرين المسلمين ؛ فقد طالب الغزال المراكشي أثناء زيارته لغرناطة بأن يوضح حجر عليه فقط باللغة العربية ، بطريقة تليق به ؛ بحيث يصبح من السهل قراءته : بل يزعم أنه أثناء زيارته لجامع في Cordove أصر على نزع حجر عليه نقوش عربية دينية ، كان يستخدم للتبليط . وقد كان للمآذن اهتمام باستعمالها ؛ فوجدوها في إسبانيا قد استخدمت كمنارة ، أخرى في Serbi استخدمت كبرج ساعة ، وقد أزعج هذا الزائرين المسلمين ، ولم تكن الجماعات سالمة من التدنيس فيسجل زائر تركي لبلغراد بعد فترة قصيرة من احتلال النمساويين لها ، أن البعض منها يستخدم كمنازل (١٨) ، وكان هذا دليل آخر على العادات القذرة لغير المؤمنين .

وقد ظهر شعور آخر في كتابات الزائرين المسلمين للمناطق ، التي فقدت في كل من شرق وغرب أوروبا ، وهو أن تلك المناطق هي أراضي مسلمة ، اغتصبت بطريقة غير قانونية من الإسلام ، ويقدر لها أن تعود حتى أن الاحتلال القصير كان كافياً لظهور مثل هذا الحق . وهكذا . . ففي عام ١٧٦٣ ، كان رسمي أفندي يزور حصن

Kanuniets ، الذي شيده العثمانيون في الفترة من ١٦٧٢ - ١٦٩٩ ، فحركه منظر المئذنة بتاريخ تأسيسها الإسلامي وآيات القرآن : " عندما قرأت هذا النقش تفوهت بالدعاء من قلبي بأنه سيسعد الخالق أن تعود تلك الأماكن سريعة إلى الإسلام ، حتى تدوي كلمة الحق من فوق هذه المئذنة" (١٩) .

أيضاً فيما بعد عام ١٧٧٩ .. كان السفير المراكشي Muhammed ibn jthmen atmihnasi لإسبانيا يتتبع الفلكي الأول لأسماء المناطق كلها ، مع ذكره عبارة "اللهم ردها إلى الإسلام" (٢٠) .

وبصفة عامة .. فقد نظر المسلمون إلى المسيحيين على أنهم أصحاب ديانة الإسلام ، وحتى عندما كانت الجيوش المسيحية بعد فتح مقاطعة تلو مقاطعة في إسبانيا ، وفي جنوب أوروبا بعد ذلك كان .. ينظر إليها كخطر سياسي وعسكري ، أكثر منه ديني . وفي الحقيقة .. فإن التحولات العنيفة من الإسلام إلى المسيحية كانت نادرة جداً ، ففي الأراضي المسلمة .. كان الارتداد - وهو التحول من النظرة المسلمة- كان جمعاً عظيماً ، حتى أنه في الأراضي المسيحية كانت القوانين المسلمة تشجع المسلمين هناك على الهجرة بدلاً من الاستسلام للحكم المسيحي ، وعندما يجبرون على التحول كانت أخلاقهم مشكوكاً فيها .

أول خطر ملاحظ من الغرب للمعتقدات المسلمة جاء مع الثورة الفرنسية ، عندما كانت الدعاية لأول مرة موجهة للمسلمين بالإسم ، وليس للديانات القديمة ، ولكن للمذاهب الجديدة الفاتنة . وظهرت إشارات عثمانية تحذر من مثل هذا الخطر في المذكرة التي خططها للسكرتير العام العثماني في ربيع سنة ١٧٩٨ ؛ ليضمه مجلس الدولة الأعلى ؛ مفسراً أصل الأحداث الأخيرة في فرنسا ويشرح السكرتير العام : "إن الملحدين المعروفين والمشهورين روسو وفولتير أوسعوا شتمًا وسباباً ضد الرسل والأنبياء والملوك الكبار ، وعملوا على محو وإزالة الدين ، مع تلميحات عن حلوة المساواة ونظام الجمهورية ، وعبروا عن كل هذه الكلمات ، في عبارات سهلة الفهم على شكل سخرية وبلغة عامة الشعب (٢١) .

لقد ادعى الغزو الفرنسي لمصر ظهور أفكـار جديدة ، دفعت الامبراطورية العثمانية إلى شن ما يعرف في الوقت الحاضر بالحرب النفسية ، وذلك من خلال البيانات الموجهة إلى رعايا السلطان بكل من العربية والتركية ، ولقد وصف خبث الثوريين في النهاية :

"إن الأمة الفرنسـية (اللهم دمر بلادهم وحـط من لائهم لأنهم كفرة طـغاة ودائمو التمـرد) لا تؤمن بوحدانيـة إله السموات الأرض ولا تؤمن بـبشرى الشفاعـة فـي يوم القيـامة ، ولكنـها تخلت عـن الدين كلـه ، وأنكرت وجود الآخرة وعـقوبتهـا ؛ فهم لايؤمنون بـيوم البعث ، ويدعون أن هذا يـحطنا على مر الزمـن ، ولا يوجد شيء إلا الرحـم الذي يـبعثنا والأرض التي تبتـلعنا ، ولا يوجد أي بعث أو حـساب ، أبعد من هذا . . فلا توجد اختبـارات أو عقوبات أو أسئلة أو أجوبة . . فهم يبـلغون أن الكتب التي أتـى بها الرسل خطـأ واضح ، وأن القرآن والتـوراة والأناجيل ليسـت إلا أكاذيب وأحـاديـث باطلة ، وأن هـؤلاء الذين يدعـون أنهم رسل . . يكـذبون على الـشعب الجاهل . . وأن كل النـاس متساوون من حيث إنسانيـتهم ، ومتشابهون بكـونهم آدميين ولا أحد لديه أي تفوق مميز على الآخر ، وكل شخص مـسئول بنفسه من ردمه وتنظيمه لمعيشـته في هذه الحياة . وعـلى هذا الاعتقاد الـباطل والرأي الوقح . . أسـسوا مبادئ جديدة ، ووضعوا قوانين وأنشأوا ما همس به لـهم الشيطان ، وحطموا أسس الديانة ، ومنحوا أنفسهم حق تحريم الأشياء وسمحوا لأنفسهم بما تشتهي ، وجذبت آراؤهم عامة الشعب الذين أصبحوا مجانين ومخرفـين ، وأشاعوا الفتنة بين الدين والعرض ، وأثاروا الخلاف بين الملوك والدول .

ويحذر كاتب البيان قراءه من التعليق الفرنسي :

(كانوا يوجهون أنفسهم تجاه كل جماعة بكتب كاذبة وأكاذيب منمقة ويقولون "نحن نتمنى لكم ولديانتكم ولجماعتكم"، ويقـدمون لهم وعوداً باطلة يتفوهون كذلك بوعيد مخيف).

وحيث إن هذا الفساد كان شائعاً في أوروبا . . فإن فرنسا تحولت تجاه الشرق وبعد ذلك . . تحولت مؤامراتهم الشريرة تجاه أمة محمد. . " (٢٢) .

لقـد كـانوا واقعـاً ملمـوسـاً ، ولأول مرة - منـذ بداية الإسلام - يواجـه تحدياً مذهبياً وفلسفيا ، هدد كل التأسيسات المذهبـية والاجتماعية المسلمة فلا يوجد شيء مثله من قبل ، فبـعد الهزيمة والاستحواذ عـلى مجتمعات الشـرق الأوسط القديم . . واجه الإسلام ثلاث حضـارات رئيسية : في الهـند والصين وأوروبا . واحدة فقـط من تلك الحضارات ، هي الـثالثة كان ينـظر إليها كصاحـبة ديانة تستـحق التقدير ، وأنـها تمثل تشكيلاً سياسياً وعـسكرياً خطيراً بديلاً للقوى الإسلامية . ولكن الديـانة المسيحية كانت تتراجع دائمـاً أمام الإسلام، وكانت أحسن محـاولات القوة المسيحية هـي الحفاظ على نفسهـا أمام تقدم الأسلحة المسـلمة . حقيقة فـي بداية العصر الوسطـى . . واجه علم الكلام الإسلامـي تحدي العلم والفلسـفة الهللينـية ، ولكن هذا كان محصـوراً في حيز ضيق فقد جاء كتراث حضارة مهزومة ولكن جزءاً من التراث الهلينى انحصر واندمج مع الإسلام وطرح الباقي جانباً .

أما التحدي الجديد الذي ظهر للإسلام عن طريق الحياة الدنيا الأوروبية . . فقد كان أمراً مختلفاً تماماً مجاله أوسع وقـوته أكبر ووجوده أقوى ، إلى جانب ذلك أنه لم يأت من عالم مهزوم ، ولكنه من عالم منتصر . . فلسفة حرة عما تضمنته النظرة المسيحية ، وقد عبرت المجتمع الغـني القوي الذي كان يتوسع سريعاً . وقد بدت لـبعض المسلمين أنها تحتوي على سر النجاح الأروبي والتقـدم ضد العنف والفقر . وفي خلال القرنين : التـاسع عشـر والعشريـن كان للـنظام الـديني الأوروبـي وسلسـلة المذاهب الـسياسـية والاجتماعية والاقتصادية وقع السحر على أجيال المسلمين المتتابعة .

الفصل السابع

الاقتصاد والإدراك والاتصالات

فى القرن التاسع كتب مؤلف فى بغداد مقالة قصيرة ، كان عنوانها « نظرة واضحة إلى التجارة » وقد ناقش المؤلف فى هذه المقالة السلع المختلفة التى هى أساس التجارة : أنواعها وصفاتها ، وأماكنها الأصلية ، وخصص جزءًا من مقالته لقائمة السلع المستوردة من « الأقطار الأخرى » إلى أن الأقطار الأخرى كلها تتكون تقريبًا من المقاطعات المختلفة للإمبراطورية الإسلامية الممتدة الأطراف فى آسيا وأفريقيا . كان هناك أربعة أقطار فقط خارج نطاق السيطرة الإسلامية ، وهى : أراضى الخزر وهى مملكة الترك فى السهب الأوراسى والهند والصين وبيزنطة ، ومن بلاد الخزر ، يؤتى بالعبيد رجالا ونساء ، والدروع ، والخوذات وملابس الرأس المصنوعة من الدروع . ومن الهند تستجلب النمور ، والفهود ، والأفيال وجلود الفهود ، والياقوت الأحمر ، وخشب الصندل الأبيض ، والأبنوس وجوز الهند ، ومن الصين يحضرون العطور والبورسلين ، والورق ، والحبر ، والطاووس والخيول ، والسروج ، والألبان والقرفة ونبات الروائد . ومن بيزنطة يؤتى بالأوانى الفضية ، والذهبية ، والدينارات الإمبراطورية النقية ، والأعشاب الطبية ، والملابس المطرزة الوشى ، والخيول والإماء ، وأدوات من النحاس الأحمر والأقفال ، والقيثارات ، ومهندسى المياه ، والمتخصصين فى الزراعة ، وعمال المرمر والخصيان ،وليست هناك إشارة إلى أوروبا حيث كانت صادراتها قليلة جدًا وتافهة بحيث لم تذكر ، ومن المحتمل أن بعضا منها ربما كان موجودا فى قائمة بيزنطة [1] .

إن الروايات التى ذكرها الجغرافيون المسلمون فى العصور الوسطى عن السلع التى

تأتى من غرب أوروبا لا تأثير لها . أما الواردات القادمة من اسكندنافيا عن طريق روسيا تبدو ذات أهمية كبيرة إلى حد ما ، وبالإضافة إلى الكتابات الأدبية . . فإن هذه التجارة قد تركت وراءها وثائق مهمة وأساسية ، انطبعت على العملات الإسلامية ، والتى كان معظمها من دروسك فى وسط آسيا ، وكذلك فى اسكندنافيا وبالذات فى اللقيات السويدية .

إن مؤلفى العصور الوسطى يعطوننا القليل جدًا من المعلومات عن الأحوال الاقتصادية فى الغرب وابن يعقوب فى حديثه عن أوترخت Utrecht لاحظ « : إنها مدينة عظيمة فى أرض الفرنجة وهى واسعة الأرجاء ، وأرضها مالحة ولايمكن للبذور أو النباتات أن تنمو فيها . والناس يتقوتون من الماشية لبنها وصوفها ، وليست هناك أخشاب تستخدم للإشعال ، ولكن لديهم نوعا من الطمى يستخدم وقودا . وما يحدث هو التالى : فى الصيف . . عندما تجف المياه يذهبون إلى حقولهم ويقطعون الطمى بفئوسهم على شكل قوالب طوب . وكل رجل يقطع على قدر احتياجه ، ثم ينشره فى الشمس لكى يجف . ثم يصبح بعد ذلك خفيفا جدًا ، وإذا قرب من اللهب . . فإنه يلتهب والنار تشتعل فيه كما تشتعل فى الخشب ، ويعطى قدرًا كبيرًا من اللهب ، مع قدر كبير من الحرارة مثل لهب منفاخ نافخى الزجاج . وعندما يتم احراق قطعة منه بالكامل . . فإنها تترك رمادًا لا فحما » .

وابن يعقوب لديه ملاحظات مشابهة عن مدن أخرى زارها ، أو سمع عنها . إنه يقول عن بوردو « إنها غنية بالمياه والأشجار والثمر والحب ، وعلى شواطئها يوجد الكهرمان الممتاز » .

أما مدينة روين فهى : « مبنية من أحجار منتظمة ، تتناسق على نهر السين الأعشاب والأشجار لاتنمو هناك مطلقا، ولكن هناك الكثير من القمح والحبوب ، ويصطادون السمك من النهر ، ويطلقون عليه سالمون ، وهناك نوع آخر من الأسماك صغير وطعمه ورائحته مثل الخيار . . فى الشتاء فى روين عندما يكون البرد شديدًا . . يظهر نوع من الأوز ذى قدم حمراء ومنقار أحمر ، وهذا النوع لايفقس إلا على جزيرة

غير مسكونة ، وأحيانا . . تتحطم السفن فى البحر ، ويستطيع الذين يصلون هذه الجزيرة أن يعيشوا على بيض وفراخ هذا الطائر لمدة شهر أو شهرين » .

وعن شليزونج يذكر :

« إن المدينة بها أشياء جيدة وقليلة . ويتكون غذاؤها من السمك وهو وفير . وعندما يولد طفل لأى شخص يلقى فى البحر من أجل توفير نفقاته » .

ولكن انطباعه عن ماينز كان أكبر ، يقول :

« إنها مدينة عظيمة جدًا بعضها مسكون والآخر مزروع ، إنها فى أراضى الفرنجة على نهر يسمى الراين . وهى غنية بالقمح والشعير والحبوب والموالح والفاكهة . وهناك دراهم مضروبة فى سمرقند عام ٣٠١ - ٣٠٢ هـ (٩٣٤ - ٩٣٥ م) باسم الحاكم وتاريخ الإصدار هناك شيء غير طبيعى ، فرغم أن هذه المدينة تقع فى أقصى الغرب . . إلا أن بها توابل من التى لاتحصل عليها إلا من أقصى الشرق مثل الفلفل و الزنجبيل والقرنفل والمسك ، والخولنجات . هذه التوابل تجلب من الهند وتجدها بكثرة فى هذه المدينة [٢] » .

كان لدى الكتاب المسلمين ، فى العصور الوسطى المتأخرة معرفة أوضح إلى حد ما ، فعلى سبيل المثال . . يعرض الإدريسى معلومات مفضلة تماما . حتى الأماكن البعيدة مثال انجلترا لاحظ « ابن صاعد » صفة مميزة لها : « توجد مياه الأمطار فقط فى هذه الجزيرة وبفضلها تنمو المحاصيل . وفى الجزيرة توجد مناجم الذهب والفضة والنحاس والصفيح . وليس لدى أهلها الكروم ؛ نظرًا للبرد الشديد وينقل الناس إنتاج هذه المناجم لفرنسا ، ويستبدلونه بالخمر ، وهذا هو السبب فى أن حاكم فرنسا لديه الكثير من الذهب والفضة [٣] .

أما المؤرخ الفارس رشيد الدين . . فقد تأثر بثروة انجلترا التى « تحتوى على مناجم لا حصر لها من الذهب والفضة والنحاس والصفيح والحديد . وأنواع كثيرة من الفاكهة أيضًا . « وقد لاحظ رشيد الدين كذلك ، أن تجار الفرنجة يسافرون إلى مصر

وسوريا وشمال أفريقيا والأناضول وتبريز، عن طريق مدينة جنوا »[٤] .

إن ثلاثة فقط من السلع المنتجة ، فى وسط وغرب أوروبا ، جذبت اهتمام المسلمين وهى العبيد السلاف والأسلحة الفرنجية ، والصوف الانجليزي ، ونظراً لأن القانون الإسلامى يحرم استرقاق أى مسلم حر ، أو أى ذمى حر من الرعايا دافعى الجزية فى الامبراطورية الإسلامية . . فإن العبيد الموجودين فى الأراضى الإسلامية إما أن يكونوا قد ولدوا عبيدا ، أو هم من خارج الامبراطورية . وقد ثبت بسرعة أن الزيادة الطبيعية لاتفى بالغرض لسد حاجة الأعمال التي يقوم بها العبيد . والامبراطورية الإسلامية على العكس من الامبراطورية الرومانية والامبراطوريات القديمة لم تستطع زيادة عبيدها عن طريق استعباد المجرمين ، والذين عليهم دين لذلك كان يجب استجلاب عبيد جدد من وراء الحدود الإسلامية بواسطة الأسر ، أو الشراء .

وكان هذا من الأشياء المميزة للاختلاف بين الامبراطورية الإسلامية والامبراطوريات الأخرى . فى العصر القديم . . كان أغلبية العبيد من أصل محلى باستثناء فترات مابعد الحملات الناجحة . وعلى العكس من ذلك . . فى الامبراطورية الإسلامية كان أغلبية العبيد يأتى بها من خارج الأرض الإسلامية . وقد أدى هذا إلى تطور قوى لتجارة العبيد فى كل الأقطار المجاورة للعالم الإسلامى من أجل سد حاجتها المتزايدة .

كان المصدران الرئيسان للعبيد بالنسبة للامبراطوريات الإسلامية من السهول الأوراسية فى الشمال ؛ حيث كان العبيد من البيض ومعظمهم من الترك ، وكانوا يستخدمون بشكل رئيسى فى أغراض عسكرية ، ومن أفريقيا المدارية فى الجنوب ؛ حيث كان العبيد السود الذين يتم أسرهم أو شراؤهم يستخدمون فى الأعمال المنزلية والأعمال الأخرى . لقد كانت هناك أيضًا مناطق أخرى لجلب العبيد ، وكانت أوروبا واحدة منها . ومن الطبيعى أن العبيد الذين هم من أصل أوروبى . . كانوا فى الأراضى الإسلامية الغربية ؛ وخاصة إسبانيا ، كما حدث فى المناطق الأخرى ، لقد جلب هؤلاء عن طريق الحملات العسكرية . وكان الفرد الوثنى الذى يؤسر فى ميدان المعركة يعتبر من الناحية القانونية عبدا ، ولفترة ما يعتبر هذا وافيا للغرض .

ويتوقف الزحف الإسلامى الذى استتبعته فترة من الجمود ، ثم التدهور التدريجى . . لم تعد امدادات أسرى الحرب وافية بالغرض ، خاصة أن هؤلاء الأسرى قد يدفعون فدية أو يستبدلون . ومن هنا أصبح الحصول على العبيد مقصوراً على الشراء ، وازدهرت تجارة استجلاب العبيد الأوروبيين من الذكور والاناث ، لسد احتياجات مسلمى اسبانيا وشمال أفريقيا . . عرف هؤلاء العبيد المتبقين فى الغرب المسلم بالصقالية ، وهى الكلمة العربية لجمع الصقلى أو « سلاف » كما هو الحال فى لغات أوروبا ، فكلمة « سلاف » وعبد يبدو أنهما يحتويان معنى عرقياً ذا أصل اجتماعى مشترك . وفى كتابات الجغرافيين . . تشير كلمة Saqaliba للشعوب السلافية Slavonic المختلفة فى وسط أوروبا وشرقها . وفى تواريخ إسبانيا الإسلامية . . أصبحت كلمة صقلبى اصطلاحًا لحراس الخلفاء الأمويين في قرطبة تمامًا مثلما المماليك الأتراك فى الخلافة الشرقية . والصقالبة الأوائل فى إسبانيا يبدو أنهم كانوا أسرى ، أسرهم الألمان فى غاراتهم على أوروبا الشرقية ، ثم تم بيعهم إلى مسلمى اسبانيا . وفى وقت ما . . أصبح المصطلح صقلبى يضم كل العبيد البيض الذين يخدمون فى الجيش أو فى المنازل . أن ابن حوقل المؤلف العربى فى القرن العاشر ، الذى سافر وزار اسبانيا المسلمة ، لاحظ أن العبيد الأوروبيين الذين قابلهم لم يأتوا من شرق أوروبا فقط ، بل من فرنسا وإيطاليا وشمال اسبانيا . وبعضهم لايزال يؤسر ليس عَن طريق الحملات العسكرية ، ولكن بواسطة الغارات التى تتم من البحر .

وكذلك استمر الاستيراد التجارى للعبيد من فرنسا ، وقد يمكننا استعارة كلمة المؤرخ الهولندى دوزى كانت هناك صناعة للخصيان Manufactory of eunuchs فى مردون (٥) .

إن التركيب المميز للمجتمع الإسلامى كان كفيلاً بأن يصبحوا عنصراً مهما جدًا فى المجتمع الاسبانى العربى ، ذلك أننا نجدهم يخدمون كقواد ووزراء ، ويملكون ثروات طائلة وأحيانا يملكون عقارات وعبيدا خاصة لهم . ونظرا لأنهم اكتسبوا اللغة العربية . . فنجد منهم الباحثين والقراء والعلماء بأعداد هائلة ، حتى إن أحدهم فى عهد

هشام الثانى (٩٧٦ هـ / ١٠١٣ م) قد ألف كتابا كـاملا عن مزايا وانجازات الصقالبة فى الأندلس ، ولم تتبق من الكتاب أية نسخة .

وعندما أسس الـفاطميون خلافتهم فـى تونس فى وقت مبكر من الـقرن العاشر ، وتقـدموا نحو الشرق لغزو مصـر . . قام العبيد الصقالبة بعد حوالى ٥٠ عامًا بدور ذى أهمية . ان جوهرا الـذى قاد الجيش الذى غزا مصر ، وأحد مؤسسـى القاهرة ربما كان سلافيا [٦] .

لقد اشتغل كثيـر من الأوروبين بتصدير العبيد للعالم الإســلامى ، وتضمنت قوائم التصدير . . مسيحيين ويهودا ومواطنيين من المـدن التجارية الكبرى فى ايطاليا وفرنسا ، وكذلك فى اليـونان فى شرق البحر المتـوسط ، وقد مارس البنادقة دورًا مـهمًا ؛ حيث بدأوا فى منافسة الاغريق فى هذه التجارة منذ عصر مبكر فى القرن الثامن .

ويبدو أن الأوربيين كان يـؤرقهم بيع عبيد مسيـحيين للمسلمين فى أسـبانيا وشمال أفريقيا ومصر ، ومع أن هذا قد حسه شـارلون والبابا زخارى والبابا هاردان الأول الذى حاول إنهاء هذه التجارة . أمـا البنادقة . . فقد كانوا جريئين إلى درجة جعـلتهم يبيعون عبيدا من الجنسين فى قلب مدن روما [٧] .

وكـــانت البـندقيـة هى المصدر الـرئيسـى لتوريد الخـصيان لـلبلاطين الإسـلامى والبيزنطى ، وقد وصلت هذه التجارة إلى هذا الحد وأصبحت عملا شاقا ، وفى أوقات حرمها الحكام البنادقة أنفسهم ، وإن لم يكن هذا التحريم ذا أثر كبير .

لقد كانت التـحريات والادانات غير ذات أثر فى وقف هذه الـتجارة المربحة . إن الموقع الجغرافى للبندقية على حافة الأراضى السلافية ، وكونها على اتصال بحرى سهل بالدول الإسلامية قد أعـطى البحارة البنادقة ميزة كبـرى ، وكذلك جزيرة بولا Pola فى البحر الأدرياتى التى أصبحت من أملاك البندقية ؛ حتى أصبحت سوق عبيد رئيسية .

وهناك مـصادر أخرى لتوريد الـعبيد ، فلقـد كان القراصنة المـسلمون من إسبـانيا وصقلية وشمال أفريقيا ، يغـيرون على سواحل البحـر المتوسط المسيحيـة ؛ خاصة فى

القرون ١٠ ، ١١ و ١٢ ، ويحملون أعدادًا كبيرة من الأسرى . ففي عام ٩٢٨ .. يقال إن بعثة أو حملة واحدة على البحر الأدرياتي عادت إلى ميناء المهدية في تونس وتحمل ١٢٠٠٠ أسير ، وكان قائدها صابر Sabir وهو عبد سلافي معتنق لحاكم صقلية ، وكان دائم الإغارة على سواحل ايطاليا ودلماتيان .

استمر هذا الأسلوب لتجارة الرقيق خلال العصور الوسطى ، ولم يبدأ في الاختفاء إلا منذ القرن الخامس عشر ، وهناك سبب واحد لهذا التغير ، وهو أن التجار المسلمين في بحثهم عن التوابل (انظر ص ٢١٦) بدأوا في ايجاد طريقهم إلى مصادر الامداد مباشرة . لقد كان الوسط يخادع كلا الطرفين . وبينما كان البرتغاليون يدورون حول أفريقيا ، ويحضرون توابلهم من مصادرها في الهند الشرقية .. كان الأتراك يتقدمون في البلقان . والبحر الأسود ، ويأخذون حاجاتهم من العبيد مباشرة من شعوب شرق ووسط أوروبا (انظرص ٢١٦) ، للشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، وخلال القرنين ١٥ ، ١٦ .. كان جنوب وشرق أوروبا هو المصدر الرئيسي للإمداد بالعبيد ؛ حيث كان تقدم العثمانين للجهاد يؤدي إلى جلب امداد ضخم ، ومستمر من الألبانيين والسلاف والوالاش والمجريين ؛ وأيضًا المسيحيين من أقطار أخرى ، كان بعضهم يجند بواسطة المشهور ، والأطفال المسيحيين من الشعوب الخاضعة للامبراطورية ، والبعض الآخر أسر في المعارك في القرن ١٧ هجرى الـDevshirme تدريجيا ، وفي نفس الوقت كان الخمول الذي أصاب الحروب بين العثمانين Hapsburgs يعني أن الغزو لم يعد قادرًا على الامداد بالعدد الكافي من العبيد ؛ لسد احتياجات المجتمع العثماني .

ولكن وجد البديل ، لقد كان خانات التتار في Crimea وهم أسرة مسلمة مستقلة ،تعترف بالسيادة العثمانية يرغبون في تجارة عظيمة للعبيد من خلال غاراتهم . لقد كان المغيرون التتار يأسرون العبيد من روسيا وبولندا وأوكرانيا وشرق أوروبا يحضرون إلى كريميا ؛ حيث يباعون ويشحنون إلى إسطنبول ، ثم يوزعون على الأسواق الإمبراطورية العثمانية . وان حصار السهوب ، كما يطلق التتار على أرضهم ، جعلهم يقدمون إمدادا كبيرًا ومستمرًا من العبيد من كلا الجنسين ، وذلك حتى عهد

متأخر من القرن ١٨ ، عندما توقفت غزوات التتار بعد ضم كريميا إلى روسيا .

إن الدور الذى لعبه الأطفال المسيحيون من البلقان ، ثم الذين جندوا فى خدمة العثمانيين خلال الـ Devshirme معروف جيدا . التحقت أعداد كبيرة منهم بالجهاز العسكرى والبيروقراطى العثمانى ، الذى أصبح يدار فى وقت ما بهؤلاء المجندين الجدد . إن صعود الأوروبيين من البلقان لسدة السلطة العثمانية ، لم يمر دون أن يلاحظ . وهناك كثير من الشكاوى من العناصر الأخرى من العبيد القوقازيين ، حيث كانوا المنافسين الرئيسيين لهم ، وكذلك من المسلمين الأحرار والقدماء ، الذين أحسوا بالإهانة لتفضيل العبيد الجدد عليهم . إن الشاعر فيزى Veysi يكتب فى وقت مبكر من القرن ١٧ عن الاضطرابات الامبراطورية وأسبابها ، وقد لاحظ من بين الأشياء المحزنة « أنه لمن الغريب أن هؤلاء الذين ينعمون بالسلطة والمراتب العليا كلهم ، البانيون وبوسنيون Bosnians ، بينما شعب رسول الله المسلمون (أى المسلمون القدماء أو ربما العرب) يعانون المهانة »(٩) .

أن تأثير مجندى الـ Devshirme كان كبيرا حقا ، كثير منهم وصلوا إلى أعلى المراتب فى الامبراطورية العثمانية ، وبعضهم الآخر برزوا كباحثين وشعراء بل كقضاه مسلمين ولاهوتين . ان دور الفلاحين من شرق أوروبا ، الذى أرسله التتار عبر البحر الأسود غير معروف عند القليل ، ويعد أيضًا أقل خطرًا فهم على عكس مجندى الـ Devshirme الذين نادرًا كانوا مايصلون إلى طبقة الأعيان العثمانيين ،وخدموا فى أماكن أكثر تواضعا وأدنى مكانة .

ولم يكن هؤلاء مقصورين على الأشكال الاعتيادية للخدمة فى المنازل والحريم ، وقد كان العبيد يستخدمون لأغراض اقتصادية على النقيض من الظن المقبول بشكل شائع .

إن توظيف العبيد فى الزراعة والمناجم كان من قبل فى العصور الوسطى ، مع أن هذا لم يكن يبدو شائعا للإنتاج أيضًا . وفى زمن العثمانيين . . لدينا معلومات مؤكدة

عن استخدام عبيد الأعمال فى المزارع بصورة كبيرة ، مع أنهم لم يكونوا مملوكين بالكامل ، وكانوا يعملون تحت حماية الحكومة .

ربما يمكننا جمع فكرة ما عن الأهمية النسبية للمجموعات الجنسية المختلفة للعبيد من الأدب الإسلامى فى هذا الموضوع . فنحن نملك عددا من تلك النصوص المكتوبة بالعربية والفارسية والتركية ، تمتد من أوائل العصور الوسطى حتى القرن ١٨ ، وتصف خصائص الأجناس المختلفة للعبيد ، والأغراض التى يمكننا استخدامهم من أجلها ، وتتكلم الأعمال الأولى عن العبيد من أصل آسيوى وأكثر خصوصا من أصل أفريقى . إن الكتابات العثمانية فى هذا الموضوع تعطى بعض الاهتمام بالعبيد السلاف والأوروبيين الشرقيين ، ولاتتناول الأوروبيين الفرنسيين ، إلا فى حالات يمكن استثناؤها[١٢] .

وفى العصور التالية . . كان المصدر الوحيد لعبيد أوروبا الغربية فى العالم الإسلامى بحق القراصنة المسلمون الذين ظلوا يأسرون السفن فى البحر وأحيانا يغيرون على الشواطئ المسيحية . هؤلاء قد دخلوا فترة جديدة من النشاط المكثف فى بداية القرن ١٧ ، حيث وصلوا لشواطئ انجلترا وايسلنده ، ومع هذا كان أسراهم يؤخذون أساسا من أجل فدية ، أكثر منها للاستخدام ، ولم يعودوا يكونون سلعة تجارية ذات أهمية . . إلا أن بعضا منهم ظلوا مع اسراهم المسلمة ، مختارين أو غير مختارين . المجموعة الأولى ، وأغلبهم ذكور تتكون من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام ، ووجدوا عملا فى خدمة القراصنة الأوروبيين السابقين خلال وقت مبكر فى القرن ١٧ ، حيث مارسوا مهنة القباطنة مع المسلمين ، وقد جلبوا مهارات مفيدة لسادتهم الجدد ، فى بناء السفن ، والمدافع والملاحة ، ومنهم من خدم أيضًا فى قيادة المسلمين إلى بعض الشواطئ البعيدة وغير الحصينة الخاصة بغرب أوروبا ؛ حيث وجدوا أسلابا وفيرة . وليس هناك دليل على أن مثل هؤلاء المغامرين كان لهم أى ضغط على الدول المضيفة .

هناك مجموعة أخرى من الأسرى الذين أسرهم القراصنة المسلمون ، وكانت اقامتهم فى الأقطار الإسلامية بغير طواعية ، ولكنها دائمة ، وهؤلاء كانوا من النساء

الذين بسبب جمالهم استبقوا كمحظيات ، أو إرسلوا بيعا أو إهداء إلى دور الحريم فى الشرق الأوسط . أما الصفوة . . فكانوا يجدون مصيرهم الأخير فى الحريم الامبراطورى فى إسطنبول كمحظيات للسلطان أو لكبراء الدولة .

إن آباء سلاطين العثمانيين مشهورون ، ولكن المعروف عن أمهاتهم قليل ، وكان معظمهن إماء فى الحريم السلطانى ، وقد أخفيت شخصياتهن وأصلهن ، حتى أسماؤهن عن التاريخ ، وذلك لأن البيت المسلم كان يحافظ على المرأة فى صمت فى المنازل وقد دفعهذا بعض الناس إلى التفكير فى أصل هؤلاء السيدات اللاتى وصلن إلى القصر إماء مغمورات ، ثم وصلن إلى مواقع ذات سلطة عظيمة كأمهات للسلاطين الحاكمة . وهناك كثير من القصص حول أمهات السلاطين وقد قيل أن بعضهن كان من أصل أوروبى ، وأكثرهن شهرة هى Naksidil وهو الاسم الذى أعطى فى الحريم إلى أم السلطان المصلح العظيم محمود الثانى . وطبقا لأسطورة منتشرة فقد كان اسمها Aimee du Bue de Rivery وهى سيدة فرنسية من Martiniqu وابنة عم جوزفين ، ولكن ليس هناك دليل يمكن الاعتماد عليه يؤكد هذه القصة . وهناك دليل أفضل فى حالة نوربانو محظية سليم الثانى، وأم خليفته مراد الثانى ، وهى سيدة تنتمي للبندقية من أصل نبيل ، وطبقا لبعض الروايات يقال إنها أخت حاكم جزيرة كرفو الذى ينتمى للبندقية ، وقد أسرها فى سن ١٢ مغير تركى ، وأرسلت كهدية للسلطان سليمان العظيم الذى أعطاها لابنه سليم فيما بعد ، وهى خليفتهما صفية أم السلطان محمد الثالث الذى دخل فى مراسلات مع البندقية وانجلترا .

إنه من غير المحتمل أن تكون هؤلاء السيدات قد أسهمن فى معرفة المسلمين بأوروبا ، أو حتى لأبنائهن سواء كانوا مملوكين أو غير ذلك ، وبطبيعة الحال فقد دخلت الحريم فى عصر مبكر جدًا ، ونظرًا لطبيعة المجتمع المسلم . . كان تأثرهن خارج الحريم لايذكر .

كانت تجارة الأسلحة على عكس تجارة العبيد تشهد نموا متواصلا ، حتى قبل الحروف الصليبية ، وهناك فقرات من النصوص العربية تمدح الجودة العالية للسيوف

الفرنجية Frankish ، وكذلك بالنسبة للأوروبيين في عهد الحروب الصليبية ؛ حيث أصبحت السيوف سلعة تصدير ذات أهمية ، وساعدت على إصلاح الميزان التجارى بين أوروبا والأقطار الإسلامية . إن تصدير الأسلحة إلى المسلمين ، مع أنه أكبر مصدرى العبيد ، أثار حنق السلطات الكنسية ، وأحيانا الملكية ، ولكن كان أثر هذا ضئيلا .

لم تكن الأسلحة الفرنجية هى الوحيدة التى وجدها المسلمون نافعة لهم ، ولكن أيضًا الرجال الذين صنعوها واستخدموها ، وهناك مؤرخ مصرى يتكلم عن رجال من الفرنجة ظلوا كصناع للأسلحة فى الأسطول وأماكن أخرى فى القاهرة تحت حكم الفاطميين [١٢] وهناك جنود فرنجة ذوو حظ ، قد خدموا فى جيوش الحكام المسلمين من أسبانيا إلى الشرق الأدنى وآسيا الصغرى ، ويقال إن بعض الحكام المسلمين المبكرين للقسطنطينية قد استجلبوا الآلات من المرتزقة المسيحيين ، بما فى ذلك مرتزقة من غرب أوروبا . ونسمع أيضًا عن تجار من جنوة وأوروبيين فى خدمة حكام الشرق الأوسط ؛ وبالأخص حكام المغول [١٣] .

كانت تجارة الأسلحة ، فى عهد العثمانيين ، واسعة جدًا ، وتحوى المواد الخام الحيوية ، وفى عام ١٥٢٧ صدر قرار بابوى بواسطة البابا كليمنت السابع باللعنة والحرمان له من الكنيسة لكل الذين يبيعون للمسلمين والأتراك ، وكل أعداء المسيحيين : الجياد والأسلحة والحديد ، والأسلاك الشائكة ، والصفيح والنحاس الأحمر والنحاس الأصفر والكبريت وملح البارود ، وكل الأشياء الصالحة لعمل المدفعية ، والأدوات والأسلحة والماكينات الخاصة بالحروب والتى يحاربون بها المسيحيين ، وكذلك الحبال والأخشاب المستخدمة فى البحرية ، وكذلك السلع والمواد الممنوعة الأخرى » بعد قرن من هذا صدر قرار مشابه للبابه أوربان الثامن ، يحتوى على قائمة أطول قليلا لأدوات الحرب الممنوعة ،وهو كذلك يعلن ويحرم من الكنيسة هؤلاء الذين يسارعون أو يعطون معلومات أو تسهيلات للاتراك والأعداء الآخرين للدين المسيحى ، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر [١٤] .

لم يكن الفاتيكان وحده الذى اهتم بهذا الأمر ، فهناك شكاوى أخرى لحكومة أوروبية عن امداد قوى أوروبية منافسة أو معادية لمواد الحروب والمهارات العسكرية للاتراك . ففى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر . . اتهمت القوى الكاثوليكية القوى البروتستانتية ؛ خاصة الانجليزية ، بأنها تمد الأتراك بأدوات الحرب ، وخاصة الصفيح : « إن الأتراك يرغبون فى صداقة الانجليز من أجل الصفيح ؛ فمدافعهم تحتاج إليها بينما جنى الانجليز فائدة عظيمة عن طريق التجارة فيها مع الشرق ، وقد أسرت سفينة إنجليزية فى مالطة ، وكانت متجهة لتركيا ، وجد أنها تحتوى على ١٠٠ بالة من الصوف و ٧٠٠ برميل بارود و ١٠ براميل بنادق و ٥٠ بندقية مركبة و ٢٠ سيفًا ، برميلاً مليئًا بسبائك من الذهب عالى النقاء و ٢٠٠٠٠ قطعة عملة ، ومبلغ كبير من الدولارات ، وأشياء أخرى ذات قيمة . وأكثر من ذلك حوت مذكرة مكتوبة صدرت بأمر السلطان [١٥] .

ومع هذا . . فلقد فشلت قرارات الحرمان الكنسى والتهديدات بالعقاب فى ردع هؤلاء الذين يجبون منافع عظيمة من هذه التجارة . بل لقد ظلت الإمدادات الخاصة بالأسلحة ومواد الحروب بواسطة قوي مسيحية للعثمانيين والدول الإسلامية تنمو باطراد ، وفى وقت ما وصلت إلى درجة هاذلة .

ويبدو أنه لم يكن لدى أوروبا سوى العبيد ومواد الحب ، لتعرضه على المشترى المسلم . ومع هذا كانت هناك سلعة أخرى ذكرها المسلمون مرات عديدة وهى القماش الانجليزى الذى كان مشهورًا فى العالم الغربى منذ بداية العصور الوسطى . وقد لاحظ ابن يعقوب الرحالة الذى سافر إلى الغرب فى القرن العاشر ذلك فى حديثه عن جزيرة شاشان ، وهى ربما انجترا الانجلوسكسونية أن :

« هناك نوع من الصوف الفائق الجمال ، حيث لامثيل له فى أى بلد آخر . وهم يقولون إن سبب هذا أن نساءهم يدهنون الصوف بدهن الخنزير الذى يحسن صنفه ، ولونه أبيض أو تراكواز وهو ذو جمال فائق » [١٦] .

إن ابن صاعد وهو كاتب وجغرافى متأخر عن ابن يعقوب لديه معلومات أكثر

قليلا ، إن قماش السكروتا الفاخر يصنع هناك (أى فى انجلترا) . فى هذه الجزيرة لديهم أغنام لها صوف ناعم مثل الحرير، وهم يغطون أغنامهم بالملابس ليحموهم من المطر والشمس والتراب (١٧) .

اقتبست فقرة ابن صاعد السابقة بواسطة الكتاب الجغرافيين المتأخرين عنه ، وهناك إشارة مستقلة فى وصف أوروبا الافرنجية وردت عند رشيد الدين الذى لاحظ أن : « فى كلتا الجزيرتين (ايرلندا وانجلترا) لديهم شياة ، تصنع من فروتها الملابس الصوفية وكذلك صوف السكروتا (١٨) .

إن أصل كلمة سكروتا متنازع عليه ، مع أنه من المحتمل أن الصيغ العربية والفارسية كلها مشتقة من العرب ، وليس العكس . وكان هناك جدل كثير عما إذا كانت الكلمة فى القرن ١٣ قد استخدمت لتشير إلى لون أو نوع معين من القماش . وسواء كانت هذه التجارة أو تلك ذات أهمية فى الشرق الأوسط . . فإن المصادر الثلاثة المذكورة آنفا تشير إلى أن السكروتا شىء معروف وموجود فى أوروبا البعيدة ، ومع هذا . . ففى القرن ١٥ وثائق عثمانية تحتوى على إشارات واضحة إلى قماش إنجليزى يستورد كسلعة للولايات العثمانية (١٩) .

فى أواخر القرن ١٨ تغير الميزان التجارى بشكل حاسم لصالح أوروبا ، وضد الأقطار الإسلامية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا . لقد بدأت هذه العملية من قبل ظهور الصناعة والتجارة فى أواخر العصور الوسطى وأوائل القرون الحديثة . إن افتتاح وتطور الطرق البحرية التى تمر بالشرق الأوسط ، وحتى تجارة الحرير الفارسى التى كانت - فى وقت ما - مصدرًا مهما للمواد الخام والعوائد الضريبية لتركيا . . أصبحت الآن إلى حد كبير خاضعة لتجار من أوروبا الغربية . وكان انشاء المستعمرات اللاأوروبية فى العالم الجديد ، والنقاط التجارية فى الشرق قد أضاف إلى الطاقة والقدرة الصناعية الجديدة فى أوروبا نفسها ، وأخيرًا أعطى التجار الأوروبيين شيئا أساسيًا لعرضه على الزبائن فى الشرق الأوسط .

بمعنى أوضح . . فإن التكوين التجارى بين الإسلام والمسيحية قد عكس ، فذات

يــوم كــانت أوروبــا تستورد - الـقماش مـن الشرق الأوسط ، وأصـبحت الآن تبـيع القمـاش ، وتستورد المواد الخـام . إن العلاقة التـجارية المتـغيرة قد هوت بـوضوح فى الانهمـاك الشرقى المعـتاد أن كلا من القـهوة والسكـر قد أدخلا إلى أوروبا مـن الشرق الأوسط . والقـهوة التى جاءت أساسـا من الطرف الجنوبـى للبحر الأحمـر ، ربما من أثيوبيا ، وقد أحضرت إلى شرق البحـر المتوسط فى القرن ١٦ ، انـتشرت من هناك فى أوروبا . وحتى الربـع الأخير للقرن ١٧ . كانت القهوة عنصراً مـهما من بين صادرات الشرق الأوسط إلى أوروبا . وفى الـعشر سنوات الثانية للقرن ١٨ . . زرع الهولنديون القهوة (الـبن) فى جاوة Java وذلك عن أصـل السوق الأوروبى ، بل لـقد صدرت فرنسـا البن المزروع فى مستعمـرات الهند الغربية إلـى تركيا . وفى ١٧٣٩ م ذكر أن بن الهند الغربية وصل إلى Erzurum شرق تركيا . أن البن المزروع فى المستعمرات والذى كان يتاجر فيه التجار الأوربيين ، كان أرخـص من ذلك الذى يجئ من البحر الأحمر ، وقد أدى هذا إلى تخفيض كـمية بن منطقة البحر الأحمر فى الـسوق . لقد كان السكر ينتسب للشرق ، وقد كان فى بادئ الأمر يـكرر فى الهند وإيران ، وقد استوردته أوروبا من مصر وسوريا وشمال أفريقيا ، ثم زرعه الـعرب فى صقلية وأسبانيا . ومن هناك أذ إلى جزر وسط المحيط الاطلنطى ، ثم عاد إلى العالم الجديد .

ومرة أخرى . . قدمت مـستعمرات الهند الغربـية فرصة أحسن استغلالـها فى سنة ١٦٧١ ؛ إذ أقام الفرنسيون معملا للتكرير فـى مرسليا حيث صدروا السكر ، القادم من مستعمراتهم إلـى تركيا ، وقد زاد الاستهلاك التركى له بشك ل هـائل عندما بدأ الأتراك يحلون القهوة بالـسكر وذلك ربما بسبب بن الهند الغربـية الذى كان أشد مرارة . ومن هنا اعتمد بشكـل كبير على السكر الأوروبى . ولقد كان سكر الـهند الغربية أرخص ، وسـرعان ما ساء سـوق الشرق الأوسط . وفـى نهاية الـقرن ١٨ وعندما كـان الأتراك والعرب يشربون كلاً من القهوة والسكر يأتـى من أمريكا الوسطى بواسطة تجار انجليز أو فرنسيين . . المياه الساخنة فقط هى التى كانت ذات مصدر محلي .

هناك سلعـة أخرى فى هذه التجارة الجديدة وهـى الطباق ، لقد كان الطـباق سلعة

جديدة تماما على العالم الإسلامى ، وقد أحضرها التجار الإنجليز من المستعمرات الأمريكية ، والمؤرخ برسيفى يكتب من حوالى ١٦٣٥ ويتكلم عن « مجئ الطباق ذى الرائحة الكريهة والدخان المقزز ، ويقول إن « الإنجليز الكفار أحضروه فى عام ١٠٠٩ (١٦٠١) وباعوه كعلاج لبعض أمراض الرطوبة . » . ومع هذا .. فإن استخدامه امتد بسرعة فيما وراء الأغراض الطبية . وقد استخدمه « الباحثون عن اللذة الشهوانية ، وكذلك الكثير من العلماء والأقوياء » وفى فقرة أخيرة يصف برسيفى الشعبية المباشرة للرذيلة الجديدة ، وآثارها . أن التدخين لايتوقف فى المقاهى .. إن المقاهى أصبحت مملوءة بدخان أزرق إلى درجة أن الجالسين فى هذه المقاهى لايستطيعون رؤية بعضهم بعضا ، « حتى الأماكن العامة قد سمم المتعاطون أجواءها » ، « لم تكن الأنابيب التى يدخنون فيها تترك أياديهم وكان كل شخص ينفخ الدخان فى عين الآخر ، وقد جعلوا الشوارع والأسواق نتنة الرائحة » . وبالرغم من كل هذه الآثار السيئة فإنه ببداية عام ١٠٤٥ (١٦٣٥ - ١٦٣٦) أصبح انتشار الطباق وشهرته ، لايمكن أن تكتب أو يعبر عنها .

فى نهاية القرن ١٨ ساعد الضعف الاقتصادى للشرق الأوسط على تمهيد الطريق للسيادة السياسية والعسكرية لأوروبا فى القرن التالى . ولكن الكتاب المسلمين أظهروا معرفة ضئيلة بهذا ، ولقد ظل الأدب الاقتصادى للغرب غير معروف كلية للقراء المسلمين . ولم يترجم عمل واحد ، ذو محتوى اقتصادى إلى العربية أو الفارسية أو التركية ، حتى القرن ١٩ .. حتى الروايات المحدودة عن أوربا والتى كانت متاحة كانت تختص بالشئون السياسية العسكرية ، ولم يكن لديها شىء تقوله سوى القليل عن اقتصاديات الأمم الأوروبية . وربما يكون الاستثناء الوحيد لهذا هو السفير المراكشى غسانى ، الذى زار مدريد فى ١٦٩٠ - ١٦٩١ ، وكانت تعليقاته على آثار التوسع الأسبانى فى أمريكا ، قد أظهرت نوعا من الفطنة وبعد النظر ، وصدى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

إن الاسبان لايزالون يملكون كثيرًا من المقاطعات والأراضى الشاسعة فى الانديز ،

ومايجلبونه من هـناك يجعلهم أغنياء ، وباحتلال واستغـلال الأراضى الهندية والثروات العظيمـة التى جنيت منها . . تملـك الأمة الأسبانية اليوم أعم ثروة وأكـبر دخل بين كل المسيحيين . ولكن حب الرفاهية ومباهـج الحضارة قد غلبتهم ، ونادرًا ما تجد واحدًا من هذه الأمة يعـمل بالتجارة أو يسافـر للخارج من أجل التـجارة كما تفعل الأمم المسـيحية الأخرى مثل الهولنديـين والانجليز والفرنسيين وأهالى جنوة وأمثـالهم . وبالمثل . . فإن المهن التى تمارسها الطبقات الدنيا وعامة الناس كانت محتقرة من هذا الشعب ، الذى يعد نفسه أسمى من الأمم المـسيحية الأخرى . ومعظم هؤلاء الذين يمـارسون هذه المهن فى أسبانيا فـرنسيون ، ذلك أن وطنهم الأصلى لـم يوفر لهم سوى حياة فقـيرة ، فهاجروا لأسبانيا للبحث عـن العمل وجمع المال . وفى وقت قصير . . كان باستطـاعتهم اقتناء ثروات عظيمة . . . »[٢١] .

إن السفير العثمانى واصف الذى كان فى إسبانيا فى ١٧٨٧ ، ١٧٨٨ لاحظ بعض الآثار الاقتصادية للسبائك الأمريكيـة فيقول : « كل ثلاث سنوات يرسل الاسبانيون ٥ أو ٦ آلاف عامل لمناجم العالم الجديد ، وقد أصبح هـذا ضروريا بالنسبة للدولة ، نظرًا لأن معظم عمال المناجم لايستطيعون الـتكيف مع الطقس ويموتون . إن الذهب والفضة كانا يأتيان إلى دار سـك النقود فى مدريد ، والشعب هزيل والزراعـة ضئيلة ، وهذا ما أجبر الاسبانيين علـى استيراد المواد الغذائية من مراكش وهذا هو الـسبب فى أنهم كانوا يطلبون العلاقة الطيبة مع الحاكم المراكشـى ؛ فهو يبيع لهم الامدادات الغذائية بسعر عال مقابـل ذهب وفضة غير مـضروبين ، ثم تضـرب عملة له فـى مدريد من هذه الـسبائك تحمل نقوشا باسمه »[٢٢] .

لقد كان لدى الوزيـر العثمانى الكثير لـكى يقوله عن الشئون الاقتـصادية ، ولقد ناقش محمد سيد أفـندى هذا أيضًا ، وتأثر بالمصانع التى زارها التى كـانت تنتج القماش والزجاج[٢٣] .

فى الجزء الأخيـر من القرن ١٨ . أشار مبعوثـون مثل رسمى وعزمى كـثيرًا إلى التجارة والصنـاعة فى الأقطار التى زاروها . ان رسمى ذهـب إلى برلين فى ١٧٧٧ ،

والذى سافر عبر رومانيا وبولندا ، كان له عدد من التعليقات . . لقد لاحظ أنه « فى المملكة البولندية ، بجانب البولنديين . . هناك جنسيتان أخريان هما الروس واليهود . أما الروس . . فيهتمون بالزراعة والأعمال الشاقة الأخرى ، بينما يقوم اليهود فى المدن بالتجارة فى القمح والسلع الأخرى ، وكل الأعمال الأخرى التى تدر ربحا عن طريق البيع والشراد . ولكن الربح أو الفائدة العظمى كانت فى أيدى البولنديين الذين كانوا أغنياء أصلا ، وكانوا يلبسون معاطف بها خيوط ذهبية وذات أكمام عريضة واسعة ، وكابا خفسيفا من صوف الحملان . وفى بروسيا . . شاهد مصانع السكر والقماش ، ولاحظ أن الماكينات المستخدمة فى هذه المصانع صنعت فى مدينة برلين . لقد كانوا يصنعونه بأنفسهم أولا فى سكسونيا ثم بعد ذلك فى برلين[٢٤] . إن خليفة عزمى الذى ذهب إلى برلين فى ١٧٩٠ ، كان أكثر اهتمام بالشئون العسكرية والسياسية ، ولكن كان لديه أيضًا ما يقوله عن الجهد الروسى الناجح لتأسيس الصناعات ، القوة التى تمنحها هذه الصناعات للبلاد[٢٥] .

والاشارات إلى أوروبا فى الخطابات العثمانية قبل القرن ١٩ نادرة جدًا . مثال واحد جاء فى عمل أدبى كتبه الشاعر Hashmet بمناسبة ارتقاء السلطان مصطفى الثالث العرش فى ١٧٥٧ . فى هذا العمل يضفى الشاعر التكريم والتشريف على السلطان ، ولكى يمجد اعتلاءه العرش. يستخدم الأسلوب الأدبى الشائع الخاص بالحلم ، وموضوع المسلم المشهور الخاصة بملوك الأرض ، الذين جاءوا ليحترموا ويطيعو رب الإسلام فى منامه ، ويرى الشاعر الملوك يصلون إلى الدولة ليقدموا فروض الطاعة للسلطان الجديد ، ويسألونه امتياز الخدمة فى بلاط السلطان . وهؤلاء الملوك يأتون إلى الشاعر واحدا بعد الآخر ، ويشرحون أغراضهم ، ويلتمسون منه المساعدة فى الحصول على الوظائف التى يريدونها . كل حاكم يذكر امتياز قطره ويطلب تعيينا أو وظيفة مماثلة فى بلاط السلطان الجديد . وإمبراطور الصين يسأل أن يكون أمينا على بورسلين القصر ، وإمام اليمن يريد أن يكون رئيس صانعى القهوة . ثم يأتى بعد ذلك ستةحكام أوروبيين بالترتيب التالى :

قيـصر روسيـا يسأل أن يـكون صانـع الفـراء الأول ، أو رئيس صـانعى الـفراء ، والإمبراطور الـنمساوى الذى يزهـو بمهارة بلاده فى صناعـة الزجاج والكريسـتال والمرايا يسأل أن يكـون رئيس صانعى الـزجاج ، أما حاكم البنـدقية ، الذى يتحـدث عن مهارة شعبه فـى المعادن النفسية فـهو يطلب أن يكون رئـيس الصياغ ، أما ملك انجـلترا الذى يتحدث عن إنتاج بلاده لمساحيق وأسلـحة الحرب . . يسأل أن يكون مسئولا عن مخازن الأسلحة والمساحيق ، أما ملك هولندا . . فهو يتحدث بزهو عن ازهار التوليب والأزهار الأخرى . . فهو يطلب أن يـكون بستانيا ، وأخيرا ملك فرنسـا الذى يصف إنتاج بلاده من القمـاش والملابس يسأل أن يكون مسـئولا عن أصواف الملابس ، ولم يذكـر حكاما أوروبيين آخرين [٢٦] .

إن المنام الذى رآه حـشمت ربما تكون لـه قيمة ضئيلـة كتاريخ اقتصـادى ، ولكنه يعطى انـطباعا عن مدى رؤيـة العثمانيـين فى منتصف الـقرن الثامن عشـر لدول أوروبا ومنتجاتها .

وأبو طالب خان الذى زار انجلترا فى نهاية الـقرن الثامن عشر ، كرس فصلا كاملا في كتابه لبدايات الصناعة ، التى اسـتطاع أن يراها فى ذلك الوقت . لقد رأى فى عدد ودقة الماكـينات السـبب الأول لثروة وعـظمة الانجلـيز . وهذا ما جـعل الانجليـز يمدون سلطانهم إلى أماكن بعيدة ، وهذا أيضًا ما جعل مـن المستحيل على جيرانهم الفرنسيين بالرغم من قوتهـم وشجاعتهم أن يفعلوا أى شىء ضدهم . ويـذكر أبو طالب ويصف أنواعا عـديدة من الماكينـات ابتداء من أبسـطها وهى طواحـين القمح ، مرورا بماكـينات الحديد الضخمة التى تدار بالبخار ، ويعلق على صناعة المدافع والألواح المعدنية المسطحة والأبر ، ويبدى إعجابه بسرعة وكفاءة ماكينات الغزل . ويصف عملها ، وقد لاحظ أنه بواسطة هـذا الاخـتراع . . أمكن إنتاج القماش بسـرعـة كبيرة جدًا وبأيد عامـلة ضئيلة جدًا . ولكـنه لم يعجب بـالصنف ؛ حيث وجـد أن نوع القماش أقل جـودة من ذلك المصنوع على اليد فى الهند . وقد زار أبـو طالب أيضا مصانع خمر ، وورق ، ومنشآت أخرى وكان لديه الكـثير ليقوله عن المضخـات التى تستخدم لمد لندن بـالمياه . وقد سمع

عن ماكينات تستخدم فى المطبخ . وقد لاحظ أن « رجال هذه المملكة ليس لديهم صبر ، ويكرهون الأمور التافهة والأعمال التى تستهلك الوقت ، ولذلك . . اخترعوا ماكينات للعمل فى المطابخ للقيام بهذه الأعمال التافهة والأعمال التى تستهلك الوقت ، ولذلك . . اخترعوا ماكينات للعمل فى المطابخ للقيام بهذه الأعمال التافهة ، مثل شواء الدجاج وفرم اللحوم وبشر البصل »[٢٧] .

ويبدو أن أبا طالب قد زار عددًا من المصانع فى أجزاء مختلفة من القطر . ولقد تأثر بما رأى فى ذلك الوقت ، وعلق فى ملاحظاته السافرة على المنشآت الاقتصادية للقوة السياسية والعسكرية ، وتبدو العلاقة واضحة بشكل أكبر ، وناقشها بوضوح أيضًا زائر متأخر عن أبى طالب بقليل ، وهو خالد أفندى السفير العثمانى فى باريس من ١٨٠٣ - ١٨٠٦ ، لقد كان خالد أفندى رجعيًا تمامًا يحتقر الفرنسيين والأوروبيين ، ويعارض فكرة تقليدهم بأى شكل ؛ فالعلاج لديه واضح وبسيط : « يعلم الله أن وجهة نظرى هى أنه اذا استطعنا - كاجراء احتياطى كل ٣ أو ٤ سنوات ، توفير ٢٥٠٠٠ كيس من الجديد Asper (•) ، وأنشأنا خمس مصانع للنشوق والورق والكريستال والقماش والبورسلين ، وكذلك مدرسة للغات الجغرافية . . فإنه فى خلال خمس أعوام لن يكون هناك شىء يسيطرون عليه ؛ نظرًا لأن أساس تجارتهم الحالية هو هذه السلع الخمسة ، فليمنح الله رؤساءنا القدرة على العمل والحماسة، أمين »[٢٨] .

إن تأكيد خالد على الحاجة للتعليم المتطور قد تم من قبل ، وتوقع حدوثه بواسطة مصلحى القرن الثامن عشر ، كما أن إشارته للصناعات كواحدة من مصادر قوة أوروبا ، مع أنه قد عبر عنها ببساطة ، تعتبر قضية جديدة ومهمة بالنسبة للشرق الأوسط . وفى خلال القرن التاسع عشر . . أصبح هذا جزءًا من حكمة مقبولة ، وقد رأى الحكام المصلحون فى تركيا ومصر وإيران ، وأماكن أخرى ، العلم والصناعة كطلاسم سحرية يستخرجون بها الكنوز الضخمة للغرب الغامض .

(•) عملة تركية قيمة تساوى ١/ ١٢٠ من القرش

الفصل الثامن

الحكومة والعدالة

كان المجتمع الذى ينتمى إليه المسلم بالنسبة له هو مركز العالم ومحدد بتقبل حقيقة الله ، وقبوله قانونه . وفى العالم الإسلامى كانت هناك دولة الخلافة وحاكم واحد ، هو الخليفة الرئيسى الشرعى لدار الإسلام والحاكم الأسمى للدولة الإسلامية .

لقد كان هذا المفهوم فى القرن الأول أو نحوه من التاريخ الإسلامى يطابق الواقع . لقد كون الإسلام فى الواقع مجتمعا واحدًا ودولة واحدة وكان تقدمه سريعًا وبلا عوائق ، ولابد أنه كان يبدو من الواضح ومن المؤكد بالنسبة للمعاصرين لهذا أن التقدم السريع والاكمال المميز لعميات الفتح سيجلب قبل ما مضى وقت طويل كل الجنس البشرى إلى الجانب الإسلامى .

فى خلال القرن الثامن . . كان إسلام العرب قد وصل حدوده ، وبالتدريج تقبلت فكرة أن التوسع الحتمى للدولة والعقيدة الإسلامية سوف يتوقف ، لقد أحل التخطيط للاستيلاء على القسطنطينية ولكنه استؤنف بعد عدة قرون بواسطة الاتراك العثمانيين فى موجة جديدة للفتح الإسلامى ، والتى بدورها توقفت فى منتصف أوروبا . وبالتدريج . . بدأ المسلمون يتقبلون فكرة أن الإسلام له حدود ، وأن هناك مجتمعات أخرى ودولا أخرى فيما وراءه . أما مفهوم المجتمع الإسلامى العالمى الواحد والذى يضم كل الجنس البشرى . . قد توقف وترك تحقيقه للمستقبل طبقا للنبوءة .

فى العالم الآن ظهرت فكرة وحدة وعالمية الدولة الإسلامية ، وأحيانا كانت تظهر ممالك متصارعة داخل الإمبراطورية الإسلامية ، وفى أحسن الأحوال . كانت تعترف اعترافًا اسميًا بسلطة الخليفة ، وفى وقت ما ظهرت أكثر من خلافة ، وبعد أن دمر

المغول خلافة بغداد في ١٢٥٨ م كانت الوحدة السياسية النظرية للإسلام في نهايتها . ومع هذا .. فإن الفكرة المثالية للحكومة الإسلامية الواحدة ، كانت لاتزال تسيطر على عقول الحكام المسلمين الذين ظهروا بعد عصر الخلافة . وأحد أبرز الملامح المميزة للدول الإسلامية في العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر ، هو غياب الكيانات العرقية والاقليمية ، أو حتى الالقاب العرقية والاقليمية ، للحكام مثلما نجد في أوروبا ؛ حيث نجد منذ وقت مبكر ملك فرنسا وملك انجلترا وملك الدانمرك وكثيرين آخرين .

وفي الشرق الأوسط الإسلامي .. لم يكن هناك شيء مثل هذا ، فمن ناحية هذا التنوع وعدم الاستقرار للدولة في فترة العصور الوسطى ؛ حيث كان من غير الشائع تمامًا لحاكمين متعاقبين أن يحكما نفس الأقاليم بنفس الصورة ، ولكنه ظل من ملامح النظام الملكي الإسلامي الاسمي حتى في فترة ، ما بعد العصر المغولي ، عندما كانت الدولة أو الولايات بشكل عام مستقرة نسبيًا .

وفي ١٥٠٠ م .. كانت هناك ثلاث دول ذات أهمية في منطقة الشرق الأوسط هي تركيا وإيران ومصر ، وبالغزو العثماني لمصر وتبعيتها لها أصبحت هناك دولتان ، ولكن الألقاب التي كانت تطلق عليهم مثل سلطان تركيا وشاه إيران وسلطان مصر ، كانت تطلق عليهم من منافسيهم ، أو من الخارج ولم يكونوا هم أنفسهم يطلقون هذه الألقاب .

كانت هذه الألقاب في الاستخدام الأوروبي بحتة ، وكان الحكام يطلقون الألقاب على بعضهم البعض ؛ فقد كان هذا يعني أن اللقب الاقليمي انظر ص ٢٣٠ على أنه محلي ومحدد ، وعندما كان حكام تركيا وفارس ومصر يتكلمون عن أنفسهم .. كانوا يطلقون على أنفسهم لقب حاكم الإسلام ، أو حاكم شعب الإسلام أو أراضي الإسلام ، وليس حاكم تركيا أو فارس أو مصر .

وكان هناك لدى المسلمين مثل ما لدى الشعوب الأخرى من اتجاه لرؤية الأخرين كانعكاس لأنفسهم ، وبينما كان الإسلام يؤخذ كوحدة واحدة .. كان من الطبيعي

التفكيــر فى دار الحرب بنفس الاصطلاحات ، الـتى كانت تطلق على الـكفار ؛ خاصة هؤلاء الذين كانوا يعيشون فيما وراء الحدود الإسلامية .

وبينمـا كان المؤرخون يركزون عـلى الاجزاء ذات الأهمية الحـقيقية للـتاريخ ؛ أى الشئون التـى تخص مجتمع اللـه والحكام المعنيين ، ويهـملون تلك التى تخـص الكفار البرابرة فيما وراء الحدود الإسلامية . . كانت هـناك دول إسلامية مرغمة بصورة متزايدة على التعامـل بشكل أو بآخر مع هؤلاء البرابـرة ؛ ولذلك كان عليهم أن يجمـعوا عنهم بعض المعلومات وإن كانت قليلة .

لقد كانـت النقطة الأولى ذات الأهمـية فى التعامل مـع الكفار هى تحديد وتـسمية الحكام المتـلفين ، وقد اثار ذلك بعـض المشاكل المهمة . إن الـتقاليد الإسلاميـة المبكرة التى ترجع إلى الوقـت الذى كان فيه الإسلام مقصورا على شبة الجـزيرة العربية ، وقد حددت أسمـاء ثلاثة حكام كانـوا يحكمون المـناطق المحيطة وهـم كسرى Kisra وقيصر Qaysar والنجاشى Nagash ولايذكر أى واحد من هؤلاء فى القرآن بالاسم ، ولكن الاشارات القرآنـية العرضية إلى الـدولة المحيطة قد شـرحت فى التعليـمات والأحاديث المنقولة ، وأدخلت الكلمات الثلاثة إلى العـربية ربما عن طريق الآرامية . فكلمة كسرى Kisra مـن Chosrse khusraw واحـــد مـــن أعظم حكام إيران المـتأخرين من الأسرة الساسانية ، وقيصر Qaysar ا شتقت من Coesar ، والنجاشى Nagash من Nagu ، ويبدو أن الالـقاب الثلاثة قـد استعملـها المسلمـون الأوائل على أنهـا أسماء شخصية ، لا على ألـقاب للدلالة على الحكام ، الذين كانوا يحـكمون فى ذلك الوقت فـى الاقـطار الثلاثة المهـمة المعروفة لهـم ، وطبقا للقـول المنسوب إلى محـمد إذا فنى كسرى . . فلن يكون هناك كسرى بعده ،وإذا فنـى قيصر . . فلن يكون هناك قيصر . . بعده ، وستنفق خزائنهم فى سبيل الله [١] .

لقد فنى كسرى ولم يكن هناك كسرى بعده ، فلقد انتهت الدولة الساسانية وألحقت ببيت الإسلام House of Islam كما انتهـى عصر الاباطرة Zoroas-trians أما المملكة المسيحية الاثيوبية قد بقيت ، ولكنها احيطت من كل جانب ، وأصبحت إلى حد ما غير

ذات أهمية ، وظلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية فقط كجار ومنافس للإسلام ، ولم يستخدم لقب قيصر إلا نادراً للإشارة إلى الاباطرة البيزنطيين . وكان هؤلاء الاباطرة يتنادون أحيانا بألقاب مهنية . وهناك لقب شائع هو طاغية Toghiya أى Tyrant ، وقد استخدم فى ما بعد أيضًا للإشارة إلى الحكام الأوروبيين . وذلك بواسطة كتاب شمال أفريقيا ، وهناك أيضًا صيغة للخطاب استخدمت فى خطاب أرسل بواسطة الخليفة هارون الرشيد إلى الامبراطور البيزنطى نيكيفوراس Nikephoras والذى يبدأ بـ « من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيكيفوراس كلب الروم ، تحية »[٢] .

أما أكثر الاصطلاحات استخداما فى الإشارة إلى الاباطرة البيزنطية وكذلك إلى حكام المسيحية فهو ملك Malik أى King والكلمة العربية ملك فى القرآن والأحاديث والسنة مثل نظيرتها فى العبرية ملخ Melekh فى الأسفار المبكرة للعهد القديم ، تحمل إشارة ضمنية سلبية عندما يطلق على الحكام الأدميين على أنها سلطة دنيوية لادينية . فى القرون الإسلامية المبكرة وفى نطاق الأراضى الإسلامية . . استخدمت كاصطلاح للتمييز بين الحكم الكافر والتعسفى للحكام الدنيويين وبين الحكم المشرع سماويا للخليفة إن تصور فكرة أو اصطلاح الدولة لم يأخذ حقه من الاعتبار بين المسلمين ، إلا بعد ظهور النظام السياسى الفارسى مرة ثانية فى بلاد الإسلام . حتى فى ذلك الحين . . بقى هذا التصور ضمنيا سلبيا ، واضحا فى الاصطلاحات المهنية التى كانت تطلق على حكام المسيحية مثل ملوك الكفر وملوك الكفار .

وكان لقب ملك يطلق كثيرا على طبقة واحدة من الحكام ؛ فالإمارات المسيحية التى أسسها الصليبيون فى الأراضى المأخوذة من المسلمين ، تبدو وكأنها تنقصها ولو الشرعية الضئيلة للحكام الأوروبيين فى نماذج الاستخدام المكتوبة ، فى مجالس العدلية المصرية لمخاطبة ملوك قبرص وأرمينيا الصغرى واستبدلت كلمة ملك باللفظ متملك ؛ أى متصنع الملك وهو غير ذلك فى الواقع ، واستخدمت نفس كلمة ملك بلا تمييز للإشارة إلى الامراء الفرنجة وزعماء القبائل الأفريقية والاباطرة البيزنطيين والهنود الصينيين وكذلك حكام أوروبا .

ومن أجل مراسلة الحكام .. لابد أن يكون هناك تحديد أكبر ، إن الأمثلة الإسلامية المبكرة لمثل هذه المراسلة هى خطابات تدعى Alleged أنها تبودلت بين النبى محمد ﷺ وحكام الأقطار الثلاثة المحيطة بالجزيرة العربية ، ، إن صحة هذه الحقائق وقد وضعت محل خلاف فهى بكل تأكيد من وقت مبكر جداً ، وتنفع كدليل على المعاملات مع الحكام غير المسلمين . إن الحكام الثلاثة قد خوطبوا بأسمائهم متبوعة بالألقاب ، التى غالبا ما تكون ملكًا وأحيانًا فى نصوص مطابقة لهذه كانت كلمة سيد Lord (صاحب) .Sahib ، أو القوى azim (عظيم) Mighty وباسم المقاطعة أو الشعب المحكوم . وهكذا .. كان الامبراطور البيزنطى يخاطب بلقب ملك أو صاحب أو عظيم الروم ، النيجوس Negus يخاطب بأنه نجاشى أو ملك أثيوبيا وهكذا . أما صيغة التحية فهى مختلفة عن تلك المستخدمة مع الحكام المسلمين . فعندما يكاتب حاكم مسلمًا حاكمًا أو آخر فإنه يستخدم التحية الإسلامية الكلاسيكية ، السلام عليك Peace be with you. وعندما يخاطب حاكمًا غير مسلم .. فإن التحية تكون السلام على من اتبع الهدى Peace be with those who follow the right path ، وهذه إلى حد ما تحية غامضة أصبحت مقياسا فى مخاطبات الحكام غير المسلمين . وكان السفير المراكشى غسانى يصر على تحية ملك أسبانيا بهذه الكلمات عندما يستقبله على الملأ . فقد لاحظ أن الطاغية الاسبانى قد دهش لما سمع هذه الصيغة التى ليس لها مثيل من قبل فى المخاطبة ، لكنه تقبلها مرغما نظرًا لأنه يعلم أن السفير مصر على ألا يستعمل صيغة غيرها[٣] .

تنقصنا المعلومات من المراسلات الدبلوماسية مع القوى غير الإسلامية فى القرون المبكرة ، مع أنه يبدو من المحتمل أن العبارة البعيدة عن الذوق « كلب الرومان » المكتوبة فى عشية اندلاع الحرب هى استثناء أكثر منها قاعدة . تأتى أفضل المعلومات التى لدينا فى مثل هذه الأمور فى فترة العصور الوسطى الإسلامية من مصر ، ولدينا خبر مبكر جدًا عن تبادل الخطابات غير المسلمين ، منهم الامبراطور البيزنطى المشارك Byzantine Coemperor وهذا الخبر يؤرخ من القرن العاشر[٤] .

من هذا أخبار تعد جيدة إلى حد ما فى الأدب المصرى البيروقراطى ، وكذلك عدد من الوثائق المحفوظة فى الأرشيفات الأوروبية .

وحقيقة . . فإن المعلومات الكاملة ليست متـاحة حتى عصر العثمانيين الذى حصلنا عنه ، ولأول مرة ، لا عـلى تواريخ وأخبار فقـط ، بل على وثائق عـديدة أيضًا . من تلك التواريخ ، أو الأخبار . . يـستطيع المرء أن يدرك أن العثمانيين لم يـهتموا اهتمامًا كبيرًا بالالـقاب الأوروبية الصحيحة . وحتـى كمال باشا زاده Kamalpasazade مؤرخ سليمان العظـيم ، يشير إلى الحكام الأوروبيين الرئيسـيين كبك فرنسا bey of France وبـك إسـبانيا وبك ألمانـيا . وهو لقب أعطـي فى الامبراطورية الـعثمانية لمجـرد حاكم إقليمـى . وبنفس الروح والأسلوب عـندما يشار إلى الشـعوب والأقطار التي يحـكمها هؤلاء الحكام الأوروبيون ، حتى فى الخطابات الملـكية الموجهة على أنها ولايات ، وهو الاسم المطبق على تقسيمات وولايات الدولة العثمانية .

وتستخـدم النصوص العثـمانية بشكل أكـثر شيوعًا مصطـلح كيرال Kiral للحكام الأوروبيين بألقابهم الصحيحة ، كما حددوها بأنفسهم ، ولكن دون مشابهتهم للمناصب الإسلامية الرئيسية . وهـناك خطابات إلـى المـلكة اليزابيث الأولى ملكـة انجلترا تبدأ بـ « فخـر أتباع عيسى الأفـضل ، أكثر السيـدات تبجيلا فى المجـتمع المسيحـى ، مديرة شئون العقيدة النصرانية Nazarene التى تستحق أعظم آيات الاحـترام والتبجيل ، ملكة أراضى انجلترا ، فلتكن نهايتها سعيدة مباركة Blissful »[٥] ، هذا اللقب الشائع فى كل الخطابات الموجهة إلى الحكام المسيحيين الأوروبيين يشير إلى التصنيف الدينى الرئيسى المأخوذ لدى العثمانيـين أن شخصية الملكة اليزابيث المسيحيـة ، قد أكدت فيما لايقل عن ثلاثة مرات ، قبل أن يبدأ كاتب الوثيقة الكلام عن انجلترا . لقد كانت الملكة واحدة من حكام المسيحيـة . وفى نطاق هذا الكيان الأكبر . . فإنهـا تحكم أرض (ولاية) انجلترا . والغيـر من مثل صيـغة الدعاء النبـوى المذكور أعلاه ، تعـبر عن الأمل فى أن تـصبح مسلمة (أى الملكة) قبل موتها وهكذا تكسب الرحمة الأبدية .

فى عصر اليزابيث كانت المعلومات عن أرض انجلترا قليلة ومهام حاكمها فى تركيا .

وقد كانوا يعرفـون أكثر - وهذا شيء طبيعي - عن دول وسـط أوروبا ؛ حيث خوطب الأمبراطور فى بروسيا بنفس الصيغة ، ولكن تتبع بصيغة قريبة من ألقابهم الصحيحة .

وظل المجلس العثمـانى لوقت طويل يرفض إضفاء أى لقب أكبر مـن ملك للحكام المسيحـيين ، بينما كـان سلاطين مراكش يسـتخدمون اصطلاح سـلطان بحرية أكـثر تجاه الحكام المسلـمين الآخرين ، وكذلك الحكام الأوروبيـين المسيحيين ، أما العـثمانيون . . فقد قصروا هذا اللقب على أنفسهم حقـدًا وغيرة منهم ، بل إنهم نادوا الحكام المسلمين الآخرين بـألقاب أقل من تـلك التى ينـادى بها الحكـام الأوروبيون ، حتى الامـبراطور الرومانى المقدس كان عـادة يخاطب بأنه ملك فيينا ، وهذا الاصـطلاح فى البروتوكول تعبيـر للتقليـل والتصغير ، وأول حـاكم أوروبى يعطى لـه لقب أعظم إلى حـد ما من الألقاب السابقة ، هو فرنسيس الأول حاكم فرنسـا الذى أشير إليه فى المعاهدة ا لفرنسية العثمانية ، بأنه باديشاه ، وهو لقب من أصل فارسى ، يشير إلى حكم سامى ، وأحيانا كان يطلـق على السلاطين العـثمانيين أنفسـهم . ويعتبر إطـلاقه على ملك فرنـسا تنازلاً عظيمـا . وحتى القرن الثانـى . . لم تكن ألقاب التـعظيم والتمـجيد مسموحة لـلحكام النمساويين والروس ، والأوروبـيين الآخرين . وكان التقليد هو إضفـاء ألقابهم الخاصة بهم عليهم ، وكان الامبراطور النمساوى يخاطب بكاسار Casar من قيصر Kaiser ، والروس Czar .

ولقد اعتقد الروس أن دخـولهم عام ١٧٧٤ م فـى معاهدة Kucuk Kaynarja أمر عظيم الأهميـة ، هذه المعاهدة التى يفرضون فيـها إرادتهم على الامبراطورية الـعثمانية المهزومة .

وتؤكد المادة ١٣ فى المعاهدة هذا « لقد تعهد الـباب العالى بإستخدام اللقب المقدس لإمبراطـور روسيا فى كـل الأعمال العامـة والخطابات ، وكـل الحالات الأخرى بالـلغة التركـية بمعنى تمامـين روسيليريـن بادياج Temamen Roussielerin Padischag أن تضمن المادة اللغة التركية فى النص ، لهو أمر جدير بالملاحظة » .

وهنـاك مذكرة روسيـة معاصـرة عن المعاهـدة لاحظت هـذه النقـطة مع ملاحـظة

المكاســب الاقتصادية والاســتراتيجيــة والسياسيــة ، كواحدة من انجازات المــعاهدة . إن النفور العــثمانى من اضفاء هذا اللقــب على الحكام الأجانب ، كان أكثــر من مجرد أمر مـــن أمور البروتوكــول . لقد كان لــه جذور فى المفهــوم الإسلامى العثــمانى للــياقة والذوق ، ويمكننا أن نرى هذا فــى تقرير كتبه ضابط تركى ، كان مرافقا لــلسفير التركى إبراهــيم باشا إلــى فيينــا فى ١٧١٩ . ويشيــر الكاتــب - الذى لم يكــن دبلوماســيا أو بيروقــراطيا (أى موظفا) - بــل كان جنديا يكــتب بأسلوب تــركى بسيط ومبــاشر إلى الامبراطور النمساوى بكلمة Kaiser مكتوبة بــالخط التركى . ويشرح هذه الكــلمة غير المعتادة لقــرائها ؛ فهو يلاحظ أن هذه الكلــمة تعنى فى اللغة الألمانــية باديشاه Padisah ولكى يــتجنب المشابــهة غير اللائقــة أو المقارنة غير الــلائقة نجده يضيــف كلمة التشــبيه La-tesbih والــتى تعنى شيئا مشــابها للتعبير الانجليزى God save the mark لاقــدر الله [٦] .

لقد اهتم العثمانيون بالتمييز بين ســلطتهم الإسلامية ، وبين تلك التى تخص حكام أوروبا الأقل مــنهم ، وهذا يــبدو واضحا فى أســلوب ، بل وفى عنــاوين الكتــابة فى الخطــابات ، لقد كتب السلطان مــراد الثالث لملكة انجلترا الــيزابيث فى ١٥٨٣ « إن بابنا العالى مفــتوح فى صفح وإحسان لهؤلاء الــذين يعرضون ولاءهم ، إن قلوبــنا المملوءة بالسعادة والخير مفتوحة (مستعدة أو جاهز لـ . . .) لهؤلاء الذين يظهرون إخلاصهم . أن مبعوثه يتلقــى تحية . . مثل تحية المبعوثين من قبل الملــوك الاخرين ، الذين يعرضون الثقة والولاء لــبابنا السامى ، وتمنــينا العظيم سيــعنى بهم ، ويحمون لــذلك . أنت من جانبك دائما باقين على صداقتك وولائك لبلاطــنا ، ثابتة القدم على طريق الثقة والولاء مستمرة وثابتة على طريق الصداقة والولاء »[٧] ، وأن هذه الصيغ الأخرى الأقوى منها الشائعة فى المراسلات مع الحكام الأوروبيين ، إنما تعكس توقعا سابقا للاذعان الأوروبى فى مثل هذه العلاقة .

لقد كــان السفراء المسلــمون وهذا لايدهشنــا - يعطون كل انتــباههم أو أهتمــامهم للحكام المعتمدين لديهم . أما الشخصيــات الأقل تكافؤا لايعطونهم إلا اهتماما ضئيلا .

وذلك يذكر عادة بشكل رئيسى فى سياق اجتماعاتهم ومراسلاتهم أو تبادلهم معهم . إن غسانى يناقش الظاهرة المميزة الخاصة بميراث الألقاب - حتى بالنسبة للإناث - وشغف الإنسان بالحصول على الألقاب سواء عن طريق الاستحقاق والحرارة أو الاقتران والزواج . ويعرض محمد سيد أفندى للقراء شرحا مختصرًا لنظام الحكومة الفرنسية .

لديهم العديد من الوزراء Viziers يطلقون عليهم ministres ومن هم برتبة أقل مارشال ودوق . وكل واحد منهم يختص بأمر معين ؛ ولايتدخل واحد منهم فى عمل الآخر ، وكل منهم مستقل فى العمل المكلف به . والمذكور أعلاه (رئيس اساقفة archbishop of Cambrai) كان مسئولا عن الشئون الخارجية ، ولديه السلطة للتعامل مع مثل هذه الأمور ، مثل : القيام بالحرب أو توقيع سلام ، ويعتنى بالشئون الاقتصادية ، ويتعامل مع السفراء القادمين من المناطق الأخرى ، ويعين ويفصل السفراء الفرنسيين لدى صاحب السعادة باسطنبول [٩] .

وحتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . . لم يبدأ المعوقون المسلمون ، والزوار الآخرون إلى أوروبا فى إعطاء أى اجتماع للجهاز الفعلى للحكومة ، والموظفين الأقل فى المرتبة من الموظفين الرئيسيين . وبالتأكيد أكثرهم أهمية عزمى أفندى ، السفير العثمانى لبرلين من ١٧٩٠ - ١٧٩٢ ، وهو مثل الزوار والكتاب والعثمانيين ، الآخرين يعكس تغيرا ملموسا فى الرأى نحو الأوروبيين ، الذين لم يصبحوا الآن كفارا جهلاء فقط يستحقون الذكر بسبب عرابتهم المسلية ، وعلى العكس . . أصبحوا الآن أقوياء وأفرادا متطورين ، حيث يجد أن تدرس أساليبهم لاستخدامها ضدهم وربما لهذا الغرض لتقليدهم . ان تقرير عزمى يبدأ بصيغة وصفية معتادة لرحلاته ونشاطاته والجزء التالى من تقريره ذو أهمية أعظم ، والذى يعرض فيه وصفا لمملكة بروسيا تحت عناوين مختلفة : إدارة الدولة للسكان ، الوظائف الحكومية العليا ، الحالة المالية ، مستودعات الطعام الحكومية ، ترسانة الأسلحة والذخيرة ومستودعات المدفعية ، ويبدو أن عزمى أفندى تأثر بدرجة كبيرة بتنظيم الحكومة البروسية ؛ وخاصة كفاءة جهاز الدولة وكفاءة موظفيه ، وغياب الموظفين غير المؤهلين الذين لاضرورة لهم ، ونظام المرتبات

والترقيات ، ويتكلم عن الجهد الروسى لتوطيد الصناعات ، وأسهب فى الكلام عن الهدوء الداخلى وأمن المملكة البروسية ، وهو يضفى مدحا خاصا على النظام الحالى والخزانة . وللجيش الروسى ونظم تدريبه ، التى أصبحت مصدرًا مهما للمسئولين العثمانيين ، الذين يسعون لتنظيم عسكرى أفضل ، ولم يقنع عزمى أفندى باقتراحاته المنتظمه فى كلامه ، بل أنهى تقريره بسلسلة من التوصيات لتحسين حالة الدولة العثمانية والمملاة عليه بخبرته ، التى اكتسبها هناك وهذه التوصيات هى :

١ - محو الفساد الذى هو سبب الطغيان والخراب فى الدولة العثمانية .

٢ - تطهير جهاز الدولة وذلك لتوظيف الاكفاء فقط فيه .

٣ - كل موظف يتقاضى راتبه طبقا لطبيعة العمل المكلف به .

٤ - طالما أن الموظفين لايرتكبون ما يضر النظام ومبادئ الدولة ، فلايجب أن يفصلوا من وظائفهم .

٥ - لايجب أن يعين أفراد غير مؤهلين في وظائف لاتناسبهم .

٦ - يجب أن تتعلم الطبقات السفلى التى تجاهد عبثا لتقليد الطبقات العليا .

٧ - يجب على القوات المسلحة خاصة المدفعية والبحرية (أن تتدرب جيدًا وتكون مستعدة لمواجهة أى طوارئ فى الصيف والشتاء على السواء . وإذا حدث هذا . . فإن حلفاء الدولة العثمانية سيزيدون قوة وحماسة ، وسينهزم أعداؤها بهذا الأسلوب[١٠] .

ومن وقت لآخر . . كان الكتاب المسلمون الذين يكتبون عن أوروبا الغربية يلاحظون خروجا عن النماذج المعتادة للملكية ، منها مثلا حكم المرأة فمعنى مجتمع يعترف بتعدد الزوجات ونظام الخليلات كنظام معتاد وخاصة بواسطة الحكام . فإن ظهور امرأة كحاكمة غير محتمل . وحقيقة كان هناك قليل من النساء المشاهير الذين استطاعوا تحقيق قوة عظيمة وحتى فى سياق هذا الكلام كانت فترة حكمهم قصيرة ، ومع هذا لم تكن الملكات غير معروفات بالنسبة للعالم الإسلامى ؛ فلقد رأوا ملكات فى بيزنطة

المجاورة ، وفهموا مبدأ الخلافة على العرش . وهناك مؤرخ مسلم معاصر ، فى وقت قريب من المعاصرة يتكلم عن الامبراطورة ايرين Irene التى حكمت من ٧٩٧ - ٨٢٢ ، وقد لاحظ : « لقد حكمت امرأة الروم لأنه فى ذلك الوقت كانت الوحيدة الباقية من البيت الملكى »[١١] لقد سجل مؤرخ مسلم وصول سفيرة من حاكم لومبارو فى إيطاليا المسماة بيرثا Bertha فى ٩٠٦ (اسم الحاكمة بيدثانيت لوثر) ، ولكن لم يعرض شيئا عنها أو عن بلدها . إن القلقشندى يضمن فيما أورده بعد عن « حاكمة نابولى » مايلى معتمدا على مخطوط مبكر عن عصره ، أن اسمها جوانا ، وأنه قد تم إرسال خطاب لها فى حوالى نهاية ٧٧٣ (١٣٧١) - بالألقاب التالية « إلى المعظمة الممجدة المكرمة ، المبجلة ، العظيمة الملكة المجيدة ، الحجة فى دينها ، فقط فى مملكتها ، عظيمة الدين النصرانى من دعامة المجتمع المسيحى ، حامية حدود اصدقاءها من الملوك والسلاطين ».

وقد لاحظ القلقشندى أنه « إذا كان سيخلفها فى مملكتها رجل فله أن يخاطب بنفس الألقاب فى صيغة المذكر ، أو بألقاب أعلى نظرًا لقوامة الرجل على المرأة »[١٢] .

لقد كان العثمانيون على معرفة جيدة بالملكات الأوروبيات الحاكمات من اليزابيث ملكة انجلترا إلى ماريا تريزا ملكة النمسا ، ومن الغريب أنه فى الوقت الذى يعلق فيه الزوار المسلمون بشكل دائم وبنفور على المناصب العليا المتاحة للنساء فى المجتمع المسيحى فإنهم يظهرون الاهتمام بالحاكمات النساء .

لقد ناقش عديد من الكتاب المسلمين السلطة الدنيوية للبابا ، وحاول واحد منهم ، وهو المؤرخ الفارسى رشيد الذين في كتابه عن تاريخ العالم المكتوب فى الأعوام الأولى للقرن الرابع عشر تحديد العلاقات بين البابا والامبراطور وملوك المسيحية الآخرين .

« إن نظام حكام الفرنجة Franks هو كالتالى : الأول فى الخط هو Pap والذى يعنى أبو الآباء وهم يعتبرونه خليفة المسيح ، يأتى بعده الامبراطور (Chasar) الذى ينادى فى لغة الفرنجة بـ Amperur وتعنى سلطان السلاطين ، يأتى بعده Reda Frans وتعنى ملك الملوك . ويحتفظ الامبراطور بحكمه منذ أن يصبح امبراطورا حتى وفاته .

وهم يختــارونه (انظر ص ٢٤٤) . أما Reda Frans فيحكم بالمـيراث عن أبيه ، وفى الوقت الحالـى . . يتمتع بنفوذ قوى واحترام عظـيم . ويوجد تحت امرته ١٢ حاكما ، ولكل واحد من هؤلاء الحكام يخضع ثلاثة ملوك ، وأخيرًا يأتى Re التى تعنى ملكا أو سيدا .

إن رتبة البابا عالية وعظيمة جدا ، وهم عندما يريدون تعيين امبراطور جديد . فإن سبعة من عظمائهم الذين يكون عملهم الاجـتماع والاستشارة : ثلاثة منهم برتبة ماركيز وثلاثة أمـراء وحاكم واحد ، وهم يسـتعرضون كل رجـالات فرنسا ، ويختـارون عشرة رجال من بينهم ، ثم بعد تدقيق واختبـار دقيق يختارون واحدا من العشرة ، مشهودا له بالكفـاءة وذا سلطة وعفاف ، كما أنـه مميز بعقيدته وورعـه وكرامته ونبله وكمـال خلقه وثباتـه ، ثم يضعون تاجـا من الفضة علـى رأسه فى ألمانيا ، الـتى يظنها الـفرنجة ١/٣ العالم .

من هناك يذهبون إلى لومبارديا ويضعـون على رأسه تاجا من الحديد ، ثم يذهبون إلى روما مدينة البـابا الذى يقف على قدمه ويضع على رأس المـتوج تاجا من الذهب ، ثم يلـقى المتوج نفسـه تحت اقدام البابـا ويمسك رداءة . فيضـع البابا قدمه عـلى رأسه ورقبته ويخطـو فوقه ، ثم يركب حصانه . عنـدئذ يعطى لقب إمبراطور ويـصبح حكام الفرنجـة خاضعين له ، ويمتد نـفوذه على كل الأراضى والـبحار التى تقع تحـت سيطرة الفرنجة »[١٣] .

أن معلومات رشيد الدين Rashid al-Din جيدة ، ويبدو بوضـوح أنها جاءت من مصدر بابوى ، وهو يتبعها بسرد لتاريخ البابوات حتى عصره .

لقد كان هناك نوع آخر من الحكم أغرب من حكم النساء والكهنة ، قابله المسلمون فى أوروبا ويشـيرون إليه أحيانا فـى بعض كتبهـم . أن تصور الجمهورية لـم يكن بأى حال مألـوفا لمسلمى الـعصور الوسطـى لقد ظهر فى بـعض الكتابـات العربية منـاقشات ومجالات للكتابات السياسية الاغريقية ، حيــث ترجـم الاصطلاح الاغريقي Politeia

(فى اللاتينية res publica) أى (دولة أو جمهورية أو حكومة حرة) إلى الاصطلاح العربى مدينة madina .

إن التصنيف الذى أسماه أفلاطون السياسة الديمقراطية ، يظهر فى النصوص العربية الكلاسيكية باسم مدينة جامعية madina jamaiyya ،حتى فى المجتمع الإسلامى نفسه ؛ طبقا للقوانين المصاغة بواسطة الفقهاء السنين . . كانت الخلافة لاتورث وتتم بالانتخاب ، كما أنها خاضعة للقانون وليست فوقه .

ومع هذا . فإنه بعد الأربعين سنة الأولى وبعد أربعة خلفاء . . كان الحكم في الإسلام مثلما هو موجود فى أى مكان فى العالم فردى monarchical . كما أن الكتابات والمفاهيم الخاصة بالجمهورية التى ترجمت إلى العربية من الكتابات الفلسفيةالاغريقية لم يكن لها أى تأثير خارج دائرة ضيقة من الكتاب وقراءة الفلسفة والافتقار إلى هذا التأثير يبدو واضحا من حقيقة أنه ، عندما كانت حاجة للاصطلاحات للإشارة إلى الصيغ الجمهورية أو الأشكا ل الجمهورية للحكومة فى أوروبا فى مرحلة لاحقة . . فإنها كانت توضع دون معرفة ، أو إشارة إلى الكتابات أو الادب الفلسفى .

إن الشكل الجمهورى للحكومة يعرض بوضوح بعض مشاكل الشمول . وهناك قصة مبكرة جاءت فى تقرير عادى للعمرى Umari من حوالى ١٣٤٠ ، حيث :

« أن البنادقة لم يكن لديهم ملك ، ولكن شكل أو أسلوب حكمهم جماعى ، وهذا يعنى أنهم يتفقون بالإجماع على رجل يعينونه ليحكمهم . ان البنادقة باسم Banadiqa ، ورمزهم شكل إنسانى ذو وجه يعتقدون أنه للقديس مارك أحد الحواريين ، ويأتى الرجل الذى يختارونه ليحكمهم من إحدى العائلات المميزة منهم » .

بعد ملاحظة أن :

لديهم نفس نظام الحكومة ويعطينا العمرى معلومات أكثر تفصيلا إلي حد ما عن حبشوا البلد الأصلى لمبلغه أو مميزة الكافر المرتد عن الدين . « إن نظام حكومة الشعب فى جنوة عامة Communa منهم لم يكن لديهم أبدًا ملك ، ولن يكون حكمهم فى

الوقت الحاضر ينقسم بين عائلتين إحداهما هى بيت دوريا التى جاء منها بالبان . وأما الأخرى فهى عائلة سبينولا Spinola ، ويقول بالبان أيضًا إنه بعد هاتين العائلتين فى جنوا . . هناك عائلات جريمالدى ، ومالونو ، ودى مارى ، وسان توتورى ، وفيشى ، وأعضاء تلك العائلات مستشارون للحكام (١٤) .

يعطى القلقشندى متبعًا التثقيف إرشاداته للمراسلة مع جمهوريتين إيطاليتين ، هما جنوا ، وفينسيا (البندقية) وهو يقول عن جنوا :

« صيغة مخاطبة حكام جنوا : هم مجموعة من الناس من مناصب مختلفة أى منهم ، Podesta والكابتن والشيوخ . وطبقًا للتثقيف . . تكتب خطابات على الكوارتو ، ويتبعون الأسلوب التالى :

« هذه المراسلة تخاطب أصحاب السعادة الممجدين المحترمين المكرمين الموقورين بودستا ، وكابتن وفلان وللشيوخ العظماء ، والمكرمين مديرى قضاء مجلس كوميون جنو الممجدين فى المجتمع المسيحى ، عظماء الدين النصرانى أصدقاء الملوك والسلاطين فليلهمهم الله القوى العزيز اتباع طريق الحق ؛ لتكليل جنودهم بالنجاح ويقودهم بالنجاح ويقودهم إلى الرأى السليم » .

ويضيف التثقيف :

فى بداية عام ٧٦٧ (١٣٦٥ - ١٣٦٦) أبطلوا ، وأصبحت المخاطبة والمراسلة للزوج الذى حل محلهم ، وقد لاحظ القلقشندى فى فيينا :

صيغة مخاطبة حاكم فيينا : الصيغة المعمولة بها اقتبست عندما أرسلت إجابة أو رد له فى عام ٧٦٧ ، وكان اسمه فى هذا الوقت ماركوكورنارد : لقد تلقينا خطاب صاحب السعادة الرويج العظيم ، الموقر المحترم الشجاع الممجد العظيم ماركوكورنارد ، فخر المجتمع المسيحى ، بهاء عقيدة الصليب دوج فيينا ودالماشيا . سند دين أبناء المعمودية صديق الملوك والسلاطين .

وبعد إيراد الكثير من الأمثلة . . يضيف القلقشندى بتعليقه الخاص : « من كل

هذا تبين أن الدوج تختلف عن الملك . فى المثالين الأول والثانى . . كانت صيغة المخاطبة هى نفسها إلى حد كبير ، ولكن فى المثال الثالث كانت أقل من الاثنتين الأولى والثانية .

إذا كان الدوج هو الملك حقًا . . إذن فإن الاختلاف فى صيغة المخاطب يرجع إلى بعض الظروف ، أو إلى بعض الاختلاف فى الفرض الخاص بالكاتب ، أو نقص المعلومات لديه فيما يخص رتبة المخاطب ، مثلما يحدث بسبب ضغط العمل فى أى عصر كما هو واضح(١) .

إلى الشرق يظهر أن رشيد الدين قد سمع عن جمهوريات إيطاليا ؛ فهو يقول : « فى هذه المدن ليس هناك ملك بالوراثة . إن أكابر وعلية الناس ينصبون رجلاً ورعاً ذات حياة مستقيمة ويجعلونه بالاجماع حاكمًا لمدة عام ، وفى نهاية العام يصيح صائح « من عانى ظلمًا فى هذا العام فليتقدم بشكواه ، » كل هؤلاء الذين قد عانوا ظلما يقدمون أنفسهم ثم يسامحونه . ثم يختارون رجلاً آخر ، ويجعلونه حاكمًا . . فيما وراء هذا القطر (حول جنوا) هناك قطر آخر يسمى بولونيا ، وعاصمته مدينة عظيمة وفيما وراءها على ساحل البحر مدينة تسمى (البندقية) (ذكرتها بفينيسيا) ، وقد بنوا مبانيهم كلها وهى ترتفع عن البحر . حاكمهم لديه ٣٠٠ سفينة ، وهناك أيضًا لايوجد حاكم بالقوة أو باللين ، إن تجار المدينة ينصبون بالاجماع (أو الموافقة) رجلاً تقيًا صالحًا ، ويجعلونه حاكمهم ، وعندما يموت يختارون غيره ، وينصبونه حاكماً لهم (١٦) .

فى زمن العثمانيين . . كانت المؤسسات الجمهورية مألوفة ومفهومة بشكل أحسن . لقد حافظت الامبراطورية العثمانية على علاقتها مع جمهوريات راجوسا على الساحل الداعاشى وفينيسيا ، وجنوا والدول الايطالية الأخرى ، وكذلك مع الولايات المتحدة للأراضى المختلفة المنخفضة (هولندا) . ومع هذا . . كانت صيغة المخاطبة لاتزال شخصية ، لقد كان رئيس جمهورية راجوسا الذى استعمل لقب (أى قبيش) قد خوطب فى الوثائق العثمانية بالكلمة وبحار راجوسا . ويشبه ذلك فى الخطابات إلى فينيسيا أو مناقشة أمور البندقية ، ويتحدث الكتاب العثمانيون عادة عن الدوج أو

السيبوريا أكثر منها عن الجمهورية لقد كان كاتب جلبي - الذي كتب فى ١٦٥٥ - قادراً على التمييز بين جمهورية فينسيا الاوليماريكية وجمهوريات الأراضى المختلفة ، وكروموبل فى إنجلترا ا لديمقراطية ، وأيضًا إعطاء بيان مختصر للإجراءات الانتخابية .

فى مسائل تنظيم الحكومة . . يقول إن دول أوروبا مقسمة إلى ثلاث مدارس أو (مذاهب) ، كل مذهب أسسه واحد من الحكماء ذوى المكانة العالية ، أما مدرسة أفلاطون فتسمى ( ) وأرسطو ( ) و (ديموقريطس) أما الموناركى . . فتعنى أن كل الناس تطيع حاكمًا واحدًا حكيما وعادلا وقد اتبعت هذه الطريقة بواسطة معظم حكام أوروبا . أما فى ( ) يكون الحكم فى يد مجموعة من الناس البارزين الذين يكونون مستقلين فى معظم الأمور ، ولكن يختارون واحدًا منهم ليرأسهم . وقد نظمت دولة فينسيا على هذا الأساس . أما ( ) فيكون الحكم فى أيدى الرعايا الذين يكونون بهذا قادرين على حماية أنفسهم من الطغيان . وتختار كل قرية واحدًا أو اثنين من حكامها المشهود لهم بالكفاءة، وترسلهم إلى الحكومة حيث يكونون مجلسًا ، ويختارون قائدًا من بين أنفسهم وهذه الطريقة يتبعها الانجليز والهولنديين.

إن جلبى يعطينا وصفًا مختصرًا للمجالس المختلفة (ديوان) فى فينسيا ، بل وحتى إجراءات التصويت . كل عضو مجلس يكون فى يده كرتان ( ) مثل زراث واحدة بيضاء والأخرى سوداء ويطلق عليها ( ) بعد المناقشة فى الديوان يعبر الجالسون فيه عن رغباتهم بإسقاط هذه الكرات السوداء أو البيضاء .

وهناك كاتب من بداية القرن ١٨ كتب فى شئون أوروبا قد حاول شرح معنى المصطلح ( ) ، ( ) الذى يستخدم فى فينسيا وهولندا وأماكن أخرى ، فهو يقول « فى مثل هذه الدولة . . ليس هناك حاكم منفرد ، ولكن كل شئونها تعالجها مجموعة من الرجال القياديين ، وهؤلاء الرجال ينتخبون بواسطة الشعب ، » ونفس المؤلف يعرّف سويسرا بأنها جمهوريات متحدة أو مجتمعة ( ) ولكن كل واحدة منها تعتبر جمهورية منفصلة . وهو يقول أيضًا إن هذا الاصطلاح يستخدم بالنسبة لهولندا، ولكن مع اختلاف طفيف واسمه ( ) ، وفيه تكون مجموعة من الرجال تصدر

القرارات ، ولكن هناك رجلاً واحدًا ينفذها . أما بولندا فقد لاحظ مع بعض التبرير أنها مملكة وجمهورية في آن واحد (١٨) ، وفي القرن ١٨ لاحظ الزوار العثمانيون أيضًا المؤسسات الأوروبية الغربية مثل المدن الحرة .

فمحمد سيد أفندى الذى زار تولوز وبوردو فى طريقة إلي باريس ، يصفها بأنها مدن حرة ( ) ؛ حيث تحمى المدينة حامية من جنود محليين خاصة فيها ، ويرعى شئونها برلمان يرأسه رئيس . وكلتا الكلمتين ، من اللغة الفرنسية نسختا فى التركية الغربية (١٩) . لقد استعمل المؤلف من بداية القرن ١٨ فى استقصائه لأحوال أوروبا نفس المصطلح ( ) حر ، وكذلك الجمهورية ( ) لوصف ميناء دانزج ، الذى تمتع بإعفاء من كل السلطة الامبراطورية والضرائب . وهناك كاتب آخر من القرن ١٨ يصف بنيات وتركيب الامبراطورية الرومانية المقدسة ، مستخدما الاصطلاحات « حرة » وجمهورية لوصف هذه الكيانات، ذات الامتيازات فى نطاق الامبراطورية كسوابيا (٢٠).

ولقد تكلم بعض الزوار العثمانيون عن أن المجريين ينعون حريتهم السابقة ، لقد دخل الاتراك المؤسسات الجمهورية مظهرًا جديدًا بعد الثورة الفرنسية ، عندما كان الامبراطور ية العثمانية ألا تقصر تعاملها مع الجمهورية الجديدة فى فرنسا ، ولكن يمتد هذا التعامل ليصبح مع الجمهوريات الأخرى ، وبعضها كان على حدود الدولة العثمانية . . وكان على الأسلوب الفرنسى ، وبينما كانت فرنسا ، وتركيا فى حرب . . كان وصول الأفكار الفرنسية للاتراك مدعمًا ، ومع ذلك . . فإن السرعة والقوة اللتين استطاع بهما جيش تعداده أقل من ٢٠٠٠٠ أن يحتل مصر لمدة ثلاثة أعوام ، قد ترك انطباعا عميقا لدى الاتراك . وهكذا أيضًا كان اتساع وعدالة الحكم الفرنسى ، وهذا يمكن ملاحظته من بين الأشياء الأخرى عند المؤرخ المصرى الجبرتى ، الذى حفظ لنا فى عدد من الأعمال التاريخية تسجيلا معاصرًا للانطباعات لدى عضو من العلماء المصريين عن الفرنسيين المختلفين لمصر .

فى ١٨٠٢ انسحب الفرنسيون من مصر وجزر لونيا ، وتم إرسال سفير عثمانى جديد إلى باريس هو خالد أفندى ، مكث حتى ١٨٠٦ ، وكانت تعليقاته ذات فائدة

اخبارية ؛ نـظرًا لأن الفرنسـيين لم يكن لديهـم ملك . . فلم يسـتطيعوا أن تكـون لهم حكومة . بل أكثر من هذا نتيجة لخلو كرسى السـلطة . . فإن معظم المناصب العالية قد شغلت بواسطة صـفوة الناس ، ومع أنه كان لايزال هناك القلـيل من النبلاء . . إلا أن القوة المؤثرة ظلت فى أيدى العامة .

وهكذا . . لم يكونوا قادرين على تكوين ولـو جمهورية . ونظرًا لأنهم لم يكونوا أكثر من مجموعة من الثوريين ، أو على حد التـعبير التركى مجموعة كلاب . . فإنه لم يكن محتملا بأى شكل أن يحدث ولاء أو صـداقة بين أية أمة وبين هؤلاء الناس . لقد كان نابليون كلبا مسعورا ، يجاهد لكى يحضر ويجعل كل الدول فى نفس الظروف التى تعانيها بلده . . إن تاليران كاهن فاسد والباقين مجرد لصوص [٢١] .

فى ٢٩ مايو ١٨٠٧ . . أقصى أول السلاطين المصلحين العظام سليم الثالث ، وقد احتفلت القوى الرجعية بهذا عن طريـق مذبحة للموالين للاصلاح . وبعد عام أو اثنين من هذه الأحـداث كتب أحمد اسـيم افندى المؤرخ السـلطانى تاريـخا لأعوام ١٧٩١ - ١٨٠٨ ، الذى يحمل انطباعا عن حركة الاصلاح بشـكل عام ، والتأثير الفرنسى بشكل خاص . لقد كان سلـيمًا بشكل عام فى جانب الاصلاح ، الذى كان يـأمل فى استعادة القوى العسكـرية الفاشلة للامبراطورية وتمـكنها من مواجهة اعدائها . وفـى فقرة مهمة حدد مثالـها بروسيا ، والتـى يقول إنها قد بـرزت من ضعفها وبـربريتها وأصبـحت قوة عظيمة ، بتبنيهـا العلوم الغربية والتكتيك ، ولكن استعداده لقـبول الأساليب الغربية لم يمنعه من أن يكون ضد المسيحية واعتبار كل المسيحيين كأعداء للإسلام . وفى اعتقاده أن الاتفاقات مع هذه القوى لاتجلب إلا الشر . ولقد كـان معاديا لفرنسا بالذات واستهزاؤه تهكم من العنصـر المعادي لفرنسا ، أو المعارض لها البروفرنس فـى تركيا ، ووصفه بأنه ساذج مخدوع لم يكـن لديه الكثير ليقولـه عن الشئون الداخلية فى فـرنسا ، وقد كان هذا سلبيا ويقول « أن الجمهورية الفرنسية مثل فرقعة المعدة المقززة » وتتكون مبادئها من « هو الدين ومساواة الغنى بالفقير » .

واحد من أكثر المؤسسات الغربية غير المفهومة للملاحظ المسلم ، هو مجلس التمثيل المنتخب .

إن كاتب جلبى ، كما رأينا يعرض ملاحظات قليلة عن المؤسسات الجمهورية الديمقراطية ولكن ضئيلة جدًا . أو مقالة عن أوروبا غير معروفة سوى لشكل ضئيل . ولم يكن لدى باقى الكتاب العثمانيين شىء يقولونه فى هذا الموضوع ، وهناك بعض الاشارات القصيرة العرضية عن الهيئات المنتجة فى إيطاليا وفرنسا وهولندا ، وهى تظهر اهتمامًا قليلا مع عدم تفهم لها .

إن أول محاولة جديرة بالذكر لأبى طالب خان الذى زار إنجلترا فى نهاية القرن ١٨ ، وهو خلال سرد طويل وعام وودى (انظر ص ٢٥٥) إلى حد ما ، ولكنه لايشير سوى إشارتين قصيرتين لمجلس العموم ، الذى زاره فى صحبة بعض الاصدقاء والانجليز .

فى الأول بعد ملاحظة شىء غير مستساغ مؤداه أن الأعضاء الذين يخطبون يذكرونه بقطيع من الببغاوات فى الهند ، لاحظ أن مجلس العموم يخدم غرضا ذا ثلاث اتجاهات وهو تسهيل جمع الضرائب للدولة ، والحفاظ على الملتزمين من الاخطاء ، والإشراف على شئون الحكم والوزراء والشئون بشكل عام .

فى فقرة ثانية . . يعلق أبو طالب بشكل قصير ومختصر على أعضاء مجلس العموم وأسلوب انتخابهم ، ومدى الواجبات والالتزامات والمهام المخصصة لهم . ومن بين هذه المهام لاحظ مع بعض الدهشة تحديد عقوبات المجرمين ، وإصدار بعض القوانين ، وقد كان هذا ضروريا نظرًا لأنهم ليسوا كالمسلمين ؛ فهم لايمتلكون قانون سماويا ، وهم لذلك يعملون على إصدار قوانينهم الخاصة ، طبقا للاحتياجات الضرورية للوقت والظروف ، وطبيعة الأمور وخيرة القضاء .

فى هذه الإشارة للمهمة التشريعية للبرلمان ، لمس أبو طالب واحدة من أعمق الاختلافات بين الإسلام والمسيحية ؛ فلدى المسلمين المؤمنين لم تكن هناك قوة إنسانية

تشريعية . . إن الله هو المصدر الوحيـد للقانون ، والذى ينشره من خلال الوحى ، إن القانون الإلهى ا لشريعـة فى اللغة العربية ينظم كل مظاهر الحـياة الإنسانية . إن القوى الأرضية ليس لها الحق فى إصدار القوانين ، أو حتـى تعديلها ، ولكن مهمة هذه القوى تأكيد وتقرير هذه القوانين لا أكثر . المجال الـوحيد الذى بقى أساسا هو التأويل ، وهو مهمـة العلماء المؤهـلين ، أساتذة القانـون الإلهى . فى الواقـع . . عند التطبـيق كان الموقف مختلفا إلى حد ما عن النظرية فـى كثير من الأمور ، كانت تلك القوانين الالهية يتغاضى عنها ضمنيا ، أو عن طريق الـتأويل . وإعادته ونظراً لأن الظروف المتغيرة تجعل القانون الالهى غير مناسب وغير واف بالـغرض . . فإنه قد أضيف إليه أو عدل بالقانون المعتاد أو ببساطة بإرادة الحاكم . ولكن كل هذا كان ممارسة وليس نظرية فى الأساس . . كان الله هو المشرع الوحيد ، أما السلطات الإنسـانية . . فهى لاتستطيع أكثر من التأويل والتنظيم والتعزيز .

هناك بعض الإشارات الإسلامية المبكرة للممارسة المسيحية تعطى وجهة نظر مشابهة بخصوص الجانب المسيحى بل وتبالغ فى تحديـثها عن « شريعة المسيحيين » ، التى تدرك بالقيـاس إلى تلك الخاصة بـالمسلمين . وفى وقت مـا . . أصبح من المفهـوم أن العالم المسيحي له مفهـومه المختلف لطبيعة القانون ، وأسلوب مـختلف فى إدراك وتحقيق أو تطبيق العدالة .

والذى يدهشنا أن الاشارات الإسلامية المبكـرة للإجراءات القضائية الأوروبية كانت عدائية ومختصرة لهـا ؛ فعلى سبيل المثال هناك زائر من العصور الـوسطى أعطانا وصفا لمحاكمة فى أشكالها المختلفة .

ان لديهم عادات غريبة ؛ فمثلا إذا اتاهم أحد يـتهم آخر بالتزوير . فإن كلا منهما يختبران بالسـيف ، والذى يحدث أن يذهب الرجلان المتهمان مع اخـوانهم واقربائهم ، وكل واحـد منهما يـعطى سيفـان ، يمنطق بأحدهما حـول الخصر ، ويمسك بالآخر فى يده . ثم يقسم المتهم بالتزوير بالقسم المأخـوذ به لديهم على أنه برئ من التهمة الموجهة

له ، ويقسم الآخر على أنه قال الحقيقة ثم يركعان على مقربة من بعضهما باتجاه الشرق ثم يبدآن القتال حتى يقتل أحدهما الآخر أو يعجزه .

واحدة أخرى من عاداتهم الغريبة هى الاختبار بالنار ؛ إذا اتهم شخص ما فى أمور الأملاك والدم ، يأخذون قطعة من الحديد ويسخنونها فى النار ثم يقرأون شيئا من التوراة والانجيل عليها ، ثم يثبتون عصوين رأسيا فى الأرض ويأخذون الحديد من النار بواسطة ملقاط ، ويضعونه على نهاية كل من العصوين . ثم يأتى المتهم ويغسل يديه ويلتقط قطعة الحديد ويمشى بها ثلاث خطوات ، ثم يسقطها ثم تربط يده بالاربطة ، وتختم بختم يحفظ تحت المراقبة ليوم وليلة . وفى اليوم الثالث إذا وجدوا سائلا خرج من بؤرة الحرق . . فيعتبر مذنبا ، واذا لم يجدوا فهو برئ .

عادة أخرى من عاداتهم الاختبار بالماء ، وهذا يعنى أن المتهم تربط يداه ورجلاه بحبل ويدلى فى الماء ، فإذا طفا على سطح الماء فهو مجرم ، واذا غاص فهو برئ ، فهم يعتبرون أن الماء قد قبله . العبيد فقط هم الذين يتم اختبارهم بالماء والنار أما الاحرار فإذا اتهموا فى شىء من أمور الأموال والاملاك يقل عن ٥ دينارات . . يذهب الطرفان بالعصى والدروع ويتحاربوا حتى يعجز أحدهما .

فإذا كان أحد الطرفين امرأة أو معوقا أو يهوديا . . فهو يعين وكيلا أو نائباً أو ضامنًا لـ ٥ دينار ، وإذا سقط المتهم يجب أن يصلب وتصادر كل أمواله ويأخذ خصمه عشرة دنانير من أملاكه .

هذه الفقرة ذكرها القزوينى من عصرى ، ولذلك فهى ربما تشكل جزءًا من خبر إبراهيم بن يعقوب .

ويعطينا أسامه بن منقذ وهو سورى معاصر للصليبيين ، وصف شاهد عيان للغزال فى المدينة المحتلة بواسطة الصليبيين وهى نابولى (نابلس) فى فلسطين :

« يوما فى نابلس رأيت غزالا (للاختبار) ، وكان السبب أن بعض قطاع الطرق المسلمين قد نهبوا إحدى القرى فى نابلس ، واتهموا واحدًا من الفلاحين بأنه أرشد

قطاع الطريق فهرب الفلاح ، ولكن الملك قبض على ابنائه ، فرجع الرجل وقال « أريد العدالة سأتحدى الرجل الذى اتهمنى بأننى أرشدت قطاع الطرق للقرية » وحينئذ قال الملك للسيد الذى تدخل هذه القرية فى اقطاعه « احضر أحدا ليحاربه » فذهب إلى القرية ووجد حدادا وأمره بأن ينازله ، ولكن مالك الأرض يخاف أن يقتل الفلاحون الذين يعملون لديه وتتوقف الزراعة .

لقد رأيت هذا الحداد ، كان شابا صغيرًا قويا ، ولكن ليست لديه خبرة ولاجلد . فهو يقاتل قليلا ثم يجلس ويطلب ماء ليشرب . . وكان الخصم الآخر عجوزا ، ولكنه قوى الإرادة ومحارب . جاء الفيكونت وهو رئيس المكان أو المسئول عنه ، وأعطى كلا منهما هراوة ودرعا وحبلا ، والناس يؤلفون دائرة حولهما . ثم بدأ القتال . ضغط الرجل العجوز على الحداد وجعله يتراجع فى الحلقة نحو المتفرجين المؤلفين للحلقة ، ثم رجع إلى مركز الحلقة . واستمرا فى ضرب بعضهما حتى أصبحا كعمودين من الدماء . وقد استغرق النزال وقتا ، والفيكونت يصيح بهم « أسرعوا » وقد أفاد الحداد من خبراته فى الطرق بالمطرقة ، أما الرجل العجوز . . فقد بدأ يضعف فضربه الحداد ضربة أسقطته وسقطت الهرواة تحت ظهره ، ثم ركع الحداد ناحيته وأراد فقأ عينيه ، ولكنه لم يستطع فعل هذا بسبب تدفق الدم من عينيه . لذلك . . وقف وجعل يضرب رأسه بالهراوة ، حتى قتله ، ثم ربطه بالحبل حول عنقه وسحبه وعلقه منه . وجاء سيد الحداد وأعطاه عباءته وجعله يركب على حصانه ويذهب .

هذا إجراء بعد الفهم واجراءاتهم القانونية ألا فليلعنهم الله(٢٦) .

إنه من السهل أن نفهم تفرد المسلم المتحضر المتعود على الاجراءات القانونية فى محكمة القاضى بمثل هذا النوع من القانون والعدالة . ولكن الاجراءات القضائية الأوروبية لم تزل على مستوى عقاب النزلاء ، وقد كان الملاحون المسلمون المتأخرون الذين كانت لديهم الفرصة لملاحظتهم عن قرب أكثر إيمانا فى تعليقاتم . فى القرن الثانى عشر . . لاحظ ابن جبير ، وهو زائر اسبانى مسلم لسوريا أن الفرنجة يعاملون الرعايا المسلمون الخاضعين لهم بعدالة ، وقد وجد هذا سببا للازعاج والقلق . وفى نهاية القرن

الثامن عشر . . عبـر عن أحاسيس مشابهة المؤرخ المصرى الجـبرتى الذى وصف القوات الفرنسية التي تحتل القطر ، وأعجب بنظـامها في التعامل مع السكان المدنيين ، وخضوع سلطتهم للسلطان والاجراءات القضائية على النقيض من الطغيان العرفى المتقلب ، الذى تعود عليه ، ولقد أبـدي دهشة من الأسلوب الذى حوكم به قاتل كليبر خـليفة نابليون ونائبه وقائد القوات فى مصر بعد رحيل نابليون .

ويقول الجبـرتى إن الفرنسيين طبـعوا أحداث ومداولات المحاكمة بثـلاث لغات هى الفرنسـية والتركية والـعربية ، وهو كان يود أن يـسقطها من تـاريخه نظرًا لأنهـا طويلة ومكتوبـة بالعربية الركيـكة ، ولكنه قرر أن كثيـرًا من القراء يودون معرفة شـىء عنها ، ليس فقط مـن أجل المعلومات التى تعطـيها عن الحدث الفعلى ، ولـكن أيضًا من أجل إلقاء الـضوء على أسلوب الـعدالة الفرنسـية ، وأسلوب تنفـيذ القواعد بواسـطة هؤلاء الناس ، والتى لاتتبـع الدين (أى القواعد) ولكنها تتم باستـخدام العقل . وقد لاحظ أن الدعوة كانت مهـذبة « ان شخصا غريبا طائشـا من مكان بعيد قد قتل رئـيسهم غدرًا وأمسكـوه ويده ملطخة بـالدماء . والآن هم لم يـقتلوا من وفـاه بأسمائهم ، مـع أنهم أمسكوه والسلاح الذى قتل به فى يده ، ولايزال يـقطر من دم رئيسهم .وقد عقدوا فى محاكمة واحضروا هؤلاء الذين وشى بهم واستجوبوهم كلاً على حدة ، ومع بعضهم ، ثم أصدروا الحكم عليهـم طبقا للإجراءات القانونية ، وأطلقوا سـراح مصطفى أفندى البورنسانى الخطـاط حيث لادلائل أو دعوة « لقد تأثر الجبرتى بعمـق لإصرار الفرنسيين على إقامة الإجراءات القانونية باستعدادهم لإصدار سراح واحد من المتهمين ، الذى لم تكن هناك أدلة كافية ضده . ولكن الجبرتى بمرارة ناقض هذه الأسباب « الأعمال الشائنة التى رأيناها ترتكب بواسطة الجنود الأوغاد ، الذين ادعوا أنهم مسلمون وتظاهروا بأنهم مقاتلـون فى حرب مقدسة ، وقـتلوا الناس ودمروا الـكائنات الإنسانـية ، لا لشىء إلا إرضاء شهواتهم الحيوانية [٢٧] .

لم يكن كلا الملاحظين المسلمين يعجبون بالإجراءات القضائية الغربية ، إن أبا طالب كان له رأى أقل موافقة واسـتحسانا ؛ حيث إن سوء حظه جعل ترزيا فـى لندن يقاضيه

من أجل ١٠ شلنات ، وأمره القاضى بأن يدفع هـذا المبلغ وفوقه ٦ شـلنات غرامة لأنه لم يعط المدع حقه .

لم يتأثر بـنظام المحلفين حيث كان القـاضى يستطيع إبطال قـرار المحلفين ، وفرض وجهة نظـره أو مطالبتهـم بإعادة النظر فـى قرارهم . . ولـم يكن هـذا كل شىء ، وإذا فشلت هذه الإجراءات . . كان مـن حق القاضى أن يغلق على المحلفـين ، بينما يكون هو والمحـامون فى مكـان آخر من دار المحـكمة يأكـلون ويشـربون نسـبة على حـساب الحكومة . وكان المحامون أكـثر إثارة للازعاج بالنسبة لأبى طالـب من المحلفين ، حيث كانوا يمارسـون مهنة غريبـة من الإجراءات القضائيـة الإسلامية . وقد تنـازل أبو طالب بالقول أن القضاة الإنجليز « شرفاء ويخافـون الله معصومون ضد مكر وحيل المحامين » ولكنه مع ذلك لاحظ إن طـول مدة المحاكمة وارتفاع تكاليفهـا يؤدى إلى رفض العدالة للمدعى .

حتى الـقضاة أصحاب النـوايًا الحسنة ، ربما سمـحوا للمحامـين بتشويش القـضية وإرهـــاب الشهـود . وقد لاحظ أن حـكم القانـون غالبـا ما يتـعدى املاءات العـدالة الطبيعية ، وحتى القاضى الذى كان يخاف الـله لايستطيع أن يتخذ قرارًا منصفا ، دو ن ان يخرق هو نفسه هذا القانون ، الذى هو من صنع الإنسان (٢٨) .

بشكـل عام . . هؤلاء المسلـمون الذين كلـفوا أنفسـهم عناء ملاحـظة الإجراءات القضائية والتشريعية الأوروبية كانوا متأثـرين بها ويميلون إليها . إن الشيخ المصرى رفاعة الطهطاوى الذى كـان فى باريس ١٨٢٦ - ١٨٣١ ، قد كلـف نفسه عناء ترجـمة النص الكامل للدستور الفرنسى .

لم يكن الشـيخ رفاعة قد استوعب تماماً فـكرة المساواة الفرنسية ، الـتى كما لاحظ لاتمتد إلـى الشئون الاقتـصادية « إن المساواة لم تـوجد سوى فى كلـماتهم وأفعـالهم ، وليست فى ممتلكاتهم ، حقيقة لم يكونوا يرفضون أصدقائهم ، بشرط أن يطلبون منهم قرضا وليس هبة ، وحتـى ذلك لايحدث ، إلا اذا كانوا متأكدين من أن القرض سيرد » لاحظ الشيخ رفاعة أن الفرنسيين « أقرب إلى الاقـتصاد منه إلى الكرم . . وفى الحقيقة

فإن الكرم ينسب إلى العرب » . ومع ذلك . . فلقد تأثر رفاعة بمبدأ المساواة الفرنسى قبل القانون ، ووصف هذا بأنه « واحد من أوضح الأدلة على الوصول إلى درجة عالية من العدالة فيما بينهم ، وإلى التقدم فى الفنون المتحضرة . إن تلك التى ينادونها بالحرية ، والتى يناضلون للوصول إليها هى نفس ما نطلق عليه العدالة والمساواة والإنصاف ، وذلك بسبب أن معنى حكم الحرية هو توطيد الحرية قبل القانون ، « لقد دهش الشيخ رفاعة بشكل خاص ؛ لوجود قوانين محدودة ، وأثار الانتباه إلى مغزى الضمانات الدستورية البرلمانية قد جاء أكثر وأكثر ؛ ليستحوذ على عقل زوايا أوروبا من مسلمى الشرق إلى حد كبير فى البداية أكثر منه تطورا اقتصاديا ، وهنا كثير منهم أملوا فى أن يجدوا المفتاح ، الذى يكتشفون به أسرار التقدم الغربى ، ويشاركون فى مزايا الثورة والقوة الغربيين .

الفصل التاسع

العلم والتكنولوجيا

ابتدأ عصر العلم الإسلامى الكلاسيكى الكبير بترجمة واقتباس الأعمال العلمية الفارسية والهندية ، وكذا اليونانية ، وعلى الرغم من أن حركة الترجمة بلغت ذروتها فى القرن الحادى عشر ، إلا أن تطور العلم الإسلامى استمر لفترة بعد ذلك ، وأضاف العلماء المسلمون الكثير إلى المادة التى وصلتهم من خلال أبحاثهم الخاصة ، وأيضًا من خلال التجارب والملاحظات فى مجالات مختلفة مثل الطب والزراعة والجغرافيا والحرب . أما المؤثرات الخارجية التى أتت من خلال الترجمة ، أو غيرها . فقد ساهمت فى تطور العلم الإسلامى ، خاصة اللغة اليونانية ومع هذا . . كانت هناك عوامل أخرى فالرياضيات وعلم الفلك الهندى ، خاصة الأرقام الموضوعية التى أطلق عليها العرب أعدادًا ، وكانت فى الحقيقة هندية الأصل ، وكانت ذات مغزى فى الاسهام . أضف إلى ذلك أن الغارات المغولية على العالم الإسلامى ، دفعت المسلمين لأول مرة لإقامة علاقات مباشرة مع الصين ، وهنا بدأت بعض عناصر ثقافة وعلم الشرق الأقصى فى التأثير على ممارسة وفكر المسلم بصورة أقل .

وفى واقع الأمر . . كان تأثير الغرب على العالم الإسلامى فى تلك الفترة قليلا ، ويرجع هذا إلى أنه لم يكن لدي الغرب شىء ليقدمه . وإلى ذلك الوقت ظهر نص عربى ذو معنى علمى ، يعتمد على أصل أوروبى غربى ، وهذا النص هو ترجمة عربية يهودية ؛ أى إنها لم تكن باللغة العربية ، وإنما بالرسم العبرى ، وهو نص عن جداول الفلك ، يبين حركة الكواكب ، ويعتمد تقريبا على كتاب للجداول من توفارا بإيطاليا ، اكتمل فى عام ١٣٢٧ ميلادية [1] . وعلى الرغم من أنه كتب بالعربية ؛ إلا أنه كان يتعذر وصوله إلى العرب المسلمين ، الذين لم يعرفوا الكتابة العبرية ، ولذا كان المقصود

به بوضوح استعمال العلماء اليهود ، ومثل هذه الأشياء كانت تعتبر ظاهرة شائعة فى أواخر العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، عندما شكل العلماء اليهود ، وبصفة خاصة الأطباء اليهود ، المنفذ الوحيد الذى من خلاله نفذت معارف الغرب العلمية إلى العالم الإسلامى .

وهناك كاتب سورى من القرن الثانى عشر ، وهو « أسامة بن منقذ » ، يصف لنا فى نص بليغ انطباع العالم المسلم عن ممارسة الطب فى العصور الوسطى ، يقول أسامه :

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى ، يطلب منه انفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحاء . فأرسل طبيبا نصرانيا يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له « ما أسرع ما داويت المرضى » قال : « احضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة وامرأة فى لحقها نشاف (لفظة فارسية تعنى : بله) فعملت للفارس لبيخه ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب أفرنجى فقال لهم : « هذا مايعرف شى يداويهم » . وقال للفارس : أيها أحب إليك : تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ « قال : عيش برجل واحدة » قال :

أحضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا » فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : « اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها » . فضربه ، وأنا أراه ، ضربه واحدة ماانقطعت . ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال « هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها . « فحلقوه . وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل . فزاد بها النشاف ، فقال : « الشيطان قد دخل فى رأسها » » . فأخذ الموس وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه ، حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت فى وقتها . فقلت لهم : « بقى لكم إلىّ حاجة ؟ قالوا : «لا» فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أكن أعرفه »[٢] .

لقد كان من الطبيعى أن يرسل أسامه طبيبا مسيحيا محليًا ، ولايطلب من طبيب

مسلم أن يغامر بنفسه بين أيدى الفرنجة . لقد شارك السورى المسيحى الأطباء المسلمين اتباع جالينوس وابقراط فى ازدراء الممارسات الطبية المتأخرة ، والهمجية لأطباء الفرنجة . وقد سجل أسامه حالتين ، تم ممارسة طب الفرنجة فيهما . أما الحالة الأولى ، فهو وصفه لداء الملوك ، حيث لاحظ أسامه أن الطبيب الأفرنجى طلب من المريض أن يقسم بالمسيح أنه لن يصف هذا الدواء لآخرين طلبًا للمال ، وبصفة عامة . . جاءت نظرة أسامه عن طب الفرنجة سلبية بصورة ملحوظة .

لقد أظهر مسلمو العصور الوسطى احتراما لإنجازات الصليبيين فى مجال واحد فحسب ، وهو ميدان فنون الحرب ، وقد أظهر فن التسليح والتحصين عند المسلمين تأثره بفن الفرنجة ، سواء أكان من خلال اقتباس النماذج الافرنجية ، أم باستخدام أسرى الحرب الفرنج .

وأصبحت سيادة فن الحرب الافرنجى ملحوظة بدرجة كبيرة فى الفترة العثمانية ، واتضح هذا بجلاء فى المدفعية والأسطول ، ورغم أن البارود كان قد اخترع منذ فترة مبكرة فى الصين إلا أن التأكد من مقدرته ، المشكوك فيها وفاعليته العسكرية ، ترجع برمتها إلى أوروبا المسيحية .

لقد تردد المسلمون أولا فى قبول هذا الدفاع عن حلب ، (انظر ص ٢) ، عندما حاصرها تيمورلنك ، ولكن بصفة عامة . . رفض مماليك مصر وسوريا استخدام الأسلحة التى عثروا عليها دون فروسية، وقد تحققوا من أنها مبيدة لنظامهم الاجتماعى.

ولكن العثمانيين كانوا أكثر سرعة فى إدراك قيمة الأسلحة النارية . وبفضل أستخدامهم الكبير للبنادق والمدافع استطاعوا هزيمة خصومهم المسلمين الرئيسين : سلطان مصر ، وشاه فارس .

لعب استخدام المدافع دورًا مهماً فى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، وفى انتصارات عثمانية أخرى على كل الأعداء من الأوروبيين والمسلمين على السواء . وبصورة ذات مغزى . . فإن غالبية مؤسسى المدافع والمدفعجية كانوا إما خونة أو

مغامرين أوروبيين . وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا يستطيعون تماما نشر هذا السلاح الجديد ، إلا أنهم استمروا فى الاتكال على المناطق الخارجية لاستمداد مايحتاجونه من علم وتكنولوجيا لإنتاجه . وكثير من مثل هذا كان حقيقيا فى انتساب أسلحة المدفعية وجنود المهندسين ، وبمرور الوقت . . كانت النتيجة الحتمية أن المدفعية العثمانية سقطت تماما أمام مدفعية خصومهم الأوروبيين .

وبصور موازية ، وأكبر اهتم العثمانيون بالمدافع والمعادن للحاق الاهتمام الأوروبى ببناء السفن البحرية . فعندما جنحت سفينة حربية من البندقية ، فى المياه الاقليمية التركية ، فإن مهندسى الأسطول العثمانى فحصوها باهتمام كبير ، وعنوا باقتباس التصميمات والتجهيزات الحربية المزودة بها ، فى سفنهم الحربية . وقد سألوا مفتى العاصمة الرئيسى : هل يجوز نسخ ابتكارات الوثنيين فى مثل تلك الأشياء ؟ وكانت إجابة المفتى أنه حتى تهزم الوثنى فمن الجائز تقليد أسلحته .

لقد كان هذا السؤال على درجة كبيرة من الأهمية ، إذ إنه وفقا للتقليد الإسلامى ، يفترض بصفة عامة ويعد كل استحداث سئ مالم يتضح أنه نافع .

وكلمة استحداث أو بدعة Bida تشير إلى التحول عن القاعدة المقدسة ، والممارسة المنقولة للنشر عن طريق الرسول واتباعه والمسلمين الأوائل . والتخلى عن الرسالة كما أرادها الله للبشرية يعد ضلالا ؛ ولذا . . كان البعد عن التقليد أمرًا مذموما . ومع مرور الوقت . . أصبحت كلمة « بدع » تحمل نفس الدلالة ، تقريبا ، التى لكلمة هرطقة فى المسيحية .

والبدعة التى تقلد الوثنى موضع اعتراض بصفة خاصة ، ووفقا لقول منسوب للرسول « من تشبه بقوم فهو منهم » ، وهذا يعنى أن تبنى أو محاكاة التصرفات الشخصية للكفار يمثل تصرفا ، يعبر عن عدم الإيمان وبالتالى يعد خيانة للإسلام .

هذا القول والعقيدة التى تعبر عنه ، كان يستشهد بها بصورة متكررة المؤلفين الدينيين المسلمين ، لمقاومة ونبذ أى شىء يرون أنه تقليد أو محاكاة لأوروبا كحل وسط مع غير المؤمن .

وقد ترتب على هذا أن أصبحت لدى هؤلاء حجة قوية ، خاصة فى أيدى المحافظين من رجال الدين ، تستخدم فى محاولة درء الاستحداثات الغربية (التى كانت تعنى التغريب) مثل التكنولوجيا ، والطبع والنشر ، وحتى الأسلوب الطبى الأوروبى .

ومع ذلك . . كان هناك استثناء واحد لهذه القاعدة ، وهو الخاص بشئون الحرب .

لقد كان الجهاد Jihad هو الحرب المقدسة ضد غير المؤمنين ، وأحد الالتزامات المشتركة والأساسية للدولة والمجتمع الإسلامى ، فعندما تكون الحرب دفاعية ، تصبح فرض كفاية على كل مسلم ، ولتصبح الأسلحة الإسلامية قوية وأكثر تأثيرا فى الجهاد الدائر ضد غير المؤمنين ، ذلك الجهاد الذى يعد هو ذاته واجبًا دينيًا وفرض كفاية . ولمحاربة غير المؤمنين . . فإنه من الضرورى التعلم من غير المؤمن ، ويورد القضاة العثمانيون والكتاب الآخرون عن هذا الموضوع أحيانًا مبدأ المعاملة بالمثل ، وأطلقوا عليه مبدأ المقابلة بالمثل أي محاربة الوثنى بأسلحته واختراعاته الخاصة به [٣] .

لقد استطاع مؤيدو تحديث الحرب أن يعثروا على سوابق فى الماضى ، فهم يستدلون أن الرسول نفسه ، والمحاربين المسلمين الأوائل كانوا على استعداد لاقتباس التكنيكات العسكرية المتقدمة ، فى ذلك الوقت من الفرس (المجوس) الزرادشتيين ، والبيزنطيين المسيحيين ، لمحاربتهم بصورة أكثر فاعلية وتأثيرًا . وبعد ذلك . . اقتبست جيوش الخليفة الأسلحة النارية (انظر ص ٤) أيضًا من المسيحية ، ووجدت حجة قوية لذلك فى آية قرآنية توصى المؤمنين .

﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة ﴾ [٥] .

لقد أعيد تفسير هذه الآية وأصبحت تعنى أنه يجب على المسلمين استخدام كل الأسلحة ، بما فى ذلك أسلحة الكفار لإلحاق الهزيمة بهم .

وبصفة عامة . . كان العثمانيون مستعدين لإتباع ، أو تحوير الممارسة الأوروبية ، فى الحرب ؛ خاصة فى الشئون العسكرية والاسطول ، فقد كمم الاعتراض الدينى ،

كما قام العثمانيون باستخدام التكنولوجيا الغربية فى التعدين ؛ فقد احتوت الأقاليم العثمانية فى أوروبا الجنوبية على مناجم مهمة للحديد ، والفضة خاصة . وكان استغلال تلك المناجم بصورة أساسية فى أيدى الخبراء الجرمان ، الذين استخدمتهم الدولة العثمانية على أساس الفائدة المشتركة . وقد استخدم هؤلاء التكنيكات التعدينية الشائعة عندهم فى ألمانيا ، حتى القوانين المنظمة لتلك المناجم العثمانية ، كانت هى ذاتها قوانين التعدين السكسونية . وهذه القوانين توجد فى نص تركى ، معروف بقانون الساكسون [٥] .

وبسبب هذه القوانين وبسبب أغراض أخرى ، فإن العمانيين كانوا مستعدين لاستخدام الخبراء الأوروبيين بأعداد كافية ؛ لتشكيل مجموعة فى القصر عرفت باسم « طائفة افرنجية » وكان السلاطين العثمانيون ووزرائهم على استعداد تام للنظر إلى أهمية التكنولوجيا الأوروبية ، والبحث عن الأوروبيين ، واستخدامهم للوفاء باحتياجاتهم . ولكن كان هناك دائما اعتراض من جانب المحافظين من رجال الدين ، ومع أن الوقت الذى كان فيه هذا ليس كافيا لمنع الاستعارة وبعض الاستحداث ، فإنه كان كافيا لمنع هجرة التكنولوجيا الوطنية النشيطة ، فقد كان لدى السلاطين من القوة والوسائل لاستئجار التكنولوجيا من الخارج ، ولم تكن لديهم القوة لتخريج تكنولوجيين خصوصيين للدولة ، من خلال الأسلوب التعليمى الذى يسيطر عليه علماء الدين .

وبالرغم من الصعوبات . . فإن العثمانيين كانوا فى موقع أفضل من دويلات إسلامية أخرى ؛ فاستطاع السلاطين العثمانيون ووزرائهم رؤية أهمية التكنولوجيا الغربية على الأقل ، ولفترة من الوقت كانوا على استعداد للتعليق ببعض البدع التكنولوجية المحدودة .

وفى القرون الكبرى لم يستطع العثمانيون مجاراة الأسلحة الأوروبية الأكثر تقدما فقط ، ولكن فى نفس الوقت استطاعوا تطويرها من خلال ابتكاراتهم وتجديداتهم . ويعلق بعض المشاهدين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وعلى السرعة التى تكيف بها العثمانيون ، وفى بعض الأحيان التى حوروا بها الأسلحة والعتاد الأوروبى

وفـى وقت متأخر عنـد الحصار التركـى لفيينـا فى عام ١٩٨٣ . . فإن بعض المشـاهدين النمساويين المعـاصرين لاحظوا أن بنادق الأتراك كانت جيدة ، مثل بـنادق النمساويين ، وعلى سبيـل المثال فهى من حيث المدى أفضـل . ولكن الاعتماد المستمـر على المهارات الخارجية أخذ وقته ، ولقـد وجد العثمانيون أنه من الصعب أكثر مـجاراة التقدم السريع للابتكارات التكنولوجية الغربية .

وفى أثناء القـرن الثامن عشر فإن الإمبـراطورية العثمانيـة التى تزعمت بقيـة العالم الإسلامى سقطت فعلا وبصورة قاطعة ، أمام أوروبا فى كل فنون الحرب [٦] .

ومن المـمكن رؤيـة مراحل التـغيير بصورة أكـثر وضوحا ، إذا قـارنا الأساطـيل الإسلاميـة والأوروبية . لقد كـان على العثمـانيين أن يجدوا صـناعة السفـن الأوروبية مادامت المهام البحرية العثمانية قاصرة على البحر المتوسط .

ففى بداية القرن السابع عشر ، ومع امتداد الـقوة والنفوذ العثمانى إلى غرب البحر المتوسط . . أصبح اتصالـهم مع القوات البحرية الأطلنطية أكـثر ، وقد ساعد على هذا بصورة كبيرة تغير مهم حدث فى غرب أوروبا فى تلك الفترة .

فبعـد موت الملكة اليزابـيث ، ملكة انجلـترا فى عام ١٦٠٣ ، عقد الملـك جيمس الأول معاهدة سلام مع إسبانيا عام ١٦٠٤ ، وبذا انتـهت الحرب البحرية بين البلدين . وفى نفـس الوقت ، تقـريبا ، انتهـى الصراع الإسبانـى مع هولنـدا . وفى عام ١٦٠٩ تعرف الإسبان مغزى استقلال الألمان ؛ فالآن لم يصبح قراصنة البحر الانجليز والألمان ، الذين كانت لـهم أهمية فى الصراع ضد الإسـبان ، لم يصبحوا زائدين فـحسب ولكن خطرين أيضًا ، ولذا . . فإن الحكومات الإنجليزية والألمانية ، وبعض الحكومات الغربية تخـلت عـن التسامـح الذى تحلـت به من قـبل ، وبدأت فـى التصرفـات بقسـوة ضد القراصـنة ، لقد وجد كـثير من هؤلاء أن الأحـوال فى بلادهم أصبـحت أقل تشجـيعا لممارسة مهنتهـم ، فضحوا بمصالحهم التجارية ، ونزحوا إلى الـساحل البربرى ، وهناك استقبلوا بترحاب شديد . أما قراصنة أوروبـا الغربية الذين اعتادوا الابحار فى المحيطات على سفن ، ذات حواف مربعة بتجهيزات حربية مثبتة على طول جوانبها . . فقد قدموا

السفن التى فى حوزتهم إلى الذين رحبوا بهم ، وبينوا لهم كيف يمكنهم بناء مثلها ، وكيفية استعمالها .

لقد أدرك القراصنة ميزة عرض السفينة بالنسبة لتسليحها ، وسرعان مابرعوا فى الفنون البحرية والحربية بتلك السفن الجديدة ، وقبل ذلك بوقت طويل .. كانت الأساطيل فى شمال أفريقيا تقلع من جبل طارق ، وتبحر بعيدا إلى ماديرا والجزر البريطانية وما وراءها .

وكانت الأساطيل الإسلامية على قدم المساواة مع الأساطيل المسيحية من حيث الجودة ، أو كانت أفضل منها . ولكن تلك الميزة كانت تفتقد تدريجيا وفشل البناء البحرى العمانى - وفى شمال أفريقيا - فى أن يظل على اتصال بالتطورات الكبرى ، التى حدثت فى أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفى أواخر القرن الثامن عشر .. وجد العثمانيون أنفسهم مضطرين إلى وضع أنظمة للسفن على غرار السفن الأجنبية ، وكان هذا تغيرا جذريًا .

وبصرف النظر عن مجال السلاح والتسليح البحرى .. كان هناك فن آخر استطاعت أوروبا أن تقدم فيه إنجازًا ، وكان هذا فى مجال علم الطب . فمع بداية القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر تغيرت الأشياء تغيرًا حاسما عندما بحث الصليبيون عن مساعدة الأطباء المسلمين أو الأطباء اليهود ، وفى ذلك الوقت بدأت أوروبا تتقدم وبدأ الإسلام يتخلف . إن الصفة الشخصية للخدمات التى قدمها الأطباء ، قد أعطت للإبداع الطبى جاذبية تفتقرها الفروع العامة فى العلم والتكنولوجيا الأوروبية .

فى الطب كانت توجد هناك رفاهية الفرد وربما لجاة المريض عندما يكون فى خطر ، وكما يحدث فى أزمان أخرى وأمكنة أخرى .. فإن الأطباء فى إطار سعيهم نحو الأفضل كانوا قادرين على الانتصار ، حتى على التطرف الشديد فى العقيدة .

وفى بادئ الأمر .. فإن دخول الطب الأوروبى إلى الممالك العثمانية كان يرجع

لقدر كبير ، إن لم يكن تماما - إلى غير المسلمين - وكان الفضل فى دخوله إلى الأقطار العثمانية يرجع أساسا إلى اليهود ، وأحيانا إلى المسيحيين .

وفى القرن الخامس عشر استعان محمد الفاتح بخدمات طبيب يهودى من إيطاليا يدعى جياكومودى جاتيا ، الذي اعتنق الإسلام فيما بعد ، وأصبح اسمه يعقوب باشا . وفى القرن السادس عشر انتشر الأطباء اليهود - وكان معظمهم من الإسبان والبرتغاليين والإيطاليين - داخل الإمبراطورية العثمانية . ولم يكن السلاطين وحدهم هم الذين يلجأون إلى هؤلاء الأطباء ، بل أيضًا عدد كبير من رعاياهم فعل الشىء ذاته ، ويشير بعض الزوار من الغرب المسيحى بعدم استحسان إلى الدور الذى يلعبه هؤلاء الأطباء اليهود ، خاصة تأثيرهم فى البلاط العثمانى ، وذهب بعض هؤلاء الزائرين إلى أن الأطباء اليهود معرفتهم ضئيلة باللاتينية واليونانية ، وأنهم فاشلون فى اللحاق بعلم الطب الغربى ، ولكنهم بعد ذلك تقدموا بسرعة كبيرة ، ويلاحظ الآخرون أن بين هؤلاء الأطباء من له دراية كبيرة بالنظرية والتجربة فى مجال ممارسة الطب .

وبعض هؤلاء الأطباء اليهود أعدوا مقالات كتبوها أو ترجموها إلى التركية ؛ ليستخدمها ملوكهم والمرضى الآخرون . ومن بين هذه الكتابات . . كتاب صغير بعنوان « عصا ابران » وعلاجهم . ويدعى المؤلف مانويل برودو ، وأحيانا يطلق عليه برودوس لوسيتانوس ؛ أى برودو البرتغالى وهو يهودى غادر البرتغال سرًا فى عام ١٥٣ ، وذهب فى بادئ الأمر إلى لندن ، ومنها تحرك إلى أنتورب ثم إلى إيطاليا ، وأخيرًا استقر به المطاف فى تركيا ؛ حيث أعلن يهوديته صراحة . وبصرف النظر عن النصيحة الطبية التى يقدمها هذا الكتاب فإنه يتضمن عددا من الملاحظات ، التى تعبر عن تجربة المؤلف ، التى استفادها فى بلدان أوروبية مختلفه .

أنه يلاحظ على سبيل المثال كيف يطبخ البيض والسمك ، وما يستخدمه سكان لندن من أخشاب يحرقونها فى الشتاء للتخلص من الرطوبة . وكذلك يناقش المؤلف العادات الإنجليزية والألمانية فى أكل الزبد الطازج والبيض الطازج فى الإفطار ، وعادة تناول الخوخ المطبوخ قبل الوجبات . وهو مايستحب عادة المسيحيين فى الغذاء عند

الظهر ، ويوحى بالحكمة الإسلامية بالاكل فى الصباح الباكر . ويبدو أن كتابه قد ألف من أجل سليمان العظيم (الأكبر) .

كان مانويل برودو واحدا من بين الأطباء اليهود ، ذوى الأصل الأوروبى ، الذين عملوا فى خدمة السلطان ، وأصبحوا على قدر كبير من الأهمية حتى أن أرشيف القصر العثمانى يدلنا على وجود طاقمين منفصلين من أطباء البلاط ، أحدهما مسلم والآخر يهودى . وربما استمر المسلمون فى ممارسة المهنة وفقا للتقاليد الطبية الإسلامية فى العصور الوسطى ، بينما ساير اليهود التقدم الأوروبى . ومن بين الأعمال التى ألفها فى هذه الفترة مقالة تركية قصيرة حول طب الأسنان ، كتبها موسى هامون يهودى من أصلى أندلسي ، عين رئيسا للأطباء اليهود ، وكبيرهم عند السلطان سليمان الأكبر(١٠) .

ويبدو أن هذا الكتاب هو أول الأعمال التركية حول طب الأسنان ، وهناك كتاب آخر يرجع إلى هذه الفترة ، وهو عبارة عن مقال قصير ومختصر حول التركيبات الصيدلية (الطبية) ، كتبها طبيب يطلق على نفسه موسى جالينوس الإسرائيلى ؛ أى موسى جالينوس اليهود ، ويشير المؤلف إلى أن مقاله قائم على كتابات إسلامية افرنجية يونانية ويهودية .

لقد لعب عددا من هؤلاء الأطباء دورًا سياسيا مهماً ؛ فاقترابهم من رجال السلطان ووزرائه ومعرفتهم باللغات الأوروبية والأحوال الأوروبية جعلهم نافعين للحكام الأتراك والرسل الأجانب ، وقد مكنهم ذلك من إحراز مناصب نفوذ وقوة ، حتى أن بعضهم كان يرسل إلى الخارج فى مهمات دبلوماسية .

وفى القرن التالى كان لدى الأطباء العثمانيين سبب جديد وقوى فى الاهتمام بالفنون الطبية الأوروبية ، وكان هذا هو الداء الذى اطلقوا عليه الداء الافرنجى ، الذى جاء إليهم من الغرب أن أول مقالة بالتركية عن مرض الزهرى ، عبارة عن جزء من مجموعة كتابات ، طبية ، قدمت إلى السلطان محمد الرابع فى سنة ١٦٥ ، وتعتمد هذه المقالة بشكل كبير على المؤلف الشهير جيرولامو فراكاسترو من فيرونا (١٤٨٣ - ١٥٣٣) ، وهى تتضمن كذلك اقتباسات من جان فرنك (٥٨٨) عن علاج هذا

المرض . وهنـاك أجزاء أخرى من هـذا العمل تتـناول أمراضًا أخرى تـقتبس مـن أطباء أوروبيين مشاهير من القرن السادس عشر . ويدل الكتاب على دراية بالطب الأوروبى ، ومن الممكن أن يكون المؤلف قد استطاع أن يقـرأ اللاتينية ، أو على الأقل كان معه من يقوم لـه بهذه الخدمة . ولكـن الاختلاف فى المدخـل ملحوظ ، وعلى الـرغم من أن المجموعة كانت مهداة إلى السلطان فى سنة ١٦٥٥ إلا أن الأعمال التى بها ترجع جميعا إلى الـقرن الســادس عشر ، وكـان الأطباء اليـهود الذيـن قدموا مـن أوروبا فى الـقرن السادس عشر يمثلون أعلى مستوى للطب الأوروبى فى القرن السادس عشر .

أما الأطباء العثمانيون اليهود من القرن السابع عشر . . فكانوا لايزالون يمثلون أعلى مستوى للطب الأوروبى من القرن السادس عشر .

إن تجديد الاتصال من خلال تدريب الأطباء العثمانيين باليونان فى المدارس اللاتينية من منتصف القـرن السابع عشر فصاعدا ، لايبدو أنه أضاف أى تغـيير جوهرى فى هذه العلاقة .

ومن هذه الاتصالات التى كان الـعثمانيون يقومون بها أحيانا مـع العلم الغربى . . يتضح أنهم لم يفكروا فى تقدم البحث أو تحويل الأفكار ، وهى مرحلة مهمة فى طريق تطور المعرفة ؛ فالأفكار الأساسية لتكوين واخـتبار الفروض ، ظلت غريبة على المجتمع الذى تصـور أن المعرفة مجمـوعة حقائق أبـدية ، يجب اكتـسابها وتكديـسها وتفسـيرها وتطبيقها ، دون تعديل أو تطوير .

إن أعمالهم فـى العلوم الطبية والعلـوم الأخرى كانت تقوم - فى معظـمها - على الاقتباس وتفـسير التعاليم الإسلامـية الكلاسيكية المحفـوظة باللغة الفارسيـة والعربية ، وأحيانا تلحق بها مادة مستمدة من الكتابات العلمية الغربية ، ولكنها كانت تعالج بالمثل . ليست هناك محاولة لـتتبع الاكتشافات الجديدة أو حرص قليل على مـتابعة هذا التقدم ، فالتغيرات الهائلة فى علم التشريح والـفسيولوجيا التى حدثت فى هذا الوقت مرت دون ملاحظة أو دراية .

ووفقا للدين الإسلامى فقد كانت هناك فى السنوات الأولى للإسلام قاعدة تسمى « الاجتهاد » ، يستطيع بها العلماء المسلمون ورجال الدين والمفكرون والمشرعون أن يحلوا بها مشكلات دينية وقانونية ، لم يفصح عن إجاباتها فى الكتاب والسنة . وقد جاء جزء كبير من الفكر الدينى الإسلامى وكذلك التشريع عن هذا الطريق ، وانتهت هذه العملية عندما وجدت الحلول على سائر المسائل ، حيث أغلق باب الجهاد فلايسمح بأحكام جديدة مستقلة ؛ فالردود كلها موجودة ، وكل المطلوب هو اتباعها وطاعتها .

ولفترة من الزمان . . بدا أن الفارين اليهود من أوروبا على وشك البدء بمرحلة جديدة فى الطب العثمانى . ولكن فى الواقع كان كل ماجلبوه بعض التفاصيل الجديدة وبعض المعلومات الجديدة ، ومع مرور الوقت - ولما فقدوا اتصالاتهم بأوروبا وأصبحوا جزءا من مجتمع الشرق الأوسط - لم يعد اليهود العثمانيون متميزين بأى حال عن جيرانهم المسلمين .

وإلى حد ما . . فقد تم استبدالهم باليونانيين العثمانيين ، الذين دخلوا عندئذ مرحلة من التطور والرقى . وكان بانيوتن نيكوسياس واحدا من أوائل اليونانيين ، الذى درس الطب فى جامعة بادوا ، وتأهل حوالى ١٦٥٠ . وبعد عودته إلى إسطنبول أصبح ناجحا جدا كممارس طبى ، حتى عينه الوزير الكبير محمد كوبرولو طبيبا خاصا له . وكما حدث مع الأطباء اليهود فى القرن السابق أخذ الوزير الكبير يعتمد على طبيبه اليونانى ، الذى تعلم فى الغرب بسبب معرفته بالأحوال الأوروبية ، وأصبح نيكوسياس من ترجمان الباب العالى ، وربما كان أول من شغل هذه الوظيفة المهمة . وبعد موته سنة ١٦٧٣ . . خلفه طبيب يونانى آخر من بادوا ، وهو خيوت الاسكندر مافروكورداتو ، الذى نشر رسالة علمية حول وظيفة الرئتين فى الدورة الدموية . ومع ذلك . . فقد نشرها باللغة اللاتينية ، ويرجع كتابه هذا إلى تاريخ الطب الأوروبى وليس الطب العثمانى ، وقد كان ترجمانا كبيراً للباب العالى حتى أنه أخذ مكانه فى التاريخ العثمانى .

ولقد جاء القرن الثامن عشر ببعض التغيرات ؛ ففى سنة ١٧٠٤ . . كتب طبيب

يسمى عمر صفاى مؤلفا صغيرا حول استخدام الكيمياء فى العلاج الطبى ، ويقدم الكتاب على أنه ترجمة من باراكيلسوس ، وفى نفس الوقت تقريبا .. ظهر طبيب عثمانى آخر ، وهو يونانى من كريت ، اعتنق الإسلام وأطلق عليه « نوح بن عبد المنان » ؛ حيث قام بترجمة كتاب آخر عن العلاج الطبى . وطبيب ثالث يرجع إلى هذه الفترة هو صبان صفاى معلم فى مدرسة الطب الملحقه بالمسجد السليمانى . وكتب هذا الطبيب مقالة تتناول الولادة ، والعنايه التى يجب اتخاذها قبل الولادة ، وبعدها .. تعكس كل هذه الأعمال نوعا جديدا من علم الطب ، ومدخلا جديدا أيضًا إلى الممارسة الطبية .

وحتما فإن هذه الاختراعات (البدع) قد أثارت مقاومة شديدة ، وفى سنة ١٧٠٤ .. صدر قرار جديد يحرم ممارسة الطب الجديد على بعض الأطباء الجهلة . ويتحدث القرار عن بعض الأطباء المدعين من المجتمع الافرنجى ، الذين تخلوا عن طريق الأطباء القدامى واستخدموا أدوية معينة باسم الطب الجديد . واقتضى القرار من الاطباء الاتراك أن يخضعوا للفحص ومنع القرار الأطباء الأجانب من الممارسة . ولم يمنع هذا عمر صفاى فى الاستمرار فى عمله وكتابه . مقالة فى ثمانية أجزاء ، حول مايطلق عليه الطب الجديد . وزعم أن الإدارة العثمانية الرسمية لازالت تعطى تأييدها إلى طب جالينوس وابن سينا ؛ إلا أن اتباع باراكيلسوس ، كانوا قد بدأوا فى اكتساب القوة .

ويعيرون كثير من السفراء الذين زاروا البلدان الأوروبية بعض الاهتمام بالعلم ، ويهتمون أكثر بالتكنولوجيا .

ويعلق محمد سعيد أفندى على نظام الاتصالات الفرنسية ، والقنوات والطرق والكبارى ، والأنفاق التى مر بها فى طريق من الساحل الجنوبى إلى باريس ، وذهب إلى المرصد حيث تأثر تأثرا بالغا بالتقدم الفلكى والأجهزة التى شاهدها ، ويتحدث عن آلات لاحصر لها صنعت من أجل رصد النجوم ، واستطلاع رؤية الهلال ، ورفع المياه من أسفل إلى أعلى وأشياء أخرى غريبة وعجيبة تدعو للدهشة . ولقد شاهد أيضًا المرايا المقعرة المحرقة ؛ حيث تولد حرارة تكفى لحرق قطع من الأخشاب، وصهر قطع من

الرصاص ، ويروى الأدوات الفلكية ويخص منها التلسكوب الذى أبدى دهشة كبيرة إزاءه .

وآخرون كانوا أقل اهتماما ، فهناك مثال مختلف على العلم والآلات التى تصنع ، نجده فى تقرير بعثه مصطفى حاتى أفندى الذى ذهب فى مهمة إلى فيينا ١٧٤٨ ، وعندما كان هناك دعى هو ورفاقه إلى المرصد ليروا عجائب العلم فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يتأثر .

« دعانا الإمبراطور لزيارة المرصد حتى نرى الأشياء العجيبة والأجهزة الغريبة هناك . قبلنا الدعوة بعد أيام قليلة وذهبنا إلى سبعة أو ثمانى مبان . ومن فوق السطح شاهدنا أجهزة فلكية ومجموعة من التلسكوبات الصغيرة التى تستخدم للشمس والقمر والنجوم .

ومن بين البدع التى شاهدناها كانت هناك حجرتان متصلتان ، فى احداهما عجلة وعلى هذه العجلة كانت توجد كرتان كبيرتان من البلور . وملحق بهما اسطوانة مجوفة ، أضيق من قصبة تخرج منها سلسلة طويلة إلى الحجرة الأخرى عندما تدار هذه العجلة ، ينتشر هواء نارى عبر هذه السلسلة إلى الحجرة الأخرى، وأى إنسان يلمس هذا الهواء النارى يصطدم بأصبعه ، ويصدم ويثير جسمه كله . والأكثر دهشة من ذلك أنه اذا لمس أحد هذا الهواء . . فإنه يمسك آخر بيده ، وهكذا . . حتى يشكلون حلقة من عشرين أو ثلاثين شخصًا ، يشعر كل منهم بنفس الصدمة فى الأصبع والجسم ، مثل تلك التى يشعر بها أول شخص ولقد جربنا هذا بأنفسنا . ولما لم يقدموا أى إجابة معقولة على الأسئلة التى طرحناها ، وحيث إن الأمر كله مجرد لعب . . فإننا لم نفكر أنه من الجدير أن نسعى وراء معرفة مزيد من المعلومات عنها .

وشاهدنا أعجوبة أخرى وهى عبارة عن بعض القوارير الزجاجية . . رأيناهم يقذفونها بالحجارة والخشب دون أن تتحطم . بعد ذلك وضعوا شذرات من حجر الصوان من القوارير ؛ فأخذت هذه القوارير تتحلل مثل الدقيق ، وعندما سألنا عن

معنى ذلك . قالوا عندما يبرد الزجاج فى المياه البارده بعد النار مباشرة ، يصبح هكذا ، وقلنا إن هذه خديعة إفرنجية .

إن العثمانيين لم يكونوا أقل من الشعوب الإسلامية الأخرى احتقارا للكفار والبرابرة (الأجانب) فى الغرب ، ولكنهم على استعداد لدراسة واقتباس بعض الابتكارات التى كشفت عنها العبقرية الأجنبية ، والتى قد تخدم أغراضهم دون أن يلحق بحياتهم أو بأسلوب حياتهم أي خطر ، وهذه النقطة يوضحها جيدًا جيلسين دى بوسبيك ، وهو سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى إسطنبول ؛ حيث يروى فى رسالة يرجع تاريخها إلى ١٥٦٠ :

« لاتوجد أمة تبدى امتعاضا ازاء اقتباس الاختراعات النافعة التى تقوم بها الأمم الأخرى على سبيل المثال ، فقد افادوا إلى درجة كبيرة من استخدام المدافع الصغيرة واكتشافات أخرى كثيرة من اكتشافاتنا . ومع ذلك . . فلم يستطيعوا أن يحملوا أنفسهم إلى طبع الكتب أو إقامة الساعات العامة ، إنهم يذهبون إلى أن كتبهم المقدسة لن تكون كتبا مقدسة اذا طبعت واذا أقاموا الساعات العامة . . فإنهم يعتقدون أن ذلك يقلل من أهمية المؤذنين والطرق القديمة الخاصة بهم [١٥] .

واستقدم العثمانيون هذين الاختراعين . فالطباعة كما وضحنا . . استخدمها الأتراك والعرب فى القرن الثانى عشر ، وكانت الساعات تستورد قبل ذلك بزمن كبير ، وكانت توضع حتى فى المساجد الإمبراطورية العظمى .

إن استخدام أجهزة قياس الوقت لم يكن بأى حال جديدا على الإسلام ، بل على العكس فقد بدأ المسلمون بالوسيلتين القديمتين ، وهما . . ساعة الماء ، والساعة الشمسية (مزولة) واستطاعوا أن يطوروا مجموعة أجهزة متميزة خاصة بهم فى هذا الشأن ، ويرجع تاريخ اهتمام العثمانيين بالساعات الآلية الأوروبية ، التى بدأ انتاجها فى الغرب فى القرن الرابع عشر ، إلى فترة مبكرة . ومع مقدم القرن السادس عشر . . كانت الساعات الأوروبية تستخدم على نطاق واسع فى الإمبراطورية العثمانية ،وقد قلدها بعض العثمانيين ، وأشهر هؤلاء المقلدين ، كان سوريا يسمى « تقى الدين » (١٥٢٥ –

١٥٨٥) الذى تعد مقالته عن الساعات - التى كتبها فى منتصف هذا القرن - ذات أهمية كبرى فى تاريخ هذا العلم .

ولم تكن كل الساعات وكل ساعات اليد التى تستخدم فى الإمبراطورية العثمانية مستوردة من أوروبا ، ومن حوالى سنة ١٦٣٠ إلى سنة ١٧٠٠ كانت هناك طائفة من صانعى ساعات اليد والساعات الأخرى الكبيرة فى حى جالاتا فى اسطنبول ، وكانت منتجاتهم على مستوى أمر صانعى الساعات فى سويسرا وانجلترا . وكان هناك مع ذلك مهاجرون أوروبيون وليسوا مسلمين من الوطن ، وعند نهاية القرن السابع عشر . . ولم يعودوا قادرين على البقاء ، وذلك لعوامل كثيرة ساعدت على سقوطهم ، وأحد هذه العوامل هو الصعوبة المتزايدة التى كانوا يجدونها فى الحصول على المواد الضرورية والأساسية ، متأثرين إلى حد كبير بالسياسات التجارية فى الحكومات الغربية والمنتجين الغربيين ، الذين يصنعون عند اذن الساعات أو ساعات اليد المصممة وفقا للسوق التركى التى تتمشى والسوق . وكان عملهم هو تصدير الساعات الكبيرة . وساعات اليد الكاملة . وهناك سبب آخر وهو التطور (التحسن) المستمر فى عقارب الساعات الكبيرة ، وساعات اليد فى أوروبا ، التى لم يكن فى مقدور صناع الساعات فى اسطنبول اللحاق بها . وفى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر توقفت صناعة ساعات اليد فى تركيا ، وكان أخر صناع للساعات اليدوية الغربيين الذى ذهب إلى تركيا ، هو اسحق روسو ، وهو أبو الفيلسوف المشهور جان جاك روسو ، الذى يسجل فى اعترافاته « أن ابى بعد مولد أخى الوحيد توجه إلى القسطنطينية ؛ حيث تلقى موعدا مع صانع ساعات فى سيراجيليو » .

ومن قبيل المصادفة أن فولتير أيضًا كان على اتصال بالسوق التركية من أجل الساعات ، حيث كان يعين مجموعة من خمسين لاجئ دينى من جنيف على إيجاد سوق جديد لهم . وفى رسالة إلى الملك ، فريدريك العظيم (الأكبر) فى سنة ١٧٧١ يكتب فولتير أن تركيا كانت السوق الكامل « مر الآن ستون عاما منذ أن كانوا يستوردون الساعات من جنيف ، ومازالوا غير قادرين على صناعة ساعة واحدة أو حتى تركيبها » .

وبالإضافة إلى ساعات الحائط وساعات اليد . . كان هناك نوع أوروبى آخر ، وجدته بعض شعوب الشرق الأوسط نافعا . وإلى الشرق وفى إيران بالتحديد وحوالى سنة ١٤٨٠ ، يقول أحد الشعراء متحسرا لبداية الشيخوخة :

لم تعد عيناى الآن ترى على الإطلاق

ولكن بعون النظارة الافرنجية تصبح أربعة

إن أهمية النظارات المصنوعة في أوروبا يبدو أنها استمرت على نطاق صغير ، وهناك بعض الإشارات إلى شرائها واستخدامها .

وتنشأ مسألة مهمة فى القرن الثامن عشر ، عندما اقتنع الساسة العثمانيون بعد عدة هدايا عسكرية ، إن الأعداء المسيحية للإمبراطورية قد نجحوا إلى حد ما فى تحقيق الأسبقيه والتفوق فى فنون الحرب ، وان هذه التغيرات كانت ضرورية لاستعادة القوى العثمانية . وقد عبر شاعرهم على باشا بطريقة جيدة ، بعد الهزيمة النكراء التى ألحقها الروس بالعثمانيين سنة ١٧٧٤ ، ويطرح على باشا سؤالين على نفسه يخبرنا بأنهما سؤالان ، طالما ألحا على فكره ، لماذا أصبحت الإمبراطورية ضعيفة جدًا هكذا بعد أن كانت قوية جدًا ؟ وما الذى يجب أن تفعله من أجل استرداد قوتها الأولى ؟ يقول إن الجندى التركى لم يعد أقل شجاعة عن ذى قبل ، والناس ليسوا أقل عددًا ، والحدود ليست صغيرة ، وموارد الإمبراطورية لازالت عظيمة ، ومتى كانت الجيوش الإسلامية تولى الأدبار أمام الكفار ، فإن المسلمين الآن هم الذين يولون الأدبار أمام الكفار .

ويقترح علي باشا علاجا محافظا جدًا ، ألا وهو العودة إلى الأساليب القديمة ، ورأى البعض الآخر أن المشكلة تنصب فى التفوق العسكرى للغرب والحل هو الاصلاح العسكرى ، وإقامة مراكز تدريب على الحرب الحديثة ، إن المدارس الجديدة للهندسة العسكرية والبحرية والتى أقيمت فى القرن الثامن عشر ، قد أعطت دفعة قوية لتقبل بعض جوانب العلوم الغربية والتشبه بها . كان أحد معلمى المدرسة الهندسية التى أقيمت سنة ١٧٣٤ ، هو محمد سعيد ، وهو ابن مفتى اناتوليا ، ويقال إنه اخترع ربع

محيط دائرة من جزءين ، يستخدم الروماة ويقال إنه كتب مؤلفا حافلا بالرسوم الجغرافية ، وهناك كتابات أخرى ترجع إلى هذه الفترة ، ومن بينها مقالة حول حساب المثلثات تعتمد بشكل واضح على مصادر غربية ، فهى ترجمة لمقالة عن العلوم العسكرية ، كتبها عسكرى إيطالى كبير ، هو الكونت مونتيكولسكى ، وبعض الأعمال الطبية .

إن المدرسة الأولى ومدرسة المهندسين العسكريين التى أقيمت فى نفس الوقت قد لقيت معارضة شديدة من الجانجيرين ، ومع ذلك . . لم تنته المعارضة من تحديث القوات المسلحة . وفى سنة ١٧٧٣ كانت هناك بداية جديدة مع افتتاح المدرسة الهندسية البحرية ، وكان بعض المدرسين فى هذه المدرسة الجديدة من الأوروبيين . وكان الطلاب يتكونون فى المقام الأول من التلاميذ الذين كانوا في المدارس الأولى ، مع الضباط الذين فى الخدمة ، وأحد رجال المدفعية الغربية ، والذي ساهم فى إنشاء المدرسة ، يتحدث عن تلاميذ له ناهزوا الستين من عمرهم .

وفى ذلك الوقت . . لم تستطع القوى المعارضة أن تتسبب فى إغلاق المدرسة ، بل على العكس من ذلك تطورت المدرسة وأصبحت نموذجا للمدارس الأخرى ، التى تعلم الهندسة العسكرية والطب والأمور المشابهة لذلك ، والتى أسسها السلطان سليم الثالث وخلفاؤه ، وكاهن فينيسيا جيان تستسا توديرينى ، الذي زار اسطنبول بين سنة ١٧٨١ ، يصف هذه المدرسة فى شىء من التفصيل ، لقد وجد عددا لابأس به من الأجهزة البحرية الأوروبية ، وهو الذى انتقل إلى تركيا باسم أطلس الأصغر . ووجدت فى حجرة أخرى خريطة جغرافية ، لاسيما وقد قام بترجمتها إبراهيم متفرقة سنة ١١٤١ هجرية المقابل لعام (١٧٢٨ - ١٧٢٩ م) . وهناك ثلاث خرائط دائرية للأرض من مختلف الأحجار ، كذلك أداة لقياس الزاوية (فراوة) ، من نوع جميل من باريس وأدوات قديمة وحديثة لقياس المسافات ، وتلسكوب وعدة جداول خاصة بعلم حساب المثلثات ، ويلاحظ تودرينى أنه لم ير نموذجا لماكينة لصق وخلع الصوارى على السفن التى قدمها توت . ومن بين عديد من الكتب الأوروبية . . وجد الجداول الفلكية ،

« لسيد الأرض » مع ترجمة تركية . وأشار على مرشدخ بأن هذه الجداول ليست حديثة ، ونصحه بأن يحصل على أحدث طبعة ، وبين له مرشده الجداول التركية حول علم القذائف ، الذى ترجم من الكتب الأوروبية ، وملحقا خاصة بالاسطرلاب والبصلة ، وكذلك كتب الهندسة التى استخدمها فى تعاليم تلاميذه .

وكان مرشده تودرينى هو المعلم الأول فى المدرسة ، وهو جزائرى يتحدث الايطالية والفرنسية والاسبانية ، والذى أخبره أنه جاء إلى اسطنبول بعد الإبحار فى البحر المتوسط والاطلنطى والسواحل الهندية وحتى أمريكا ، وقد كان موجهًا ماهرًا للدفة وقبطانًا ماهراً وقد عبر عن تفضيله للإجهزة الإنجليزية والخرائط الفرنسية .

إن تلاميذ المدرسة كما يقول الأستاذ الجزائرى ، كانوا أكثر من خمسين تلميذا ، وهم أبناء قباطنة البحر وأشراف الأتراك ، ولكن قليلاً منهم فقط الذين كانوا متحمسين للدراسة .

وقد أصبحوا أكثر اهتماما بعد ضم روسيا لجريميا سنة ١٧٨٣ ، وفى سنة ١٧٨٤ - وبمبادرة من الوزير الأكبر هليل باشا ، وبمساعدة السفارة الفرنسية - تم البدء ببرامج تدريب جديدة على يد ضابطين مهندسين فرنسيين ، ولكن المبادرة توقفت عندما اندلعت الحرب بين الإمبراطورية العثمانية والنمسا وروسيا سنة ١٧٨٧ ، ورحل المعلمان . وبرحيلهما واندلاع الحرب توقف التقدم ، وتم توقيع السلام مع جيران الإمبراطورية فى الشمال سنة ١٧٩٢ ، وهذا السلام هو الذى مكن السلطان الجديد سليم الثالث ، من أن يبدأ بداية جديدة خالصة . ويحول بعد ذلك السلطان إلى فرنسا . وفى خريف سنة ١٧٩٣ . . أرسل إلى باريس قائمة من الضباط والفنيين ، الذين أراد أن يستخدمهم . وفى سنة ١٧٩٦ أرسل ريس أفندى راتب قائمة مشابهة إلى جمعية الأمن العام فى باريس . ولم يعد ملك فرنسا الذى ترسل إليه هذه الطلبات ، بل الجمهورية هى التى تقوم الآن بذلك ، ولايبدو أن هذا قد سبب إزعاجا للسلطان على أى حال . وفى سنة ١٧٩٦ . . وصل السفير الفرنسى الجنرال اوبرت دى بيات ، وكان جنديا قديما فى الثورات الأمريكية والفرنسية ، وصل إلى اسطنبول مع مجموعة كاملة من الخبراء

العسكريين الفرنسيين ، وفي ذلك الوقت كانت مدارس عديدة قد بدأت العمل من أجل تخريج ضباط للجيش والبحرية ، حيث تعلم الرماية وبناء الحصون والبحرية ، والعلوم الثانوية ، أو الفرعية الأخرى ، وطلب إلى المعلمين الفرنسيين القيام بالتعليم فى هذه المدارس ، وأصبحت معرفة اللغة الفرنسية إجبارية على الطلاب . وكانت هناك مكتبة تحتوى على ٤٠٠ كتابا ، معظمها باللغة الفرنسية ، وكانت بين هذه الكتب الموسوعات الكبرى .

ومرة ثانية وفى ظل الانقلابات الثورية وحروب نابليون ، واجهت هذه المدارس صعوبات وأغلق بعضها تحت ضغط القوة المعرضة . وعندما بدأ محمد الثانى اصلاحاته سنة ١٨٢٦ ، تم الابقاء على مدرستين فقط ، من هذه المدارس الطب فى سنة ١٨٢٧ (انظر ص ١٥) ، ومدرسة العلوم العسكرية ١٨٣٤ . وفى كل هذه المدارس .. انتشر الأجانب بين المعلمين ، وكانت اللغة الأجنبية - خاصة الفرنسية - أمراً يقتضى من الطلاب معرفته للالتحاق بهذه المدرسة .

وكانت هناك مهمة عاجلة أمام المسلمين ، وهى معرفة اللغات الغربية ؛ حتى يدرسون علوم الغرب ، ويترجمون ويكتبون الكتب باللغة التركية ، وحتى يطوعوا اللغة التركية ؛ بحيث تقبل المفردات والمصطلحات الفنية والعلمية الحديثة ، التى تفتقر إليها ، والتى كانت بحاجة ماسة إليها .

وهناك رجلان لعبا دوراً بارز الأهمية فى هذا المجال هو عطا الله محمد المعروف بصينزيد (١٧٦٩ - ١٨٢٦) ، وهو مؤرخ جغرافى من ١٨١٩ حتى وفاته ، ويبدو أنه تعلم على الأقل إحدى اللغات الغربية ، وقام بدراسة الطب الأوروبى ، وعلوم أخرى ، وأهم كتاباته على الإطلاق ترجمة تركية لكتاب نمساوى فى الطب ، ربما نقل عن الايطالية ، وقد أضاف صنيزيد مقالاً تفسيراً من عنده ، عن الفسيولوجيا وعلم التشريح ، وهناك ترجمة أخرى لعمل نمساوى آخر حول التطعيم ، وظهور هذا الكتاب باللغة التركية كان علامة على نهاية فترة وبداية فترة جديدة فى الطب التركى . ورغم الإضافات التى تدخل على المعرفة والأساليب من الغرب ؛ إلا أن الممارسة الطبية

العثمانية ظلت أساسا مخلصة للتقليـد الهللينستى والإسلامى الكلاسيكى ؛ أى مخلصة لطب جـالينوس وابـن سينا ، كـما كانت الـفلسفة الـعثمانـية مرتبـطة كذلك بـأرسطو وبطلميوس وشراحهما ، كمـا كانـت الدولة العثمانية دينيًا مخلصة للنبى ﷺ والقرآن والسنة .

الفصل العاشر

الحياة الثقافية

يقع مسجد نوروسمانينى عند مدخل السوق الكبير فى اسطنبول . وبعد أن اكتمل فى سنة ١٧٥٥ فى ظل توجيه المهندس المعمارى قليبى مصطفى ومعه النحات المسيحى الذى يدعى سيمون أصبح علامة على نقطة التحول فى التطور الثقافى الإسلامى ، وفى الخطة العامة لمسجد نوروسمانينى المتميز بقبته الفردية التى تتوسطه يظل على تقليد الجوامع (المساجد) الأمبراطورية العظيمة التى زين بها السلاطين العثمانيين ، ابتداء من محمد الفاتح فصاعدا مدينة اسطنبول . ولكن هناك تغير كبير فى الملامح المعمارية الصغرى ، والتفاصيل الصغيرة ، يعكس تأثير الزخرفة الباروكية الايطالية[١] .

إن مثل هذه المؤثرات يمكن أن تميز فى تاريخ سابق من خلال الزخرفة فى العصر الإمبراطورى وظهور التأثير الأوروبى فى مكان ما بالنسبة لإسلام الدولة العثمانية وعمارة المسجد الإمبراطورى يكشف عن شيء ما جديد فى الإسلام . وهو اهتزاز الثقة بالنفس التى أعادت كل الهزائم والانسحابات ، التى صبها العدو المسيحى على الدولة العثمانية . وينعكس نفس هذا الشعور فى قول اقتبسه السفير العثمانى فى باريس محمد سعيد أفندى ، عندما رأى حدائق تريانون الجميلة ، وهذا القول هو « إن هذا العالم هو سجن المؤمنين وجنة غير المؤمنين »[٢] .

إن أول علامات موجة التأثير الثقافى التى يمكن أن تشاهد فى الزخرفة الباروكية لمسجد نوروسمانينى يرجع تاريخها إلى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، من الفترة المعروفة فى الحوليات العثمانية باسم Lale Devri عصر التوليب .

وهذه الفترة التى تبدأ بتوقيع معاهدة باساروفتز مع النمسا فى سنة ١٧١٨ تستمد

اسمها منه التعاطف العالمى مع التوليب وهو الذى استوعب المجتمع العثمانى فى ذلك الوقت .

لقد كانت هذه الفترة فترة سلام ، وكان السلطان أحمد الثالث وكبير وزرائه وأماد إبراهيم باشا على دراية تامة بالخطر الجديد الذى هدد الإمبراطورية من الشمال ، والذى توقف لوقت ما بسبب توقيع السلام . وقد اتبعا فى ذلك الموقف أمرين لتجنب الحرب وللتعرف على أصدقاء جدد . وقد مهد لهم الطريق للتفاوض حول السلام فى كارلوتز فى سنة ١٦٩٩ ، ولما كان التهديد يأتى إليهم عن طريق جيرانهم فى وسط وشرق أوروبا فقد اتجها إلى غرب أوروبا للمساعدة ، وبدأت لأول مرة العلاقات القريبة بينهما .

وتعتبر فترة عصر التوليب في التاريخ العثمانى فترة عصر تطور سلمى وثقافى ، وفترة افتتاح آفاق جديدة ، وعلى نحو مايتوقع المرء . نظر العثمانيون في المقام الأول إلى مصادر حضارتهم الخاصة ، وقدم برنامج يقصد إنتاج ترجمات تركية للأعمال الكلاسيكية العظيمة ، عربية وفارسية ، وهى لم تكن موجودة فيما سبق فى اللغة التركية .

وكان امتداد هذا الاهتمام بالكتابات الغربية أكثر تميزا ، وقبل ذلك بسنوات قليلة ، وفى سنة ١٧١٦ مات الوزير الأكبر وأماد علي باشا فى معركة بيتروواردين تاركًا مكتبة عظيمة ، واستصدر مفتى الإمبراطورية أبو اسحق إسماعيل أفندى فتوى ؛ بتحريم تخصيص هذه المكتبة من بين الأوقاف لأنها تشتمل على كتب فى الفلسفة والتاريخ والفلك والشعر ؛ ولذلك فقد أرسلت الكتب إلى القصر الإمبراطورى [٣] .

إن مثل هذا الاهتمام فى الغرب لايزال محددا وعمليا ، وكان الغرض منه هو تقوية الإمبراطورية وهذا أفضل الطرق لمقاومة الأعداء . وكافة التوجيه - أو قل المعرفة التى كان يسعى إليها من الغرب - عسكريا فى المقام الأول ، حيث يؤيد بمثل هذه الشئون السياسية . ومع ذلك ففى هذا الوقت كانت هناك معرفة بأن العناصر الأخرى التى وراء المعرفة العسكرية والسياسية تدخل فى الموضوع .

فمثلا .. عندما سافر محمد سعيد أفندى إلى فرنسا سنة ١٧٢١ كانت من بين التعليمات الصادرة إليه أن « يزور القلاع والمصانع ، وأن يقوم بدراسة وسائل الحضارة والتعليم ، ويقدم تقريرًا حول ذلك يمكن تطبيقه »[٤] فى تركيا .

لقد قدمت بعثة محمد سعيد أفندى بعض العلامات فى الحياة الاجتماعية والثقافية على كلا الجانبين ؛ ففى باريس كان ظهور السفير التركى ووفده بداية « للتريكو الذى امتد من طرز موضات السيدات إلى العمارة والموسيقى ، كما هو الحال فى عواصم أوروبية أخرى تمت زيارتها على نفس هذا النحو . على أن الطرز الفرنسية ذات الانتشار الأقل ، نالت شهرة أقل من ذلك فى اسطنبول . ويمكن أن يلاحظ تأثير هذا أساسا فى القصور التى بناها السلطان ووزراؤه فى عصر التوليب وبصفة خاصة فى حدائق هذه القصور . وأسهب محمد سعيد أفندى فى تقرير بعثه فى الحديث عن حدائق فرساليس ، والحدائق الفرنسية الصورية التى تتميز بالنافورت الرخامية ، التى تحيطها البراعم والأزهار بصورة مرتبة ونظامية . كذلك انتقل أسلوب الاثاث الغربى إلى القصر - ولم يكن معروفا من قبل - خاصة الاثاث الذى كان يستخدم لضيوف الغرب .

ويزودنا محمد سعيد أفندى بمعلومات عن الفنون ، فيقول :

جرت العادة بين هذه الشعب على أن يعطى الملك إلى المبعوثين (السفراء) صورته الشخصية مزدانة بالماس ولكن لما كانت الصور غير مسموح بها بين المسلمين ، فقد أعطانى بدلا منها حزاما مرصعا بالماس وسجادتين صنعتا فى باريس ومرآة كبيرة ، ومسدس وبندقية ، وصندوقا مرصعا بالنحاس والذهب ، وساعة منضدة بالذهب والفضة وآنيتين من الخزف بمقابض ذهبية ونحاسية للثلج ، ووعاء للسكر »[٦] .

من الواضح أن محمد سعيد أفندى لم يستحسن أو - على الأقل أراد أن يفهم أنه لم يستحسن - الصور الشخصية . وعدم اهتمامه بالتصوير أو الرسم يؤكد فكرته عن الصور التى جعلوه يشاهدها فى القصر ؛ حيث يقول :

« بعد ذلك بدأنا نشاهد الصور الرائعة التى كانت معلقة فى حجرة الاجتماعات .

وتجولنا مع الملك الذى قام بنفسه يشرح لنا من هم أصحاب هذه الصور »[٧] .

وعلى النقيض من ذلك فقد كان أكثر بلاغة فى موضوع اللوحات المطرزة ، حيث يقول :

وهناك مصنع خاص بإنتاج اللوحات المطرزة التى تنتمى إلى الملك . . وعندما يعرفون أن سفيرا ما على وصول . . كانوا يعلقون كل هذه اللوحات التى كانت جاهزة على الجدران . ولما كان المصنع واسعا للغاية ، فلابد أن هناك أكثر من مائة قطعة معلقة على الجدران ، وعندما رأيناها وضعنا أصابعنا فى أفواهنا من أثر الدهشة التى اصابتنا ، وعلى سبيل المثال فإن الأزهار المشغولة على هذه اللوحات تبدو كإناء حقيقى للأزهار ، إن ظهور الأشخاص المصورة وعيونهم وحواجبهم وخاصة شعرهم وذقونهم ، ثم تصور كل هذا على نحو لم يستطع مانى أو بيزاد الذين يعملون على الورق الصينى أن ينجزاه فى فنهم . وأحد الأشخاص المصورين يضحك تعبيراً عن فرحته ، ويبدو آخر حزينا معبرا عن حزنه وشخص آخر يبدو مرتعدا من الخوف ، وآخر يبكى وآخر داهمه مرض ما ، لذلك فللوهلة الأولى تعرف الحالة التى يكون عليها كل شخص . أن جمال هذه الأعمال يفوق الوصف ويفوق التصور »[٨] .

أن رد فعل محمد سعيد على الفن الواقعى - حتى ذلك الفن الأوروبى فى القرن الثامن عشر - واضح ، وكذلك يزودنا بمعلومات مفيدة ، خاصة هذا الاختلاف فى وجهة نظره بين الصور الشخصية واللوحات المطرزة . وكذلك الرسومات المعلقة على الجدران جديدة وغريبة ، وهى خارج خبرته تمامًا . إن اللوحات المطرزة (التى يسميها كليم) كانت مرتبطة بالصورة المألوفة لفن ، ومن ثم فهى قابلة للفهم . ويمكن ملاحظة التناقض من خلال عدم اهتمامه بفن ، واستجابته وتحمسه لفن آخر . ومع ذلك فلم يكن التصور الأوروبى ؛ خاصة الصور الشخصية معروفًا تماماً للمسلمين فى الشرق ، وهناك دليل على أن السلطان بايزيد الثانى اهتم بأعمال ليوناردو دافنشى ، ومع ذلك فيبدو أن الاهتمام به كان كمهندس أكثر منه فنان ، ويبدو أنه اتصل به فقط فى مشروع بناء كوبرى عبر القرن الذهبى ، ولم يسفر هذا المشروع عن شىء ، ولكن

فى العصور العثمانية قامت أعداد متزايدة من الفنانين الأوربيين بزيارة اسطنبول ومدن أخرى .

وفى الأوقات السابقة على التصوير الفوتوغرافى . . أضاف المبعوثون (السفراء) الأوروبيون وغيرهم من المسافرين الذين يتمتعون بثروات كبيرة غالبا ما أضافوا فنانا إلى بعثتهم ليقوم بنفس الغرض الذى تقوم به آلات التصوير الحديثة . ويبدو أنه كان هناك سوقًا أساسيا فى أوروبا لسائر لوحات الحائط ؛ خاصة للطبعات والكتب التى تصور عجائب الشرق .

ولم يكن وجود هؤلاء الفنانين الغربيين فى وسطهم ، بعيدًا عن ملاحظة الاتراك كلية ؛ فقد زار الرسام الايطالى جنتيلى بالينى اسطنبول بعد الانتصار ورسم صورة شخصية للفاتح . وأختير الرسام وأرسلته سنيورة فينيسيا بناءً على طلب من السلطان . وبعد وفاة محمد الثانى خلفه ابنه الورع بايزيد الثانى ، الذى لم يكن يستحسن (يقر) التصوير وخاصة التصوير الشخصى ، ولذلك قام بتحطيم مجموعة صور أبيه وأمر بأن تباع الصور فى السوق . وحصل على الصورة الشخصية تاجر من فينيسيا ، ووجدت هذه الصورة طريقها فى الحال إلى الصالة القومية للفنون فى لندن .

حقا كانت الصورة الشخصية شيئا جديدًا فى العالم الإسلامى ؛ فالقانون المقدس للإسلام يحرم تمثيل صورة الإنسان . وكان هذا التحريم مؤثرا ضد فن النحت ، الذى لم يبدأ فى التغلغل إلى العالم الإسلامى ، حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ومازال المدققون ينظرون إلى ذلك باستياء شديد ، ومع ذلك فإن التصوير ذا البعدين كان يمارس على نطاق واسع ؛ خاصة فى الأراضى الفارسية والتركية . أما ممارسة تعليق الصور على الجدران فقد كانت عادة غريبة ، ولم يلجأ إليها المسلمون حتى أواخر القرن التاسع عشر . أما الأمر الثانى ، وهو الشخصيات المصورة فى هذه اللوحات فقد كانت فى معظمها شخصيات أدبية وتاريخية ، والتصوير الشخصى موجود بالفعل فى الفن الإسلامى القديم ، ولكنه نادر وخاضع لاستياء شديد .

إن تبنى السلاطين العثمانيين وفنانيهم للتصوير الشخصى علاقة واضحة على التأثير

الأوروبى . والمثال الذى يسوقه محمد الفاتح على ذلك لم يتبعه فيه خلفاؤه المباشرون ، ولكن مع حلول القرن السادس عشر . . أصبحت الممارسة عامة . وهناك أحد الأعمال فى سنة ١٥٧٩ يتضمن ألبوما خاصا بالصور للسلاطين العثمانيين . وكان مصنف الكتاب هو مؤرخ البلاط سعيد لقمان ، وكان الفنان هو رسام البلاط العثمانى ناكس عثمان . . لقد قدم صوراً شخصية لاثنى عشر (١٢) سلطانا ، تناوبوا حكم العثمانيين إلى عصره . ويدل تقديم لقمان على أنه كانت هناك صعوبة معينة فى إيجاد الصور الشخصية للسلاطين الأوائل ، ويبدو أن الإشارة هى إلى الصور المنقوشة التى تزين الكتب الأوروبية المعاصرة للإمبراطورية العثمانية . ويمكن تمييز نفس هذا التأثير فى إطار الاهتمام بالتأكيد على دقة التصوير الشخصى ، وحتى التأكيد على تصوير الزى الخاص بكل سلطان[١٠] ، ويستدل على شهرة هذا الكتاب من الأعداد الكبيرة من النسخ الباقية ، ومن ظهور ألبومات للصور الشخصية الملكية من نوع مشابه . ومع بداية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر كان السلاطين وكذلك علية القوم الآخرين مستعدين للوقوف للتصوير الشخصى . وكان الفنان الأوروبى البارز فى هذا الوقت هو جان باتبستي فانمور (١٦٧١ - ١٧٣٧) الذى قضى فى تركيا حوالى ثلاثين عاما . وهناك فنان آخر هو انطونى فافرى (١٧٠٦ - ١٧٩٢) ، وهو أحد فرسان مالطة ، وقد مكث فترة فى اسطنبول كضيف على السفير الفرنسى . وكثير من هؤلاء الفنانين صوروا جمهور الحاضرين ، الذين اعطاهم السلطان أو الوزير الأكبر أبى السفراء الأجانب . كذلك قدم فانمور إلى السوق الأوروبى طبعات تصويرية للسلطان والوزير الأكبر ، وعدد آخر من وجهاء القوم ، غير أنه ليس من الواضح ما إذا كانت هذه الصور قد طرحت أم لا . وبعض هذه الرسومات التى قام بها فنانون غربيون واضحة من مجموعات موجودة فى بوبكابى[١١] .

على أن التغيير المميز فى الفنانين المسلمين أنفسهم كان ذى أهمية أعظم من أعمال الفنانين الغربيين ، وهناك صورتان شخصيتان لمحمد الفاتح محفوظتان فى القصر فى اسطنبول ، ويبدو أنهما من صنع الفنانين الاتراك الذين استوحوا الأسلوب الايطالى .

ولايزال إسلوبهم إسلاميا ، ولكن يشتمل علـى المؤثرات الغربية الواضحة ؛ خاصة فى استخدام الظل . وتنسـب إحدى هاتين الصورتين إلى الرسام العثمانـى المشهور سينان ، الذى يقال إنه تلميذ لسيد من فينيسيا ، يدعى بابولى .

وفى القرن الـثامن عشر ؛ وبصفـة خاصة عند نهايـة هذا القرن . . يصبح الـتأثير الغربى علـى الفن التركى واضحا . وأحـد أسباب ذلك هم الفنانـون الأجانب ، الذين عملوا فـى البلاط العثمانى ، أو عـلى مقربة منه . وأحـد هؤلاء الفنانين يدعى مـيكتى Mecti اعتـنق الدين الإسلامى . والزائر الأوروبـى - بين سنة ١٧٨١ وسنة ١٧٨٥ - يرى فى القصـر عدة صور ، رسمها الرسام الأرمـنى المدعو رافائيل - ومع نـهاية القرن الثامن عشـر انتهى التقليـد الفنى القديم ، وحتى تفـسيرات الكتب إلى الأعمـال التركية الأدبية ، يسودها الأسلـوب الغربى ، إن صبغة الفن التركى ، بالأسـلوب الغربى فاقت بكثير أي مؤثرات غربية على الأدب أو حتى على الموسيقى [١] .

ولم يكن التأثير الفنى الغربى قاصرا على تركيا ، ولكن يمكن رؤية هذا التأثير أيضًا فى إيران وحتى فى الـشرق الأقصى . وأحد الشخصيات البـارزة فى الفن الإسلامى ، هو الرسـام بيزاد الذى ازدهر ، فـى أواخر القرن الخامـس عشر وأوائل القـرن السادس عشر . لقد علم تلامـيذ كثيرين ، اتبعوا أسلوبه وكونوا معـا مايعرف بمدرسة هيرات ، وهناك رسـومات كثيـرة ترجع إلى هـذه المدرسة ، وتتضـمن بعض الـصور الشخـصية لأشخاص ملكية تنسبها مصادر غير موثـوق فيها إلى بيزاد نفسه . وهناك صور شخصية قليلة فى عصور سابقة ، وترجع ممارسة الصور الشخصية للبعثات دون شك إلى أسلوب التصويـر الأوروبى ونظامه . ويبـدو أن هذا التأثير انتـشر من تركيا إلـى إيران ؛ حيث نسخة صنعها فنـان فارسى لصورة أصلية صنعها بللينى ، لم تـكن معروفة فحسب ، بل كان الفنان الفارسى يقوم بصنع نسخة منها .

وبعد وصول (مجئ) مملـكة الصفديين Safavid فى إيـران سنة ١٥٠٢ ، طورت هذه الدولة علاقات مقـربة مع كل من الإمبراطورية العثمانـية وغرب أوروبا ، التى بدأ منها كثير من الزوار يصلون إلـى الموانى الإيرانية ومدن إيرانية أخرى [١٣] . وأحد الملوك

(الشاهات) الأوائل ويدعى تاهماسب ، كان متهما بصفة أساسية بالرسم ، ودعا بيزاد ليكون مسئولا عن الأعمال الملكية فى تبريز ، وهى المركز الذى أقامه حتى وفاته فى سنة ١٥٣٧ . وفى هذا الوقت كان تصدير الحرائر والأنسجة مصدرًا مهمًا من مصادر الدخل للدولة الفارسية ، وفعل الملوك مافى وسعهم لكى يشجعوا ويطوروا هذه التجارة . وحول عباس الأول العاصمة إلى اصفهان وأقر إقامة المجتمعات الكاثوليكية هناك ، وشجع العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع أوروبا . وكان عباس مهتما أيضًا بتجميل وتحسين مدينته . وقام أحد الزوار الإيطاليين ويدعى بيترو ديللافاللى ، بزيارة أصفهان وقابل الشاه . ولم يكن بيترو مهتما بالرسم الفارسى المصغر ، الذى يتحدث عنه بازدراء . ومع ذلك فهو يلاحظ أن الصور الايطالية كانت تباع فى أصفهان ، فى محل يملكه تاجر من فينيسيا ، من انشط تجار المدينة . وقام الشاه نفسه بزيارة هذا المحل « الذى كان مليئا بالصور والمرايا والعجائب الايطالية الأخرى » . وقد عامل الشاه سكوديندولى (التاجر الفينيسى) بكل ود وأظهر للسفير الهندى (الذى كان معه) هذه الصور - لأن معظم الصور الشخصية الخاصة بالأمراء شبيهة بتلك التى تباع بكروان واحد فى البيازا نافونا فى روما ، ولكنها التى كانت تشترى هنا بعشرة ترترات - ودعاه لأختيار أى الصور التى تنال إعجابه(١٤) . ويأتى الدليل التاريخى الإضافى على تأثير الفن الأوروبى من سفير إسبانى ، هو دون جاركيادى سليفافيجوروا ، أرسله فيليب الثالث ملك إسبانيا إلى الشاه فى سنة ١٦١٧ . وفى وصفه للجناح الملكى الذى زاره ، يلاحظ أنه « كانت هناك صور جميلة لاتقارن بتلك الصور التى يعتاد المرء رؤيتها فى فارس وقد علمنا أن الرسام كان يدعى جوليس ، وأنه ولد فى بلاد اليونان ، وتربى فى ايطاليا ؛ حيث تعلم فنه . ومن السهل معرفة أن هذا هو من عمل أحد الأوروبيين ؛ إن المرء كان يتعرف فيه على الأسلوب الايطالى (١٥) .

ومات الشاه عباس فى سنة ١٦٣٩ ، ولكن استمر خلفاؤه فى اهتمام معين بالفن الغربى . وأحدهم وهو عباس الثانى كان مهتما أساسًا بالفن الغربى ، وقام بدعوة الرسامين الايطاليين والهولنديين إلى اصفهان ؛ حيث أثروا تأثيرًا كبيرًا على تطور فن

التصويـر المصغر ، ويقال إن الشـاه نفسه كان يتلـقى دروسا فى الرسم من فـنانين من فنانى هولندا .

ولقد ساعدت الاتصالات مع أوروبا ؛ خاصة مع فينيسيا وهولندا على امتداد التأثير الفنى الأوروبـى . إن وجود الجاليات الأوروبية الـعظيمة فى إيران ، وإقـامة اتصالات منتـظمة بين هذه الـدولة وأوروبا . . كل هذا جعـل من الممكن لـعدد من الفنـانين فى الغرب أن يزوروا إيران أو يـقيموا فيها ، ولذلك كـان من الممكن للفنـانين الإيرانيين أن يروا عملهم هذا ويقدرونه . ويمكن رؤية الـتأثير فى عدد من الرسومات (اللوحات) ، التى تعلق على الجدران فى القصور الملكـية فى اصفهان ، التى تصور مشاهد البلاط ، وشخصيات منه ، وبعض الصور المصغرة .

ويصبح فى الحال تأثيـر النماذج الغربية ، وحتى الممارسة والتـدريب عليها واضحًا فى تطور اللوحـات المصغرة ، وديكور الأعمدة وألوان الخلفيـة ، وفرض الضوء والظل والقرب من الواقعة . وتنمو هذه الواقعة فـى الفن الفارسى خلال القرن السابع عشر ، وتستمر فـى التطور فى القرن الثامن عشـر ، وتصبح هى السائدة فى القرن التاسع عشر (فى أوائله) .

وكمـا هو الحال فى تـركيا . . فـإن عديدًا من الـرسامين الأوروبـيين الذين كـانت أسماؤهم معروفة لنا أقاموا فى إيران وبعضـهم كان يعمل لدى الملوك ، وكان عملا مميزا أن يرسـل عـباس الثانى فـنانا فارسيا إلى ايـطاليا للتدريـب ، كان معروفا باسـم محمد زامان ، ومكث فى روما حيث درس الأساليب الفنية الحديثة . ويقال إنه اعتنق المذهب الكاثـوليكى ، ويذكر أحـيانا باسم مـحمد بايولـوزامان . وعديد آخرون من الـرسامين الفارسيين قدموا فـى ذلك الوقت الدليل على التأثير الأوروبـى ، وربما حتى التدريب ، الذى إن لم يكن فى أوروبا . . فإنه على الأقل كـان يتم على أيدى فنانين أوروبيين فى إيران [١٦] .

ويمكن أن نلاحظ نفس هذه العمليات فى الهند ؛ حيث كان الاباطرة المغول ، حماة الفن العـظام ، قـد أظهروا اهـتماما كبيرًا بـالأساليـب الجـديدة التى جلبـها الزوار من

أوروبا ، والـذين كـانـوا عندئذ يبـدأون تـغلغلهـم داخـل الـبلاد . وفـى أوائل سنة ١٥٨٨ . . أعـد أحد الرسامين الهـنود ألبوما لنـسخ من الصور حول المـوضوعات المسيحية للإمبراطور اكبار . ويقال إن خليفته جاهنجر - كما يحكى الزوار الأوروبيون - كانت عنده لوحات أوروبـية معلقة على جدران قصره . إن الاحتكـاك بالتأثير الأوروبى أكثر وضوحا على الرسم الهندى من الرسـم الفارسى . وعلى العكس من إيران ، التى كانت تقـاليدها الثقـافية إسلامية لقـرون عديدة ، فإن الهند كـانت دولة الكثرة الـدينية والثقافية . وكان الفنـانون الهنود معروفين بالتقاليد الفنية الـهندية والإسلامية . وكانت لديهم معرفة كذلك بأعمال نحت التمـاثيل . كل هذا جعل قبول الفن الأوروبى والتشبه به أسهل بالنسبة لهم . ولكن لافى إيران أو فـي الهند يبدو أنه كان هناك تبنٍ للأساليب الفنية المادية للرسم الغربى . وعلى سـبيل المثال كان الرسم بالزيت - وهو أساس الفن الأوروبى - قد تبناه الرسـامون الفرس أو الهنود ، الذين فضلوا أن يـحتفظوا بالأدوات فى تطور المواد الخاصة بالتقليد القديم .

وأحـــد الملامح الطريفـة التى تميز بهـا الفنانون ، هو تـصوير الرجال والنـساء فى الغرب ، وهذا تطور متأخـر . وعلى سبيل المثال من فترة الحروب الصليـبية بقيت فقط صـور فريـدة ظهر فيها الصـليبيون . وهناك لوحـة على الورق جاءت من الفـسطاط فى مصر ، وكانت فى خلال القرن الثامن عشر .

وهذه اللوحة تصور معركة أسفل أسوار المدينـة ، وتبين مقاتلا ومعه رمحه المستدير ولذلك فمن المحتمل أن يكون أحد المسلمين الذين يقاتلون ضد آخرين كثيرين ، عددهم أربعـــة علـــى الأقـل ، وكذلك رمـــاح علـى أشكـال طائرة ، ومـن المحتمل إنـها نورماندية (١٨) .

إن فترة الاتصالات المغولية الأوروبية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر تركت سجلات فنيـة بالإضافة إلى سجلات أدبيـة ، وبعض المخطوطات الخاصة بـتاريخ رشيد الدين عـن الفرنجة مـوضحة بصور شـخصية لـلاباطرة والبابـوات . ويوضح التـصوير الشخصى علامات واضـحة عن تأثير السنيور المغولى فـى الرداء ووضع الجسم ، وحتى

ملامح الشخصيات المصورة . ومع ذلك فهناك عناصر أصيلة خاصة بالرداء الأوروبى فى العصور الوسطى ؛ خاصة فى الرداء الوظيفى ؛ لتبين أن الفنان الفارسى قد رأى زائرين أوروبيين أو صورًا أوربية [١٨] .

إن اهتمامات الأوروبيين فى الشرق الأدنى ، وفى شمال أفريقيا قد قابلها الفانون المسلمون باهتمام أقل مما قابلها به الكتاب المسلمون ، وقد جاءت المحاولات التالية فى رسم وتصوير الزوار الأوروبيين من نهاية القرن السادس عشر ، وبداية القرن السابع عشر ، وقد وجدت فى إيران ، وقد يوجد قصران ، (أربعون عامودًا) من نهاية القرن السادس عشر ، وعلى كابو من بداية القرن السابع عشر ، والاثنان فى أصفهان ، وقد استخدمهما ملوك إيران كصالات للجمهور ، يقابلون فيها الزوار الأجانب والآخرين ، واللوحات التى ازدانت بها حوائط كل من المبنيين ، تشتمل على عدد من الأوروبيين (انظر ص ٢٨٩) ، وبالذات فى زى إسبانى وبرتغالى . ومثل هذه التمثيلات (الأشكال) توجد فى التصوير الفارسى المصغر فى نفس هذه الفترة .

إن وجود الغرب فى الهند المغولية قد ترك أيضًا تأثيرًا ما على الفن الهندى والإسلامى . وقد بقيت بعض اللوحات المصغرة التى تصور الرجال الأوروبيين وأحيانًا النساء الأوروبيات . وهناك أيضًا صور شخصية بأسماء الأشخاص ، مثل : الرسول الانجليزى السيرثوماس روى الذى ظهر قبل الامبراطور جاهنجر (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ، بالإضافة إلى صور شخصية لاثنين من موظفى الشركة البريطانية فى شرق الهند ، وكذلك وارن هاستينة فى رواد البلاط الأوروبى ، وريتشارد جونسون ، وهو يرتدى معطفًا أحمر ، ويمسك بطاقية ذات زوايا ثلاث ، ويجلس على كرسى . ويلازمه أحد الخدم الذى يمسك بمظلة .

وبعض أهم اللوحات من وجهة النظر الفنية ، هى لوحات الفنان التركى عبد الجليل قليبى ، المعروف باسم ليفنى . ولما كان موطنه أدرنى . . فقد أصبح تلميذًا فى مكتب الرسم ناقيشانى فى اسطنبول . وبدأ موشى مخطوطات ، وحتى فى هذا النطاق التقليدى . . فإن عمله الباقى هذا يكشف تأثيرات الروكوكو الغربية . وبدأ بعد ذلك

يرسم ، وعين رسامًا بالبلاط عند مصطفى الثانى (١٦٩٥ - ١٧٠٣) وأحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠)[١٩] ، وقدم ليفنى ألبومات ، ومخطوطات تفسيرية وعددًا من اللوحات الفردية ، ورسم - بالإضافة إلى الصور الشخصية - صورًا خاصة باحتفالات القصر . وتوضح بعض هذه الصور سفراء أجانب ، يمكن التعرف عليهم من خلال الرداء الأوروبى ، ومن خلال الحقيقة بأن أصحاب هذه الصور يجلسون على كراس ، ويقوم بحراستهم عدد من الترجمانات والحراس ، وهناك صورتان ساحرتان لشابين لطيفين من أوروبا . وهناك مخطوطة تركية ، ربما يرجع تاريخها إلى مابعد سنة ١٧٩٣ بقليل وتشتمل على صور شخصية لسيدات ورجال أوروبين من مختلف الجنسيات ، وتوضح هذه المخطوطة مؤثرات أوروبية أكثر قوة ، وقد تكون مقتبسة فى جزء منها من لوحات أوروبية . ومع ذلك فإن الرداء المصور - فيما عدا الكاب ذى الألوان الثلاثة الذى ترتديه السيدة الفرنسية - يرجع إلى القرن السابق[٢٠] .

ويمكن رؤية المؤثرات الفنية الأوروبية ليس فقط فى الرسم ، ولكن أيضًا - وإلى حد كبير - فى الزخرفة المعمارية . وفى كل من تركيا وإيران تظهر لوحات الحائط بصورة متكررة مكان الزخرفة الوردية المرسومة ، التى كانت شائعة فى الأسلوب التقليدى . وقد رسمت مباشرة على البلاستر ، وغالبا ما كانت محاطة ببراوز (بإطار) من العناصر الباروكية . وفى إيران كانوا يصورون دائما مشاهد البلاط وشخصياته ، وفى تركيا كانوا يصورون فى الغالب مناظر من مدينة إسطنبول متضمنة مناظر من أماكن أخرى ، ومناظر خاصة بمختلف المساجد . وكل من التصوير الشخصى وفن تصوير المشاهد (المناظر) كان جديدا على التقليد الإسلامى ، ويكشف عن تأثير الأسلوب والذوق الأوروبى . وبالنسبة للفنانين العثمانيين كان التأثير بالغرب أسهل فى الرسم منه فى التصوير الشخصى .

وكان للفن العثمانى تقليده الخاص به وهو تقليد الرسم الطوبوغرافى ، ولم يثر تصوير المناظر والمبانى المشكلات الدينية والأخلاقية الصعبة ، التي فرضها تمثيل التصوير الإنسانى[٢١] . ولنفس السبب حتى فى الوقت الذى أصبح فيه تأثير العمارة الأوروبية

والرســم الأوروبى قـويا وســائدًا كانت لاتزال هنــاك مقاومــة للنحـــت ، وكذلك للنحت البارز .

ولم تجــد الاتجاهــات الجديدة فــى فن الرســم فى تــركيا وإيــران والهنــد المسلــمة الإسلامية ، مايوازيها فى الدول العربية ؛ حيث كان فن الرسم المصغر ، قد انتهى فى العصور الـوسطى ، وحيث أصبحـت العماره - فيما عـدا فى البلاد الغربيـة من شمال أفريقيا - أكثر من نسخة للأساليب العثمانـية ، لم يؤثر الفن الغربى والعمارة الغربية قبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى مصر وبعد ذلك فى البلاد العربية الأخرى .

ويبدو أن صــدى الثقافة الأجنـبية أكثر صعـوبة فى تغلـغله من فن الثـقافة ، وأن الاهتمام الغربى بالفـنون فى آسيا وأفريقيا كان أعظم منه فى موسـيقى هاتين القارتين ، وبنفس الـشكل كان المسلمون يـقدرون الفن العربى ويـقدمونه ، قبل أن يتمـكنوا من الاستماع إلى الموسيـقى الغربية بزمن طويل ، وفى واقع الأمر إن الاهتـمام والتأثير لم يكونا فى الحقيـقة شيئا ، وكان المسافرون الأوائل إلى أوروبا يرجـعون إلى أى موسيقى سمعوها ، وعـــندما يتحدث إبراهيم بن يعقوب عن شليزونج فإنه يلاحظ الآتى :

« إننى لم أسمع غناء شعب أسود من غناء شليزونج وإن مايخرج من بين حناجرهم إنما همهمة مثل نباح الكلاب ، بل أكثر وحشية »(٢٢) .

وبعد ذلك بقرون نجد ايفيليابلبيى العثمانى فى فيينا أكثر استياء ، وبين الأشياء التى يوصفـها أوركسترا المـوسيقيين يرى أن مـوسيقاهم تـختلف تمام الاخـتلاف عن الآلات الموسيقية فى تركيا ، ولكنها ذات صوت جذاب ودافئ(٢٣٠) . كذلك امتدح أداء وظهور جوقة الأطفال فى فيينا ، وكان هذا أقرب نتائجه للتعرف على الحياة الثقافية الأوروبية .

وأثناء بقاء محـمد سعيد أفندى فى باريس ذهـب إلى الأوبرا ، ورأى بوضوح هذا الأداء المثير : « وهنــاك فى باريس نوع من أنواع التـسلية ، يسمى الأوبرا حـيث تعرض العجائب ، ودائما يكون هناك حشد كبير من الناس ؛ لأن وجهاء القوم والسادة يذهبون إلى هناك . وغالبا يذهب الأوصياء على الفرس ، وكذلك كان يذهب الملك من وقت

لآخر ؛ وقد قررت أن أذهب أنا أيضًا ، وكان كل شخص يجلس طبقًا لمنصبه ، وقد خصص لى مقعد وراء مقعد الملك مباشرة ، وهو المقعد الذى يغطى بالقطيفة الحمراء ، وفى هذا اليوم جاء الوصى على العرش ، ولا أستطيع أن أقول كم من الرجال والنساء حضروا إلى هناك . وكان المكان رائعا ، وكانت السلالم والأعمدة والأسقف كلها مزدانة . وهذه الزخرفة والتلألأ فى الملابس المرصعة بالذهب ، التى كانت السيدات ترتديها ، بالإضافة إلى المجوهرات التى كانت تغطيها على ضوء مئات الشموع ، كل هذا خلق تأثيراً أكثر جمالا . وفى مواجهة المتفرجين ، وفى مكان الموسيقى . . كانت تعلق ستاره مطرزة ، وعندما جلس كل فرد رفعت الستارة ، وظهر قصر ، فيه ممثلون بالملابس المسرحية ، وحوالى عشرين فتاة ، ويظهرون بالشكل الجانبى وملابس مطرزة بالذهب . وكل هذا يعكس التألق الذى يسود المجلس ، وبعد ذلك كانت هناك موسيقى ووقت خصص للرقص ، ثم بعد ذلك بدأت الأوبرا »[٢٤] .

بعد ذلك . . يحكى السفير خطة (موضوع) الأوبرا ، ويصف المناظر والملابس ، ويلاحظ أن مدير الأوبرا شخصية مهمة وأن هذا فن رفيع جدا ، وكان عند المغربى وزير الغسانى شيئاً يقوله عن الموسيقى فى إسبانيا ، وهو يسمى ثلاث آلات موسيقية ، تستخدم فى هذه الدولة ، وأشهرها القيثارة (اربا Arba) التى يقول عنها « إنها توجد فى الكنائس فى الأعياد ، وفى معظم البيوت الإسبانية ، وليس هناك عود ، ولكن الإسبان عندهم آلة تشبه العود وتسمى جيتاراً . وبعد ذلك بقليل نجد أنه يذكر فى إطار حديثه عن الكنائس وخدماتها آلة ثالثة ، وهى الأورجان ، وهى آلة كبيرة جدًا ، ذات أصوات مرتفعة ، وفتحات مرصعة بالرصاص ، تقدم أصواتًا مميزة » .

وعندما زار إسبانيا فى سنة ١٦٩٠ . . كان هذا كل ما اكتشفه الوزير عن الموسيقى الإسبانية[٥٦] . والمبعوث العثمانى واصف - والذى كان فى إسبانيا بعد ذلك بحوالى تسعين عاما - فقد قال أقل من ذلك ، وهو يشير إلى أن الإسبان كانوا معجبين جداً بالموسيقين والمطربين عندهم « بناء على أوامر الملك . . قام كل عظماء القوم بدعوتنا على الموائد ، ولكننا قاسينا من نوع موسيقاهم »[٢٦] .

ولما كانت الموسيقى الإسلامية الكلاسيكية تتسم تماما بتقليد شفهى فلم يكن هناك تسجيل للموسيقى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ومن ثم لانستطيع أن نحكم ما إذا كانت هذه الموسيقى قد تأثرت بصوت الموسيقى الأوروبية أم لا . وجاءت أول حركة رسمية للموسيقى الغربية بعد تدمير الـ Janissaries فى سنة ١٨٢٦ ، وقد قرر السلطان فى خطته نحو تحديث قواته المسلحة ، أن يدخل العود والترمبيت والكمان والطبل ، مع فرقة تتميز بالأسلوب الغربى .

وفى سنة ١٨٢٧ طلب السيراسكر أو الحاكم العسكرى محمد شريف باشا من الوزير الساردينى فى إسطنبول ، أن يساعده على الحصول على عدد من الآلات الموسيقية من النوع الذى (انظر ص ٢٩٢) اتفق عليه بين السلطات العثمانية وسلطات سردينا ، وأرسل جويسبى دونيزيتى ، وكان أخًا للمؤلف الموسيقى جاتيانودونيزيتى إلى إسطنبول ؛ حيث قاد الفرقة الإمبراطورية ، وعين - فيما بعد - رئيسا لمدرسة الموسيقى العثمانية الإمبراطورية ، التي أنشأت لتقدم الأسلوب الجديد للجيش مع الضاربين على الطبول وحاملى الترومبيت . ويواصل الزائرون الأوروبيون المعاصرون هذه الجهود ، وقد لاحظ إيطالى :

إنه « فى أقل من عام كان كثير من الشباب ، الذين لم يسمعوا من قبل الموسيقى الأوروبية ، قد تعلموا على يد السنيور دونيزتى ، وهو أستاذ من برجامو ، إلى الحد الذى استطاعوا أن يكونوا فرقا عسكرية مكتملة ، يستطيع من خلالها كل عازف أن يقرأ جيدًا ويؤدى جيدًا »[٢٧] .

وفى كتاب نشر سنة ١٨٣٢ يعطى زائر إنجليزى انطباعه عن هذه الفرقة ؛ فيقول : « وكانت هناك أغنيات حفلات رجال السفن الإغريق ، التى مهدت الطرق إلى الفرق العسكرية ، وكانت هناك معاملة غير متوقعة لى على ضفاف البوسفور ، سمعنا موسيقى روسنى ، وقد نفذت بأسلوب يليق بالأستاذ السنيور دونيزتى . ثم قمنا وذهبنا إلى منصة القصر ؛ حيث تعزف الفرقة ، وقد راقنى شباب العارفين ، وكنت أكثر دهشة

إزاء اكتشافى للصفحات الملكية ، التى شكلت على هذا النحو من أجل تسلية السلطان ، وارتباطهم بالتعليم ، الذى ابلغنى دونيزيتى أنه مميز حتى فى إيطاليا ، ويوضح أن الاتراك موسيقيون بالفطرة ، ولكن هذا الشباب اللطيف لم يكن لديه الوقت لاكتساب الاحتراف ؛ فأساليب حياتهم تدعوهم إلى وسائل أخرى .

ورقى دونيزتى إلى منصب أميرالاى وأصبح باشا ، ويقال إنه بعد ذلك بسنوات . . تدرب ، ثم قاد أوركسترا من السيدات ، من أجل تسلية السلطان عبد الحميد الثانى [٢٨] .

وعلى الرغم من ذلك من بعض الاجراءات المتأخرة الأخرى . . إلا أن قبول الموسيقى الغربية فى العالم الإسلامى ، كان يسير بخطى بطيئة . وعلى الرغم من أن بعض المؤلفين والمؤدين ، الذين يتميزون بمقدرة فى ذلك من الدول الإسلامية ؛ خاصة من تركيا كانوا ناجحين جدًا فى العالم الغربى . . إلا أن الاستجابة إلى نوع موسيقاهم - فى داخل الوطن - كانت لاتزال استجابة طفيفة نسبيًا ، والموسيقى مثل العلم جزء من القلعة الداخلية للثقافة الغربية ، وأحد أسرارها النهائية ، التى يجب أن يغوص فيها من هو جديد .

وكان هناك جانب واحد فشل بشكل محدد فى إخفاء التسلية ، وهو مصارعة الثيران الإسبانية . وكان لدى السفير المغربى غسانى هذا الوصف فى وقت ، كان مصارع الثيران ، لايزال من الهواة النبلاء ، ولم يصبح بعد محترفًا .

لقد كانت إحدى عاداتهم أنه فى منتصف شهر مايو . . كانوا يختارون الثيران القوية الشجاعة ، ويقودونها إلى هذه البلازا (الحلقة) التى يزينونها بكل أنواع الحرير والأنسجة الأخرى ، ويجلسون فى الشرفات ؛ ليطلوا على البلازا (الحلقة) ، ويطلقون الثيران ثورًا بعد الآخر إلى حلقة المصارعة . وبعد ذلك من يزعم أنه شجاع ، ويرغب فى استعراض شجاعته يدخل الحلقة على ظهر حصان ليصارع الثور بسيفه ، وبعض من فعل هذا كان يموت ، وبعضهم كان يقتل الثور . وكان هناك مكان مخصص

للملك فى الحلقة وكان يحضر هذه المصارعة بمصاحبة زوجته وسائر بطانته ، ويقف الناس من شتى الأجناس فى نوافذهم فى هذا اليوم ، أو أثناء الاحتفال . . . . »[٢٩] .

ويعبر الغزّال وهو سفير مغربى - بعد ذلك فى إسبانيا عن استيائه الشديد : « عندما سئلنا عن هذا اجبنا بحزم ودون مواربة بأننا نحب العابهم ، ولكن ما كنا نؤمن به هو عكس ذلك تماما ؛ لأن تعذيب الحيوانات غير مسموح به ، سواء بالقانون الآلهى ، أو قانون الطبيعة . . . . »[٣٠] .

وثمة جوانب أخرى لاقت نجاحا أعظم ؛ فيقول حسن أفندى الذى زار فيينا فى سنة ٧٤٨ :

« لقد كان عندهم فى فيينا دار ، ذات أربعة أو خمسة طوابق ؛ لتقديم المسرحيات التى يسمونها كوميديا وأوبرا . ويتجمع الرجال والنساء هناك فى كل يوم ماعدا الأيام ، التى يتجمعون فيها فى الكنيسة ، وغالبًا ما كان الإمبراطور والإمبراطورة نفسهما يأتيان ، وتقدم أجمل الفتيات الألمانيات ، وأجمل الفتيان رقصات منوعة ومشاهد تمثيلية رائعة فى ملابسهم المزدانة بالذهب ، ويضربون خشب المسرح بأقدامهم . . إنهم يقدمون مشهدًا نادرًا ، وأحيانًا يمثلون قصصا من كتاب الإسكندر ، وأحيانا يمثلون قصصًا عاطفية . . . . . [٣١] .

وكان التأثير المباشر الذى يتوق الزيارات من هذا النوع ، يمارسه المهاجرون اليهود من أوروبا ، والذين قدموا أشكالا درامية فى تركيا فى القرنين : السادس عشر والسابع عشر ، وتبعتهم مجموعات مسرحية إفريقية وأرمينية . ويبدو أن اليهود الذين وصلوا من أوروبا - بصفة خاصة لعبوا دورًا مهمًا فى تقديم تصور العمل المسرحى إلى تركيا ، وكذلك فى ترتيب العرض الأول . إنهم هم الذين قاموا بتدريب الممثلين المسلمين الأوائل ، وفى زمن السلطان مراد الرابع (١٦٣٢ - ٦٤٠) . . كانت هذه العروض تقام فى القصر كل يوم ثلاثاء ، لقد ساعدت هذه المؤثرات كثيرا فى تطوير الفن التركى المميز ، وهو الأورتا أويونو ، وهو نوع من الأداء الشعبى الدرامى العشوائى ،

لايختلف عن النوع الايطالى ، الذى يسمى كوميديا ديللا آرتى ، ويوجد مثال على هذا العرض ، مصور على لوحة مصغرة محفوظة فى ألبوم السلطان أحمد الأول (١٥٩٥ - ١٦٠٣) .

ويقوم النوع التركى الذى يسمى أورتا أويونو على مصادر عدة ، منها : التقليد الباقى للمحاكاه القديمة ، ونمط الأداء الجديد الذى قدمه اليهود الإسبان ، ثم مثال المسرح الايطالى نفسه الذى أصبح معروفا للجاليات الأوروبية فى اسطنبول ، ومن خلال الاتصال بأوروبا ؛ خاصة ايطاليا ، ومن الممكن أن تكون بعض المسرحيات الأوروبية ، قد أصبحت معروفة بهذه الصورة . وعلى سبيل المثال . . فموضوع أوثيللو الذى كان قابلا للفهم عند جمهور المسلمين ، يشكل أساس هذا النوع الأورتا أويونو ، الذى انتشر انتشاراً واسعا [٣٢] .

ومع ذلك . . فقد كان الوقوف ضد الأدب الغربى بصفة عامة مكتملا تقريبا ، وبالنسبة للفنون المرئية والموسيقية . . كان كل المطلوب هو رؤية وسماع ، وتحقيق وسيلة فهم ضرورية ؛ لمتابعة فن أو آخر من هذه الفنون وجدير بالذكر - على سبيل المثال - أن الزوار المسلمين المثقفين ، الذين زاروا أوروبا ، مثل : السفراء العثمانيين والمغربيين لم يهتموا بالكتابات الأوروبية ، وكانوا - بطبيعة الحال - مهتمين بنتاج حضارتهم الخاصة بهم . وهكذا يتحدث المبعوثون المسلمون إلى اسبانيا عن المجموعة الهائلة للمخطوطات العربية فى مكتبة اسكوريال .

ومع ذلك - وبغض النظر عن التعبير ، عن أى رضا بالتأثير الثقافى المسلم - يبدو أنهم يعتبرون هذه الكتب وثائق أسيرة فى أيدى الكفار .

إن السفير العثمانى واصف الذى شاهد المكتبة فى الأوسكوريال ، وأخذ نسخة من كتالوج خاص بالكتب العربية ، يقول :

« عندما وجدنا أن المكتبة تتضمن حوالى عشر مخطوطات من القرآن الكريم ، وعدداً لاحصر له من أعمال القانون المقدس ، واللاهوت . . فقد تأثرنا جداً وحزنًا » [٣٣] .

إن الوفد المغربى ذهب أيضًا بعيدًا جدًا ، عندما حاول أن يضمن المخطوطات العربية فى هذه المجموعة ، ضمن اتفاقاته الخاصة بفدية الأسري المسلمين ؛ لقد كان عدد الأسرى غاليا جدًا عندما يراد افتدائهم ، كما أن المعدل العالى الذى يتبع المخطوطات العربية لايرتبط بعلاقة ما على تقدير الأدب ، بقدر ماهو رغبة فى إنقاذ الكتابات العربية الإسلامية من الفساد . وبنفس الروح أراد السفير المغربى فى القرن الثامن عشر ، وهو المكناس Almiknasi استرداد عملات إسلامية قليلة ، لأنها كانت تحمل أسماء الله والنبى وبعض الآيات القرآنية ، التى لم يشأن أن يتركها بين أيدى الكفار [٣٤] . ولايبدو على الوفد المغربى أى اهتمام بالكتب الأوروبية ، بينما بين العثمانيين يسجل فقط إيليا زيارة إلى المكتبة المسيحية ، وهى مكتبة كاتدرائية القديس ستيفن فى فيينا .

لقد تأثر لحجم المكتبة - التى كانت أكبر من مكتبات المساجد الكبيرة فى اسطنبول والقاهرة ، والتى كانت تتضمن كتبا كثيرة فى مختلف الخطوط واللغات الخاصة بالكفار - وكذلك تأثر بالاهتمام والعناية التى وجهت للحفاظ عليها : « وكان غير المؤمنين - على عدم إيمانهم هذا - يقدسون مايعتبرونه كلمة الله ، وكانوا يعينون خدمًا لتنظيف كل هذه الكتب مرة كل أسبوع ، يتراوح عددهم بين سبعين وثمانين شخصًا .

لابد أن هذا واحدا من أقدم الأمثلة على المقارنة ، التى كان فيها الأوروبيون يعملون أحسن من المسلمين ، ومن ثم . . كانوا جديرين بالتقليد (بأن يقلدهم الآخرون) . وهناك أمثلة قليلة أخرى قبل عصر الإصلاحات ، وهناك مقارنة أخرى ؛ فلقد أحتوت مكتبة فيينا - كما يقول إيليا - على عدد هائل من الكتب المشهورة : « ولكن الصور كانت من المحرمات بيننا ، ولذلك لم تكن هناك كتب مشهورة ، وهذا السبب فى أن هناك كتب كثيرة جدًا فى أديرة فيينا » وهو يذكر من الكتب الفعلية بالاسم : كتابى الأطلس المصغر ، وخريطة العالم ، ويشير - بصفة عامة - إلى أعمال فى الجغرافيا والفلك ؛ أى إنه يتحدث عن العلوم العملية ، حيث كانت فى أوروبا ، ذات قيمة معينة فى تعليمها . أما عن الفنون والرسائل فى الغرب فلم يكن لدى إيليا شىء يقوله [٣٥] .

وكانت لدى العثمانيين نفس وجهة النظر نحو أوروبا الافرنجية منذ الخلافة الأولى حتى عصر بيزنطه وكان الوعى السياسى والعسكرى ضروريًا ، وقد يكون العلم والتسليح مفيدًا . أما بقية الأمور فلم تكن بذات أهمية ، بينما مع قدوم القرن الثامن عشر كانت هناك أجزاء كبيرة من الشعر المغربى والفارسى والتركى وأنواع الأدب الأخرى تترجم إلى معظم لغات أوروبا ، وليس هناك عمل واحد من الأدب ، ترجم من لغة أوروبية إلى اللغة العربية (الإسلامية) ، وأول عمل تركى قائم عل مصدر غربى هو - كما يقال - اقتباس علي عزيز لمؤلف ألف يوم ويوم ، لصاحبه بيتى ديلاكروا ، ومع ذلك فمن الصعب أن نجد فى كتاب « ألف ليلة وليلة » ، المأخوذ عن هذا الأخير ، اكتشافًا للأدب الغربى .

والكتاب الآخر الذى ترجم هو « تليماك » ، ترجمه فينلون ، وهى ترجمة عربية ، أعدت فى اسطنبول فى سنة ١٨١٢ ، على يد مسيحى عربى من حلب(*) ، ولكنه لم ينشر بل ظل محفوظا فى المكتبة الوطنية فى باريس (٢٦) ، ويبدو أن « تليماك » كان له سحر خاص لدى القراء المسلمين فى الشرق الأوسط ، وبعد ذلك بنصف قرن . . كان هو أول كتاب غربى يترجم ، وينشر باللغتين التركية والعربية .

وكانت هناك ترجمة أخرى لروبنسون كروزو وطبعت فى مالطا ، فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر . وليس قبل عقود عديدة من السنين تلت هذا أن ترجمت أعمال انجليزية من الأدب إلى العربية والتركية، وفى الوقت نفسه لقد ساعد « روبنسون كروزو » و « تليماك » كدليلين جديرين فى كنوز الأدب الأوروبى .

(*) تذكر بعض المصادر أن اسمه فارس الشدياق .

الفصل الحادى عشر

الوجه الاجتماعى والشخصى

يرثى المستشرق الانجليزى الكبير سير ويليام جونز الحالة المتخلفة للدراسات العثمانية ، فى أوروبا قائلاً : « لقد حدث بصفة عامة ، أن الأشخاص الذين قد أقاموا بين الأتراك ، والذين بحكم مهارتهم فى اللهجات الشرقية هم أفضل المؤهلين لوصف هذه الدولة لنا بصورة دقيقة ، كانوا أحد صنفين : إما أنهم يعيشون فى مستوى منخفض من الحياة ، أو مشغولين بآراء ذات أهمية ، ومدمنين قليلا الخطابات المؤدبة والفلسفات ، وبينما هؤلاء كذلك كان الذين يتقلدون مراكز عالية ويتمتعون بذوق رفيع فى الأدب ، وعندهم الفرصة والميل إلى التغلغل داخل أسرار السياسة التركية كانوا يجهلون تماما اللغة التى تستخدم فى القسطنطينية ، ولذلك .. كان تنقصهم الوسيلة الوحيدة التى يستطيعون بها أن يعرفوا - بأى درجة من درجات التأكيد - عواطف وميول هذا الشعب الغريب . أما بالنسبة لجمهرة المترجمين . فنحن لانتوقع من رجال فى مركزهم أى عمق فى التقليل ودقة فى الملاحظة ، إذ كانت الكلمات هى كل مايتقنون مجرد كلمات هى بالتأكيد كل مايستطيعون أن يدعوا معرفتها »[1] .

لقد شرح سير ويليام الأساس الجيد لرداءة حالة الدراسات العثمانية فى أوروبا ، وهذا ينطبق بصورة أكبر على الحالة الأسوأ للدراسات الغربية فى تركيا ، إن المجموع الكلى للمسلمين الذين كانوا يزورون فى رحلاتهم أوروبا المسيحية - فى الفترة مابين ظهور الإسلام والثورة الفرنسية - كان صغيرا بدرجة كبيرة. وحتى من هؤلاء نجد القليل منهم ، بل أغلبهم ، ليست عندهم معرفة طفيفة باللغة الأوروبية وكانوا لايشعرون بأى رغبة أو أى حاجة إلى تعلمها . وكانت اتصالاتهم محدودة بأغراض سياسية أو تجارية ،

التى من أجلها كانوا يسافرون ، وكانت اتصالاتهم كلها تأتى عن طريق المترجمين والمفسرين . وكانت فرصهم ، لذلك ، فى الملاحظة والتعليق على المشهد الأوروبى مقيدة بكل شدة . وهذا القصور لم يسبب لهم مشاكل كثيرة . . لأنهم هم وقراءهم ، كانوا لايرون أى شىء يستحق الاهتمام ، أو له قيمة فى أراضى الكفرة خارج الحدود .

إذا كان الكتاب المسلمون لم يتأثروا بحب استطلاع دراسة الأجناس ، أو حب استطلاع تاريخى ، فهناك ، على أى حال ، دافع آخر كان يسبب أحيانا تعليقات شيقة ، واهتمام بالغريب والمدهش . إن الحضارة التى انتجت روائع مثل ألف ليلة وليلة ، كانت لديها شهوة كبيرة للعجائب والمعجزات ، وقد ظهرت مؤلفات غزيرة تشبعها .

لم تكن أوروبا تفتقر إلى المادة الخام المناسبة ، وقد وجد المسلمون الكثير الذى أدهشهم أنه غريب وغير عادى بأقل درجة . أحد أمثلة هذا هو عادة حلاقة الذقن الأوروبية بالنسبة للمسلمين ، كما هو الحال بالنسبة لكثير من الشعوب الأخرى ، فإن اللحية هى فخار وعظمة الرجولة ، وبعد فترة كانت الرمز الذى يدل على الحكمة والتجربة . وقد وجد هارون بن يحيى العربى الذى كان سجينا فى روما حوالى ٨٨٦ تفسيرا لهذه الممارسة العجيبة .

« سكان روما، الشباب والشيوخ يحلقون لحاهم كلية، لايتركون ولاشعرة واحدة . وقد سألتهم عن سبب حلق لحاهم ، وقلت لهم : « إن جمال الرجال يكمن فى لحاهم ، ما غرضكم من فعل هذا بأنفسكم ؟ » ، وقد أجابوا : « أى شخص لايحلق لحيته ليس مسيحيا حقيقيا ، لأنه عندما أتانا سيمون والأنبياء لم يكن لديهم لاصولجان ولامتاع (انظر ماتيو Matthew العاشر ١٠) ، ولكنهم كانوا فقراء وضعفاء ، بينما كنا نحن ملوكا نرتدى البروكار ونجلس على مقاعد من الذهب ، ولقد دعونا إلى الدين المسيحى ، لكننا لم نلب دعوتهم ، امسكناهم وعذبناهم وحلقنا رءوسهم ولحاهم . وعندما ظهرت حقيقة كلماتهم لنا ، بدأنا نحلق لحانا تكفيرا عن خطيئتنا فى حلاقة لحاهم [٢] .

ويعلق أيضًا كـاتب أحدث ، ربما يكون إبراهيم بـن يعقوب على الممارسـة الفرنجية لحلاقة الذقن ، بالإضافة إلى عادات أخرى قذرة .

« لن نرى أكثر قذارة منهم . إنهم شعب غادر ذو شخصية منحطة ، إنهم لاينظفون ولايستحمون أكثر من مرة أو مرتين فى العام ، وإذا فعلوا فبالماء البارد ، وهم لايغسلون ملابسهم ابتداء من الوقـت الذى يرتدونها فيه حتى تسقط أسمالاً بالـية . إنهم يحلقون لحاهم وبعد الحلاقة يـدعون شعيرات صغيرةمقززة تنمو . وقد سـئل أحدهم عن حلاقة اللحية فقال : « الشعر غير ضرورى . أنتم تزيلونه من الأماكن الخاصة لديكم ، فلماذا تتركونه على وجوهكم »[٣] .

وقد استمـرت العادات الغربيـة القذرة تثير اشمـئزاز المسلمين . وفـى وقت حديث حوالى نهاية القرن الثامن عشر ذكر زائر هندى مسلم ، هو أبو طالب خان ، أنه لايوجد فى دبلن سوى حمامين ، كـل منهم صغير وغير مجهز إلا بالقـليل . وبحكم الضرورة ذهب إلى أحدهـما ، ولكنه لم يـتمتع بالتجـربة . وقد لاحظ فى الصـيف ، أن سكان دبلن فى البحر وفى الـشتاء لايستحمون على الإطلاق . وقد بنى الحـمامان للمرضى ، ولم يكن يستـخدمها ، إلا الذين يشتد علـيهم المرض حقيقة . وعندمـا ذهب أبو طالب إلى الحمـــام لم يجـــد أى حجـام أو حلاق ، أو أى عامل من أى نــوع ، وبدلا من الملك قدمت لـه فرشاة من شعر الخيل ، من نفـس النوع المستخدم فى تنـظيف الأحذية والبيوت ، « كل شخص كان يزيل قذارته بيديه »[٤] .

وقد حظيت ملابـس الأوروبيين بتعليق من الزوار المسلـمين بين حين وآخر . وكان لدى بعضهم ما يقولونه عن السيدات والنساء الأخريات فى فيينا :

« مثل الرجـال ،و ترتدى النساء ملابـس خارجية ، وأردية دون أكمـام ومعاطف محشـوة مصنوعة من الـقماش الأسود مـن جـميع الأنوع . وتحت هذه المـلابس ، مع ذلك ، فإنهن يرتدين ثيابا مطرزة من الحـرير وأقمشة من الذهب ، وغيرها من الخامات الذهبيـة والثمينة المـتنوعة ، وهى ليـست قصيرة أو صغـيرة كملابس النـساء فى أراضى الكفار ، لـكنها غنيـة ووفيرة ، لدرجة أنهن يـجرون وراءهن ياردات من القـماش على

الأرض مثل الجونلات المجرجرة للدراويش ، الذين يدورون . إنهن لايرتدين إطلاقًا سراويل داخلية ، إنهن يرتدين أحذية من كل الألوان ، وأحزمتهن عادة مرصعة بالأحجار الكريمة ، وبخلاف الآنسات الصغيرات فإن السيدات المتزوجات هناك يتجولن هنا وهناك وصدورهن عارية ، تبرق بيضاء مثل الجليد . إنهن لايحزمن أرديتهن حول الوسط بأحزمة ، مثل نساء هنغاريا وولاتشيا ومولدافيا ، ولكنهن يضعن غلالات رقيقة حول أسفل جذوعهن عريضة كطرف المنخل ، هذا رداء قبيح ، يجعلهن يبدون كحدباوات . وعلى رؤوسهن يرتدين قبعات من الموسلين الأبيض مزينة بالاشرطة الرقيقةوالتطريز ، وفوقها أغطية للرأس بالمجوهرات واللآلئ . وبعناية الإلة فإن نهود هذه النساء ليست مثل تلك الخاصة بنساء تركيا ، كبيرة كقراب الماء ؛ ولكنها صغيرة كحبات البرتقال . . ومع ذلك فإن معظمهن يرضعن أطفالهن بلبنهن أنفسهن [٥] .

وقد ذكر الشيخ رفاعة أحد الملامح المثيرة للدهشة من الملابس الأوروبية الجميلة العجيبة بتغيير طرازها من وقت لآخر .

« ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور خصوصا فى الملبس ، فإنه لاقرار له أبدا عندهم ، ولم تقف لهم إلى عادة فى التزيى ، وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملبسهم بالكلية ، بل معناه أنهم يتنوعون فيه ، فهم مثلا لايغيرون لبس البرنيطة ولاينتقلون منها إلى العمامة ، وإنما هم تارة يلبسون البرنيطة ، ثم بعد زمن ينتقلون منه إلى شكل آخر سواء فى صورتها أو لونها ، وهكذا [٦] .

ويعتبر أبو طالب الملابس الأوروبية المعقدة إضاعة للوقت تثير السخرية ، وفى مناقشة طويلة لنقاط الضعف وعيوب الإنجليز ، فإنه يضع فى المكان السادس من القوائم « إضاعتهم لوقت كثير فى النوم وارتداء الملابس وتصفيف شعورهم وحلق لحاهم وما شابه ذلك . . . » [٧] ولكى يتمشون مع الطراز الحديث . . فإنهم يرتدون من القبعة حتى الحذاء ، وليس أقل من خمس وعشرين قطعة من الملابس ولديهم مع ذلك ملابس

مختلفة للصباح وللمساء لدرجة أن عملية ارتداء الملابس بأكملها ، وعملية خلع الملابس تحدث مرتين فى اليوم إنهم يقضون ساعتين فى ارتداء الملابس بأكملها ، وتصفيف الشعر وحلاقة الذهن ، وعلى الأقل ساعة على الافطار ، وثلاث ساعات على العشاء ، وثلاث ساعات فى صحبة النساء أو استماع الموسيقى أو المقامرة ، وتسع ساعات فى النوم ، لدرجة أنه لايتبقى أكثر من ست ساعات لتأدية العمل ، وبين العظماء ليس أكثر من أربعة . ويقول أبو طالب إن الطقس البارد ليس عذرا لمثل هذا العدد الكبير من الملابس ، إنهم كانوا يستطيعون بالاكتفاء بنصف عدد الملابس ويظلون يحافظون على التدفئة ، وكانوا يستطيعون توفير وقت كثير بالاقلال من حلاقة الذقن ، وتصفيف الشعر وما شابه ذلك .

بعض هؤلاء الزوار المسلمين كان عندهم من الخيال ، مايكفى أن يدركوا أنهم يعطون صورة شاذة للغرب ، كما يفعل الغرب بالنسبة إليهم .

ومثل الزائرين العثمانيين الآخرين إلى أوروبا يعلق واصف عن رضى واقتناع ، على الانطباع الذى سببه ، وأن جمهرة من الناس أتوا يحملقون فيه . لقد بدأ ذلك حتى فى الحجر الصحى ، عندما أتى الناس من الأماكن القريبة يحدقون فيه من الجانب الآخر من السور .

بعد ذلك عندما قام بدخول مدريد فى موكب يشبه الاحتفال ، « كان عدد النظارة فوق الوصف . كان المتفرجون يزحمون الشرفات أعلى المنازل المطلة على الشارع بصفوف متراصة تصل إلى خمسة أو ستة ، على الرغم من أن الشارع كان متسعًا لدرجة أنه يأخذ خمس عربات على صف واحد ، لقد كان مزدحما لدرجة أنه حتى من كان يمتطى جوادًا ، لم يكن يستطع أن يمر إلا بصعوبة . وقد قيل لنا إن النوافذ كانت تؤجر بمائة قرش كل واحدة »[٨] .

ويعلق أحد الإيرانيين ذوى المقام الرفيع ، والذى حضر افتتاح الخط الحديدي بين

لندن وكرويدون عام ١٨٣٩ على جمهور ، يبلغ ثلاثين أو أربعين ألفا من الناس الذين تجمعوا هناك .

« بمجرد أن شاهدونا بدأوا يصيحون ويهتفون فى دهشة وسخرية ، لكن قام عجودان باشا بقيادتنا فى تحيتهم بأدب ، وردوا هم على التحية برفع قبعاتهم ، لذلك سار الحال على مايرام ، لكن حتى ولو كان هناك جزء قليل من الاستهتار لساء الحال . وفى الحقيقة . . كان عندهم بعض الحق ، لأن مظهرنا الخارجى ، فى الملبس وغيره ، كان من المؤكد غريبا على أعينهم - خاصة لحيتى ، التى نادرًا ما ترى شبيهتها فى كل بلاد الافرنج »[٩] .

نستطيع أن نرى بدرجة وضوح كبيرة التغير الذى لحق بالفكرة عن طريق الحكام المسلمين بالنسبة لظروف العالم الإسلامى ، وعلاقاته بالعالم الخارجى لأوروبا المسيحية عن طريق التغير الكبير فى الملابس والأردية الذى بدأ فى أوائل القرن التاسع عشر . وقد بدأ التغيير باستخدام أردية أوروبية معينة عن طريق الحاكم وعلية رجال الجيش . وبعد ذلك . . قسم كبير من الموظفين المكتبيين ، وأخيرا جمهرة الشعب .

لقد حدث ذلك مرة فى السابق ، ففى القرن الثالث عشر خلع الخليفة الإسلامى ، وخضع جزء كبير من العالم الإسلامى للمغول الوثنيين الذين أتوا من الشرق الأقصى . وبسبب الهزيمة والحيرة ترك المسلمون ، على الأقل فى أوساط علية القوات العسكرية ، الطراز التقليدى فى الملابس واستخدموا الطراز الخاص بأسياد العالم . حتى فى مصر ، التى لم يهزمها المغول إطلاقا ، أدخل السلطان المملوكى قلاوون نظاما جديدا فى التعليمات الخاصة بالملابس التى يرتديها الأمراء فى حاشيته الخاصة فى نهاية القرن ، وكان عليهم أن يرتدوا الطراز المغوى فى العتاد ، وبدلا من قص شعورهم على الطراز الإسلامى ، كان عليهم أن يتركوا خصلات شعرهم تنمو ، وتتموج بحرية ، وبالروح نفسها . . ظهر السلطان العثمانى المصلح محمود الثانى أمام شعبه فى ١٨٢٦ مرتديا بنطلونا وسترة طويلة ، واهتم بأن ترتدى أعداد كبيرة من جيشه الملابس نفسها . وقد أعطيت الأوامر بارتداء السترات فى الجيش ، والعباءات فى

المكاتب والسراويل فى كليهما ومن هؤلاء انتشرت عامة بين الحضر والطبقات المثقفة . أولا فى تركيا وبعد ذلك فى بعض الدول العربية ، وأخيرًا فى إيران أصبحت الملابس الأوروبية عامة ، ولفترة طويلة كان التغيير الغربى فى الملابس محصورا فى الرجال ، وحتى بين هؤلاء كان فقط من الرقبة إلى أسفل . أما غطاء الرأس ، الذى دائما له أهميته الرمزية فى العالم الإسلامى ، والذى كان فوق ذلك مرتبطا مباشرة بأداء الصلوات الإسلامية ، فإنه قد ظل واضحا . فى القرن العشرين . . حتى هذه النقطة تركها العسكريون ، على الأقل ، ولبسوا الخوذات المحددة ذات الحواف والقبعة العسكرية الأوروبية ، التى استخدمها الضباط على نطاق معظم الدول الإسلامية العسكرية .

وفى بداية القرن الرابع عشر . . عندما أصبح المغول أنفسهم مسلمين ، واندمجوا فى مجتمعات الشرق الأوسط . . ترك الطراز المغولى رسميا ، وقرر سلطان مملوكى آخر عدم ضمه إلى الزى الإسلامى . وقام هو وكل أمرائه المماليك بالتخلى عن المعاطف المغولية وقصروا خصلات شعرهم المتموجة ، ظلت القبعات والمعاطف والسراويل الأوروبية ، ولكنها كانت موضع تحدي بدرجة متزايدة لأسباب اجتماعية ودينية على النطاقين الارستقراطى والشعبى .

وحدث التغيير الغربى فى ملابس النساء فى مرحلة متأخرة كثيرًا ، ولم تذهب هكذا بعيدا ، والتناقض هنا يمكن إرجاعه إلى اختلافات ثقافية أساسية معينة .

كان الزائرون المسلمون الذين تركوا تسجيلات عن رحلاتهم إلى أوروبا حتى القرن التاسع عشر - دون استثناء - من الرجال . وكان لمعظمهم - على أى حال - مايقولونه فى موضوع النساء ومكانتهن فى المجتمع بالنسبة لمن كانوا يبحثون عن الغريب والقصص الرائعة ، كانت هناك موضوعات قليلة مثمرة كثيرًا ، فالنظام المسيحى فى الزواج من امرأة واحدة ، والحرية بالنسبة للنساء من القيادة الاجتماعية ، والاحترام الذى يعطي لهن حتى من الشخصيات الكبيرة ، كانت أمورًا تدهش الزائرين من الأراضى الإسلامية ، مع القليل جدًا من الإعجاب .

أحد الانطباعات الأولى للناحية الجنسيـة الأوروبية قد قدمه السفير العربى الغزال ، الذى زار بلاط الـفايكنج فـى حوالى ٨٤٥ بعد المـيلاد ، وطبقـا لشهادته هـو . . أثناء اقامته بين الفيكنج تمتع ببعض العبث الخفيف مع ملكة الفايكنج .

« ولما سمعت امرأة ملـك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه فلـما دخل عليها سلم ، ثم شخص فيها طويلا ينظرها نظر المتعجب ، فقالت لترجمانها : سله عن إدامة نظره لماذا هو ؟ ألفرط استحسان أم لضد ذلك ؟

فقال : مـا هو إلا أنى لم أتوهم أن فـى العالم منـظرًا مثل هذا ، وقد رأيـت عند النساء ما انتخبن له من جميع الأمم ، فلم أر فيهن حسنا يشبه هذا . فقالت لترجمانها : سله أجدٌ هو أم هازل ؟ فقال : لا ، بل مجد . فقـال له : فليس فى بلدهم جمال ، فقال الغـزال : فاعرضوا على من نسـائكم حتى أقيسهـا بها . فوجهت الملكـة فى نساء معلومات بالجمال فـحضرن ، فصعد فيهن وصوب ثم قال : فيهـن جمال وليس كجمال الملكة ، لأن الحسـن الذى لها ، والصفات المناسـبة ليس يميزه كل أحد ، وإنمـا يعنى به بالشعـراء ، وأن أحبت الملكة أن أصف حـسنها ، وحسبـها وعقلها في شـعر يروى فى جميع بلادنا ، فعلت ذلك فسرت سرورا عظيما ، وذهبت ، وأمرت له بصلة ، فامتنع من أخذها الغزال ، وقال لا أفعل . فقالت للتـرجمان : سلة لـم لايقبل صلتى ؟ أ لأنه حقرها أم حقرنى ؟ فـسأله ، فقال الغزال إن صلتها لجزيلـة ، وإن الأخذ منها لشرف ؛ لأنها ملـكة بنت ملك ، ولـكن كفانى من الصـلة نظرى إليها وإقـبالها على ، فـحسبى بذلك صلة، وإنما أريـد أن تصلنى بالوصول إليهـا أبدا ، فلما فسر لها التـرجمان كلامه زادت منه سـرورا وعجبا ، قال : تحمـل صلته إليه ، ومـتى أحب أن يأتينـى زائرا فلا يحجب، وله عندى من الكرامة والرحب والسعة. فشكرها الغزال ، دعا لها وانصرف.

عند تلك النقطة . . قطع للراوى تمام بن علقمة قصته بتعليق :

« سمعت الغزال يحدث بهذا الحديث ، فقلـت لها من الجمال فى نفسها بعض هذه المنزلة ، التى صورت ؟ فقال : وأبيك لقد كانـت حلاوة ، ولكنى اجتلبت بهذا القول محبتها ، ونلت منها فوق ما أرد » .

قد قال تمام بن علقمة أيضا :

« أخبرنى أحد أصحابه ، قال : أولعت زوجة الملك المجوس بالغزال فكانت لاتصبر عنه يوما حتى توجه بها ، يقيم عندها يحدثها عن سير المسلمين وأخبارهم وبلادهم ، وبمن يجاورهم من الأمم . فقلما انصرفا يومًا قط من عندها إلا اتبعته هدية ، تلطفه بها من ثياب وطعام أو طيب ، حتى شاع خبرها معه ، وأنكر أصحابه ، وحذر منه الغزال فحذر وأغب زيارتها . فباحثته عن ذلك ، فقال لا ما حذر منه . فضحكت ،وقالت : ليس فى ديننا نحن هذا ولاعندنا غيره ، ولانساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن ، تقيم المرأة معه ما أحبت ، وتفارقه إذا كرهت . وأما عادة المجوس قبل أن يصل إليهم دين رومة . فالا يمتنع أحد من الرجال ، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع ، فتغير بذلك ، ويحجره عليها أهلها . فلما سمع ذلك الغزل من قولها أنس إليه وعاد إلي استرساله »[١٠] .

وقد استمر الراوى يصف معاملات الغزال مع ملكة الفايكنج التى كان يرتجل لها الشعر العربى الذى كان يترجم لها بطريقة مناسبة بواسطة المترجم . وقد أضاف هذا الجزء لمسة من عدم الاحتمال للقصة كلها .

وقد أسار استقلال النساء الغربيات تعليقات كثيرة ، وعلى سبيل المثال كان إبراهيم بن يعقوب يتكلم عن شعب شليسويج فيقول إن :

« النساء بينهم تملكن حق التطليق . المرأة تستطيع بنفسها أن تتقدم بطلب الطلاق كلما راقها ذلك » .

ويذكر المؤلف نفسه قصة أكثر غرابة من ذلك عن جزيرة فى البحر الغربى تعرف بـ « مدينة النساء » .

« سكانها من النساء ، ليس للرجال عليهن سلطان . يركبن الخيل ، ويقمن بشن الحرب ولهن شجاعة كبيرة فى القتال . عندهن عبيد من الرجال ، وكل عبد يذهب إلى سيدته بالدور كل ليلة ، ويمكث معها طوال الليل ، ويستيقظ عند الفجر ، ويخرج

سرا عند بدء النهار . فإذا حملت إحداهن طفلا ذكرا تقتله فى الحال ، لكن إذا حملت طفلة انثى تجعلها تعيش » .

وعندما أدرك إبراهيم بن يعقوب أن ذلك النص من القصة القديمة لسكان الأمازون يمكن ألا تقنع قارئه ، أضاف : « إن مدينة النساء حقيقة مؤكدة لايشوبها أدنى شك . . لقد ذكر لى أوتو ملك الرومان عنها » .

وهذه نقطة . . لم يكن المستحيل أن تدهش المراقب المسلم فى العصور الوسطى أكثر من العصور الحديثة ، لما يبدو له الآن من حرية رسمية للنساء ، والنقطة الغريبة لغيرة الرجال . وعند أسامة السورى ، أحد جيران الصليبيين ، قصص تصور هذه النقطة :

« وليس عندهم (أى الفرنجة) شىء من النخوة والغيرة .

يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث . فإذا طولت عليه خلالها مع المتحدث مضى .

ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس . . أنزل فى دار رجل ، يقال له معز داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح إلى الطريق . ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل أفرنجى يبيع الخمر للتجار يأخذ فى قنينة من النبيذ وينادى عليه ويقول « فلان التاجر قد فتح بيته من هذا الخمر . ومن أراد منها شيئا فهو فى موضع كذا وكذا . وأجبرته عن ندائه النبيذ الذى فى تلك القنينة . فجاء يوما ، ووجد رجلا مع امرأته فى الفراش فقال له « أى شىء أدخلك إلى عند امرأتى ؟ »

قال : « كنت تعبان كذا دخلت استريح » قال : « فكيف دخلت إلى فراشى ؟ » قال : « وجدت فراشا مفروشا نمت فيه » .

قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » قال : « الفراش لها .ما كنت أقدر أمنعها من

فراشها ؟ » « قال : وحق دينى ، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته .

وقصة أسامة لها كل خصائص الحكاية الوثنية ، ومع ذلك فهى تصور بوضوح كيف كانت عادات الزواج المسيحى تبدو للمراقبين المسلمين المعاصرين .

ولم يكن ظهور هذه السيدات المسيحيات ، وعلى أى حال ، غير مقبول . وكان من حسن حظ ابن جبير المسلم الإسبانى ، الذى زار سوريا وفلسطين تحت حكم الصليبيين أن يحضر زواج مسيحى ، « ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها : زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقيات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوى أرحامها ، وهى فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل منتظم .. وأمامها جلة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية ، أذيالها خلفهم ، وورائها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات : يتهادين فى أنفس الملابس ، ويرفلن فى أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم[١٣] .

بعد ذلك .. بقرون كان إيليا سيليبرى مسرورا بمناظرسيدات فيينا .

« لأن الماء والهواء فى تلك الدولة كانا جيدين فكل النساء فيها جميلات ، لهن طول جيد وجسم جيد ، وملامح تشبه ملامح أبطال القصص الخرافية . ويوجد فتيات فى كل مكان بعدد لايحصى جميلات ورشيقات وحسناوات كالشمس الذهبية المشرقة اللائى كن يسحرن الرجل بكل حركة وكل إشارة ، وكل كلمة وكل فعل ... ».

ولم تفشل أى من ملامح المجتمع المسيحى فى إدهاش الزائرين المسلمين ، كالاحترام الشعبى الذى يظهر تجاه النساء وإيليا يعلق فيقول :

« لقد رأيت أكثر الأشياء غرابة فى هذه الدولة . إذا قابل الإمبراطور امرأة فى الشارع وهو يمتطى صهوة جواده فإنه يتوقف ويدع المرأة تمر . وإذا كان الإمبراطور يسير على قدميه ، ويقابل امرأة فإنه يظل واقفا ، فى موقف مؤدب . وعندئذ تحييه المرأة ، ويرفع هو قبعته لها ويظهر احتراما لها ، ولايستمر فى سيره إلا إذا مرت . هذا مشهد فى غاية الغرابة ، وفى أى مكان آخر من أراضى الكفرة ، للنساء الكلمة العليا ، وهن يكرمن ويحترمن تكريما للأم مارى »(١٤) .

ليس من العجيب أن يعتبر أيليا كاذبا فى تركيا ، عندما قص مثل هذه القصص غير العادية . حتى فى إسبانيا . . فإن الغزال ، السفير المراكشى كان مسافرا فى ١٧٦٦ ، صعق بحرية النساء ، ومثل كل الزائرين المسلمين دهش مما صدمه كحرية جنسية للنساء الأوروبيات - وحتى الإسبانيات - وقد بدأت دهشته عندما عبر حدود سيته ، وهو ميناء يحتله الاسبان على الساحل الشمالى لمراكش .

« لأماكن اقامتهم نوافذ تطل على الشارع ، حيث تجلس النساء طوال الوقت ، يحيين المارة . أزواجهن يعاملونهن بأدب كبير . والنساء يدمن كثيرا المحادثة وتجاذب التحيات مع الرجال غير أزواجهن ، سواء فى صحبة أو بعيدًا عن الأنظار ، لايمنعن من الذهاب إلى أى مكان يعتقدن أنه مناسب . ويحدث غالبا أن يعود المسيحى على منزله ويجد زوجته أو ابنته أو اخته فى صحبة رجل مسيحى غريب ، يشربان معا ويميلان على بعضهما . إنه يكون مسرورا بهذا ، وطبقا لما يقال لى . . فإنه يعد هذا إيثارا منه للمسيحى الموجود فى صحبة زوجته أو أى امرأة أخرى من نساء منزله » .

ويبدو أن اخبار الغزال عما شاهده فى سيته وتفسيره لها مبالغ فيها . وليس من المدهش إطلاقا أنه قد صعق بشدة - مثل الزائرين المسلمين الآخرين قبله - من الراقصين فى حفلات الرقص والاستقبال ، التى أقيمت تكريما له ، وأنه كان يدهش بدرجة من رداء فتيات الأسر الكريمة المخجل ، وإظهارهن أجسادهن ، وإذعان أو حتى موافقة الرجال الذين كان يجب أن يكونوا حراسا على شرفهم بعد عودته من إحدى حفلات الاستقبال هذه يعلق الغزال بقوله :

« عندما انتهى الحفل عدنا إلى مساكننا وصلينا لله أن ينقذنا من الحالة البائسة لهؤلاء الكفرة الذين تنقصهم غيرة الرجولة وينغمسون فى عدم الإيمان ، ودعونا القوى ألا يعتبرنا مسئولين عن ذنوبنا بالتحدث معهن عندما تتطلب الظروف ذلك . . »(١٥) .

وقد دهش محمد سعيد أفندى أيضا من استقلال وقوة النساء فى فرنسا :

« النساء فى فرنسا مركزهن أعلى من الرجال ، لدرجة أنهُن يفعلن مايحلو لهن ويذهبن حيث يردن ، وأعظم اللوردات يظهر احتراما وأدبا يفوق كل الحدود لأقل النساء شأنا . فى تلك الدولة أوامرهن سائدة ، يقال إن فرنسا هى جنة النساء حيث لايحملن أى هموم أو متاعب ؛ حيث يحصلن على أى شىء يرغبن فيه ، دون أى مجهود »(١٦) .

وقد لاحظ أبو طاب خان ، مع ذلك ، الذى كان يزور انجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر ، جانبا من القصة ، الذى غاب عن أنظار الزائرين الآخرين . وعلى العموم . . فإنه يجد أن النساء الانجليز أسوأ حالاً من اخواتهن المسلمات ؛ فإنهن يمكثن مشغولات بمختلف الأعمال فى المتاجر ، وفى أماكن أخرى - وهو موقف يرجعه أبو طالب إلى حكمة المشرعين الإنجليز وفلاسفتهم فى العثور على طريقة تنقذ نساءهم من الرذيلة - هن عرضة أكثر لعدد من القيود ، على سبيل المثال . . فإنهن لايخرجن بعد حلول الظلام ، ولايقضين الليل فى أي منزل غير منزلهن ، مالم يكن مصحوبات بأزواجهن . وبمجرد أن يتزوجن . . فإنهن لايمتلكن أى ممتلكات أو حقوق ويكن تماما تحت رحمة أزواجهن ، الذين قد ينهبون بارادتهن . وعلى العكس من ذلك . . فإن النساء المسلمات أفضل بكثير ، فإن موقفهن القانونى وحقوق ملكيتهم ثابتة ، ويحميها القانون ، حتى ضد أزواجهن ، ولهن مميزات أخرى أيضًا ، بسبب اختفائهن خلف الحجاب ، يلاحظ ببعض الأسى ، إنهن يستطعن الانغماس فى كل أنواع الشرور والرذيلة ، التى مجالها كبير جدًا إنهن يستطعن الخروج من المنزل ، حسب اختيارهن ، ويذهبن ليزرن آباءهن واقاربهن أو حتى صديقاتهن النساء ، ويمكثن بعيدًا عن المنازل لعدة

أيام وليالى فى المرة الواحدة ، ولدى أبى طالب هواجس عن الفرص ، التى تتيحها مثل هذه الحريات [١٧] .

وقد توجه أبو طالب من انجلترا إلى فرنسا ، ووجد نفسه فى تناقض عجيب بالنسبة للأفكار السائدة المقبلة ، فلم تقبل نفسه طهواً فيها ولانساء ، مثلما كان فى انجلترا . كان أبو طالب يفضل الأطباق الانجليزية البسيطة عن الاطباق الفرنسية المزينة ، ولديه الآراء نفسها بالنسبة للسيدات فىّ كل من الدولتين ؛ فهو يقول : « النساء الفرنسيات أطول واكثر امتلاء وملفوفات أكثر من الانجليزيات ، لكنهم أقل جمالا ، ربما لأنه ينقصهن بساطة الفتيات وحياؤهن ، والتصرف الرشيق للفتيات الإنجليزيات » وقد دهش أبو طالب كثيرا من الطريقة الفرنسية فى تصفيف الشعر ، التى وجدها تذكره بطريقة قبيحة بظهور العاهرات الشعبيات فى الهند . لقد وجد النساء الفرنسيات بمساحيقهن ومجوهراتهن وصدورهن شبه العارية ، لعوبات فى مظهرهن .

ومما جعل الأمر أكثر سوءًا أنهن جريئات كثيرات الكلام ، عاليات الصوت ، سريعات الرد كانت أرديتهن المرتفعة عند الخصر مضحكة أكثر منها جذابة . وفى النهاية . . يلاحظ أبو طالب أنه على الرغم من أنه سريع التأثر برؤية الجمال كما كان يلاحظ أثناء زيارته لمناظر مختلفة فى لندن ، لما يحدث له أى نوع من هذا التأثير فى باريس . ففى القصر الملكى ، سواء بالليل أو النهار . . كان يجد نفسه وجها لوجه مع آلاف ، ولكنه لم يتأثر بأقل درجة بأى واحدة منهن [١٨] .

والنساء الفلاحات الفرنسيات ، وفى الحقيقة كل ما فى القرية ، كان أسوأ من ذلك ؛ فالقرى لم تكن تجلب السرور ، وتختلف تماما عن المدن ؛ وكانت النساء خشنات جدًا لدرجة أن رؤيتهن فقط كانت تثير الاشمئزاز ، وكانت ملابسهن من نوع لدرجة أن فتيات القرى فى الهند كأنهن ساكنات للجنة بالمقارنة بهن [١٩] .

وأما فاضل بيه ، وهو شاعر تركى فى هذا الوقت ، جنسى كثير الصراحة ، وكان يعرف أيضًا باسم فاضل الانديرونى (١٧٥٧ - ١٨١٠) ، وهو حفيد أحد قادة الفلسطينيين العرب المشهورين ، الذى ثار ضد العثمانيين فى السبعينات من القرن الثامن

عشر ، وقد نشـأ فى استامبول ، وأصبح مشهـوراً بقصائده الاباحية وخاصـة قصيدتين طويلتين ، إحداهـما عن الفتيات والأخرى عن الفتـيان ، يصفهم بجنسياتـهم مع تعديد صفاتهم الحسنة القبيحة ، لأغراض فى نفس فاضل بيه ، من أجل مجموعات الجنسيات المختـلفة . وهى تـشمل ، بـالإضافة إلى المجـموعات المخـتلفـة المجاورة بالقـرب من الإمبراطورية العثمانية ، الفرنجة فى استامبول ، وسكان الدانوب والفرنسيين والبولنديين والألمان والإسبان والانجليز والروس والهولنديـين ، وحتى الأمريكان الذين كان فاضل بيه يقصد بهم - بكل وضوح - الهنود الحمر . ولايوجد أي دليل على أن فاضل بيه قد سافر إلى الخارج ، لكن لأنه نشأ وعاش فى الـقصر الإمبراطورى فى استامبول . . كان يمكن أن تكون لديـه الفرصة فى مقابلة نسـاء صغيرات ، وفتيان من جنسـيات متعددة ، تميل أوصافه للفتية . . إلى عدم الوضوح نوعا ما وقلة الكلام . أما معالجته للفتيات . . فكانت أكثـر صراحة ، مليئة بمجـموعات من التفاصيـل التحليلية فـى بعض الأحيان ، وكان فـى بعض الأحيـان يعطى أهـمية للـنص الثقـافى من حين لآخـر ، يلون النـساء الفرنسيات لاتباعهن العادة المقززة ، بالنسبـة لفاضل بيه ، فهو غرامهن بالكلاب الصغيرة ووضعها فى احضانهن على صدورهن ، وهـو أيضًا مدرك أن السيدات الإسبانيات يغنين ويعزفـن على الجيتار ، ويـلاحظ أنهن يصـلن عن طريق مـراكش . النساء الانجلـيزيات عفيفات خدودهن وردية وشـريكات فى امتلاك الهند . والنساء الهولنديـات يتكلمن لغة صعبة ويمـكن للفرد أن يندهـش كيف استطاع فـاضل بيه أن يتوصل إلـى هذا الحكم ، ولكنهن فاشلات فى إثارة الرغبة الجنسية [٢٠] .

خالد أفندى الذى مكث فى باريس منذ ١٨٠٣ إلى ١٨٠٦ ، وهو يهتم بصفة عامة برسم الصور السـالبة على قدر ما يستطـيع . . فإنه يصف وجها آخر من الحـياة الجنسية الأوروبية ، ويبدأ غاضبا بذكر اتهام وجه للمسلمين من الذين قاموا بسلبهم :

« إنهم يقولون : لتعرف كقاعدة عامة ، أنه مهما كان عدد الأرمن واليونانيين كثيرا فى العـالـم . . فإن المـسلمين عنـدهم شذوذ جنـسى ، وهذا شىء مشـين . فى بلاد الفرنجة ، اللهم احفظنا لايمكن أن يـحدث مثل هذا الشىء ، وإذا حدث فإن هذا الفعل

يقابل بعقوبة صارمة ويثير فضيحة كبيرة وهكذا - لدرجة أننا لو استمعنا ، يمكن أن نعتقد أننا كلنا نمارس هذا الفعل ، كما كان لايشغلنا أى اهتمام آخر .

فى باريس . . يوجد نوع من الاسواق يسمى القصر الملكى ، حيث توجد متاجر لأنواع متعددة من السلع على جميع الجوانب الأربعة ، وفوقها توجد غرف تحتوى على ١٥٠٠ امرأة و ١٥٠٠ صبى لايفعلون شيء سوى ممارسة اللواط . فالذهاب إلى هذا المكان بالليل يثير الخجل (انظر ص ٣١٩) فقد ذهبت لأشاهد هذا المنظر الخاص . وبمجرد أن يدخل الفرد ، يسلمه من كل جانب من الجوانب الأربعة فتية وفتيات بطاقات مطبوعة عليها : « عند كثير من النساوة ، حجرتى فى مكان كذا كذا ، والسعر كذا » أو « عندى كثير من الصبية ، أعمارهم كذا وكذا والسعر الرسمى كذا » كل ذلك على بطاقات مطبوعة خصيصا . وإذا أصيب أى صبى أو امرأة بينهم بمرض الزهرى . . فهناك أطباء معينون من قبل الحكومة لرعايتهم . ويحيط النساء والفتيان الرجل من كل جانب ، يستعرضون ويسألون « أينا تحب ؟ والأكثر من ذلك . . فإن كبار الناس يسألون بفخار : « هل زرت قصرنا الملكى ؟ وهل أحببت النساء والصبيان ؟ » .

الحمد لله . . ليس فى أراضىَ الإسلام هذا العدد من الصبية والشواذ [٢١] .

وهناك زائر بعد ذلك لباريس ، الشيخ رفاعة المصرى يقدم نظرة مختلفة نوعا ما عن قضية الشذوذ الجنيسى ، وهو يلاحظ باهتمام وموافقة ، أنه فى فرنسا يعتبر الشذوذ الجنسى شيئا مثيرا للفزع والتقزز ، إلى درجة إن الدارسين الفرنسيين الذين يترجمون قصائد الحب الجنسى الشاذ من اللغة العربية ، يبدلون الشكل المذكر بالمؤنث .

لم يكن للسيدات تأثير حسنُ عليه فى فرنسا ؛ فقد وجد أن الباريسيات ينقصهن الخجل والرجال يفتقدون الرجولة :

« إن الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهم سواء كن جميلات أم لا ، قال بعضهم : إن النساء . . عند بلاد المشرق كأمتعة البيوت وعند الإفرنج كالصغار المدلعين . ولايظن الإفرنج بنسائهم ظنا سيئا أصلا مع أن هفواتهن كثيرة معهن » .

ويواصل رفاعة الشرح بإنه حتى إذا ظهر سوء السلوك بالنسبة للزوجة واضحًا للرجل ، ثابتًا ومبرهنًا عليه بواسطة شهود ، وطردها من منزلة ، وانفصلا لفترة من الضرورى مع ذلك بالنسبة له أن يقدم أدلة مقنعة على سوء سلوكها ، حتى يمكنه أن يحصل على الطلاق .

« ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة ، والزنا عندهم من العيوب والرذائل ، خصوصا فى حق غير المتزوج » .

وعلى أى حال . . فإن الشيخ يعترف بأنه تأثر بمظهر وأسلوب وحتى أحاديث النساء الفرنسيات :

« ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسايرة والملاطفة . يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال فى المتنزهات » .

وقد حضر الشيخ ، مثل الزائرين المسلمين الآخرين ، حفلة راقصة ، ودهش طبيعيا بسبب الطرق الشاذة فى حياة العالم الغربى . ومثل سابقيه . . وجد الكثير غريبا وعجيبا ، ولكنه صدم أقل منهم : وهو يشرح بقوله : « والبال - يقصد البار - دائما مشتمل على الرجال والنساء وفيه واقدات - أى أضواء عظيمة ، وكراس للجلوس ، والغالب أن الجلوس للنساء ، ولايجلس أحد من الرجال إلا إذا دخلت امرأة على أهل المجلس ، وإذا لم يكن كرسي خاليا ، قام لها رجل وأجلسها ، ولاتقوم لها امرأة لتجلسها » .

وقد كتب ملاحظة بكل دهشة يقول :

« فالأنثى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجال » .

وهناك صفة خاصة أخرى لهذه الحفلات الراقصة الغربية ، « ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس ، وكأنه نوع من العياقة والشلبنة ، لا من الفسق ؛ فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء » .

ومن حين لآخر . . يقوم الشيخ بعمل مقارنات بين الظواهر الغربية ، وما يتساوى معها من الظواهر المصرية ، وغالبا ما تكون فى صالح الأولى ، فهو يقارن الممثلات الفرنسيات على المسرح الفرنسى بفتيات الرقص فى مصر ، والمسرح بمسرحيات خيال الظل المسلمة ، وعلى الرغم من أنه يذكر فى كلتا الحالتين أن الشكل الغربى أكثر تفوقا وتعليقاته على الرقص مليئة بالمعلومات .

« . . . . بخلاف الرقص فى مصر . . فإنه من خصوصيات النساء ، لأنه لتهييج الشهوات ، وأما فى باريس . . فإنه نمط مخصوص لايشم منه رائحة العهر أبدا » .

هذه الملاحظة تلفت النظر كثيراً ؛ لأن الشيخ رفاعة ؛ مثل من سبقوه من المستكشفين المسلمين لصالات الرقص الغربية ، ودهش من العمل العجيب بتبادل رفقاء الرقص .

وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها ، فإذا فرغ الرقص ، عزمها آخر للرقصة الثانية ، وهكذا وقد يقع أن من الرقص رقصة مخصوصة يرقص الإنسان ويده فى خاصرة من ترقص معه ، وأغلب الأوقات يمسكها بيده ، وبالجملة فمس المرأة أياماً كانت فى الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى ، وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عُدّ هذا من الأدب . (٢٢) .

وفى تعليق ختامى من أحد الفارسيين مبحرا من أزمير فى ١٨٣٨ ، عن زملائه الركاب .

« صعدت أربع فتيات انجليزيات إلى السطح ، وكانت كاملات جداً وذكيات ، لكنهم كن قبيحات ودميمات . وبسبب عجزهن الظاهر فى العثور على الراغبين فيهن فى بلدهن ، اضطررن إلى السفر الخارج ، وكن مسافرات هنا وهناك لبعض الوقت على أمل العثور على أزواج ، لكنهن فشلن فى تحقيق غرضهن ، وهن الآن عائدات إلى وطنهن .

وفى يوم الأحد حوالى الظهر . . رسونا عند جزيرة باير Pire (سيرا Sira) أول

أرض إغريقية نصل إليها ، وقد حجزنا هناك لمدة عشرين يوما فى الحجر الصحى ، والذى يمكن أن يؤدى وظيفة عينة من جهنم . وكانت العذراوات الأربع (هكذا ادعين) فى صحبتنا فى مبانى الحجر الصحى ، حيث دفع لهن اجودان باشا مصروفات إعاشتهن ، وكانت إحداهن سعيدة الحظ ، ووجدت أحد الإغريق الشبان الذى كان إحد رفقائنا فى السفر على ظهر الباخرة متشوقا إليها ، وكانت تتبادل مع الإشارات السرية والرموز ، وأصبحا الآن صديقين حميمين وعاشا معا فى مسكن واحد »[٢٣] .

كثير من الزائرين الدبلوماسيين عندهم مايقولونه عن المدن ، التى زاروها فى مناسبات يقارنون بينها ، وبين مدنهم .

يذكر محمد سعيد افندى :

« باريس ليست كبيرة مثل استامبول ، ولكن المبانى مكونة من ثلاث أو أربع أو عدد قد يصل إلى سبعة طوابق ، وتعيش أسرة بأكملها فى كل طابق ، ويرى عديد من الناس فى الشوارع ؛ لأن النساء دائما فى الشوارع من منزل لآخر ، ولايمكثن اطلاقا فى المنزل . وبسبب هذا الخليط من الرجال والنساء . . فإن داخل المدينة يبدو أكثر ازدحاما بالسكان مما هو فى الحقيقة ، وتجلس النساء فى المتاجر يمارسن العمل » .

الزائرون والمسلمون من شمال أفريقيا والهند ، بالإضافة إلى من جاءوا من الشرق الأوسط يعلقون على الدور الذى تلعبه النساء كأصحاب متاجر فى المدن الغربية ، وعلى وجودهن العالمى .

وكل الرحالة المسلمين بطريقة شاملة ، حتى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، لايظهرون أي اهتمام بالشئون الداخلية لأوروبا ، حتى عزمى ، الذى زار إيران فى ١٧٩٠ لم يكن لديه كثير من حب الاستطلاع عن الشئون الخارجة عن مهمته ، ويعلق مضيق على أحد الأفعال غير العادية لأوروبا : « لكى نحاول ونعرض على الزوار من الدول الأخرى المناظر التى تستحق الرؤيا لمدنهم . . فإنهم بتلك الطريقة يشتتون أفكارهم ، ويؤخرونهم ، ويجعلونهم يضيعون أموالهم فى مد اقامتهم

العديمة الجدوى . ومن الزائرين المسلمين الذين سافروا إلى الغرب حتى أوائل القرن التاسع عشر أحدهم فقط ، ميرزا أبو طالب خان ، تغلغل داخل هذه الأمور بالتفصيل [٢٥] . لقد أتى من دولة تعرضت للتأثير المباشر من الغرب بطريقة لها مغزاها . وخلال القرن التاسع عشر وجد الزائرون المسلمون من دول الشرق الأوسط أيضًا سببا لإطالة مكوثهم ، وزيادة مجال اهتماماتهم .

الفصل الثانى عشر

قـــرارات

أثناء الاحتلال الفرنـسى لمصر فى نهاية القرن عشر . . زار المـؤرخ المصرى الجبرتى المكتبة ومركز البحوث اللذين انشأهما الفرنسيون ، فى قصر من قصور المماليك المهجورة فى القـاهرة . وقد وجد أنهم جـمعوا مكتبـة كبيرة مزودة جـيدًا بالكتب ، كـان الجنود الفرنسيون نفسهم يحضرون إليها للقراءة .

« كان الفرنسيون يســيرون بصفة خاصة ، إذا أظهر أحد الزائرين المسـلمين اهتماما بالعلوم ، وكانوا يبدأون فى الحال فى التحـدث معه ، ويعرضون عليه كل أنواع الكتب المطبوعة ، وبها صور لأجزاء من الكرة الأرضية الآهـلة بالسكان والحيوانات والنباتات ، وكان لديهم أيضًا كتب فى التاريخ القديم »[1] .

زار الجبرتى المكتبة عددا من المرات ، وقد عـرض عليه كتبٌ عن التاريخ الإسلامى والتعـليم الإسلامـى بصفة عـامة ، ودهش أن وجد أن لـدى الفرنسـيين مجمـوعة من النصوص العربية ، بـالإضافة إلى كثير من الكتب الإسلامية ، مترجـمة من العربية إلى الفرنسية . وقد لاحظ أن الفـرنسيين « يبذلون مجهودات كبيرة ؛ ليتعلـموا اللغة العربية والعامية . وفى هذه كانوا يكافحون ليل نهار . وكـانت لديهم كتب متخصصة لكل لغة من اللغات ، ولهجاتها وتصرفاتها ودراسات فى أصول كلماتها » ، « كما ذكر الجبرتى ، تسهل عليهم تتمة أى شىء يريدونه من أي لغة من لغتهم بسرعة كبيرة »[2] .

وقد اكتشـف الجبرتى وجود الاستشراق الأوروبـى ، ودهشته هذه قابلة لـلفهم ، وفى نهاية القرن الـثامن عشر عندما بدأ الغزو الأوروبى الحديث لـلشرق العربى . كان الدارس الأوروبى للشرق الأوسط عنده مؤلفات غـزيرة تحت تصرفه . وقد طبع حوالى

تسعين كتابا من قواعد اللغة العربية فى أوروبا ، وحوالى عشرة من اللغة الفارسية ، وحوالى خمسة عشر للتركية، أما بالنسبة للقواميس . . فكانت هناك عشرة للغة العربية ، وأربعة للغة الفارسية ، وسبعة للغة التركية . وكثير من هذه لم يكن فقط مجرد تمارين خاصة ومعنيات للتدريس ، مبنية على أعمال طبيعية ، لكنها كانت تمثل إضافات أصلية ذات مغزى للدراسة .

لايوجد شيء قابل للمقارنة على الجانب الآخر ، وبالنسبة لأى عربى أو فارسى أو تركى لم يوجد أى كتاب قواعد أو قاموس يتناول أية لغة غربية ، سواء أكان مخطوطا أم مطبوعا ، ومضى شطر كبير من القرن التاسع عشر ، حتى ظهرت محاولة لإنتاج كتاب فى القواعد والقواميس للغات الغربية ، لن يستخدمونها فى الشرق الأوسط . ولما ظهرت ، كانت الأمثلة الأولى توجهها بدرجة كبيرة المبادرات الاستعمارية والبشيرية ، وقد أصدروا قاموس لغتين فى اللغة العربية ولغة أوروبية لمؤلفه المواطن العربى ١٨٢٨ . لقد روجع عمل أحد المسيحيين - قبطى مصرى - روجع واستهل بواسطة مستشرق فرنسى ، وطبقا لمقدمة المؤلف فإنه قد صمم لاستخدام الغربيين أكثر منه لاستخدام العرب[٣] . ويبدو أن فكرة أن العرب قد يحتاجون إلى مثل هذه القواميس ، لم تطرأ على ذهن أحد ، إلا بعد فترة طويلة بعد ذلك .

وكان الدارس الأوروبى للشرق الأوسط فى وضع أفضل من زميله المقابل فى الشرق الأوسط فى كثير من الأوجه ، أكثر من سهولة وجود المعنيات اللغوية . وبنهاية القرن الثامن عشر . . كانت تحت تصرفه مؤلفات غزيرة فى التاريخ والدين ، وثقافة الشعوب المسلمة ، بما فى ذلك طبعات وترجمات (انظر ص ٣٢٨) عدة المنح الدراسية الغربية فى الشرق الأوسط ، والتى تعد أكثر منها بين دارسى الشرق الأوسط أنفسهم . وقد بدأ الرحالة الأوروبيون وعلماء الآثار عملية ، أدت إلى استعادة وحل رموز الآثار الخاصة بالشرق الأوسط (انظر ص ٣٢٩) ، وقد انشأ سير توماس آدامز أول كرسى للغة العربية فى انجلترا ، فى جامعة كامبريدج فى سنة ١٦٣٣ . وفى مراكز أخرى ثقافية متشابهة فى الدول الأوروبية الآخرى كانت توجد مجهودات كبيرة للدراسات الخلاقة ،

كرست للغات القديمة ولغات العصور الوسطى وآدابها والثقافات الدينية ، أقل بكثير من الشؤون الحديثة والمعاصرة . كل هذا كان يعطى صورة متناقضة للافتقار الكامل تقريبًا لأى أهمية ، تظهر بين دارسى الشرق الأوسط باللغات والثقافات والديانات فى أوروبا . ولكن الدولة العثمانية التى كانت مسؤولة عن الدفاع والدبلوماسية ، وبالتالى عن المعاملات مع دول أوروبا وجدت أنه من الضرورى من وقت لآخر أن تجمع وتحصل على معلومات عنها . ويبين سجل اكتشافاتهم أنه حتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . . كانت معلوماتهم عادة سطحية ، وفى أغلب الأحيان غير دقيقة ، وغالبا قديمة جدًا .

كان الشعور بعدم أهمية الزمن ، وبأنه لاشىء يتغير حقيقة هو مايميز كتابة المسلمين عن أوروبا ، كما هو فى حقيقة الحال مع كتاباتهم عن أزمنة أخرى وأماكن أخرى وكان الفيزيائى أو العالم يكتفى بترجمة كتاب فى الطب أو العلوم كتب منذ ٥٠ أو ١٠٠ سنة . وقد شن « كاتب جلبى » فى كتابه عن الدين المسيحى فى فرنسا ١٦٥٥ ، هجوما عنيفًا على العصور الوسطى ، دون أن يبدى أى اهتمام بأى تغيرات ، تكون قد حدثت فى الدين المسيحى أثناء نصف الألف عام ، والتى فصلت ذلك عن العصر الحديث ، ودون الرجوع إلى عصر الاصلاح والحروب الدينية ، أو حتى الانشقاق بين روما والقسطنطينية . وبنفس الروح يقوم مؤرخ عثمانى من أوائل القرن الثامن عشر ، نعيمة ، بمساواة الدول الأوروبية فى زمنه بالصليبيين من العصور الوسطى ، ويستبعد أى حاجة لمناقشة هذا بالتفصيل ، وكذلك فنان حديث من القرن الثامن عشر تركى ، كان يعمل على رسم ملابس النساء الأوروبيات ، ولكنه كان يرسم موديلات من القرن السابع عشر .

لماذا هذا الاختلاف فى المواقف بين المجتمعين تجاه كل منهما للآخرين ؟ بالتأكيد لايمكن أن نعزى إلى أى تسامح دينى كبير من جانب الأوروبيين . وعلى العكس فإن موقف المسيحيين تجاه الإسلام كان أكثر تعصبًا بدرجة كبيرة وخاليا من التسامح عن موقف المسلمين تجاه المسيحية . وأسباب هذا التسامح الإسلامى العظيم فى جزء منها

دينية وتاريخية ، وفى جزء آخر عملية . لقد ظهر محمد (ﷺ) بعد حوالى ستة قرون من ظهور يسوع المسيح ، وبالنسبة للمسيحيين والمسلمين معا بصورة واحدة . . فإن دينهم يمثل آخر كلمات الإله إلى البشرية . . ولكن تحديد الأزمنة التاريخية قد فرض اختلافا بين أفكارهم المشتركة . وبالنسبة للمسلمين . . كان المسيح مبشرا ، وبالنسبة للمسيحيين يعد محمد مدّعيا . وبالنسبة للمسلمين . . تعد المسيحية شكلا مبكرا غير كامل من الدين الحقيقى ، ولذلك . . فهو يحتوى على عناصر من الحقيقة مبنية على وحى حقيقى والمسيحيون مثل اليهود ، كانوا نتيجة لذلك موضعًا لتسامح الدولة الإسلامية . وبالنسبة للمسيحيين . فإن التعامل مع الدين الحديث بالطريقة نفسها غير ممكن من الناحية اللاهوتية ؛ فقد وجد المسيحيون صعوبة فى التسامح مع اليهودية ، التى كان يمكن أن ينظروا إليها بنفس الطريقة ، التى ينظر بها المسلمون إلى المسيحية ؛ فبالنسبة إليهم كان التسامح مع الإسلام يعنى الاعتراف بالوحى الإلهى بعد المسيح ، وبالكتب المقدسة التى أتت بعد ذلك ؛ وبعد الإنجيل ، وهذا اعتراف لم يكونوا مستعدين للقيام به .

كانت هناك أيضًا بعض الاعتبارات الأخرى العملية . . لقد أتى الإسلام إلى عالم كانت تسوده المسيحية من قبل . ولمدة طويلة . . كان المسلمون أقلية فى الدول التى كانوا يحكمونها ، ولذلك فإن قدرًا من التسامح بالنسبة لأديان أغلب الرعايا وكانت لذلك ضرورة إدارية واقتصادية ، وقد أدرك كثير من الحكام المسلمين هذه الحقيقة بحكمة . أما أوروبا عموما فلم تكن تخضع لمثل هذه القيود . ففى دولة أوروبية ظهرت مشكلة متوازية من هذا القبيل ، ففى إسبانيا مثلا كان هناك ثمن فادح لعدم التسامح عند إعادة الغزو ، وذلك بافتقار الدولة بسبب طرد المغاربة واليهود .

وهناك اختلاف مهم آخر موجود بين الحضارتين فى الاهتمام ، الذي يعطيانه ، وحب الاستطلاع الذى يسببانه بالمقارنة بالتنوع الشائع للشعوب والثقافات فى العالم الإسلامى . . فإنه من المؤكد أن أوروبا الفرنجية فى العصور الوسطى كانت تبدو مكانا رتيبا يثير الملل . لقد كانت منطقة لدين واحدة بدرجة كبيرة ، وجنس واحد ، ومن

معظم الأجـزاء ثقافة واحدة . وكانت الملابـس واحدة تقريبًا بالنسبة لغالبية الـطبقات الاجتماعية ، وكل هذا كان يمثل تناقضا مثيرا مع الشكل المتنوع المتغير الألوان للأجناس والعقائد والتقاليـد والثقافات فى العالم الإسلامى . كانت المسيحـية الافرنجية تبحث عن الوحدة الرسمية ، وعـلى الأقل يبدو أنها وجدت صعوبة من التسـامح والتأقلم مع أى نوع من الانحراف ، وصرفت مجهودا كبيرا فى تـتبع أصحاب البدع والسحرة واليهود ، وغيرهم من الذين انشقوا عن القاعدة الأساسية .

الناحية الوحيدة التى قدمت أوروبا فيها تنوعا كانت فى اللغة ، بخلاف العالم الذى يتكلم العربية ، حيث اللغة العربية كانت اللغة الوحيدة للدين والتجارة والثقافة ، وبيت كنز العـلم فى الماضى ، وإدارة العـمل فى الوقت الحاضـر لقد استخدمـت أوروبا عددًا كبيرا من الـلغات المختلفة للديـن والدراسة ، بالإضافة إلي الأغراض اليـومية . وكانت المؤلفات الـكلاسيكية الأوروبـية والكتب المقـدسة المسيحيـة فى ثلاث لغات : اللاتـينية والإغريقية والعبرية ، التى يمكن أن تضيف إليها الآرامية، إذا وضعنا في الاعتبار الكتب الآرامية للعهد القديم . ولذلك . . اعتاد الأوربيون – منذ مرحلة مبكرة – على ضرورة دراسة واتقان اللغات الصعبة، بخلاف لغتـهم الوطنية ، وأكثر من ذلك . . أنه توجـد مصادر خارجية للحكمة مكتوبة بلغات أجنبية ، وكان الوصول إليها يتطلب تعلمها .

والموقف مخـتلف كثيرًا بين العـرب الذين تعتبر لغـتهم هى لغة الكتـب المقدسة ، ولغة المؤلفات الكلاسيكة ، واللغة العلـمية فى الوقت المناسب ، وفى أوقات متشابهة ، ولذلك لم يفكر أى أحد فى الحاجة إلى تعلم أى لغة أخرى .

ويوجد كثير من الـلغات المختلفة تستخدم فى الكـلام فى أوروبا ،وكان مدى فائدة أى منها محدودا ، ولذلـك عرف الأوروبيون – منذ طفولتهم – أن عليـهم أن يتعلموا اللغات حتى يمكن أن يفهموا ويكونوا مـفهومين من جيرانهم ، أو يسافرون للدراسة أو للعمل .وأكثر مـن كل هذا ، فإن على الأوروبى أن يتعلم اللغات ، لـكى يحصل على قدرة على فهم المـعرفة الدينية أو فى الحقيقـة أى نوع منها بجدية . حتى الـيوم وبينما

الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط عنده فقط لغة واحدة مكتوبة هى اللغة العربية ، فإن لدى الساحل الشمالى تقريبا اثنتى عشرة لغة .

فى الأراضى الإسلامية ؛ خاصة العربية . . تقدم المدن أنماطا متنوعة لاحصر لها ، أثراها الرجال الذين يعودون ، والزائرون والعبيد والتجار الوافدون من أراض بعيدة من آسيا وأفريقيا ، وحتى من أوروبا. وظهور رجال يرتدون ملابس أجنبية ، ولهم ملامح غير مألوفة لم يكن يثير أى حب استطلاع فى العواصم الكبيرة للشرق الأوسط ؛ حيث كان هذا مألوفا . ولايساوى أى شىء تلك الدهشة غير العادية التى يبديها سكان عواصم أوروبا الأحادية اللون عند رؤية شخص مغربى ، أو عثمانى ، أو فارسى أو أى شخص من الزائرين الدخلاء فى وسطهم .

وحب الاستطلاع المتلهف هذا والدال على سوء الخلق ، قد لاحظه كثير من الزائرين المسلمين إلى أوروبا . وفى بداية القرن الثامن عشر . . دهش السفير العثمانى محمد سعيد من سلوك الأوروبيين الغريب ، حيث كانوا يسافرون إلى أماكن بعيدة ، أو ينتظرون الساعات الطويلة ويتحملون المتاعب الكبيرة فقط لكى يشبعوا حب استطلاعهم برؤية أحد الاتراك ، والكلمة المترجمة لحب الاستطلاع هى (الحرص) التى يمكن أن يكون معناها الأكثر دقة هو اللهفة ، أو الشره ، أو الشهوة [٤] . وقد ذكر عزمى أفندى ، الذى توقف فى كوبنيك فى طريقة برلين فى سنة ١٧٩٠ حيث إنه لم يرسل أى مبعوث من جانب سلطتنا العظيمة إلى برلين لمدة ثلاثين عاما . . لم يكن شعب برلين قادراً على أن يكبح نفاذ صبره حتى نصل إلى المدينة ، كل من الرجال والسيدات جاءوا فى عربات ، وعلى ظهور الخيل وعلى أرجلهم غير عابئين بالشتاء أو الجليد لينظروا إلينا ويتفحصوا فى وجوهنا ،وبعد ذلك عادوا إلى برلين[٥] وقد ذكر عزمى أنه كان ثمة جماهير من النظارة على كل من الجانبين على طول الطريق من كوبنيك إلى برلين ، وكانت الجماهير فى العاصمة أكبر .ويصف واصف مناظر مشابهة عند دخوله مدريد [٦] ، وقد تأثر معظم الزائرين الآخرين ، بل وأحسوا بسعادة من هذه الحفاوة والاهتمام ، الذى أملى على الناس أن يجشموا أنفسهم التعب ، بل ويدفعوا

مبالـغ طائلة من المـال فقط للتـحديق فيـهم ،لا لسبب أفـضل من هذا النـوع من حب الاستطلاع كان غير مألوف تماما بشكل واضح ، ومن الصعب التعبير عنه .

وفى المراحل المبكـرة أكثر من ذلك . . يميل الشخص إلـى أن يعزى الاختلاف فى موقف كل من الـثقافتين إلى حقيقـة أن إحداهما لديها الكـثير لتتعلمه ، بـينما الأخرى لديها الكثير لتقـدمه ، ولكن بانتهاء الحروب الصليبية . . لم يعد هـذا التفسير مناسبا ، وبنهـاية العصورالوسـطى من الواضح أننـا نتعامل مـع أحد الاختلافات الأساسـية بين المجتمعين .

أولا : كانت أوروبا تـشترك فى الافتقـار العام لحب الاستطـلاع بالنسبة لـلشعوب الغربـية .ومع ذلك فـقد كانت هـناك بالطبـع استثنـاءات ، وقد كتب هـيرودوت الذى يفترض أنه أبـو التاريخ عن البرابرة ،بالإضـافة إلى الإغريق والأزمنة القـديمة بالإضافة إلى الحديثة . وبـسبب عدم قدرته على قراءة المخـطوطات الشرقية بحث عـن المعلومات بالـسفـر والاستفـسار فـى الشرق . وبـعد عـدة قرون . . كـتب أوروبى آخـر ويلـيام ارشيبشوب أوف تايب (١١٩٠) فى المملـكة اللاتينية فـــى أورشليم تاريـخ الممالك الإسلامية المجـاورة . وقد وجد هو الآخر مصادره فى الـشرق ، وكانت معرفته بـاللغة العربية سببا فى أنه استطاع أن يقرأ النصوص الأصلية .

لكن مثل هؤلاء الدارسين للتاريخ الأجنبى نادرين ؛ فكثير من المؤرخين الأوروبيين القدمـاء ومن العصور الـوسطى ، حبسوا أنـفسهم للـرجال والأحداث الخاصة بـدولهم وعادة ، ازمـانهـم هم . وهـذا كما كـان يبـدو ، هو ما كـان يريـده قراؤهـم . وكان لهيرودوت بعض المقلديـن القلائل فى الجغرافيا التاريخية الكلاسـيكية ، وعلى العموم فإنه كان يهاب أكثـر من أن يكون موضع الإعجاب وكان تاريخ الحروب الـصليبية الذى ألفه ويـليام تايلـر يقرأ على نـطاق واسع وترجم إلـى الفرنسيـة ، ولم يتبق مـن تاريخ المسلمين ، على قدر مانعرف نسخة واحدة .

وقد يبدو عجـيبا أن الحضارة الإسلامية الكلاسـيكية ، التى تأثرت كثيـرا فى أيامها

الأولى بالإغريق والمؤثرات الآسيوية ، قد لفظت بشكل حاسم الغرب ، ولن يمكننا أن نفترض شرحا لذلك . بينما كان الإسلام لايزال ينتشر ويقبل الجديد . . لم يكن عند أوروبا الغربية إلا القليل أو لاشىء إطلاقا لكى تقدمه ، بل إنها بدلا من ذلك أظهرت درجة من الثقافة ، كانت تبدو للعيان أقل بطريقة واضحة مما أشعر المسلمين بالفخار . وأكثر من ذلك فإن حقيقة أنها كانت مسيحية كان يفقدها مركزها مقدمًا ، وقد أدت تعاليم الإسلام التى جمعت كل ما نزل به الوحى بطريقة متتابعة فى الرسالة النهائية لمحمد بالمسلمين إلى أن يرفضوا المسيحية ؛ لأنها شكل مبكر غير متكامل لشىء ، كان هو نفسه يتملكه بشكل نهائى ومتكامل ، وأن لايعتدوا بالفكر المسيحى طبقًا لذلك . بعد التأثير الأول للمسيحية الشرقية على الإسلام فى أولى فتراته قل تأثير المسيحية حتى من الحضارة العالمية البيزنطية إلى أقل درجة ، بعد ذلك فى الوقت الذى خلق تقدم المسيحية ، وتقهقر الإسلام علاقة جديدة ، تبلور الإسلام بطريقته الخاصة إلى فكر وسلوك ، وأصبح مغلقا أمام المؤثرات الخارجية ؛ خاصة تلك التى تأتى من العدو ، لمدة ألف عام فى الغرب . وبسبب الجدران العالية التى خلقتها القوة العسكرية للإمبراطورية العثمانية ، التى خلقت حدودا قوية على الرغم من انهيارها . . فإن الشعوب الإسلامية استمرت فى البحث عن الاقتناع ، والتفوق الثابت الذى لايمكن قياسه لحضارتهم على كل الحضارات الأخرى (كما يفعل بعضنا حتى هذه الأيام فى الغرب) حتى بداية العصر الحديث بالنسبة لمسلمى العصور الوسطى ، ومن الأندلس إلى فارس كانت أوروبا المسيحية أرضا متخلفة للكفرة الجهلة . وتلك كانت وجهة نظر ، ربما وجدت ما يبررها فى وقت من الأوقات ، وفى نهاية العصور الوسطى كانت تتحول بصورة خطيرة إلى شىء آخر .

أثناء ذلك . . غيرت أوروبا موقفها تجاه العالم الخارجى تغييرا جذريا . إن الازدهار الكبير لحب الاستطلاع الفكرى والبحث العلمى كان يرجع بدرجة - ليست صغيرة - التى تصادف تلاقى ثلاث تطورات سعيدة مصادفة ، عامة أحدها كان اكتشاف الدنيا الجديدة بأكملها ،وبشعوبها الغربية ، البربرية المتحضرة ، وبها ثقافات غير معروفة

للكتب المقدمة ، وكان التطور الآخر عصر النهضة ، واكتشاف الآثار الكلاسيكية ، التى قدمت كلاً من مثالا لمثل حب الاستطلاع هذا ، وكذلك طريقة إشباعه . والتطور الثالث هو بداية الإصلاح ، وضعف السلطة الدينية على كل من الفكر والتعبير عنه ، وتحرر عقول الجنس البشرى بطريقة لم يجدوا مثلها منذ أثينا القديمة .

كان لـلعالم الإسلامى اكتشافاته ، بينما كانت التوسعات فى جيوش العرب الإسلامية تجعلهم يتصلون بحضارات بعيدة متنوعة مثل أوروبا ، والهند ، والصين . وكان له كذلك عصر نهضته بإحياء التعاليم الإفريقية والفارسية - بدرجة أقل - فى القرون الإسلامية المبكرة . ولكن تلك الأحداث لم تتصادف ، ولم يكن لصاحبها أى تحرر من القيود الدينية . لقد بدأ عصر النهضة الإسلامى ، وعندما توقف توسع الإسلام بدأ الهجوم المضاد من المسيحية . إن الصراع الفكرى بين القدامى والمحدثين وبين رجال الدين والفلاسفة انتهى بالانتصار المبرر الدائم للطرف الأول على الثانى . وقد أكد هذا للعالم الإسلامى قوة اعتقادهم وإيمانهم بالاكتفاء الذاتى والتفوق كمكان الإيمان الحقيقى ، والطريقة المتحضرة للحياة الذى يعنى الشيء نفسه بالنسبة للمسلمين . وقد احتاج الأمر إلى قرون من الهزائم والتقهقر حتى يستعد المسلمون لتعديل نظرتهم هذه إلى العالم مكانهم فيه ، وأن ينظروا إلى الغرب الإسلامى بشعور يختلف عن شعور الاحتقار .

واختلاف مهم آخر ومتصل بالموضوع نفسه بين الإسلام والغرب كان فى مجال التجارة وميزانها ، وتأثير من يمارسونها . كان التجار الأوروبيون فى الشرق الأوسط عديدين ، وغالبا أثرياء قادرين بطريقة متزايدة على التأثير ، بل أحيانا على السيطرة السياسية والتعليم . وكان التجار المسلمون فى أوروبا قليلى العدد ، وليس لهم أية أهمية ، وفشلت طبقة التجار المسلمين فى أن تحقق المحافظة على مجتمع برجوازى ، أو يتحدون بصفة جدية مع سيطرة العسكرية والبيروقراطية وكبار رجال الدين على الدولة والمدارس ، لقد كان اختلافا ، يمكن رؤية نتائجه من ناحية المجتمع الإسلامى والتاريخ الفكرى .

وأحيانا كان هذا التناقض فى بعض الأحيـان يصور بين استجابات العالم الإسلامى واليابان للتحدى الغربى ، كانت مواقفهم مـختلفة جدًا . وبجانب الميزة الواضحة التى يتميز بها اليابـانيون بإقامتهم فى جزر بعيدة عن هجوم وتدخل الـقوى الغربية . . فهناك اختلاف آخر ، كانت أفكار المسلمين عن أوروبا متـأثرة ، بل خاضعة فى الحقيقة لعنصر ليس له إلا القليل أو لا شىء له من التأثير على اليابانيين - بالتحديد الدين . ومثل بقية العالم . . فإن المسلمين كانوا ينظرون إلى أوروبا أولاً بدرجة كبيرة بلغة الدين ؛ أى ليس كغربيين ، أو كأوروبيين ، أو لونهم أبيض ، ولـكن كمسيحيين - فى الشرق الأوسط - بخـلاف الشرق الأقـصى ، وكانت المسـيحية مألـوفة ومرفوضة . مـا هو الدرس ذو القيمة ، الذى يمكن أن يستفاد من اتباع دين معيب ، حل محله آخر ؟

ومما جعل الأمر أسوأ . . أن الدين لم يكن فقط يـنظر إليه على أنه أقل قيمة ، بل أيضًا عـدائى ؛ فمنـذ ظهوره الأول مـن الجزيرة العـربية فـى القرن الـسابع عشـر كان الإسلام تقريـبا فى صراع دائم مع المسيـحية ، من خلال الغزوات الإسـلامية الأولى ، واستعادة المسـيحيين لانتصاراتهم ، مـن خلال الجهاد والحروب الصليـبية ، ومن خلال التقدم التركى والتوسع الأوروبى . وعلـى الرغم من أن الإسلام كان قد حارب فى كثير من المعارك على عـديد من الجبهات . . فإن الحروب ضد المسيحـية ، كانت هى الأطول والأكثر تدميرا ، التى تـضخمت فى شعور المسلمين جهادا أكبـر من الدرجة الأولى بغير منازع . وكـانت هناك بالتـأكيد دروس مستفـادة من العدو فى المـعركة ، ولكنهـا كانت محدودة فى قـيمتها ، وتأثـيرها كان يتلاشى بـالأسلحة الفكريـة والاجتماعية الـدفاعية للإسلام .

كان بعض الزائرين المـسلمين لأوروبا مهتمين بجمع المعلـومات المفيدة . وكان هذا الأمر فى أوله ينحصر بدرجة خالصة فى المعلـومات العسكرية ، التى يمكن أن تكون لها قيمة فى حالـة تجدد الصراع المسلح . ولذلك كانـت تقارير المبعوثين السيـاسيين المغاربة الاتراك من أوروبا تحتـوى على أوصاف تفصيلـية إلى حد ما عن رحلات المبـعوثين إلى أوربا ، ومن وجهتهم ، مع بعض الوصف لـلطرق ومواقع القلاع ، ودفاعات الأماكن

التى يمرون بها . فى وقت من الأوقات أضيفت بعض المعلومات السياسية ، التى اعتقد بأنها مفيدة ، ولكن هذا حدث فى وقت متأخر ؛ فلم يكن ذلك موجودا إطلاقا من العصور الوسطى . وحتى نهاية القرن الثامن عشر فإن التقارير السياسية العثمانية من أوروبا ، كانت متقطعة بدائية وساذجة لدرجة تثير الدهشة .

وعندما قارب القرن الثامن عشر على الانتهاء بدأ المسلمون ينظرون إلى أوروبا بحذر متزايد ، ويظهرون علامات على إدراكهم للحاجة إلى دراسة هذا المجتمع الغريب الخطر الآن . ولأول مرة يصبح المسلمون مستعدين للسفر إلى أوروبا المسيحية ؛ للإقامة هناك لفترة . لقد تأسست السفارات الدائمة ، وظل الموظفون العثمانيون من رتب متنوعة فى أوروبا ، وفى بعض الأحيان لمدة سنوات . وقد تتابع هؤلاء الدارسون - بأعداد قليلة ، وبعد ذلك - كفيضان متدفق ، يرسله حكام الشرق الأوسط إلى أوروبا لاكتساب الفنون والمهارات الضرورية ؛ للمحافظة على نظمهم والدفاع عن مناطق نفوذهم ، وعلى الرغم من أن غرضهم كان لايزال عسكريا ، ففى هذا الوقت وصلت التأثيرات إلى أبعد من ذلك كثيرا ، وفاقت الدروس التى تعلمها هؤلاء الدارسون فى الجامعات الأوروبية حتى فى المدارس العسكرية الأوروبية ، رغبات وأهداف رؤسائهم الأباطرة . وفى الربع الثامن من القرن التاسع عشر ، كان عدد الاتراك أو المسلمين العرب أو الإيرانيين الذين يستطيعون قراءة لغة أوروبية صغيراً بدرجة ملحوظة ، الكثير منهم كانوا مهتدين أو أبناء أو أحفاد مهتدين من المسيحية أو اليهودية إلى الإسلام ، ولكنهم كانوا قد بدأوا يكونون مجموعة مهمة ، يقرأون أشياء أخرى بجانب كتبهم الدراسية كان لهم تأثير كمترجمين بدرجة متزايدة أو مفسرين .

وخلال القرن التاسع عشر تغيرت سرعة ومعيار ومدى استكشافات المسلمين لأوروبا بدرجة جذرية ، من بعض الدول فى مرحلة مبكرة ، وفى بعضها الآخر من مرحلة متأخرة ؛ طبقا لحدوث كثافة التأثير الأوروبى واتخذ الاكتشاف شخصية جديدة كلية .

وكان الدافع الرئيسى للتغير هو السيطرة التى لاتخطئ لأوروبا فى العالم ، ولكن

عملية الاكتشاف أصبحت سريعة جداً بسبب فتح قنوات جديدة ، وفوق كل شيء بسبب ظهور ماكينات الطباعة ، وإنشاء الصحف والمجلات ، ونشر الكتب التى بواسطتها وصلت الحقائق والأفكار الأوروبية إلى القارئ المسلم .

أحد القنوات الجديدة الأعم تأثيراً كانت الصحيفة ، هذا الاختراع الأوروبى لم يكن مجهولا كلية من الشرق الإسلامى ، وفى وقت مبكر يصل إلى ١٦٩٠ . . ذكر السفير المغربى غسانى فى تقريره عما سماه « آلة الكتابة » ؛ أى ماكينة الطباعة ، وذكر رسائل الأخبار ، التى كانت سائدة فى إسبانيا فى ذلك الوقت [٧] ؛ ومن الأشياء الأخرى ذكر أنها مليئة بالأكاذيب المثيرة « وقد أظهر المراقبون العثمانيون فى بادئ الأمر معرفتهم بالمطبعة الأوروبية فى القرن الثامن عشر وهناك أدلة على أن مقتطفات من الصحف الأوروبية قد ترجمت إلى اللغة التركية ليقرؤها المجلس الإمبراطورى . وما بدأ كعمل متقطع تطور إلى مكتب للطباعة ، الذى كانت ترعاه الحكومة العثمانية طوال القرن التاسع عشر ، وبعد ذلك ، تبين لدار المحفوظات فى القصر الخديوى بالقاهرة إهتمامًا مشابهًا بالصحافة الغربية بين خلفاء محمد علي باشا .

ولم تكن أول الصحف التى نشرت فى المنطقة راجعة إلى المبادرات ، ولكن الأجنبية ، كانت تنشر بالفرنسية تحت إشراف الفرنسيين ، وكانت تشكل جزءًا من مجهود إعلامى عن الحكومة الثورية الفرنسية . وفى التسعينات ١٧٩٠ أقام الفرنسون آلة طباعة فى سفارتهم فى استامبول كانوا يصدرون منها النشرات ، والاتصالات ، وإعلانات أخرى . وفى عام ١٧٩٥ كان السفير الفرنسى ، يطبع صحيفة أخبار كل أسبوعين ، تتكون من ست إلى ثمان صفحات ، ظاهريا لتوجيه الرعايا الفرنسيين . وكانت هذه الصحيفة توزع فى كل أنحاء الدول العثمانية ، وفى السنة التالية . . أصبحت جريدة « الجازيت الفرنسية فى القسطنطينية » أول صحيفة تظهر فى الشرق الأوسط [٨] .

عند احتلال مصر انهى بونابارت نشر الصحيفة الفرنسية فى استامبول ولكن بدأ واحدة غيرها ، جديدة فى مصر ، أحضر لها ماكينتين طباعة ، مجهزتين بحروف عربية

واغريقية بالإضافة إلى الفرنسية . ومن ١٢ فراكتيرور السادس ، الموافق ٢٩ اغسطس ١٧٩٨ قام الفرنسيون بطباعة ونشر أول عدد من « كورير دى ليجبت » التى كانت تصدر بعد ذلك كل خمسة أيام ، وكانت تقدم غلافا من الأخبار المحلية ، وأحيانا الأوروبية ، وكان مجموع الأعداد التى ظهرت ١٦٦ عدداً .

هذه الصحيفة الأخبارية بالإضافة إلى جريدة أكثر طموحاً لايكاد « لاديكا دى جيبت » كانت كلها بالفرنسية فقط ، ولكن بعد اغتيال كليبر فى ١٦ يونيو ١٨٠٠ ، بدأ خليفته عبدالله مينو أول جريدة باللغة العربية ، وكان عنوانها « التنبيه » واستمرت فترة قصيرة .

والفترة التالية فى خلق طباعة الجريدة فى الشرق الأوسط بدأت فى أزمير فى ١٨٢٤ ، بتأسيس جريدة شهرية ؛ على الرغم من أنها كانت بالفرنسية ، وكانت موجهة بصفة رئيسية إلى المجتمع الأجنبى فإن هذه الجريدة مارست دوراً له بعض الأهمية فى أمور هذا الوقت ، وفى بعض المناسبات ورطت محررها فى متاعب مع السلطات ، وعلى سبيل المثال عندما دافع عن القضية العثمانية ضد المتمردين الإغريق ، وكانت هذه الحادثة تصور نقطتين جديدتين ، قوة الصحافة وخطر الرقابة . وعندما تضايق الروس من سطور المحرر للجريدة . . حاولوا إقناع السلطات التركية بقمعها ، وقد اقتبس المؤرخ العثمانى المعاصر لطفى ، كلام السفير الروسى بقوله :

« فى الحقيقة فى فرنسا وإنجلترا ، يستطيع الصحفيون أن يعبروا عن أنفسهم بحرية ، حتى ضد ملوكهم لدرجة أنه فى مناسبات عديدة ، ومن السابق أن الحروب اندلعت بين فرنسا وانجلترا بسبب هؤلاء الصحفيين والحمد لله ،و أن الممالك المحروسة بالعناية الإلهية (أى العثمانيين) حميت من مثل هذه الأشياء ، حتى فترة قصيرة مضت ، حين ظهر رجل فى أزمير ، وبدأ ينشر صحيفته . سيكون من الصالح منعه . . »[9] .

على الرغم من هذا التحذير العنيف . . استمرت الصحيفة فى الظهور وانضمت إليها بمرور الأيام صحف أخرى . وقد أدرك الشيخ رفاعة المصرى الذى ذهب إلى باريس ١٨٢٦ بسرعة قيمة الصحافة .

« يعلم الإنسان سائر ما فى نفس صاحبه ، خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات (الأولى جمع جرنال ، والثانية جمع كازيطة) فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ، وإن كان قد يوجد فيها من الكذب مالايحصى ؛ إلا أنها قد تتضمن أخبارًا تتشوق نفس الإنسان إلى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، أو تنبيهات مفيدة ، أو نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم ، ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلا عظيما أو رديئا ، وكان من الأمور المهمة ، كتبه أهل الجرنال ليكون معلومًا للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وليرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك إذا كان الإنسان مظلومًا من إنسان ، كتب مظلمته فى هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم ، من غير عدول عما وقع فيها (انظر ص ٣٤٥) بحسب القوانين ، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر [١٠] .

وتأسس أول نشر زمنى منتظم بلغة من لغات الشرق الأوسط ، فى مصر ، على يد محمد علي باشا . . لقد كانت « الجازيت الرسمية المصرية » ، وظهر عددها الأول فى القاهرة فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٨ ، وتبعتها مثيلتها العثمانية بعد عدد قليل من السنوات فى ١٨٣٢ . وقد شرحت المقالة الرئيسية أن المرشد الرسمى هو تطور طبيعى للمؤسسة الجغرافية التاريخية للإمبراطورية العثمانية القديمة ، وكانت تقوم بنفس الوظائف للتعريف « بالطبيعة الحقيقية للأحداث ، والمعنى الحقيقى لأفعال وأوامر الحكومة » ، لمنع سوء الفهم واتخاذ إجراءات مسبقة للنقد الموحد . وقد ذكر أن هناك فرضًا آخر وهو تقديم معلومات مفيدة عن التجارة والعلم والفنون . وقد ساعد افتتاح الخدمة البريدية العثمانية من عام ١٨٣٤ كثيرًا على توزيع هذه الجريدة ، التى ظلت الصحيفة الوحيدة باللغة التركية حتى تأسست أول صحيفة غير رسمية ، وهى صحيفة أسبوعية للأخبار عام ١٨٤٠ ، بواسطة رجل إنجليزى يسمى ويليام تشرشل ، وفى إيران . . بدأ نوع من

خطـابات الأخبار الرسمية فى سنة ١٨٣٥ - على يد محمد صالح الذى كان أول دارس إيرانى في انجلترا .

بالـنسبة لـلقارئ الحديـث . . فإن هذه الجرائـد الرسمـية من القـاهرة واستامـبول وطهران تبدو ضعيفة وجافة ، وذات أهمية وجاذبية محدودة . ومع ذلك . . لابد أنها قد قامت بدور له بعض الأهمية فى جعل القراء المصريين والأتراك والإيرانيين يعتادون - على الأقـل - على صورة الـعالم الخارجى ، وكـذلك فى خلـق مفردات صحـيفة ، للدلالة ولمناقشة ما كان فى ذلك الوقت مـجهولاً من المؤسسات والأفكار . وفتحت هذه الثورة اللغـوية الناتجة تقدمًا كبـيرًا فى عملية الاكتشـافات ، وبالنسبة للـصحف والجرائد الفترية ، فقد قدمت أيضًا الوسيلة والواسطة لزيادة حجم التراجم المضطرد ، التى كانت تجلب المعلومات عن أوروبا ، والكثير منها قد كتبه الأوروبيون إلى القراء المسلمين .

فى الحقـبة الأولى من القـرن التاسع عشـر كان هناك مـركزان رئيسيـان للإصلاح الغربى ، فى تركيا ومصر ، ومن كل منهما فإن الاستعداد ونشر التراجم للكتب الغربية قد أعطـيا أهميـة مركزية ، وفـى مصر وعلـى وجه خاص أكثـر . . كان هناك بـرنامج مصـدق عليه مـن الدولة ، منظم للتراجم ، ولم يصل إلى هـذه الدرجة أى شىء شبيه له ، منذ الأيام ، التى أمر فيها الخلفاء العباسيون بترجمة الأعمال الإغريقية والفلسفية ، والعلم إلى الـلغة العربـية . وبين ١٨٢٢ أو ١٨٤٢ . . طبع ٢٤٣ كتابًا فى الـقاهرة ، الجزء الأكبر مـنها كانت تراجـم ، على الرغم من أنـها ترجمت فى مـصر ، وهى دولة تتكلم اللغة العربية . . فإن نصفها أو أكثر كـانت باللغة التركية . وفى مصر محمد علي باشا . . كانت اللغة الـتركية لاتزال لغة علية القوم الحاكمين ، والأعـمال فى العسكرية والموضوعات البحرية ، بما فى ذلك الرياضيـات البحتة والتطبيقية (انظر ص ٣٤٧) وكان أكثر من نصف الـدارسين الذين أرسلهم الباشا إلـى أوروبا ، عثمانيين يتكلـمون التركية من خارج مصر . وكـانت معظم الكتب مـن الطب وعلوم الطب البـيطرى والزراعة ، ومن جهة أخرى ، كان معظمها باللغة الـعربية ؛ لأن هذه الموضوعات لم تكن محجوزة لعلية الطبـقة الحاكمة الذين يتكلمون الـتركية . والتاريخ الذى اعتبر بصـفة مؤقتة علمًا

مفيدًا . . كان يبـدو أيضًا أنه مادة لعلية القوم ؛ حـيث إن القليل من الكتب الـتاريخية الذى طبع فى مطبعة محمد علي ، فى الفترة الأولى كان باللغة التركية ، وبين ١٨٢٩ ، ١٨٣٤ ترجمـت أربـعـة كتـب ، ذات مـحتوى تاريـخى ، أحدها عـن كاترين روسـيا العظيمة ، والثلاثة كتب الأخرى كانت عن نابليون وعصره . وقد تبع بعد ذلك فترة من عدة سنوات ، قبل ظهور الترجمة التاريخية التـالية - طبعة من تاريخ تشارلز الثانى عشر لفولتير ، طبع عام ١٨٤١ . وهذه المرة لم يكن بالتركية بل بالعربية ، كما كان الحال مع الترجمات التى تلت ذلك للكتب التاريخية التى نشرت فى مصر[١١] .

كانت التراجم الـتركية التى نشرت فى مصر بـالطبع تقرأ فى تركيا ، وبـعضها أعيد طبعها هـناك ، ولـكـن الترجمة فى استامبول كانت لفترة طويـلة محصورة فى الكتب العلـمية ، ولم يـحدث إلا فى منـتصف القـرن أن بدأت تراجم الـكتب الأوروبيـة فى التاريخ تظهر فى استامبول ، وكانت نقطة الـتحول هى نشر الطبعة التركية من الخلاصة الإنجليزية ، للتاريخ العالمى فى سنة ١٨٦٦ .

أما فى إيران . . فيبدو أن الاهتمام بالتاريخ الغربى كان قد اختفى بعد كتاب التاريخ العظيـم الذى كتبه راشد الدين ، وقـد قام الكثيرون بتقـليد كتابه هذا ، ولكـن معالجة المناطق النائية أصبحت منطقية ، ولم يضف إليها أى شىء جديد له أهمية ، ولم يحدث إلا فى السنوات الأولى للـقرن التاسع عشر أن وجدنا عددًا قليلا من الـكتب - معظمه إلى الآن - مخطوطات تعالج التاريخ الغربى ، وكانـت هذه الكتب تستقى معلوماتها إلى درجة ملحـوظة من مصادر تركيـة أكثر من غربيـة . وهناك مخطوط غيـر مؤرخ ربما فى أوائل القـرن التاسع عشـر ، كتبه مؤلـف مجهول ، يـقص علينـا تاريخ انجلتـرا ، منذ يوليوس قيصر إلى تـشارل الأول فى واحد وعشرين جزءًا .[١] وبجانب هذا فإن كتب التاريخ عن أوروبا الغربية المكتوبة باللغـة الفارسية ، لم تظهر إلا فى النصف الثانى من القرن التـاسع عشر فى ذلك الوقـت ، وكان ثمة مؤلفات غزيـرة بكل من اللغة الـتركية والعربية ؛ بالإضـافة إلى النمو السريع للصـحف والجرائد الموسيمية فيـها ؛ مما غير من صورة العالم التى كانت تبدو للقراء المسلمين .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشـر نمت عملية الاكتشاف إلى أبعاد وصلت

إلى الفيضان ، ولم تعد أوروبا تنتظر أن يكتشفهــا المكتشفون المسلمون ، ولكنها بنفسها بدأت تــغزو الأراضى المســلمة ، وتــفرض عليــها علاقــة جديدة قــوية ، وأخذ العــالم الإسلامى وقتا طويلاً ؛ لكى يتأقلم معها ، والتى لم يقبلها أبدا فى حقيقة الأمر .

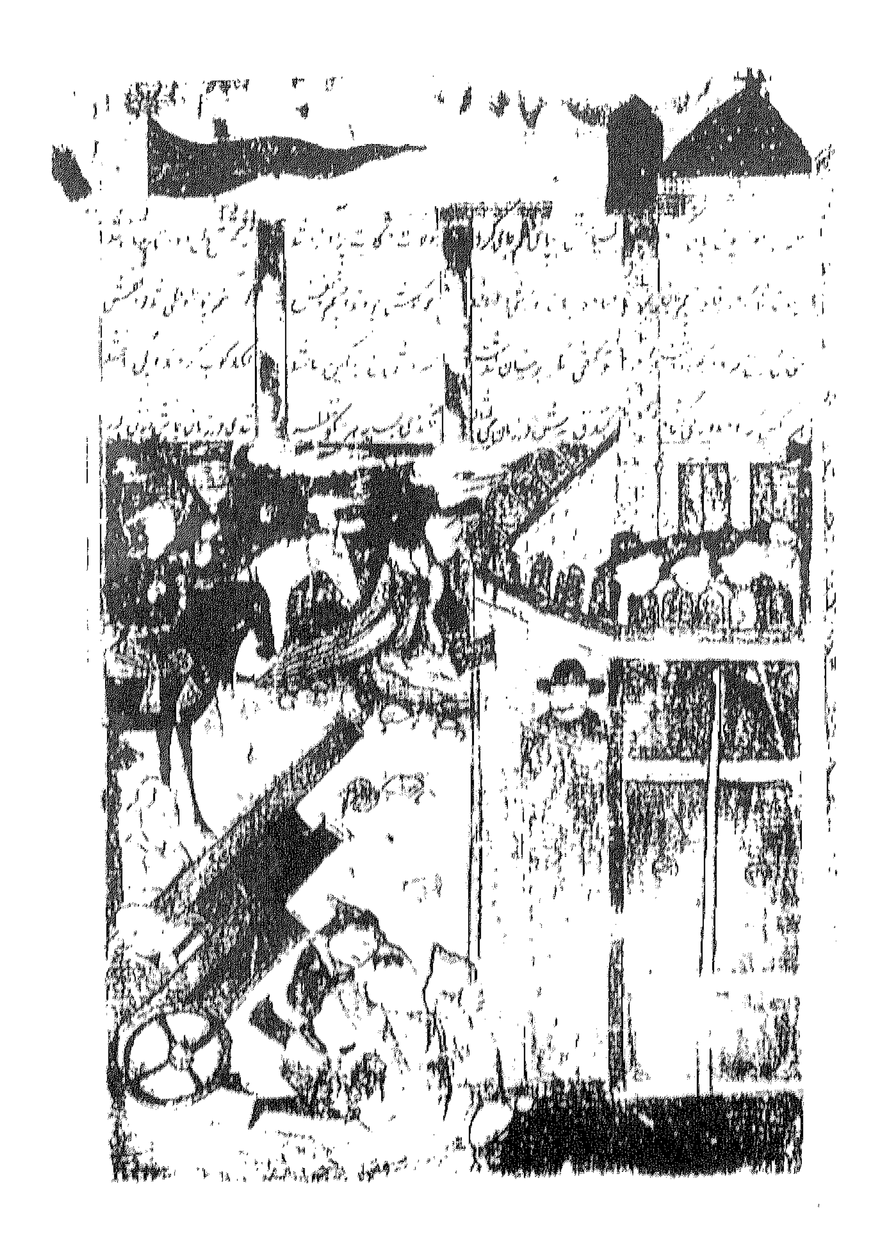
خلال الجزء الأول مــن القرن التاســع عشر ، يمكن أن يرى الــتغيير فــى عدد من النواحى ، أحدها ، قد ذكر من قبل ، هو الموقــف تجاه اللغات الأجنبية ، أو بمعنى آخر الأوروبية ، ولأول مــرة يبدو تعــلم اللغة الغربية مسموحا به ، ويــعد ذلك أمرًا مرغوبا فيه ، وأخــيرا ضــروريا ووضــع الشــباب المسلم تحت إمرة مدرســين أجانب ، أولا فى دولهم هــم ، وأخيرا فى أوروبا كذلــك ، ومنذ وقت ليــس بالطويل . . كان مــثل هذا العمــل ، يعد شاذا ولايمــكن التكــلم عنه ، والآن . . فــإن معرفة الــلغات الأجنــبية ، أصبحت مؤهلات مهمة ، وأصبحت مدرسة اللغات ومكاتب الترجمة في مراتب الجيش والقصر طريقًا لــلقوة ، وقد أعطى التغير نــفسه فى الظروف دوراً مهما وجديــدًا للاقلية المسيحية ؛ خاصة فى الدول العربية ؛ حيث كانوا يشتركون مع الأغلبية المسلمة فى اللغة والثقافة ، أكثر من الذى يحدث فى تركيا وإيران بدرجة كبيرة .

وزاد طوفان الزائرين المسلمين لأوروبا ، فى بادئ الأمر الدبلوماسيون ،و بعد ذلك الدارسيــون ، وبعدهم آخرن كــثيرون ، بما فى ذلــك فترة اللاجــئين السياســين . وقد سارت حركة المــعرفة والأفكار من أوروبا إلى الــشرق الأوسط ، خلال القنوات نــفسها وغيرها ، عــلى نطاق واسع الآن بطــريقة لاتقارن . بالإضــافة إلى الحركة الأكبــر كثيرًا للأشــخــاص فهناك عــديــد من مجالات الاتصال الجديــد المدرسة والفرقة العــسكرية ، والكتاب والجريدة ، مــكتب الحكومة ومكتب المحاســبة كلها تساعد فى تعــميق وتوسيع معرفة أوروبا التى بدت بدرجة متزايدة قوة تنتشر بسرعة وتتعاظم بدرجة ضخمة ، مهددة وجود الإسلام نفسه وتتطلب الفهم والتقــليد فى بعض الأحيان .أما الموقف القديم من الاحتقار ، وافتقار الاهتمام فقد كان يتغيــر ، لفترة على الأقل وسط بعض العناصر من عليــة الطبقة الحــاكمــة ، وأخيــرا كــان المســلمون يتجــهــون إلى أوروبا ، اذا لــم يكن بإعجــاب ، فإنه كان مصحــوبا بالاحترام ، وربما بــالخوف ، ويعطونــها المجاملة الفــائقة بتقليــدها ، وقــد بــدت مرحلــة جديدة من الاكتشافات وقــد استمرت تقريبًا حتــى وقتنا الحالى .

الرسوم والأشكال



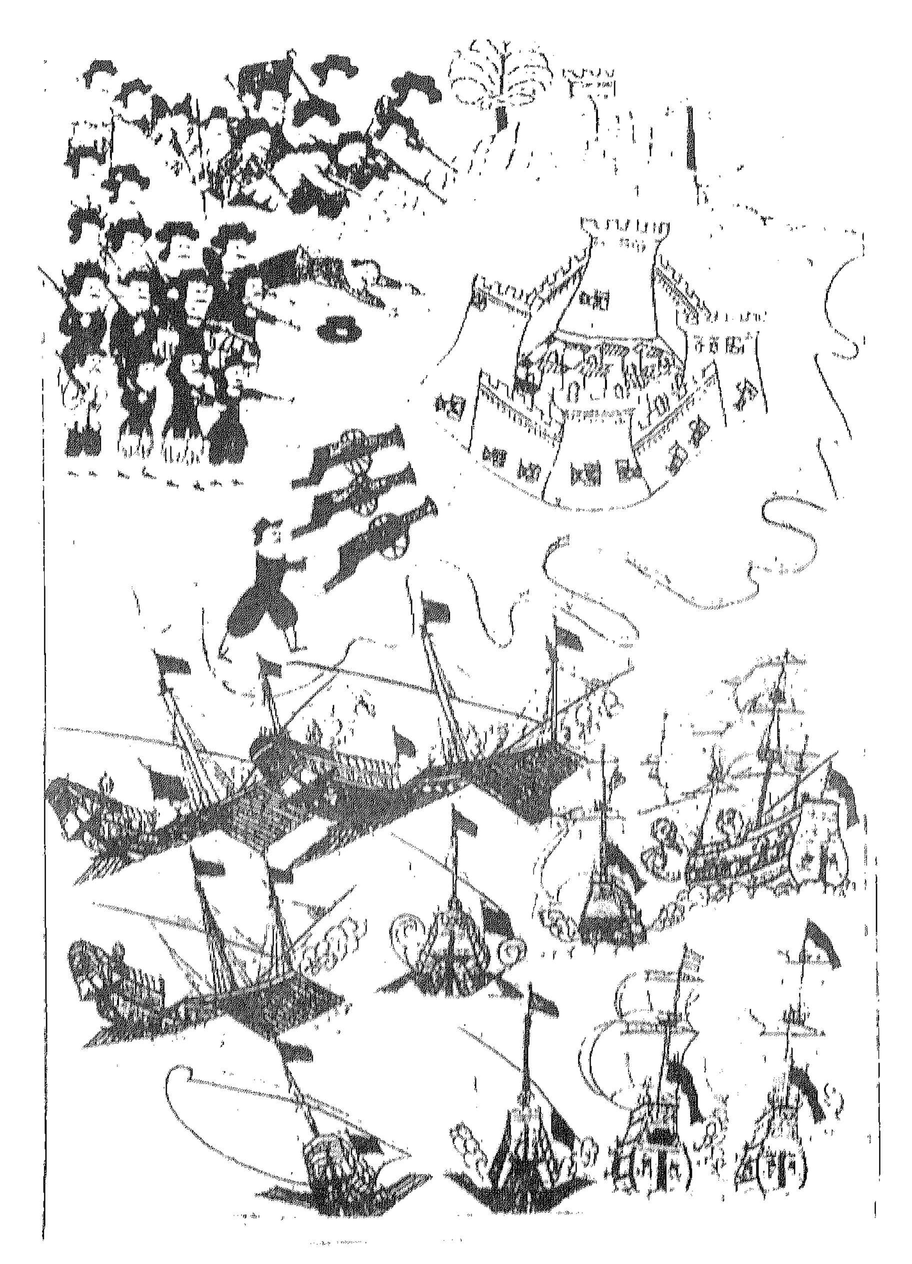
1. Portuguese repelling Persian attack on Hormūz



2. Setting the fortress of Hormūz on fire



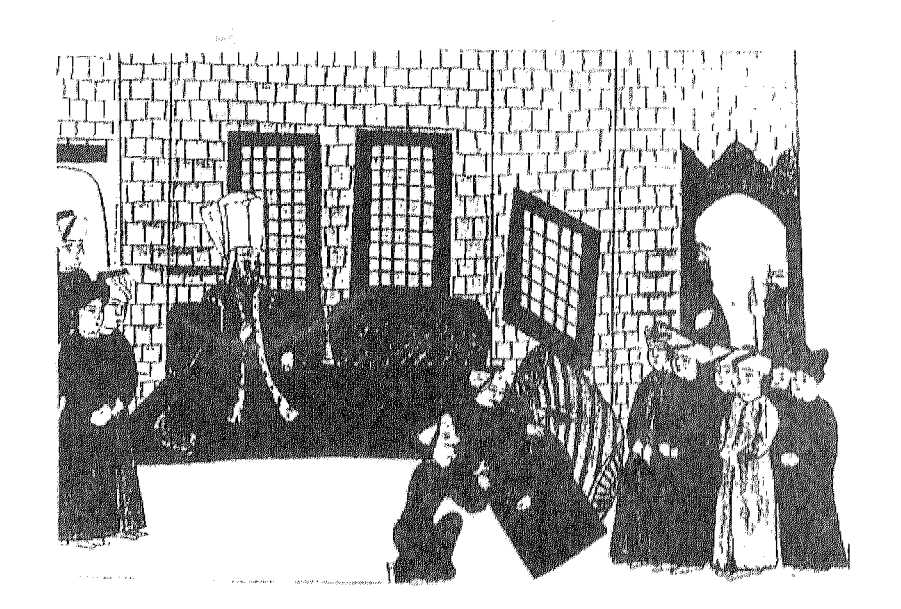
3. Persian commander receiving a deputation of two Portuguese



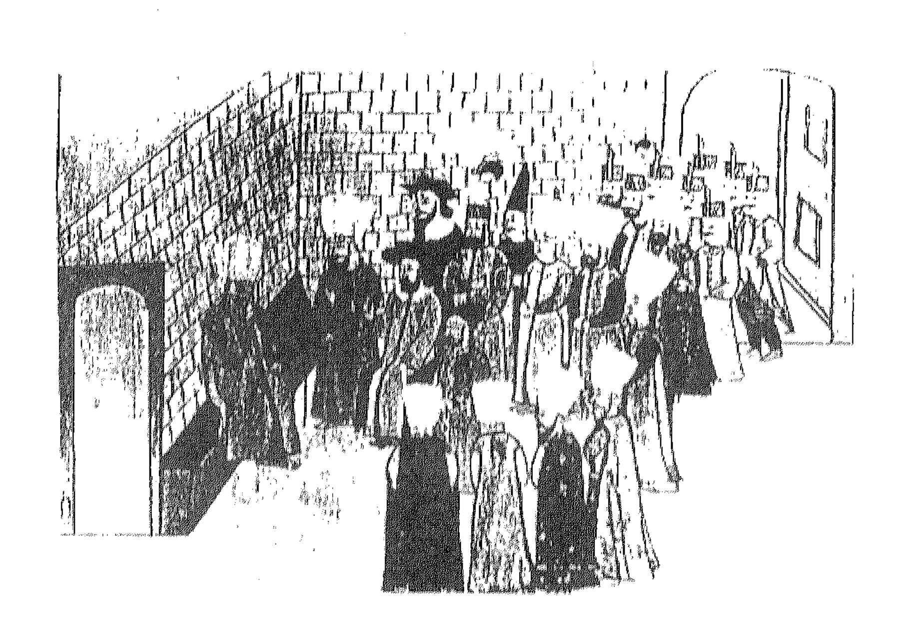
4. Venetians bombard Tenedos



5. *Procession of the Venetian Bailo in Istanbul to his audience*



6. *The Bailo is perfumed during his audience with the grand vizier*





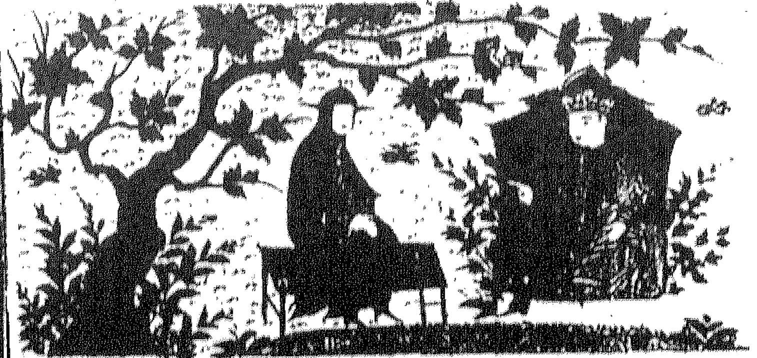
8. Fatḥ ʿAlī Shāh receiving a foreign delegation

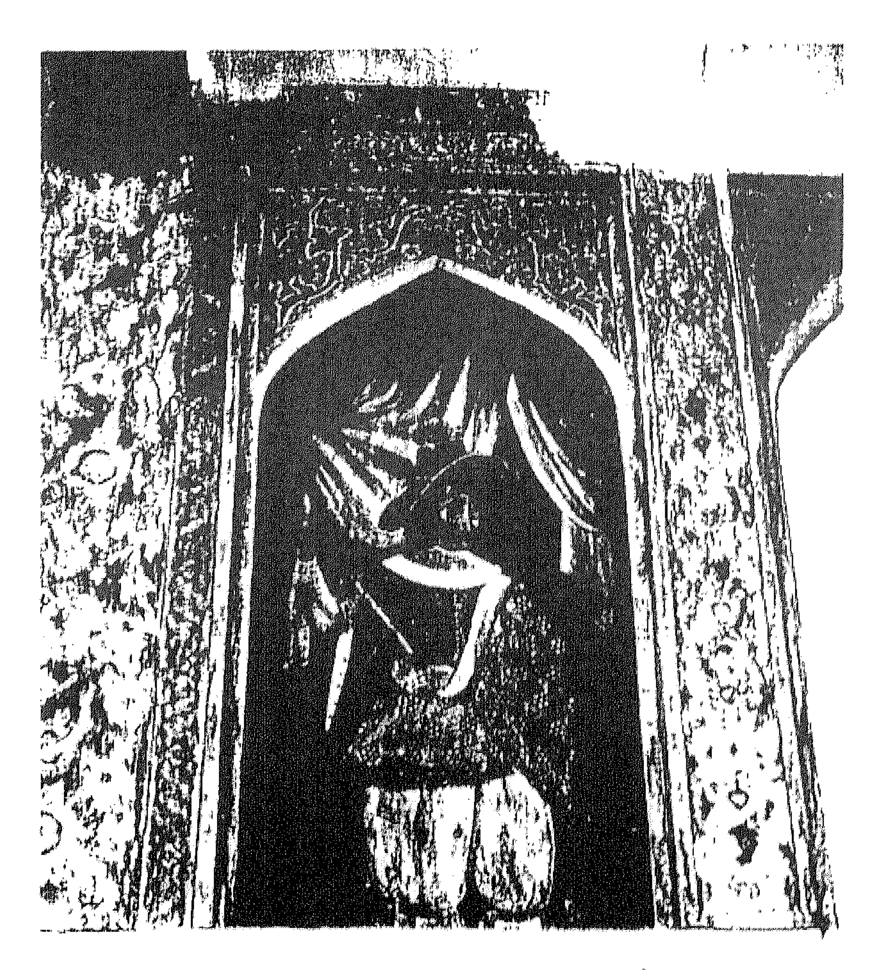


9. A Muslim warrior fighting Crusaders

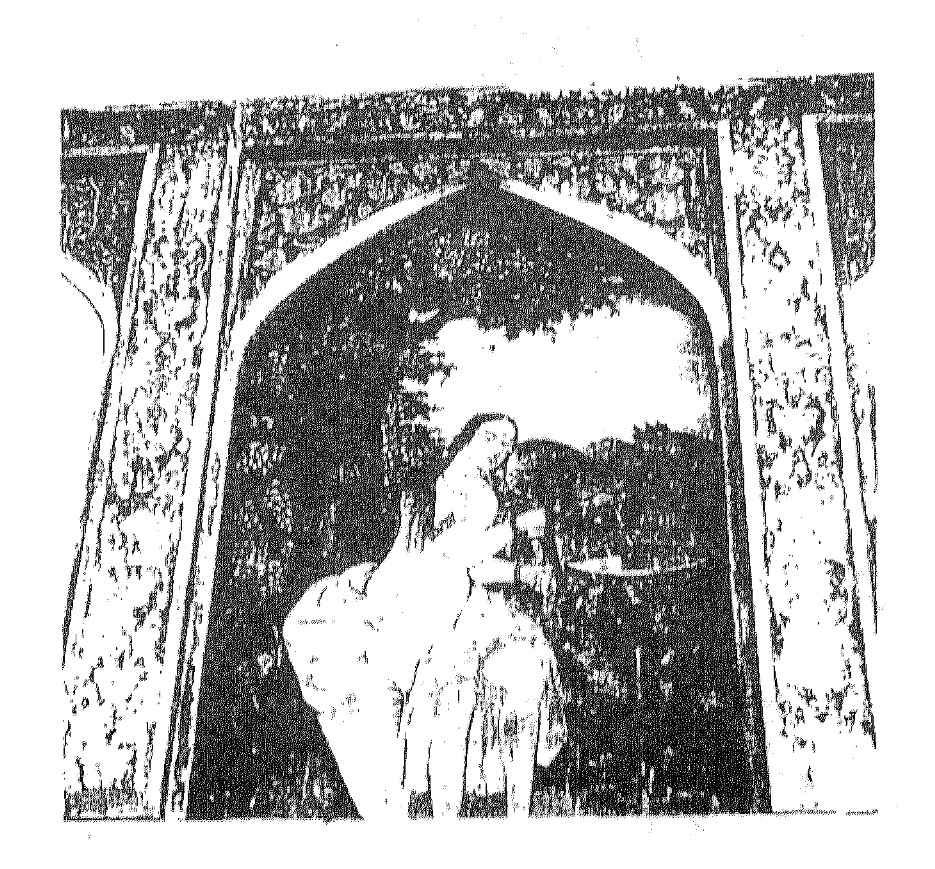


10. and 11. Popes and Emperors





12. and 13. Wall paintings in Isfahan showing European visitors to Iran





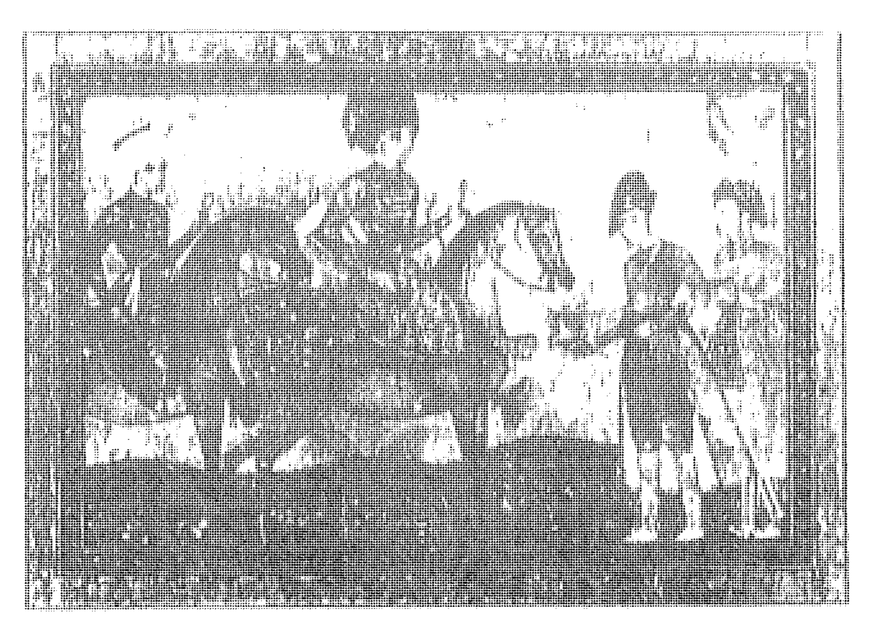
14. A court page in European dress



15. A youth with a lady in European costume



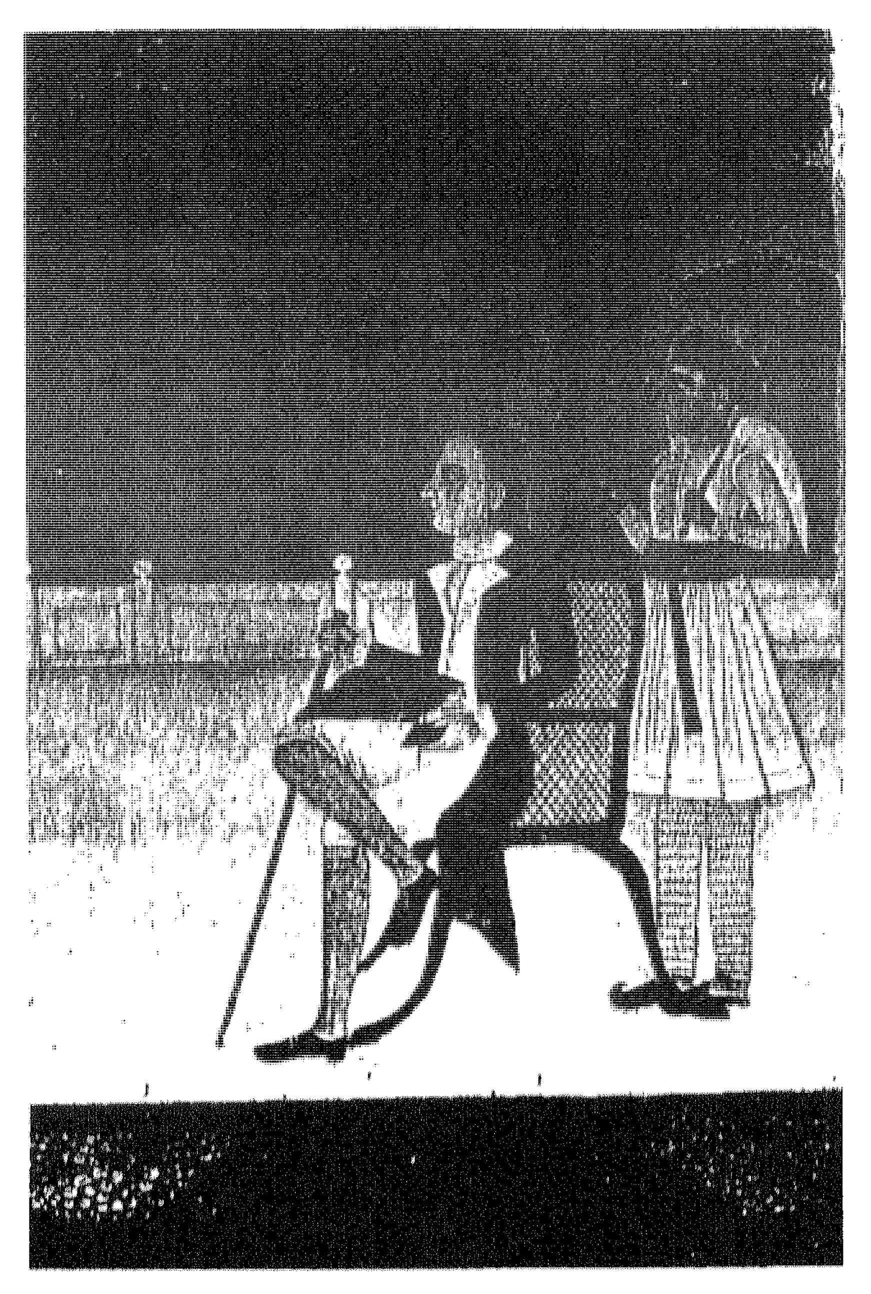
16. A European page holding a wine cup



17. A Persian Prince with attendants including a European and a Mughal Indian courtier



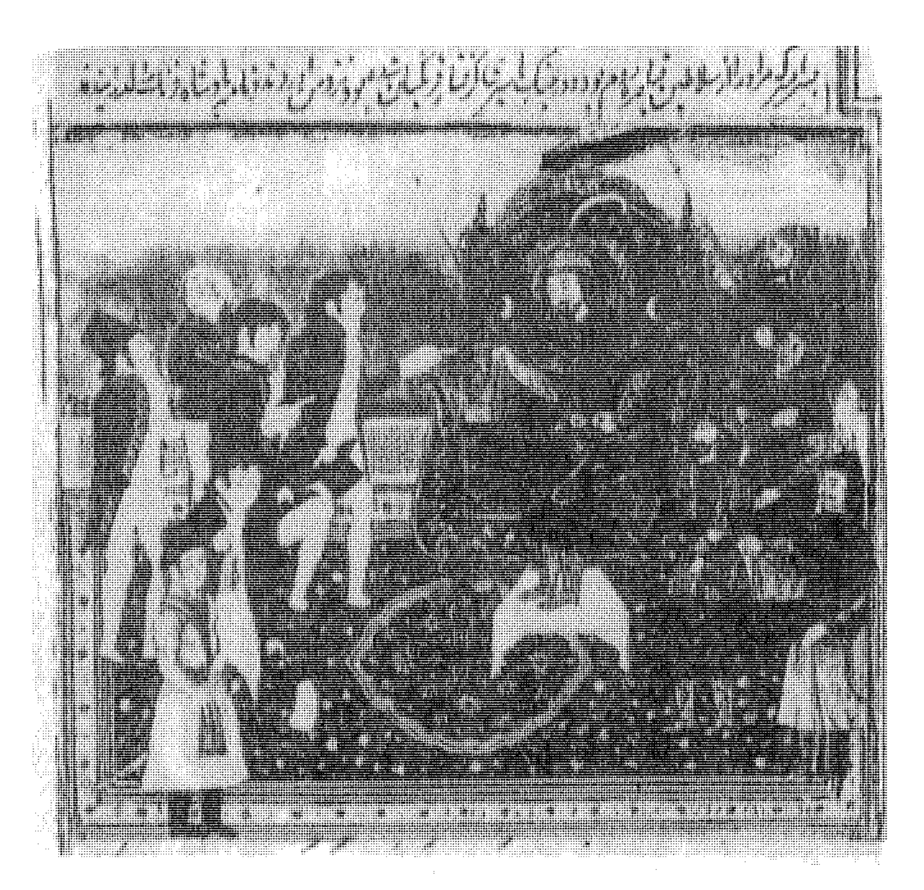
Warren Hastings in European court dress



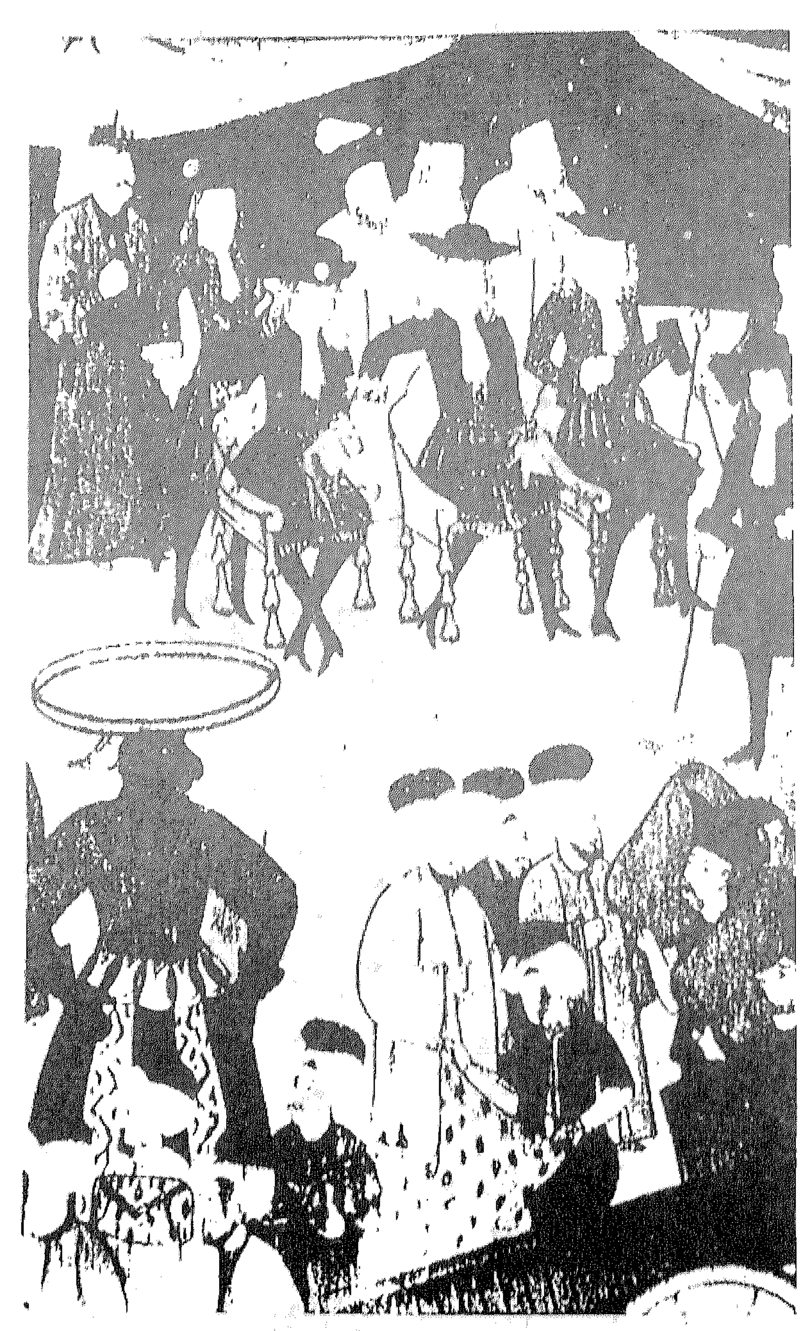
19. Richard Johnson in redcoat uniform



20. Three men in early 17th century dress, possibly Portuguese at the Mughal court



21. Arrival of the Castilian envoy Don Clavijo at the court of Tīmūr



22. Foreign ambassadors at Ottoman palace festivities



23 and 24. Young European gentlemen in Istanbul





25. Frankish woman of Istanbul



5. Englishwoman



27. Frenchwoman



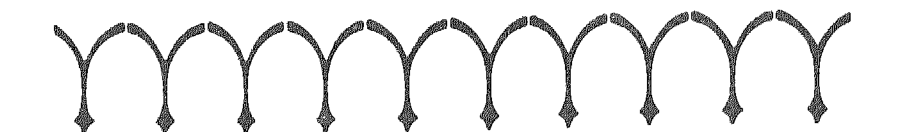
28. Austrian woman



29. Dutch woman



30. American woman



Notes

الفصل الأول

1 Edward Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire,* ed. J.B Bury (London, 1909/1914), vol. 6, chap. 52·16

2 Zuhrī, *Kitāb al-Dju'rāfiya.* Mappemonde du Calife al-Ma'mun réproduite par Fazàri (III/IX s.) rééditée et commentée par Zuhri (VIe/XII s), ed M. Hadj-Sadok in *Bulletin d'études orientales* 21(1968)· 77/230; cf French transl., p. 39

3. Ibn 'Abd al-Ḥakam, *Futūḥ Miṣr wa-akhbāruhā,* ed. C. C. Torrey (New Haven. 1922), pp 216–217.

4. Ibn al-Qalānisī, *Dhayl ta'rīkh Dimashq (History of Damascus 365–555 A H),* ed. H. F Amedroz (Beirut, 1908), p. 134, cf. English transl., H. A. R. Gibb, *The Damascus Chronicles of the Crusades,* (London, 1932), p. 41.

5. Ibn al-Athīr, *al-Kāmil fi'l-ta'rīkh,* ed. C. J. Thornberg (Leiden, 1851-1876), 10:185, year 491.

6. *Ibid.,* 10: 192–193, year 492.

7 E. Ashtor, "The Social Isolation of the *Ahl adh-Dhimma," Pal Hirschler Memorial Book* (Budapest, 1949), pp. 73–94.

8. Abū Shāma, *Kitāb al-Rawḍatayn fī akhbār al-dawlatayn,* 2nd edition, ed. M. Ḥilmī Aḥmad (Cairo, 1962), 1 pt 2: 621–622.

9. Ahmedi in *Osmanli Tarihleri,* ed. N. Atsiz (Istanbul, 1949), p. 7; cf. Paul Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire* (London, 1938), p. 14.
10. Oruç, *Die frühosmanischen Jahrbücher des Urudsch,* ed. F. C. H. Babinger (Hannover, 1925), p. 124; *Oruç Beğ Tarihi,* ed. N. Atsız (Istanbul, 1972), pp. 108–9.
11. English transl., E. J. W. Gibb, *The Capture of Constantinople* (London, 1879) pp. 33–34 (slightly revised); cf. Sa'd al-Din, *Taj al-tavarih* (Istanbul, 1279 A.H.), 1:419ff.
12. Tursun, *The History of Mehmed the Conqueror,* ed. and trans. H. Inalcık and R. Murphy (Minneapolis and Chicago, 1978), fols. 156a–156b.
13. Neşri, *Gihānnümā, die Altosmanische Chronik des Mevlānā Mehemmed Neschrī,* ed. F. Taeschner (Leipzig, 1951), 2:307–8; *Kitab-i Cihan Nüma, Neşri Tarihi,* ed. F.R. Unat and M.A. Köymen (Ankara, 1949), 2: 838–39.
14. R. Knolles, *The generall historie of the Turkes, from the first beginning of that nation to the rising of the Othoman families* (London, 1603), p.1.
15. Eskandar Monshi, *History of Shah Abbas the Great,* trans. R. M. Savory, (Boulder, 1978), 2:1202–3.
16. *Tārīh al-Hind al-Garbi* (Istanbul, 1729), fol. 6bff.
17. On this project, see the article of H. Inalcık, "Osmanlı-Rus rekabetinin menşei ve Don Volga Kanali teşebbüsü (1569)," *Belleten* 46 (1948):349–402; English version, "The Origins of the Ottoman-Russian Rivalry and the Don Volga Canal, 1569," *Annals of the University of Ankara* 1(1946–47):47–107.
18. Ogier Ghiselin de Busbecq, *The Turkish Letters . . . ,* trans. C. T. Forster and F. H. B. Daniell (London, 1881), 1:129–30; cf. *The Turkish Letters . . . ,* trans. W. S. Forster (Oxford, 1927), pp. 40–41.
19. *Sılıhdar tarihi* (Istanbul, 1928), 2:80.
20. *Ibid.,* 2:87; cf. German transl., R. F. Kreutel, *Kara Mustafa vor Wien* (Graz, 1955), pp. 160 and 166.
21. Cited in Ahmet Refik, *Ahmet Refik hayatı seçme şiir ve yazıları,* ed. R. E. Koçu (Istanbul, 1938), p. 101.
22. F. von Kraelitz-Greifenhorst, "Bericht über den Zug des Gross-Botschafters Ibrahim Pascha nach Wien im Jahre 1719," *Akademie der Wiss. Wien: Phil. Hist. Kl. Sitzungsberichte* 158 (1909): 26–77.
23. *Das Asafname des Lutfi Pascha,* ed. and trans. R. Tschudi (Berlin, 1910), p. 34.
24. *Mühimme defteri,* vol. 16, no. 139: "Donanma-i hümayun küffar-i ḫaksar donanması ile mülaki olup iradet Allah nev'-i aḫire müte-'allik oldu . . ." Cf. M. Lesure, *Lepante: la crise de l'empire Ottoman* (Paris, 1972), p. 180.
25. *Tarih-i Peçevi* (Istanbul, 1283 A.H.), 1: 498–99; cf. A. C. Hess, "The

Battle of Lepanto and its Place in Mediterranean History", *Past and Present* 57 (1972):54.
26. Kemalpaşazade, *Histoire de la campagne de Mohacz . . .*, ed. and trans. M. Pavet de Courteille (Paris, 1859), pp. 24–27.
27. Qur'ān, 60.1; cf. Qur'ān 5.51.
28. *Tarih-i Cevdet* (Istanbul, 1301–1309 A.H.) 5:12.
29. Vasif in Cevdet, 4:357–58; cf. French transl., Barbier de Meynard, "Ambassade de l'historien Turc Vaçif-Efendi en Espagne (1787–1788)," *Journal Asiatique* 5 (1862):521–23.
30. V. L. Ménage, "The English Capitulations of 1580: A Review Article," *International Journal of Middle Eastern Studies* 12 (1980):375.
31. Ibrahim Müteferrika, *Uṣūl al-ḥikem fī niẓām al-umem* (Istanbul, 1144 A.H.); *idem*, French version, *Traité de la Tactique* (Vienna, 1769).
32. T. Öz, ed., "Selim III ün Sırkatibi tarafından tutulan Ruzname," *Tarih Vesikaları* 3(May, 1949):184; cf. Cevdet, 6:130; cf. B. Lewis, "The Impact of the French Revolution on Turkey," in *The New Asia: Readings in the History of Mankind*, ed. G.S. Metraux and F. Crouzet (1965), p. 119, n. 37.
33. Cevdet, 6: 118–19; see further B. Lewis, "The Impact of the French Revolution . . . ," p. 57, n. 12.
34. E. Z. Karal, "Yunan Adalarının Fransızlar tarafından işgali," *Tarih Semineri Dergisi*, (1937), p. 113ff; Cevdet, 6:280–81.
35. Cevdet, 6:311; cf. Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (London, 1968), pp. 66–67.
36. Jabartī, *'Ajā'ib al-athār fī al-tarājim wa'l-akhbār* (Būlāq, 1297 A.H.), 3:2–3.
37. Nicola Turk, *Chronique d'Égypte 1798–1804*, ed. and trans. Gaston Wiet (Cairo, 1950), text pp. 2–3; cf. French transl., pp. 3–4. See also George M. Haddad, "The historical work of Niqula el-Turk, 1763–1828," *Journal of the American Oriental Society*, 81(1961), pp. 247–51.
38. *Ibid.*, p. 173; cf. French translation, p. 223.
39. E. Ziya Karal, *Halet Efendinin Paris Büyük Elçiligi 1802–1806* (Istanbul, 1940), pp. 32–34, 35, and 62; cf. B. Lewis, "The Impact of the French Revolution . . . ," p. 54.
40. *Asim Tarihi* (Istanbul, n.d.), 1:374–76; cf. Cevdet, 8:147–48 and Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, p. 72.

الفصل الثانى

1. H. R. Idris, "Commerce maritime et ḳirāḍ en Berberie orientale,' *JESHO*, 14 (1961), pp. 228–29.

2. W. Cantwell Smith, *The Meaning and End of Religion* (New York, 1964), pp. 58ff, 75ff.
3 Qur'ān, 112.
4. *Ibid.*, 16.115.
5. *Ibid.*, 109.
6. See D. Santillana, *Instituzioni di Diritto Musulmano*, 1 (Rome, 1926): 69–71; L. P Harvey, "Crypto-Islam in Sixteenth Century Spain," *Actas del Primer Congreso de Estudios Árabes e Islámicos* (Madrid, 1964), pp. 163–178; al-Wansharīshī, *Asnā al-matājir fī bayān aḥkām man ghalaba ʿala waṭanihi al-naṣārā wa-lam yuhājir*, ed. Ḥusayn Mu'nis, in *Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos en Madrid* 5 (1957): 129–191.
7. Ṣā'id b. Aḥmad al-Andalūsī, *Kitāb Ṭabaqāt al-Umam*, (Cairo, n.d.), p. 11; cf French transl., R. Blachère, *Livre des catégories des nations, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines* 28 (Paris, 1935): 36–37.

الفصل الثالث

1. Rashīd al-Dīn, *Histoire universelle . . . ,* I, *Histoire des Franks*, ed. and trans. K. Jahn (Leiden, 1951), text p. 11; cf. French transl., p. 24; cf. German transl., K. Jahn, *Die Frankengeschichte des Rašīd ad-Dīn* (Vienna, 1977), p. 54.
2. G.S. Colin, "Un petit glossaire hispanique arabo-allemand de début du XVI[e] siècle," *al-Andalus* 11 (1946): 275–81.
3. On the translation movement and its accomplishments, see F. Rosenthal, *The Classical Heritage in Islam* (London, 1975).
4. On the Orosius version, see G. Levi Della Vida, "La traduzione araba delle storie di Orosio," *al-Andalus* 19 (1954): 257–93.
5. Awḥadī, ed. M. Hamidullah, "Embassy of Queen Bertha to Caliph al-Muktafi billah in Baghdad 293/.906," *Journal of the Pakistan Historical Society* 1 (1953): 272–300. See further, G. Levi Della Vida, "La corrispondenza di Berta di Toscano col Califfo Muktafi," *Rivista Storica Italiana* 66 (1954): 21–38; C. Inostrancev, "Notes sur les rapports de Rome et du califat abbaside au commencement du X[e] siècle," *Rivista degli Studi Orientali* 6 (1911–1912): 81–86.
6. Ibn al-Nadīm, *Kitāb al-Fihrist*, ed. G. Flügel (Leipzig, 1871), 1: 15–16; cf. English transl., B. Dodge (New York, 1970), 1: 28–31.
7. Both volumes of Osman Ağa's memoirs were first published in German translation: see R. F. Kreutel and O. Spies, *Leben und Abenteuer des Dolmetschers ʿOsman Ağa* (Bonn, 1954), and R. F. Kreutel, *Zwischen Paschas und Generalen* (Graz, 1966). The Turkish text of one volume has been edited by R. F. Kreutel, *Die Autobiographie des Dolmetschers ʿOsman Ağa aus Temeschwar* (Cambridge, 1980).

8. Ö. L. Barkan, *XV ve XVIinci asırlarda Osmanlı Imparatorluğunda zirai ekonominin hukuki ve mali esasları,* vol. 1, *Kanunlar* (Istanbul, 1943), p. 213.
9. See J. Wansbrough, "A Mamluk Ambassador to Venice in 913/1507," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 26, pt. 3 (1963): 503–30.
10. F. Babinger, "Der Pfortendolmetsch Murad und seine Schriften", in *Literaturdenkmäler aus Ungarns Türkenzeit,* ed. F. Babinger et al. (Berlin and Leipzig, 1927) pp. 33–54.
11. Evliya, *Seyahatname* (Istanbul, 1314 A.H.), 7: 322; cf. German translation, R. F. Kreutel, *Im Reiche des Goldenen Apfels* (Graz, 1957), p. 199.
12. Evliya, 7: 323; cf. Kreutel, p. 200.
13. Evliya, 3: 120–21.
14. Muḥammad b. ʿAbd al-Wahhāb, al-Wazīr al-Ghassānī, *Riḥlat al-wazīr fī iftikāk al-asīr,* ed. Alfredo Bustānī (Tangier, 1940), p. 96; cf. French transl. by H. Sauvaire, *Voyage en Espagne d'un Ambassadeur Marocain* (Paris, 1884), pp. 225–26.
15. Kâtib Çelebi, *Irşad al-hayara ila tarih al-Yunan wa'l-Rum wa'l-Nasara,* manuscript in Türk Tarih Kurumu Library, no. 19 (no pagination). Kâtib Çelebi is also known as Hajji Khalifa, in Turkish orthography Hacı Halife. The ms. is briefly described by V.L. Ménage in "Three Ottoman Treatises on Europe," *Iran and Islam,* ed. C.E. Bosworth (Edinburgh, 1971), pp. 421–23.
16. Arnold of Lübeck, *Chronicon Slavorum,* ed. W. Wattenbach, *Deutschlands Geschichtsquellen* (Stuttgart-Berlin, 1907) bk. vii, chap. 8.
17. A. Bombaci, "Nuovi firmani greci di Maometto II," *Byzantinische Zeitschrift* 47 (1954): 238–319; *idem,* "Il 'Liber Graecus,' un cartolario veneziano comprendente inediti documenti Ottomani in Greco (1481–1504)," *Westöstliche Abhandlungen,* ed. F. Meier, (Wiesbaden, 1954), pp. 288–303. See further Christos G. Patrinelis, "Mehmed II the Conqueror and his presumed knowledge of Greek and Latin," *Viator,* 2 (1971), 349–54.
18. See H. and R. Kahane and A. Tietze, *The Lingua Franca in the Levant* (Urbana, 1958).
19. L. Bonelli, "Elementi italiani nel turco ed elementi turchi nell italiano," *L'Oriente* 1 (1894): 178–96.
20. Şem'danizade, *Şem'dani-zade Fındıklılı Süleyman Efendi tarihi mür'it-tevarih,* ed. M. M. Aktepe (Istanbul, 1978), p. 107. See preface to *Relation de l'ambassade de Méhmet Effendi à la cour de France en 1721 écrite par lui même et traduite du turc par Julién Galland* (Constantinople and Paris, 1757).
21. Cited in C. Issawi, "The Struggle for Linguistic Hegemony," *The American Scholar* (summer, 1981), pp. 382–87.

22. Seid Mustafa, *Diatribe de l'ingénieur sur l'état actuel de l'art militaire, du génie et des sciences à Constantinople* (Scutari, 1803; reprinted by L. Langlès, Paris, 1810), pp. 16–17. According to Langlès, Seid Mustafa was a graduate and later a teacher of engineering. Hammer-Purgstall, however, says that "Seid Mustafa" was a fiction and that the tract was written at the request of the Reis Efendi by the Greek dragoman Yakovaki Argyropoulo. On Y. Argyropoulo, a key figure in the early translation movement, see "Jacques Argyropoulos," *Magasin Pittoresque* (1865), pp. 127–28.
23. Şanizade, *Tarih* (Istanbul, 1290–1291 A.H.), 4: 33–35; cf. Cevdet, 11: 43 and [J. E. de Kay] *Sketches of Turkey in 1831 and 1832* (New York, 1833).
24. B. Lewis, *The Emergence of Modern Turkey,* pp. 88–89.
25. S. Ünver, *Tanzimat,* 1, Turkish Ministry of Education (Istanbul, 1940), pp. 940–41.

الفصل الرابع

1. For contrasting views on the significance of the Hellenistic element in Islamic civilization and of the resulting affinities with Christendom, see C.H. Becker, *Islamstudien,* vol. 1 (Leipzig, 1924), especially chapters 1, 2, 3, and 14; and also Jörg Kraemer, *Das Problem der Islamischen Kulturgeschichte* (Tübingen, 1959).
2. Ibn al-Faqīh, cited in Yāqūt, *Muʿjam al-buldān,* s.v. "Rūmiya."
3. Part of his account is preserved and quoted in Ibn Rusteh, *Kitāb al-Aʿlāq al-nafīsa,* ed. M. J. De Goeje (Leiden, 1892), pp. 119–130. See further, *Encyclopedia of Islam,* 2nd ed., s.v. 'Hārūn b. Yaḥyā' (M. Izzedin). The *Encyclopedia of Islam* will hereafter be cited as EI1. or EI2. .
4. The Kadi's memoirs were published by I. Parmaksızoğlu, "Bir Türk kadısının esaret hatıraları," *Tarih Dergisi* 5 (1953): 77–84.
5. On Osman Ağa, see above Chap. 3, n. 7. On other prisoners, see O. Spies, "Schicksale Türkischer Kriegsgefangener in Deutschland nach den Türkenkrieg", *Festschrift Werner Caskel,* ed. E. Graf (Leiden, 1968), pp. 316–35.
6. Usāma, *Kitāb al-Iʿtibār,* ed. P.K. Hitti (Princeton, 1930), p. 132; cf. English transl., P.K. Hitti, *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades* (New York, 1929), p. 161.
7. On this story, see V. Barthold, "Karl Veliki i Harun ar-Rashid," *Sočineniya* 6 (Moscow, 1966): 342–64; Arabic transl. in V. V. Barthold, *Dirāsāt fī ta'rīkh Filasṭīn fi'l-ʿuṣūr al-wusṭā,* trans. A. Haddād

(Baghdad, 1973): 53–103. Also see S. Runciman, "Charlemagne and Palestine," *English Historical Review* 50 (1935): 606–19.

8. See above, chap. 3, n. 5.
9. Arabic text, R. Dozy, ed., *Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen âge,* 3rd ed. (Paris-Leiden, 1881), 2: 81–88; reprinted by A. Seippel, *Rerum Normannicarum Fontes Arabici* (Oslo, 1946), pp. 13–20. Cf. German translation, G. Jacob, *Arabische Berichte von Gesandten an germanische Fürstenhöfe aus dem 9. und 10. Jahrhundert* (Berlin-Leipzig, 1927), pp. 38–39; French transl. in R. Dozy, *Recherches,* 3rd ed., 2: 269–78. For discussions, see W. E. D. Allen, *The Poet and the Spae-Wife* (Dublin, 1960), and E. Lévi-Provençal, "Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IX[e] siècle", *Byzantion* 12 (1937):1–24, who dismisses the story as a literary fabrication based on a genuine embassy to Constantinople. See further, EI2. , s.v. "Ghazāl" (A. Huici Miranda). Also see A. A. el-Hajji, "The Andalusian Diplomatic Relations with the Vikings during the Umayyad Period," *Hesperis Tamuda,* 8 (1967): 67–110.
10. The surviving fragments of Ibrāhīm ibn Yaʿqūb's travels have formed the subject of an extensive literature. Both texts, the ʿUdhrī version as preserved by Qazvīnī and the Bakrī passages are available in print: Qazvīnī, in the *editio princeps* by F. Wüstenfeld, *Zakarija ben Muhammed ben Mahmud al-Cazwini's Kosmographie,* II, *Kitāb Athār al-bilād. Die Denkmäler der Länder* (Göttingen, 1848); the Bakrī excerpt was first edited by A. Kunik and V. Rosen, *Izvestiya al-Bekri i drugikh' autorov' o Rusi i Slavyanakh* (St. Petersburg, 1878–1903), reprinted with a critical commentary by T. Kowalski, *Relatio Ibrāhīm Ibn Jaʿkūb de itinere slavico,* in *Monumenta Poloniae Historica* 1 (Cracow, 1946): 139ff., and now conveniently accessible in an edition of Bakrī's book by A.A. el-Hajjī, ed., *Jughrāfiya al-Andalus wa-Urūba* (Beirut, 1968). Translations include G. Jacob in *Arabische Berichte . . . ,* pp. 11–33; and most recently, A. Miquel, "L'Europe occidentale dans la relation arabe de Ibrāhīm b. Yaʿqūb", *Annales ESC* 21(1966): 1048–1064. Other studies include, B. Spuler, "Ibrāhīm ibn Jaʿqūb Orientalistiche Bemerkungen," *Jahrbücher fur Geschichte Osteuropas,* 3 (1938): 1–10; E. Ashtor, *The Jews of Moslem Spain,* vol. 1 (Philadelphia, 1973), pp. 344–49; A.A. el-Hajji, "Ibrāhīm ibn Yaʿqūb at-Tartūshī and his diplomatic activity," *The Islamic Quarterly* 14 (1970): 22–40. See further EI2. , s.v. "Ibrāhīm b. Yaʿqūb," (A. Miquel).
11. G. Jacob, *Arabische Berichte,* p. 31, n. 1: "Es ist charakteristisch, das der arabische Diplomat den Kaiser als Gewährsmann nicht nennt, wahrend der jüdische Handelsmann sich mit dieser Beziehung brüstet."

12. Mentioned in the biography of John of Gorze, see R. W. Southern, *The Making of the Middle Ages* (London, 1953), p. 36ff.
13. Ibn Wāṣil, *Mufarrij al-kurūb fī akhbār banī Ayyūb,* ed. H. M. Rabie (Cairo, 1979), 4: 248.
14. Ibn Khaldūn, *Al-Taʿrīf bi-ibn Khaldūn wa-riḥlatuh gharban wa-sharqan,* ed. Muḥammad ibn Ta'wīt al-Tanjī (Cairo 1951), pp. 84–85; cf. French transl. by A. Cheddadi, *Le Voyage d'Occident en Orient* (Paris, 1980), pp. 91–92.
15. Usāma, pp. 140–141; cf. Hitti, pp. 169–76.
16. *Abū Ḥāmid al Granadino y su relación de viaje por tierras eurasiáticas,* ed. and trans. C.E. Dubler (Madrid, 1953). See further, I. Hrbek, "Ein arabischer Bericht über Ungarn", *Acta Orientalia* 5 (1955): 205–30.
17. Ibn Jubayr, *Riḥla (The Travels of Ibn Jubayr)* ed. W. Wright (Leiden, 1907), p. 303; cf. English transl. R. C. J. Broadhurst, *The Travels of Ibn Jubayr,* (London, 1953), p. 318.
18. Ibn Jubayr, pp. 305–6; cf. Broadhurst, p. 321.
19. *Ibid.,* p. 301; cf. Broadhurst, pp. 316–17. The concluding quotation is from Qur'ān, 7.154.
20. Ibn Shāhīn al-Ẓāhirī, *Zubdat kashf al-mamālik,* ed. P. Ravaisse (Paris, 1894) p. 41; cf. French translation, J. Gaulmier, *La zubda kachf al-mamālik* (Beirut, 1950), p. 60. Cf. M. A. Alarcón and R. Garcia, *Los documentos árabes diplomáticos del Archivo de la corona de Aragón* (Madrid and Granada, 1940).
21. See P. Pelliot, "Les Mongols et la Papauté" *Revue de l'Orient Chrétien* 3rd ser., 23 (1922–23): 3–30, 24 (1924): 225–335, and 28 (1931); V. Minorsky, "The Middle East in Western Politics in the thirteenth, fifteenth, and seventeenth Centuries," *Royal Central Asian Society Journal* 4 (1940): 427–61; J. A. Boyle, "The Il-Khans of Persia and the Princes of Europe," *Central Asian Journal* 20(1976): 28–40; D. Sinor, "Les Relations entre les Mongols et l'Europe jusqu'à la Mort d'Arghoun et de Bela IV," *Cahiers d'Histoire Mondiale* 3 (1956): 37–92.
22. ʿUmarī, *al-Taʿrīf bil-muṣtalaḥt al-sharīf* (Cairo, 1312 A.H.).
23. Qalqashandī, *Ṣubḥ al-aʿshā fī ṣināʿat al-inshā'* (Cairo, 1913ff), 8:25ff; cf. M. Amari, "Dei titoli che usava la cancelleria di Egitto," *Mem. del. R. Acc. Linc.* (1883–84): 507–34; H. Lammens, "Correspondence diplomatiques entre les ṣultans mamlouks d'Égypte et les puissances chrétiennes," *Revue de l'Orient Chrétien* 9(1904); 151–87 and 10 (1905): 359–92.
24. Qalqashandī, 7: 42ff.
25. Juvaynī, *Ta'rīkh-i jihān gushā,* ed. M. M. Qazvīnī, vol. 1 (London, 1912), pp. 38–39. Cf. English transl., J. A. Boyle, *The History of the World Conqueror,* (Manchester, 1958), 1:53.

26. Nicholas de Nicolay, *Les navigations . . .* (Antwerp, 1576), p. 246.
27. B. Lewis, *Notes and Documents from the Turkish Archives* (Jerusalem, 1952), pp. 32 and 34.
28. A. Arce, "Espionaje y última aventura de Jose Nasi (1569–1574)" *Sefarad* 13 (1953): 257–86.
29. C.D. Rouillard, *The Turk in French History, Thought, and Literature 1520–1660* (Paris, 1938), pt. 1, chap. 2.
30. M. Herbette, *Une Ambassade Persane sous Louis XIV* (Paris, 1907).
31. A. A. De Groot, *The Ottoman Empire and the Dutch Republic: A History of the Earliest Diplomatic Relations 1610–1670* (Leiden, 1978), pp. 125–29.
32. On the reports of Ottoman embassies to Europe and elsewhere, see F. Babinger, *Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke* (Leipzig, 1927), pp. 322–37, hereafter cited as *GOW;* and for a much fuller account, F. R. Unat, *Osmanli Sefirleri ve Sefaretnameleri* (Ankara, 1968). A few of these texts have been translated (see Babinger, *loc. cit.*); the best and most recent are the annotated German versions published by R. F. Kreutel in his series, *Osmanische Geschichtsschreiber* (Graz, 1955ff). On European diplomacy in Istanbul, see B. Spuler, "Die europäische Diplomatie in Konstantinopel bis zum Frieden von Belgrad (1739)," *Jahrbücher für Kultur und Geschichte der Slaven,* 11 (1935), 53–115: 171–222, 313–366; idem, "Europäische Diplomaten in Konstantinopel bis zum Frieden von Belgrad (1739)," *Jahrbücher fur Geschichte Osteuropas* 1 (1936): 229–62, 383–440.
33. See Babinger, *GOW,* p. 325.
34. See K. Teply, "Evliyā Çelebī in Wien," *Der Islam* 52 (1975): 125–31.
35. Evliya, 7: 398–99; cf. Kreutel, p. 160–61.
36. There are several editions of the embassy report of Mehmed Said with some variations in the text. The book was first published in Paris and Istanbul with a French translation as *Relation de l'embassade de Méhmet Effendi à la cour de France en 1721 écrite par lui même et traduit par Julién Galland* (Constantinople and Paris, 1757). I have used the Turkish edition of Ebuzziya, ed., *Paris Sefaretnamesi* (Istanbul, 1306). When this book was already in proof a new edition of Galland's version appeared—Mehmed Efendi, *Le paradis des infidèles,* ed. Gilles Veinstein, (Paris, 1981).
37. Mehmed Said, p. 345; cf. French transl., pp. 34ff.
38. *Ibid.,* p. 43; cf. French transl., p. 49.
39. *Ibid.,* p. 64; cf. French transl., pp. 62–63.
40. Duc de St. Simon, cited in N. Berkes, *The Development of Secularism in Turkey* (Montreal, 1964), p. 35. For a brief but illuminating appreciation of Mehmed Said and his role see A. H. Tanpınar, *XIX Asır Türk edebiyatı tarihi,* vol. 1 (Istanbul, 1956), pp. 9ff.

41. Resmi, *Viyana Sefaretnamesi* (Istanbul, 1304), p. 33.
42. Azmi, *Sefaretname 1205 senesinde Prusya Kıralı Ikinci Fredrik Guillaum'in nezdine memur olan Ahmed Azmi Efendinin'dir* (Istanbul, 1303 A.H.), p. 52; Resmi, *Berlin Sefaretnamesi* (Istanbul, 1303), p. 47.
43. Vasif's report is printed in Cevdet, 4: 348–58.
44. Vasif in Cevdet, 4: 349–50.
45. On Ratib, see Cevdet, 5: 232ff; F. R. Unat, *Osmanlı Sefirleri,* pp. 154–62; C. V. Findley, *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: The Sublime Porte, 1789–1922* (Princeton, 1980), pp. 118 and 372; S. J. Shaw, *Between Old and New, The Ottoman Empire Under Sultan Selim III* (Cambridge, Mass., 1971), pp. 95–98.
46. On Moroccan ambassadors and other Muslim travelers to Spain, see H. Pérès, *L'Espagne vue par les Voyaguers Musulmans de 1610 a 1930* (Paris, 1937).
47. See above chapter 3, note 14.
48. S.C. Chew, *The Crescent and the Rose* (Oxford, 1937), pp. 327–33.
49. M. Herbette, *Une Ambassade Persane,* passim.
50. On Shirāzī, see C. A. Storey, *Persian Literature,* vol. 1, pt. 2 (London, 1953) pp. 1067–8.
51. Parts of this narrative were translated from a manuscript by A. Bausani, "Un manoscritto Persiano inedito sulla Ambasceria di Ḥusein Ḫān Moqaddam Āǧūdānbāšī in Europa negli anni 1254–1255 H. (1838–39 A.D.)," *Oriente Moderno* 33 (1953). The original was published in Iran but from a different manuscript, *Sharḥ-i ma'mūriyat-i Ājūdān bāshī (Ḥusayn Khān Niẓām ad-Dawla) dar Safārat-i Otrīsh, Farānsa, Inglistān* (Tehran (?), 1347 S.).
52. A. Bausani, "Un manoscritto Persiano . . . ," p. 488. This paragraph is missing from the Tehran edition.
53. Ilyās b. Ḥannā, *Le plus ancien voyage d'un Oriental en Amerique (1668–1683),* ed. A. Rabbath, S. J. (Beirut, 1906). This edition first appeared in the Beirut review *al-Mashriq,* nos. 18 (Sept. 1905) through 23 (Dec. 1905) as "Premier voyage d'un oriental en Amerique."
54. Azulay, *Ma'gal ṭōḇ ha-shalem,* ed. A. Freimann (Jerusalem, 1934); English transl. in E. Adler, *Jewish Travellers,* pp. 345–68.
55. P. Preto, *Venezia e i Turchi* (Padua, 1975), p. 128 citing P. Paruta, *Historia della gūerra di Cipro* (Venice, 1615), p. 35. On the Turkish colony in Venice, see also A. Sagrado and F. Berchet, *Il Fondacho dei Turchi in Venezia* (Milan, 1860), pp. 23–28 and G. Verecellin, "Mercanti Turchi a Venezia alla fine del cinquecento," *Il Veltro: Rivista della Civilta Italiana,* 23, nos. 2–4 (Mar.–Aug., 1979): 243–75. On the role of Venice as intermediary between Turkey and Europe, see W. H. McNeill, *Venice, the Hinge of Europe 1081–1797,* (Chicago, 1974).
56. Preto, p. 129.

57. *Ibid.*, p. 132.
58. *Ibid.*, p. 139.
59. Sir Joshua Hassan, *The Treaty of Utrecht and the Jews of Gibraltar* (London, 1970).
60. For an early example, see F. Babinger, " 'Bajezid Osman' (Calixtus Ottomanus), ein Vorläufer und Gegenspieler Dschem-Sultans," *La Nouvelle Clio* 3(1951): 349–88.
61. There is a considerable literature on Jem and his adventures in Europe, notably L. Thuasne, *Djem-Sultan: Étude sur la question d'Orient a la fin du XVᵉ siècle* (Paris, 1892); and I.H. Ertaylan, *Sultan Cem* (Istanbul, 1951). The Turkish memoirs were published under the title, *Vakiat-i Sultan Cem* (Istanbul, 1330 A.H.). See further, *EI2.* , s.v. "Djem," (H. Inalcık). For a collection of letters addressed to the sultan on this subject, see J. Lefort, *Documents grecs dans les Archives de Topkapı Sarayı, Contribution à l'histoire de Cem Sultan* (Ankara, 1981).
62. *Vakiat*, pp. 10–11.
63. Şerafettin Turan, "Barak Reis'in, Şehzade Cem mes'elesiyle ilgili olarak Savoie 'ya gönderilmesi," *Belleten* 26, no. 103 (1962): 539–55; V.L. Ménage, "The Mission of an Ottoman Secret Agent in France in 1486," *Journal of the Royal Asiatic Society* (1965): 112–32.
64. S. Skilliter, "The Sultan's Messenger, Gabriel Defrens: An Ottoman Master-Spy of the Sixteenth Century," *Weiner Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes*, ed. A. Tietze, vol. 68 (Vienna, 1976), pp. 47–59.
65. ʿUmarī, ed. M. Amari, "Al-ʿUmarī, Condizioni degli stati Cristiani dell' Occidente secondo una relazione di Domenichino Doria da Genova", *Atti R. Acad Linc. Mem.*, 11(1883): text p. 15, trans. p. 87. Hereafter cited as ʿUmarī (Amari).
66. Mehmed Said, p. 25; French transl., pp. 34–35.
67. Vasif, in Cevdet, 4: 349.
68. Azmi, p. 12.
69. A.W. Kinglake, *Eothen* (London, n.d.), pp. 9–11.
70. Iʿtiṣām al-Dīn, see C. A. Storey, *Persian Literature*, vol. 1, pt. 2, p. 1142. Cf. English transl., J. E. Alexander, *Mirza Itesa Modeen* (London, 1827).
71. *Masīr-i Ṭālibī ya Sefarnāma-i Mīrzā Abū Ṭālib Khān*, ed. H. Khadīv-Jam (Tehran, 1974); cf. English trans., C. Stewart, *Travels of Mirza Abu Talib Khan . . .* (London, 1814). Also see Storey, *Persian Literature*, 1, pt. 2, pp. 878–79.
72. Seyyid Ali's report was published by Ahmed Refik in *Tarih-i Osmani Encümeni Mecmuası*, 4(1329/1911) 1246ff, 1332ff, 1378ff, 1458ff, 1548ff. See further M. Herbette, *Une ambassade Turque sous le Directoire*, Paris, 1902.

73. On Ali Aziz, see A. Tietze, "'ʿAzīz Efendis Muhayyelat," *Oriens* 1 (1948): 248–329; E. Kuran, "Osmanlı daimi elçisi Ali Aziz Efendi'nin Alman şarkiyatçısı Friedrich von Diez ile Berlin'de ilmi ve felsefi muhaberatı (1797)" *Belleten* 27 (1963): 45–58; and *EI2.*, s.v. "ʿAlī ʿAzīz" (A. Tietze).
74. On these embassies, see T. Naff "Reform and the conduct of Ottoman Diplomacy in the Reign of Selim III, 1789–1807," *Journal of the American Oriental Society* 83 (1963): 295–315; E. Kuran, *Avrupa'da Osmanlı Ikamet Elçiliklerinin Kuruluş ve Ilk Elçilerin Siyasi Faaliyetleri 1793–1821* (Ankara, 1968); S. J. Shaw, *Between Old and New* pp. 180ff.
75. On Mehmed Raif see S. J. Shaw, *Between Old and New*, index.
76. On the Egyptian student missions, see J. Heyworth-Dunne, *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt* (London, 1938), pp. 104ff, 221ff, and *passim*.

    There is an extensive literature on Sheikh Rifāʿa in Arabic and in Western languages. See *EI1.*, s.v. 'Rifāʿa Bey' (Chemoul); further, J. Heyworth-Dunne, "Rifāʿah Badawī Rāfiʿ aṭ-Ṭahtāwī: The Egyptian Revivalist", *BSOAS* 9 (1937–39): 961–67, 10 (1940–42): 399–415. The fullest treatment is that of Gilbert Delanoue, *Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte du XIXéme siècle (1798–1882)* (Service de reproduction des theses, Lille, 1980), 1, chap. 5. Sheikh Rifāʿa's travels in France, entitled *Takhlīṣ al-ibrīz fī talkhīṣ Barīz* (usually known as *al-Rihla*) has been printed a number of times. References are to the (Cairo, 1958) edition.
77. Published in I. Raʿīn, *Safarname-i Mīrzā Ṣāliḥ Shīrāzī*, (Tehran, 1347s). See further Storey, *Persian Literature*, I, pt 2, pp. 1148–50, and Hafez Farman Farmayan, "The Forces of modernization in nineteenth century Iran: a historical survey," in W. R. Polk and R. L. Chambers (editors), *Beginnings of Modernization in the Middle East* (Chicago 1968), pp. 122ff.

الفصل الخامس

1. *Irṣad.* See above chapter 3, n. 15.
2. See C.A. Nallino, "al-Khuwarizmi e il suo rifacimento della Geografia di Tolomeo" in *Raccolta di Scritti*, vol. 5 (Rome, 1944), pp. 458–532; D. M. Dunlop, "Muḥammad b. Mūsā al-Khwārizmī," *Journal of the Royal Asiatic Society* (1943): 248–50; and R. Wieber, *Nordwesteuropa nach der arabischen Bearbeitung der Ptolemäischen Geographie von Muḥammad b. Mūsā al-Ḫwārizmī* (Walldorf-Hessen, 1974).

3. The Muslim geographical literature of the Middle Ages is examined in two major works, one by A. Miquel, *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle,* 3 vols. (Paris, 1967–80), especially vol. 2, *Géographie arabe et représentation du monde: la terre et l'étranger,* chapters 6 and 7 on eastern and western Europe; the other by I.J. Kračkovsky, *Istoriya Arabskoy Geografičeskoy Literatury, Izbranniye Sočineniya,* vol. 5 (Moscow-Leningrad, 1957), Arabic transl. by S.U. Hāshim, *Ta'rīkh al-adab al-djughrāfī al-'arabī* (Cairo, 1963). For a briefer survey, see *EI*2. , s.v. "Djughrāfiya," (S. Maqbul Aḥmad). On medieval Muslim geographers' knowledge of Europe, see I. Guidi, "L'Europa occidentale negli antichi geografi arabi," *Florilegium M. de Vogüe* (1909): 263–69; E. Ashtor, "Che cosa sapevano i geografi Arabi dell'Europa occidentale?," *Rivista Storica Italiana* 81 (1969): 453–79; K. Jahn, "Das Christliche Abendland in der islamischen Geschichtsschreibung des Mittelalters," *Anzeiger der phil.-hist. Klasse der Österreichischen Akademie der Wissenschaften* 113 (1976): 1–19; Y.Q. al-Khūrī, "al-Jughrāfiyūn al-ʿArab wa-Urūba", *al-Abḥāth* 20 (1967): 357–92.
4. Ibn Khurradādhbeh, *Kitāb al-masālik wa'l-mamālik,* ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1889), p. 155.
5. *Ibid.*, pp. 92–93.
6. *Ibid.*, p. 153. For an important recent study see M. Gil, "The Rādhānite Merchants and the Land of Rādhān," JESHO 18 (1974): 299–328.
7. Ibn al-Faqīh, *Mukhtaṣar Kitāb al-Buldān,* ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1885); cf. French transl., H. Massé, *Abrégé des Livre des Pays,* (Damascus, 1973) p. 8.
8. Ibn Rusteh, *Kitāb al-aʿlāq al-nafīsa,* ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1892), p. 85; cf. French transl., G. Wiet, *Les Atours Precieux* (Cairo, 1958), p. 94.
9. Masʿūdī, *Kitāb al-tanbīh wa'l-ishrāf* (Beirut, 1965), pp. 23–24; cf. French transl., Carra de Vaux, *Macoudi, le livre de l'avertissement et de la révision* (Paris, 1897), pp. 38–39.
10. Masʿūdī, *Murūj al-dhahab,* ed. and transl. F. Barbier de Meynard and Pavet du Courteille (Paris, 1861–77) 3: 66–67; *ibid.*, 2nd ed., C. Pellat (Beirut, 1966–70) 2:145–46; cf. revised French transl., C. Pellat (Paris, 1962–71) 2:342.
11. On Arabic accounts of the Vikings, see A. Melvinger, *Les premières incursions des Vikings en Occident d'après les sources arabes* (Uppsala, 1955); A. A. el-Hajji, "The Andalusian diplomatic relations with the Vikings . . ." The sources were collected by A. Seippel, *Rerum Normannicarum,* and translated into Norwegian by H. Birkeland, *Nordens Historie i Middelalderen etter Arabiske Kilder* (Oslo, 1954).

12. See *EI2.* , s.v. *"Asfar,"* (I. Goldziher) and *idem, Muslim Studies,* vol. 1, transl. C.R. Barber and S.M. Stern (London, 1967), pp. 268–69.
13. Masʿūdī, *Murūj,* ed. Barbier de Meynard, 3: 69–72; C. Pellat ed., 2: 147–48; cf. Pellat transl. 2: 344–45. For an English translation and discussion, see B. Lewis, "Masʿūdī on the Kings of the 'Franks,'" *Al-Masʿūdī Millenary Commemoration Volume* (Aligarh, 1960), pp. 7–10.
14. Ibn Rusteh, p. 130; cf. Wiet transl., p. 146.
15. Yāqūt, s.v. "Rūmiya." On the Arabic accounts of Rome, see I. Guidi, "La descrizione di Roma nei geografi arabi," *Archivio della Società Romana di Storia Patria* 1 (1877): 173–218.
16. *Ibid.*
17. Qazvīnī, pp. 388–89; cf. Jacob, pp. 26–27; cf. Miquel, pp. 1057–58.
18. A. Kunik and V. Rosen, *Izvestiya al-Bekri,* pp. 34–35; T. Kowalski, *Relatio Ibrāhīm ibn Jaʿkūb,* pp. 2–3; Bakri, *Jughrāfiya,* ed. A. A. el-Hajji, pp. 160–63; G. Jacob, *Arabische Berichte,* pp. 12–13.
19. Qazvīnī, pp. 334–35; cf. Jacob, pp. 31–32; cf. Miquel, pp. 1052–53.
20. Zuhrī, pp. 229–30/77–78; cf. French transl., p. 93.
21. Idrīsī, *Opus Geographicum,* ed. A. Bombaci *et.al.,* fasc. 8 (Naples, 1978), p. 944; cf. A. F. L. Beeston, "Idrisi's Account of the British Isles," *BSOAS* 13 (1950): 267.
22. Idrīsī, *Opus,* fasc. 8, p. 946.
23. *Ibid.,* pp. 947–48.
24. Ibn Saʿīd, *Kitāb Basṭ al-arḍ fi'l-ṭūl wa'l-ʿarḍ,* ed. J.V. Gines (Tetuan, 1958), p. 134. Cf. Abū'l-Fida, *Taqwīm al-buldān,* ed. J.S. Reinaud and M. de Slane (Paris, 1840), p. 187; and Seippel, *Rerum Normannicarum,* p. 23.
25. Ibn Khaldūn, *al-Muqaddima,* ed. Quatremère (Paris, 1858) 3:93; cf. French transl., M. de Slane, *Les Prolégomènes* (Paris, 1863–68) 3:129; cf. English transl., F. Rosenthal, *The Muqaddima* (New York-London, 1958) 3:117–18.
26. Ibn Khaldūn, *Kitāb al-ʿIbar* 6 (Cairo, 1867): 290–91.
27. See K. Jahn's partial edition with French translation of Rashīd al-Dīn's section on Europe, *Histoire universelle de Rašīd ad-Dīn,* and his later German translation, *Die Frankengeschichte . . .* See further, K. Jahn, "Die Erweiterung unseres Geschichtbildes durch Rašīd al-Dīn," *Anzeiger der phil.-hist. Klasse der Österreichischen Akad. der Wiss.* (1970): 139–49 and J. A. Boyle, "Rashīd al-Dīn and the Franks," *Central Asian Journal* 14 (1970): 62–67.
28. Rashīd al-Dīn, *Histoire,* pp. 5–18; Frankengeschichte, p. 49.
29. On Piri Reis and his map, see P. Kahle, *Die verschollene Columbus-Karte von Amerika vom Jahre 1498 in einer türkischen Weltkarte von 1513* (Berlin-Leipzig, 1932); R. Almagia, "Il mappamondo di Piri Reis la carte di

Colombo del 1498," *Societa Geografica Italiana, Bolletino* 17 (1934): 442–49; E. Braunlich, "Zwei türkische Weltkarte aus dem Zeitalter der grossen Entdeckungen," *Berichte . . . Verhandl. Sachs. Ak. Wiss. Leipzig, Phil. Hist. Kl.* 89, pt. 1 (1939); Afetinan, *Piri Reis'in Amerika haritası 1513–1528* (Ankara, 1954). On Ottoman geographical literature in general, see *EI2.* , s.v. *"Djughrāfiyā,"* vi, the article by F. Taeschner; *idem,* "Die geographische Literatur der Osmanen," *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft,* 77 (1923): 31–80; A. Adnan-Adivar, *La science chez les Turcs Ottomans* (Paris, 1939); *idem, Osmanlı Turklerinde Ilim* (Istanbul, 1943)—a fuller Turkish version of *La science.*

30. *Tarih al-Hind al-Garbi.*
31. Adnan-Adivar, *Ilim,* p. 73, citing d'Avezac, "Mappemonde Turque de 1559," *Acad. Inscr. et Belles Lettres* (Paris, 1865).
32. Kâtib Çelebi, *Mīzān al-ḥaqq fī ikhtiyār al-aḥaqq* (Istanbul, 1268 A.H.), p. 136; cf. English translation, G. L. Lewis, *The Balance of Truth* (London, 1957), p. 136.
33. Adnan-Adivar, *Science,* p. 121; *Ilim,* p. 134.
34. *Ibid.,* p. 122; *Ilim,* p. 135.
35. *Ibid.,* p. 135; *Ilim,* p. 153.
36. Vasif, *Tarih,* 2: 70; cited in J. von Hammer, *Geschichte des Osmanischen Reiches,* 2nd. ed. (Pest, 1834–36) 4: 602 and *idem,* French transl. by J. J. Hellert, *Histoire de l'Empire Ottoman* (Paris, 1835ff) 16: 248–49.
37. Hammer, *Histoire,* 16: 249 note.
38. Âli, *Künh al-ahbar* (Istanbul, 1869) 5: 9–14; *idem, Meva'iddü'n-Nefa'is fi kava'idi'l-mecalis* (Istanbul, 1956) facs. 152-53.
39. Evliya, 7: 224–25; cf. Kreutel, p 39.
40. Oruç, ed. Babinger, p. 67. On Mehmed's alleged interest in Western scholarship, see F. Babinger, *Mehmed the Conqueror and His Time,* transl. R. Mannheim (Princeton, 1978), pp. 494ff.
41. On these works, see B. Lewis, "The Use by Muslim Historians of Non-Muslim Sources" in *Islam in History* (London, 1973), pp. 101–14.
42. V. L. Ménage, "Three Ottoman Treatises . ." p. 423.
43. On Huseyn Hezārfenn, see H. Wurm, *Der osmanische Historiker Ḥüseyn b. Ǧaʿfer, genannt Hezārfenn . . .* (Freiburg im Breisgau, 1971), esp. pp 122–49. The mss. of the *Tenkih* are listed in Babinger *GOW,* pp. 229–30. The ms. used here is in the Hunterian Museum in Glasgow (cf. JRAS, 1906, pp. 602ff).
44. Müneccimbaşı, *Saha'if al-ahbar* (Istanbul, 1285/1868–69) 2: 652.
45. Oruç, Kreutel transl., p. 95, (from ms.; the Turkish original of this section of Oruç's book is still unpublished).
46. Firdevsi-i Rumi, *Kutb-Name,* eds. I. Olgun and I. Parmaksızoğlu (Ankara, 1980), p. 74.

47. *Ibid.,* p. 93.
48. Selaniki, ms. Nurmosmaniye 184, cited by A. Refik, *Türkler ve Kraliçe Elizabet* (Istanbul, 1932), p. 9.
49. Kâtib Çelebi, *Fezleke* (Istanbul, 1276 A.H.), 2: 234, cf. Naima, *Tarih* (Istanbul, n.d.), 4: 94.
50. *Fezleke,* 2: 134–35; cf. Naima, 3: 69–70.
51. *Ibid.,* 1: 331–33; cf. Naima 2:80–82.
52. *Ibid.,* 2: 382; cf. Naima 5: 267.
53. Peçevi, 1:106.
54. B. Lewis, "The Use by Muslim Historians. . . ." pp. 107–8, p. 314, n. 20, citing F. V. Kraelitz, "Der osmanische Historiker Ibrāhīm Pečewi" *Der Islam* 7 (1918):252–60.
55. Peçevi, 1:184 (on expedition in 1552); *idem,* 1:255 (Morisco rising in 1568–70); *idem,* 1:343–48 (expedition against Spain); *idem,* 1:485 (the Moriscos); *idem,* 1:106–8 (on gunpowder and printing).
56. Naima, 1:40ff.
57. *Ibid.,* 1:12.
58. Sılıhdar, *Nusretname,* fols. 257–58. I owe this reference to Dr. C. J. Heywood.
59. Şem'danizade, 3:21–22.
60. *Ibid.,* 1:42–43.
61. *Icmal-i ahval-i Avrupa.* Süleymaniye Library, Esat Efendi Kısmı, no. 2062. See V. L. Ménage, "Three Ottoman Treatises. . . ." pp. 425ff.
62. V. L. Ménage, "Three Ottoman Treatises. . . ." p. 428.
63. For details, see B. Lewis, *Islam in History,* p. 314 n. 26.

الفصل السادس

1. F. Kraelitz, "Bericht über den Zug . . . ," p. 17.
2. Thus, the Tatar may be rhymed as *ṣabā-raftâr aduw-shikâr,* "moving like the east wind, hunting the enemy," or simply as *bad-raftâr,* "of bad demeanour."
3. E. Prokosch, *Molla und Diplomat* (Graz, 1972), p. 19, translated from an unpublished Turkish manuscript.
4. *Irşad.* See above chapt. 3, n. 15.
5. R. Kreutel, *Kara Mustafa vor Wien* (Graz, 1955), pp. 140–41, translated from an unpublished Turkish manuscript.
6. Evliya, 6:224–25; cf. Kreutel, p. 39.
7. A. Hess, "The Moriscos: An Ottoman Fifth Column in Sixteenth Century Spain," *American Historical Review* 74 (1968):19, citing Feridun, *Münşa'at al-salatin,* 2nd ed., (Istanbul, 1275 A.H.), 2:542; Feri-

dun, *Münşa'āt,* 1st ed. (Istanbul, 1265), 2:458. On Moriscos, see also above p. 180.

8. S. Skilliter, *William Harborne and the Trade with Turkey 1578–1582: A Documentary Study of the First Anglo-Ottoman Relations* (Oxford, 1977), p. 37, citing Feridun, *Münşa'at,* 2nd ed., 2:543; Feridun, *Münşa'āt,* 1st ed., 2:450.
9. Yāqūt, s.v. "Rūmiya."
10. N. V. Khanikov reads this as a reference to the anti-Pope, Cardinal Peter, who had adopted the style of Anacletus II; see Khanikov in *Journal Asiatique* 4(1864):152 and text p. 161 of commentary.
11. Ibn Wāṣil, 4:249.
12. Qalqashandī, 8:42ff. The odd title "protector of bridges" may be an echo of *Pontifex Maximus.*
13. *Irşād,* see above, chap. 3, n. 15.
14. Ghassānī, pp. 52ff, 67ff; cf. Sauvaire, pp. 152ff, 162ff. The editor of the Arabic text omits some of the anti-Christian comments.
15. Ibn Wāṣil, 4: 248–49.
16. Ghazzāl, p. 24; cf. H. Pérès, *L'Espagne revue par les voyageurs Musulmans de 1610 à 1930* (Paris, 1937), pp. 29–30.
17. Azmi, p. 16.
18. F. Kraelitz, "Bericht . . . ," pp. 26ff.
19. Resmi, *Sefaretname-i Ahmet Resmi Prusya Kiralı Büyük Fredrik nezdine sefaretle giden Giridi Ahmet Resmi Efindi'nin takriridir* (Istanbul, 1303 A.H.), p. 18.
20. Miknāsī, *al-Iksīr fi fikāk al-asīr,* ed. M. al-Fāsī (Rabat, 1965), *passim.*
21. Cevdet, 6:394ff.
22. Turkish text in E. Z. Karal, *Fransa-Mısır ve Osmanlı Imparatorlugu (1797–1802),* (Istanbul, 1938), p. 108; Arabic in Shihāb, *Ta'rīkh Aḥmad Bāshā al-Jazzār,* ed. A. Chibli and J. A. Khalife (Beirut, 1955), p. 125.

الفصل السابع

1. B. Lewis, *Islam: from the Prophet Muḥammad to the Capture of Constantinople* (New York, 1974), 2:154, citing Jāḥiẓ (attrib.), *Al-Tabaṣṣur bi'l-tijāra,* ed. H. H. 'Abd al-Wahhāb (Cairo, 1354/1935).
2. Qazvīnī, p. 388; cf. Jacob, pp. 25–26; cf. Miquel, pp. 1058–59.
3. Ibn Sa'īd, p. 134.
4. Rashīd al-Dīn, *Histoire,* pp. 4–5/17–18; *Frankengeschichte,* pp. 48–49.
5. Ibn Ḥawqal, *Kitāb Ṣūrat al-arḍ,* ed. J. H. Kraemer (Leiden, 1938), p. 110; cf. French translation, J. H. Kramers and G. Wiet, *Configuration de la terre* (Beirut and Paris, 1964), p. 109; cf. C. Verlinden, *L'Esclavage*

dans l'Europe médiévale, I, *Péninsule Ibérique—France* (Bruges, 1955), p. 217; on the Ṣaqāliba, see R. Dozy, *Histoire des Musulmans d'Espagne,* 2nd ed., revised by E. Lévi-Provençal (Leiden, 1932), 2:154, citing Liudprand, *Antapodosis,* bk. 6, chap. 6.

6. On the Slavs under the Fatimids, see I. Hrbek, "Die Slawen im Dienste der Fatimiden," *Archiv Orientalni* 21 (1953):543–81.
7. W. Heyd, *Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age,* trans. F. Raynaud (Amsterdam, 1967) 1:95; I. Hrbek, "Die Slaven . . . ," p. 548.
8. On the Tatars and their activities, see A. Fisher, *The Crimean Tatars* (Stanford, 1978); *idem,* "Muscovy and the Black Sea Slave Trade," *Canadian American Slavic Studies* 6 (1972):575–94; and *idem, The Russian Annexation of the Crimea 1772–1783* (Cambridge, 1970).
9. E. J. W. Gibb, *A History of Ottoman Poetry,* Vol. 3 (London, 1904), p. 217.
10. On these works, see H. Müller, *Die Kunst des Sklavenkaufs* (Freiburg, 1980).
11. On these and other stories, see A. D. Alderson, *The Structure of the Ottoman Dynasty* (Oxford, 1956), pp. 85ff; Çağatay Uluçay, *Harem* II (Ankara, 1971); *idem, Padişahların Kadınları ve Kızları* (Ankara, 1980); E. Rossi, "La Sultana Nūr Bānū (Cecilia Venier-Baffo) moglie di Selim II (1566–1574) e madre di Murad III (1574–1595)" *Oriente Moderno* 33 (1953): 433–41; S. A. Skilliter, "Three Letters from the Ottoman 'Sultana' Ṣāfiye to Queen Elizabeth I" in *Documents from Islamic Chanceries,* ed. S. M. Stern (Oxford, 1965), pp. 119–57.
12. Ibn al-Ṭuwayr, cited by al-Maqrīzī, *al-Mawāʿiẓ wa'l-iʿtibār bi-dhikr al-khiṭaṭ wa'l-āthār* (Būlāq, 1270/1853) 1:444.
13. J. Richard, "An account of the Battle of Hattin," *Speculum,* 27 (1952): 168–77.
14. *Bulla in Cena Domini,* Clement VII *anno* 1527, Urban VIII *anno* 1627. Cited in K. Pfaff, "Beiträge zur Geschichte der Abendmahlsbulle vom 16. bis 18. Jahrhundert," *Römische Quartalschrift für christliche Altertumskunde* 38 (1930):38–39.
15. *CSP* Spanish (1568–79) London 1894 (n. 609), p. 706, Spanish ambassador in London to Phillip II (28 Nov. 1579); *CSP* Venetian (1603–07), p. 326; letter dated 28 Feb. 1605 o.s. from Venetian consul in Melos to Bailo in Istanbul. I owe the references in this and the preceding note to the late V. J. Parry.
16. Qazvīnī, p. 362; cf. Jacob, p. 32.
17. Ibn Saʿīd, p. 134.
18. Rashīd al-Dīn, *Histoire,* pp. 4–5/18; *Frankengeschichte,* p. 49.
19. N. Beldiceanu, *Les actes des premiers Sultans* vol. 1 (Paris, 1960), p. 127.
20. Peçevi, 1:365; translated in B. Lewis, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire* (Norman, 1963), pp. 133–35.

21. Ghassānī, pp. 44–45; cf. Sauvaire, pp. 97–99.
22. Vasif, in Cevdet, 4:357; cf. Barbier de Meynard, pp. 520–21.
23. Mehmed Said, p. 109; cf. French transl., p. 163.
24. Resmi, *Sefaretname-i . . . Prusya . . .* , pp. 27–28, 33, and 36.
25. Azmi, *passim*.
26. Hashmet, *Intisāb al-mulūk*, appended to *Divān* (Būlāq, 1842), pp. 8–9.
27. *Masīr-i Ṭālibī yā Safarnāma-i Mīrzā Abū Ṭālib Khān*, ed. H. Khadīv-Jam (Tehran, 1974), p. 201ff; cf. English transl., C. Stewart, *Travels of Mirza Abu Taleb Khan . . .* , (London, 1814), vol. 2, chap. 13:1ff.
28. Karal, *Halet*, pp. 32–33.

الفصل الثامن

1. Cited in *EI2.* , s.v. "Ḳaysar" (R. Paret and I. Shahid).
2. Ṭabarī, *Ta'rīkh al-rusul wa 'l-mulūk*, ed. M. J. De Goeje (Leiden, 1879–1901), 3:695. Hārūn may have been insulted because Nikephoras had previously addressed him as "King of the Arabs"—a demeaning title in Muslim terms.
3. Ghassānī, p. 41; cf. Sauvaire, pp. 90–91.
4. S. M. Stern, "An Embassy of the Byzantine Emperor to the Fatimid Caliph al-Muʿizz", *Byzantion* 20 (1950):239–58.
5. Many examples are preserved in the Public Records Office in London. For further references, see *EI2.* , s.v. "Diplomatic."
6. F. Kraelitz, "Bericht . . . ," pp. 24–25. Kraelitz's German translation of this expression is based on a misunderstanding of the Turkish text.
7. Public Record Office SP 102/61/14.
8. Ghassānī, pp. 80ff.; cf. Sauvaire, pp. 181ff.
9. Mehmed Said, p. 65; cf. French transl. p. 97.
10. Azmī, pp. 46ff and *passim*.
11. Abū 'l-Faraj al-Iṣfahānī, *Kitāb al-Aghānī* (Bulāq, 1285) 17:14; English translation in B. Lewis, *Islam*, 1:27.
12. Qalqashandī, 8:53.
13. Rashīd al-Dīn, *Histoire*, pp. 2–3/15–16; *Frankengeschichte*, pp. 46–47.
14. ʿUmarī, (Amari) text pp. 96–97; translation, p. 80.
15. Qalqashandī, 8: 46–48.
16. Rashīd al-Dīn, *Histoire*, pp. 7–8/21; *Frankengeschichte*, pp. 51–52.
17. *Irṣād*. See above, chap. 3, n. 15.
18. *Icmāl-i ahval-i Avrupa*. See above, chap. 5, n. 59.
19. Mehmed Said, pp. 33–36.
20. Şem'danizade, 2: 22.

21. Karal, *Halet,* pp. 32–44, and 62. On Halet's audience with Napoleon, see B. Flemming "Ḥālet Efendis zweite Audienze bei Napoleon," *Rocznik Orientalistyczny* 37 (1976):129–36.
22. Asim, 1: 62, 76, 78, 175, 265, and 374–376.
23. Abu Ṭālib, *Masir,* p. 242; cf. Stewart, 2:55.
24. *Ibid.,* pp. 250–51; cf. Stewart, 2:81.
25. Qazvīnī, ed. Wüstenfeld, p. 410; cf. Jacob, pp. 21–22.
26. Usāma, pp. 138–39; cf. Hitti, pp. 167–68.
27. Jabartī, 3:117ff.
28. Abū Ṭālib, *Masīr,* pp. 278–79; cf. Stewart, pp. 101–4.
29. Rifā'a, pp. 120 and 148.

الفصل التاسع

1. B. Goldstein, "The Survival of Arabic Astronomy in Hebrew," *Journal for the History of Arab Science* 3 (Spring, 1979): 31–45.
2. Usāma, pp. 132–33; cf. Hitti, p. 162.
3. U. Heyd, "The Ottoman *'Ulema'* and Westernization in the Time of Selim III and Mahmud II," *Scripta Hierosolymitana,* Vol. IX: *Studies in Islamic History and Civilization,* ed. U. Heyd (Jerusalem, 1961), pp. 74–77.
4. Qur'ān, 9.36.
5. On mining in the Ottoman Empire, see R. Anhegger, *Beitraege zur Geschichte des Bergbaus im Osmanischen Reich* (Istanbul, 1943).
6. On these matters I have profited from a paper by Dr. Rhoads Murphey, "The Ottomans and Technology," presented to the Second International Congress on the Social and Economic History of Turkey, Strasbourg, 1980. The Ottoman use of firearms was extensively discussed by V. J. Parry in *EI2.*, s.v. "Bārūd" and in "Materials of War in the Ottoman Empire," *Studies in the Economic History of the Middle East,* ed. M. A. Cook (London, 1970), pp. 219–29.
7. U. Heyd, "Moses Hamon, Chief Jewish Physician to Sultan Suleyman the Magnificent," *Oriens* 16 (1963): 153, citing Nicholas de Nicolay, bk. 3, chap. 12.
8. *Ibid.,* Nicholas de Nicolay, *loc. cit.,* "bien sçavants en la Theórique et experimentez en pratique."
9. U. Heyd, "An Unknown Turkish Treatise by a Jewish Physician under Suleyman the Magnificent," *Eretz-Israel* 7 (1963): 48–53.
10. U. Heyd, "Moses Hamon . . . ," pp. 168–69.
11. Adnan-Adivar, *Science,* pp. 97–98; *Ilim,* pp. 112–13.
12. *Idem, Science,* pp. 128–29; *Ilim,* pp. 141–43.

13. Mehmed Said, pp. 26ff and 122; cf. French transl. pp. 36–40, 186–90.
14. *Tarih-i 'Izzi* (Istanbul, 1199 A.H.), pp. 190a–190b.
15. Busbecq, pp. 213–14; cf. E. G. Forster, p. 135; cf. Forster and Daniell, 1:125.
16. O. Kurz, *European Clocks and Watches in the Near East* (London, 1975), pp. 70–71, citing Rousseau, *Confessions*, English transl. (1891), p. 3; Voltaire, *Correspondence*, ed. T. Bestermann, vol. 78 (Geneva 1962), p. 127; and S. Tekeli, *16'ıncı Asırda Osmanlılarda saat ve Takiyuddin'in "Mekanik saat konstruksuyonouna dair en parlak yıldızlar" adlı eseri* (Ankara, 1966).
17. Jāmī, *Salāmān va-Absāl* (Tehran, 1306s), p. 36; English translation by A. J. Arberry, *Fitzgerald's Salaman and Absal* (Cambridge, 1956), p. 146; cit. Lynn White Jr., *Medicine, Religion and Technology* (Berkeley and Los Angeles, 1978), p. 88.
18. Janikli Ali Pasha's memorandum survives in a ms. in the Upsala University Library.
19. Adnan-Adivar, *Science*, pp. 142ff; *Ilim*, pp. 161–63.
20. Baron F. de Tott, *Memoires*, (Maestricht, 1785) 3:149.
21. G. Toderini, *Letteratura turchesca*, (Venice, 1787) 1:177ff.
22. Aubert du Bayet (later Dubayet) was born in New Orleans and had fought in the American Revolution under Lafayette. He had been active in the French Revolution from the start and sat in the French legislative assembly as deputy for Grenoble.
23. B. Lewis, *Emergence*, pp. 85ff.

الفصل العاشر

1. S.K. Yetkin, *L'Architecture Turque en Turquie* (Paris, 1962), pp. 133ff.
2. Mehmed Said, p. 199; cf. Kreutel and Spies (Bonn, 1954), p. 71, where the same saying is quoted.
3. A. Refik, *Hicri on ikinci asırda Istanbul hayatı (1100–1200)* (Istanbul, 1930), p. 58; Adnan-Adivar, *Science*, pp. 125–26; *idem*, *Ilim*, p. 133; Berkes, *Secularism*, p. 27.
4. Karal, *Tanzimat*, p. 19; Berkes, *Secularism*, p. 33.
5. Mehmed Said, p. 91; cf. French transl., p. 137.
6. *Ibid.*, pp. 139–40; cf. French transl., p. 214.
7. *Ibid.*, p. 78; cf. French transl., p. 118.
8. *Ibid.*, p. 109; cf. French transl., p. 163. Behzad was a famous Persian painter; Mani, the founder of the Manichean religion, is famed in Muslim legend as a great artist.

9. F. Babinger, "Vier Bauvorschläge Lionardo da Vinci's an Sultan Bajezid II. (102/3)," *Nachrichten der Akad. der Wiss. in Göttingen, I. Phil.-Hist. Klasse,* no. 1 (1952): 1–20; *idem,* "Zwei Bildnisse Mehmed II von Gentile Bellini," *Zeitschrift für Kulturaustausch* 12 (1962):178–82; J. von Karabacek, *Abendländische Künstler zu Konstantinopel im XV und XVI Jahrhundert:* I, *Italienische Künstler am Hofe Muhammads II des Eroberers 1451–1481* (Vienna, 1918).
10. N. Atasoy, "Nakkaş Osman'ın padişah portreleri albümü," *Türkiyemiz* 6 (1972):2–14 where color prints of the twelve sultans, from Osman to Murad III, are given.
11. See A. Boppe, *Les peintres du Bosphore* (Paris, 1911); and R. van Luttervelt, *De "Turkse" Schilderijen van J.B. Vanmour en zijn School* (Istanbul, 1958).
12. On Turkish painting and decoration, see G. M Meredith-Owens, *Turkish Miniatures* (London, 1963), p. 16; N. Atasoy and F. Çağman, *Turkish Miniature Painting* (Istanbul, 1974); G. Renda, *Batılılaşma döneminde Turk resim sanatı* (Ankara, 1977).
13. A. Destrée, "L'ouverture de la Perse à l'influence européenne sous les Rois Safavides et les incidences de cette influence sur l'évolution de l'art de la miniature," *Correspondence d'Orient* 13–14 (1968), 91–104.
14. Cited in W. Blunt, *Isfahan Pearl of Persia* (London and Toronto, 1966), p. 100.
15. Cited in A. Destrée, "L'ouverture . . . ," p. 97.
16. I. Stchoukine, *Les peintures des manuscrits de Shah 'Abbas Ier* (Paris, 1964).
17. B. Gray, "A Fatimid Drawing," *British Museum Quarterly* 12 (1938): 91–96.
18. See facsimiles in Jahn(ed.), Rashīd al-Dīn, *Frankengeschichte.*
19. On Levni, see S. Ünver, *Levni* (Istanbul, 1957).
20. The date in the colophon (1190/1776) is certainly wrong, as the Frenchwoman is depicted wearing a Phrygian cap with tricolor. A similar but rather better ms. in the İstanbul University Library is dated 1206/1793. See Norah M. Titley, *Miniatures from Turkish Manuscripts* (London, 1981), n. 23. See further, G. Renda, *Batılılaşma . . . ,* pp. 220ff; E. Binney, *Turkish Miniature Paintings and Manuscripts* (New York, 1973) p. 102.
21. G. Renda, *Batılılaşma, passim.*
22. Qazvīnī, p. 404; cf. Jacob, p. 29; cf. Miquel, p. 1062.
23. Evliya, 7:312; cf. Kreutel, p. 185.
24. Mehmed Said, pp. 83ff; cf. French transl. pp. 127–31.
25. Ghassānī, p. 97ff.; cf. Sauvaire, p. 277ff; cf. Miknāsī, pp. 624–25.
26. Vasif, in Cevdet, 4:355; cf. Barbier de Meynard, p. 518.
27. E. de Leone, *L'Impero Ottomano nel primo periodo delle riforme (Tanzimat)*

secondo fonti italiani (Milan, 1967), pp. 58–59, citing Cesare Vimercati, *Constantinople e l'Egitto* (Prato, 1849), p. 65.
28. A. Slade, *Records of Travel in Turkey, Greece . . .* (London, 1832) 1: 135–36. On the harem orchestra, see Princess Musbah Haidar, *Arabesque,* revised ed., (London, 1968), p. 61.
29. Ghassānī, p. 62; cf. Sauvaire p. 141.
30. Ghazāl, p. 20; cf. Miknāsī, pp. 107–9 and 139.
31. Hatti in *Tarih-i Izzi,* pp. 190ff.
32. On the theatre, see A. Bombaci, "Rappresentazioni drammatiche di Anatolia," *Oriens* 16 (1963): 171–93; *idem,* "Ortaoyunu," *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes* 56 (1960):285–97; M. And, *A History of Theatre and Popular Entertainment in Turkey* (Ankara, 1963–64); *idem, Karagöz, Turkish Shadow Theatre* (Ankara, 1975).
33. Vasif, in Cevdet, 4:355; cf. Barbier de Meynard, p. 518.
34. Miknāsī, pp. 52 and 70.
35. Evliya, 7:267; cf. Kreutel, p. 108.
36. Bibliotheque National, Arabe no. 6243. See Blochet, Catalogue, p. 219.

الفصل الحادى عشر

1. Sir William Jones, "A Prefatory Discussion to an Essay on the History of the Turks," in *The Works of Sir William Jones,* vol. 2 (London, 1807), pp. 456–57.
2. Ibn Rusteh, pp. 129–30.
3. Qazvīnī, pp. 334–35; cf. Jacob, p. 32; cf. Miquel, p. 1053.
4. Abū Ṭālib, *Masīr,* p. 74; cf. Stewart, pp. 135–37.
5. Evliya, 7: 318–19; cf. Kreutel, pp. 194–95.
6. Rifā'a, pp. 119–20.
7. Abū Ṭālib, *Masīr,* p. 268; cf. Stewart, pp. 135–37.
8. Vasif, pp. 349, 351; cf. Barbier de Meynard, pp. 508, 512.
9. *Sharḥ-i ma'mūriyat-i Ājūdān bāshī . . . ,* p. 385; Bausani, "Un manoscritto persiano . . . ," pp. 502–3.
10. On al-Ghazāl, see above, chap. 4, note 9.
11. Qazvīnī, pp. 404 and 408; cf. Jacob, pp. 29, 30–31; cf. Miquel, p. 1062. Also cf. Jacob p. 14 and Kunik-Rosen, p. 37.
12. Usāma, pp. 135–36; cf. Hitti, pp. 164–65.
13. Ibn Jubayr, pp. 305–6; cf. Broadhurst, pp. 320–21.
14. Evliya, 7:318–19; cf. Kreutel, pp. 194–95.
15. Ghazāl, pp. 12 and 23.
16. Mehmed Said, p. 25; cf. French transl., pp. 34–35.

17. Abū Ṭālib, *Masīr,* pp. 225–26; cf. Stewart, 2:27–31.
18. *Ibid.,* pp. 315–16; cf. Stewart, 2:254–55.
19. *Ibid.,* p. 305; cf. Stewart, 2:255.
20. On Fazil see E. J. W. Gibb, *Ottoman Poetry,* 4:220ff. On illustrated mss. of his poem, see above Chapter X, n. 20.
21. Karal, *Halet,* pp. 33–34.
22. Rifā'a, pp. 123ff.
23. Ājūdānbāshī, p. 281; Bausani, "Un manoscritto persiano . . . ," pp. 496–97.
24. Mehmed Said, p. 112; cf. French transl. p. 169.
25. The original Persian text was edited and published by his son and another person in Calcutta in 1812. An Urdu version appeared in Muradabad in India in 1904. A scholarly edition of the text—the first in Iran—was published in Tehran a few years ago. In contrast, an English version published in London in 1810 enjoyed considerable success. It was republished in a second edition, with some additional matter, in 1812. A French translation from the English appeared in Paris in 1811 and another in 1819. A German translation from the French was published in Vienna in 1813. The English version is, to put it charitably, remarkably free and is probably the result of some form of oral translation through an intermediary.

الفصل الثاني عشر

1. S. Moreh, ed. and trans., *Al-Jabartī's Chronicle of the First Seven Months of the French Occupation of Egypt,* (Leiden, 1975), p. 117.
2. Jabartī, *'Ajā'ib,* 3:34–35.
3. *Dictionnaire francais-arabe d'Ellious Bochtor Egyptien . . . revu et augmenté par Caussin de Perceval* (Paris, 1828–29).
4. Mehmed Said, p. 43.
5. Azmi, pp. 30–31.
6. See above ch. XI note 8.
7. Ghassānī, p. 67; cf. Sauvaire, p. 150.
8. On this and other publications, see L. Lagarde, "Note sur les journaux français de Constantinople à l'époque révolutionnaire," *Journal Asiatique* 236 (1948):271–76; R. Clogg, "A Further Note on the French Newspapers of Istanbul during the Revolutionary Period," *Belleten* 39 (1975):483–90; and *EI*2. , s.v. "Djarīda."
9. Lûtfi, *Tarih* 3:100; cf. A. Emin, *The Development of Modern Turkey as Measured by its Press* (New York, 1914), p. 28.
10. Rifā'a, p. 50.

11. On the first translation movement in Egypt, see Jamal al-Dīn al-Shayyāl, *Tarīkh al-tarjama wa 'l-ḥaraka al-thaqāfiyya fī ʿaṣr Muḥammad ʿAlī* (Cairo, 1951), and J. Heyworth-Dunne, "Printing and Translation under Muḥammad ʿAlī", *JRAS* (1940), pp. 325–49.
12. Details in the amplified Russian translation of Storey, *Persian Literature* by Y.E. Bregel, *Persidskaya Literatura* (Moscow, 1972), pt. 2, p. 1298, where other Persian works on American and European history are listed.

رقم الإيداع
١٩٩٦ / ٥٥٧٦



عربية للطباعة والنشر

١٠٠٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨